القرن الخامس عشر الهجري

التحديات في وجه الدعوة الإسلامية والعالم الاسلامي

أنور الجندي

المكتبة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

القرن الخامس عشر الهجري

التحديات في وجه الدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي

أنور الجندي

المكتبة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون: ٢٣٧٥٤٥ - ص.ب: ٨٣٥٥

القرن الخامس عشر الهجري

التحديات في وجه الدعوة الإسلامية
والعالم الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل الى البحث

أ ـ أهل القرن الخامس عشر الهجري : هلال خير وبركة على سكان هذا الكوكب كله ، وشهدنا فجره فحق علينا أن نتوجه بالحمد والثناء إلى الحق تبارك وتعالى الذي أكرمنا بمشهده وجعلنا من العاملين على مشارفه والمدافعين بالقلم الذي أقسم به جل شأنه في سبيل إعلاء كلمة الله ولعل أبرز ما تحمله هذه البشرى في طياتها هي أن القرن الخامس عشر هو قرن « النهضة » بعد أن كان القرن الرابع عشر قرن « اليقظة » .

ولا ريب أن (الدعوة الإسلامية) ستنطلق في طريقها بالرغم من كل العثرات ومحاولات الاستقطاب والحواجز والسدود والقيود التي ما تزال تضعها في طريقها القوى الثلاث : النفوذ الأجنبي والشيوعية والصهيونية وقد بلغ المسلمون الآن ألف مليون (بمعدل ربع سكان هذا الكوكب وسيتضاعف عددهم خلال هذا القرن (وقد أعطاهم الحق تبارك وتعالى) :

(**أولا**) : الموقع الاستراتيجي الهام .

حيث يشكلون « القارة الوسطى » بين قارات العالم ويسيطرون على طرق المواصلات العالمية (برا وبحرا وجوا) .

(**ثانيا**) : الثروة والطاقة : حيث يملكون أهم ثروات البشرية : البترول والمنجنيز وعشرات المعادن .

(ثالثا) : التفوق البشري حيث يولد لهم تسعون في المائة من مواليد العالم وكل هذا يذكرهم بالمسئولية الخطيرة والدور الهام الذي امتحنهم الله به مسئولية وتبعة وهي إقامة حكم الله العادل وبناء مجتمعه الرباني في هذه الأرض وإذاعة كلمة (لا إله إلا الله) في العالم كله ، وحيث جاءت أزمة القوى الثلاث الكبرى (النفوذ الأجنبي والشيوعية والصهيونية) واحتلال بيت المقدس أعطاهم الثروات الضخمة مصدرا للدفاع ، وحجة عليهم إذا نكصوا أو قصروا .

ب ـ وقد نزل الستار على ساحة القرن الرابع عشر والعالم الإسلامي يتحرك في قوة وحيوية وفي مواجهة التحديات نحو تحقيق رسالة الحق والخير والرحمة : رسالة الانسانية :

(أولا) : انتصار دعوة قادة باكستان الإسلامية في العودة إلى الشريعة وإعلان تطبيقها .

(ثانيا) : انتصار العدل على الظلم وسقوط الدكتاتورية والاستبداد والنفوذ الشيوعي الماركسي : باكستان وإيران وأندونيسيا ومصر .

(ثالثا) : انتصار الإسلام في معارك الجهاد المقدس الذي تجدد مرة أخرى على النحو الذي عرفه السلف الصالح والذي عرفه نورالدين وصلاح الدين إبان الحملات الصليبية :

الجزائر ، أفغانستان ، العاشر في رمضان .

(رابعا) : الاقتراب السريع من تطبيق الشريعة الإسلامية ومطالبة الأمة في عديد من البلاد العربية والإسلامية ، وسقوط الاقطاع والاستعمار .

جـ ـ أمكن خلال القرن الرابع عشر تصحيح عشرات من المفاهيم والوقائع التاريخية التي كان الزيف قد أحاط بها ، ومنها :

(١) تصحيح موقف الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد .

(٢) الكشف عن فساد دعوات الاقليميات والقوميات الضيقة وهي محاولات استهدفت ضرب الوحدة الإسلامية .

(٣) الكشف عن فساد مفاهيم الديمقراطية الغربية والشيوعية والإشتراكية

وضرورة استخلاص نظام سياسي من صميم الإسلام .

(٤) تحليل أخطار المفاهيم التلمودية المسيطرة على عديد من مناهج التعليم والتربية والثقافة .

(٥) الكشف عن أخطار القانون الوضعي وفساد تجربته في البلاد العربية والإسلامية .

(٦) الكشف عن فساد المادية ، الوجودية ، العلمانية .

(٧) الكشف عن إفلاس الحضارة الغربية وفسادها ، وما أحدث ذلك في النفس البشرية من هزائم الغربة والقلق والتمزق .

(٨) تصحيح فساد ما حاول الإستشراق إحياءه من التراث الزائف حول ابن عربي وأبي نواس والحلاج وبشار وابن المقفع وإخوان الصفا والفلسفات الهلينية والفكر الباطني والوثني والمجوسي .

(٩) الكشف عن فساد مناهج التعليم في مجالات العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق وفساد النظريات التي تدرس وكأنها حقائق بينما هي ما زالت فروضاً أقرب إلى الخطأ منها إلى الصحة ، والمقدمة من سارتر وفرويد وداروين ودوركايم وماركس .

د ـ أمكن تحقيق بعض الانتصارات :

(أولا) : الاعتراف بعظمة الحضارة الإسلامية ودورها الضخم في بناء الطابق الأول الأساسي من بناء الحضارة المعاصرة ودورها الخطير الذي قامت به في مجال الطبيعة والفلك والرياضيات .

(ثانيا) : ما أفاد الغرب من التقنين الإسلامي والفقه الإسلامي في إنشاء القوانين التي تتصل بالحريات وحرمة المساكن وحقوق الناس وتحرير الإنسان من ظلم الإنسان .

(ثالثا) : الاعتراف بالحصيلة الضخمة التي قدمها (القرآن والسنة) في مجال العلوم الاجتماعية والسياسة والاقتصاد :

- سنن الله في الكون (وصولا إلى القمر) .
- قوانين قيام الحضارات والأمم وسقوطها .

- التكامل الجامع بين الروح والمادة ، والدين والدولة ، وعالم الشهادة وعالم الغيب والدنيا والآخرة .

- التكافل الاجتماعي بين الغني والفقير والعدل والرحمة والسماحة وأخلاقيات المجتمع .

- إقرار مبدأ الجزاء الأخروي والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

هـ - بروز ظاهرة الإعتراف بالإسلام والفهم له .

وقد تكشف ذلك من خلال دعوة الكهنوت إلى الدخول في حوار مع العالم الإسلامي على أساسين صريحين (على حد تعبير الدكتور الدواليبي) .

(**أولا**) : اعتراف الكنيسة بأنها هي التي ظلمت الإسلام في إعلان الحروب الصليبية وفي محاكم التفتيش في أسبانيا وأخيراً في وقوفها وراء الاستعمار الحديث .

(**ثانيا**) : الدعوة إلى تغيير عقلية المسيحيين بالنسبة للإسلام على أن يقدم الإسلام للمسيحيين على أنه دين مشحون بأعظم ما عرفته الإنسانية من مبادىء سامية .

وفي هذا المجال نجد ظواهر خطيرة منها :

(**أولا**) : كتاب الدكتور ميشيل هارت اسمه (المائة) قدم فيه مائة شخصية أثرت في تاريخ الإنسانية وقدم هؤلاء جميعاً بدراسة عن رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ ، والمؤلف عالم في الرياضة والطبيعة والفلك ، اختار رسول الله على جميع عظماء التاريخ باعتباره أعظم المؤثرين في التاريخ الإنساني « إن اختياري لمحمد ليكون الأول بين ذوي النفوذ في العالم قد يكون موضع دهشة القراء ، ولكنه هو الوحيد في التاريخ الذي كان امتيازه متكافئاً على المستوى الديني والدنيوي .

(**ثانيا**) : كتاب الدكتور موريس بوكاي (الكتاب المقدس والقرآن والعلم) حيث يكشف عالم طبيب غربي كاثوليكي فساد منهج التوراة ويشير إلى بشريتها وأنها ليست منزلة بينما يثبت بألف دليل (ربانية) القرآن الكريم وكيف أن

روايه التوراة مجافية لأوليات العقل ومعارضة لحقائق العلم وكيف أن رواية القرآن عن نشأة الخلق متسقة تماماً مع حقائق العلم الحديث .

فإذا أضفنا إلى هذا كتابات كثيرة نشرت من قبل العلماء المنصفين تأكدنا أن هناك ظاهرة حقيقية هي وجود « تيار عالمي يمثل غزوة جديدة للإسلام إلى الفكر البشري والعالم الإنساني » .

ومع تحفظنا إزاء دعوة الحوار التي دعت إليها الكنيسة وخلفياتها التي تهدف إلى تصوير الإسلام بأنه غير مختلف عن المسيحية ، ومحاولة الحصول على كلمات من علماء المسلمين ترمي إلى إضعاف طابع الإسلام المفرد وطبيعته الربانية المتميزة عن الأديان التي دخل إليها الانحراف والتفسير البشري .

هذا كما أنه يجب التذكير بالحرب الصليبية التي ما يزال يشنها مجلس الكنائس العالمي (من بروتستانت وأرثوذكس) ضد الإسلام معتمدا على الأموال الصهيونية بمئات الملايين من الدولارات التي ينفقها في سبيل القضاء على الإسلام لدى الفقراء والمرضى والجهلة حيث لا يقدم لهم معونة إلا بشرط التنصير .

و - وضحت ظاهرة عالمية أخرى هي الدعوة إلى وضع نظام اقتصادي جديد للمجتمع البشري بعد أن تبين فساد النظامين الرأسمالي والماركسي ، وقد جاء في التوصيات التي قدمت في هذا الشأن أن الإسلام هو وحده الذي يستطيع أن يقدم أمثل منهج اقتصادي واجتماعي للبشرية بدعوته إلى وحدة الأسرة البشرية ووحدة مصالحها من غير تمييز في الحق وفي الحياة وفي الكرامة وفي إقامة العدل بينها .

ز - وضحت ظاهرة عالمية أخرى هي أن العالم قد اكتشف أنه لا سبيل إلى تحرره من ربقة الأخطار المحدقة به إلا بالإسلام وهذه هي الحقيقة التي أشار إليها عديد من الباحثين المنصفين بعد أن شهدوا مدى التردي الذي وصلت إليه الحضارة الغربية والمجتمعات الغربية .

حـ - انكشاف فساد خطة الاستشراق في محاولته لإثارة الشبهات حول الإسلام والقرآن وسيرة النبي والسنة والتاريخ الإسلامي والشريعة الإسلامية واللغة العربية .

وقد حفلت الدراسات التي قدمها رجال الفكر الإسلامي في السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر بالكشف عن زيوف وسموم ما قدمه الاستشراق .

ولقد هزم الاستشراق في أكثر من مؤتمر ، وتراجع أساطينه أمام الحقائق التي كشفها علماء الإسلام ، حتى أنهم فكروا أخيرا في الهروب من السمعة السيئة التي ألحقت بمؤسستهم الخطيرة فأعلنوا (نهاية الاستشراق) ومؤتمراته ، التي كانت قد بدأت عام ١٩٠٦ واشترك فيها الشيخ عبدالعزيز جاويش وواجه أخطر حملة وجهت إلى القرآن واللغة العربية ثم توالت المؤتمرات واستطاعت أن تستقطب أسماء جديدة صنعها المستشرقون والتبشير أمثال طه حسين وأمين الخولي وعلي عبد الرازق وعديد من مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

ط - بروز قوة الفكر الإسلامي من خلال ظاهرة المفكرين المسلمين القرآنيين الذين يحملون لواء مفهوم الإسلام القرآني : ديناً ودولة ونظام مجتمع ومنهج حياة على طول العالم الإسلامي وعرضه ، بديلا للمفكرين الإسلاميين الذين كانوا يعتمدون مفهوم الفلسفة وأسلوب المنطق الوافد وطريقة المستشرقين والذين كانوا يصدرون عن ما يسمونه علم الكلام الجديد وكانوا يسمون أنفسهم « المعتزلة الجدد » فقد غلب طابع الأصالة على حركة اليقظة الإسلامية في هذه المرحلة فأصبحت قيادة الفكر الإسلامي بأيدي باحثين قرآنيين وسقطت القيادة من أيدي أولئك الذين كانوا يمثلون في الفترة الماضية ذلك الجيل من الأدباء الذي شكله الاستشراق في جامعات الغرب ، وحاول السيطرة على الدراسات الإسلامية وإدارتها في إطار منهج الغرب الوافد ، وحاول السيطرة على الدراسات الإسلامية من خلال الأدب والصحافة وإبراز القرامطة على أنهم دعاة عدل ، وإنكار عبدالله بن سبأ لحساب اليهودية العالمية ، بل وإنكار أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

هذا الجيل الذي أفسد مفاهيم الأصالة وحطم القيم الأخلاقية وفتح باب الأدب المكشوف والقصة الجنسية وإبراز سموم الأغاني واعتباره مصدرا والذي أنكر العلاقة العضوية بين الأدب العربي والفكر الإسلامي ككل بل عمد إلى تدمير أخلاقية الأدب وإخراجه من نطاقه الطبيعي ، وهي الخطة التي سار عليها طه حسين وهيكل وأحمد أمين وأمين الخولي ومن سموا أنفسهم « المجددون » الذين

كانوا يكرهون أخلاقية الأدب وينكرون ترابط عصوره ، والذين حاولوا خلق ما يسمى بالفكر الحديث والأدب الحديث منفصلين به عن الأدب العربي والفكر الإسلامي في عصوره السابقة . ومراحله المتصلة وهم الذين اعتنقوا مفاهيم الغرب في تحليل الأدب نقده وتاريخه وخضعوا لنظريات سانت بيف وبرنتير .

ظ ـ لقد أشرق القرن الخامس عشر الهجري على المسلمين وقد تنبهوا إلى ضرورة التحرر من أمرين خطيرين ، وقطعوا شوطا طويلا في سبيل هذا التحرر ، وقد كان ذلك موضع جهاد مفكري الأمة خلال القرن الرابع عشر هما :

(الأول) : التحرر من قيد التقليد وغلبة مفاهيم التراث الزائف كالباطنية والمجوسية والفرق وهو الذي عاود إحياءه الدكتور زكي نجيب محمود وآخرون وكذلك مفهوم جبرية الصوفية والتصوف الفلسفي وأخطاء الاعتزال .

(الثاني) : التحرر من التبعية للفكر الغربي الوافد الذي غزا آفاق الفكر الإسلامي خلال سنوات ما بعد الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي وخاصة الفكر الليبرالي الديمقراطي الرأسمالي الذي سقطت تجربته ، والفكر الماركسي الاشتراكي الشيوعي الذي انهزمت خططه وكذلك انكشفت أخطار الفكر التلمودي المسيطر على العلوم الاجتماعية والفلسفة المادية ونظريات فرويد ودور كايم وسارتر وماركيوز .

والمسلمون الآن على مشارف طريق الأصالة تحرراً من هذه التبعية ووصولا إلى عصر الرشد الفكري ، وانتقالا من اليقظة إلى النهضة .

س ـ أخطار يجب أن يتنبه لها المسلمون :

إن القوة الغربية والصهيونية والشيوعية تخشى بأس الإسلام وتهاب قوته فهم يسعون إلى حربه بكل ما وسعتهم الحرب :

(١) تزييف مفاهيمه وإفساد قيمه .
(٢) الحيلولة دون تطبيق أحكامه وتنفيذ شريعته .
(٣) محاربة الأقليات من أهله والعمل على تصفيتهم .
(٤) القضاء على وحدته السياسية والاجتماعية والفكرية .

(٥) تدمير المجتمعات وإفسادها بالسموم والأمراض والأوبئة التي تحملها الحضارة الغربية .

(٦) محاولة تنصير أبنائه وإفساد عقيدتهم بالنظريات المادية . والمذاهب العلمانية .

(٧) العمل على السيطرة على مقدراته وثرواته .

ش ـ أخطر الظواهر التي تواجه المسلمين اليوم : تلك الحملات المعادية للإسلام التي ترمي إلى إذكاء روح الخلاف بين الشعوب الإسلامية عن طريق إثارة النعرات العنصرية والمذهبية والترويج لمبادىء الالحاد والاباحية والتحلل من القيم والأخلاق ، ونشر الفساد بين الشباب عن طريق المسرح والسينما والتلفزيون ، وإضعاف العقيدة في نفوس المسلمين وإزالة أثرها من حياتهم المعيشية عن طريق نشر الأفكار والمذاهب المادية ، وتغذية الحركات المعادية للإسلام وتمكينها من مراكز السلطة ومقاومة الاتجاه الذي ظهر في المرحلة الأخيرة من القرن الرابع عشر لعودة المسلمين إلى الحكم بشريعة الإسلام وتحكيم القوانين والنظم الإسلامية في شئون حياتهم ونظام حكمهم .

ولذلك فهم قد عملوا على خطة : « ضرب الإسلام من الداخل » بتسليط القاديانية والبهائية والروتاري بديل الماسونية والفرق الضالة ودعاة الشعوبية والمجوسية والتلمودية وهم كثيرون وجاء جارودي فدعا الشيوعيين إلى الدخول في المنظمات الإسلامية وتدميرها من الداخل بالعمل في مجال التأويل والتحوير ، وظهرت كتابات الذين يدعون إلى ظاهر الشريعة الإسلامية مجاراة ويحاربونها بالقول بالعصر والبيئة والتطور .

والحق إنه مهما تكتلت هذه القوى فسوف تلحق بها الهزيمة ، لأنها على الباطل ، ومهما وجهت من السهام إلى الإسلام والمسلمين فإنهم سينتصرون لأنهم على الحق ما استمسكوا به .

ولقد كانت الحضارة الإسلامية : حضارة الرحمة والسماحة الإسلامية الجديدة على نفس المنهج والخطة والخط الذي عرفه صلاح الدين حين رفض أن ينتقم من الصليبيين بعد أن انتصر في حطين ودخل بيت المقدس ظافراً

ذ - على المسلمين أن ينتبهوا إلى خطة الشيوعية للقضاء على الإسلام :

أولاً : عن طريق الاستعمار البلشفي لما يزيد على مائة مليون مسلم .

ثانيا : عمل الشيوعية في أفريقيا وهو جزء من خطة تدمير الإسلام في أفريقيا وإعادة غزوها مرة أخرى .

ص - إن مخطط الغزو يركز اليوم على منطقة جنوب شرق آسيا ويركز بالذات على الجمهورية الأندونيسية - هذا العمل الذي يقوم به مجلس الكنائس العالمي ووضع موارده في سبيل خطة للتنصير ، وإقامة أكثر من سبعين مطاراً وآلافاً من المدارس والكنائس على أرض أندونيسيا مع جيش كبير من قادة الكهنوت .

ض - عودة القدس إلى المسلمين

على الفكر الإسلامي أن يكشف زيف دعاوى إسرائيل والصهيونية من حق تاريخي مزعوم . فإن فلسطين في أرض كنعان العربية منذ فجر التاريخ . وقبل ولادة اسرائيل نفسه . وإنهم استعمروا بالاغتصاب والدمار وتقتيل الرجال والنساء والأطفال وإلى أن أزالهم العرب البابليون وهدموا هيكلهم ، واستردوا الأراضي العربية المغتصبة ولكن اليهود عادوا بواسطة الفرس ثم لم يلبثوا حتى أزالهم الاسكندر بناء على طلب العرب ثم عادوا مع الرومانيين ، ولكن الرومانيين أنفسهم لم يلبثوا أن أخرجوهم وهدموا هيكلهم من جديد ، وبقي مهدما إلى اليوم . فاليهود كاذبون حين يدعون اليوم أنهم حرروا أرضهم التاريخية من أيدي العرب ولم يغتصبوها ، ولا ريب أن الحجة الحقيقية للعرب على اليهود كما يقول الدكتور الدواليبي الذي نقلنا عنه هذا النص ، نص عليها كتابهم المقدس :

ويقول : إن عودة القدس إلى المسلمين تتطلب حلاً إسلامياً ، وتتطلب إعلان الجهاد المقدس : هذا الجهاد الذي هو فريضة دائمة إلى يوم القيامة .

الباب الأول

الإسلام في عالمنا المعاصر

أولا : الإسلام في عالمنا المعاصر
ثانيا : تحديات القرن الرابع عشر
ثالثا : نظرة عامة إلى الأحداث
رابعا : شبهات مثارة

- ١ -

الإسلام في عالمنا المعاصر

يبلغ تعداد المسلمين في العالم اليوم وفق أحدث الإحصائيات التي أجرتها بعض دوائر الغرب ٧٧٠ مليونا موزعين على قارات العالم الخمس . أما الرقم فهو في تقدير كثير من الدارسين أقل من العدد الصحيح . نظراً لأن هناك جهات كثيرة في أفريقيا وآسيا لم يجر فيها إحصاء دقيق ، فضلاً عن أن بعض الجهات الأخرى الخاضعة للنفوذ الاستعماري قد حرصت على أن لا تعطي الأرقام الصحيحة حتى لا تفقد هذه الجهات الاستعمارية نفوذها في هذه المناطق .

ومن الحقائق الأساسية أن الإسلام حين بزغ فجره في الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرناً أصبحت كاملة عام ١٤٠٠ هجرية ، لم يلبث إلا قليلاً حتى تجاوز شبه الجزيرة ، وإنساح شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً من خلال حركة التوسع الإسلامي التي وصلت إلى قلب أوربا عام ٩٣ هجرية . حيث سيطروا على أسبانيا . وكانوا قبل ذلك في عام ٣٢ هجرية . قد استولوا على صقلية . وفي السنوات التالية على كريت ورودس وقبرص . ثم سيطروا على جزائر البليار . وامتد نفوذهم في فرنسا وإيطاليا والبلقان قبل أن ينتهي القرن الأول للهجرة بعامين . هذا في أوربا . أما في آسيا فكانوا قد وصلوا إلى حدود الصين في مثل هذا الوقت بعد أن سيطروا على ما وراء النهر .

(١)

غير أن الإسلام بعد أن حقق بجولته هذه إذاعة كلمة الله في أغلب آفاق

الأرض في القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأوربا . لم يلبث أن بدأ جولة أخرى هي : جولة الانتشار الذاتي « حيث حمل التجار والعلماء والفقهاء والصوفية دعوته إلى الآفاق فبلغوا بها قلب إفريقيا من ناحية وجنوب شرق آسيا من ناحية أخرى .

ولم يلبث بعد قرنين أن حقق انتصارا في العالم كله تضاعف به عدد معتنقيه مرات ومرات . ومنذ ذلك اليوم ثبت الإسلام في كل مكان ذهب إليه « وفي كل قلب وصل إليه . ولم يلبث أن واجه معركة المقاومة العنيفة التي تمثلت في الحروب الصليبية ، وحركة المغول في الشرق ، ومعارك الفرنجة في المغرب وأسبانيا . هذه المقاومة التي حاولت أن تنتقص من كيان الإسلام أو تستنزف قواه ، وقد خرج الإسلام من هذه الأزمة قويا . فقد اعتنق الغالب دين المغلوب ، واحتوى الإسلام تلك القوى المغولية المختلفة فأسلمت .

أما تلك القوى الغربية فإنها قد نزحت بعد أن حملت معها منجزات الإسلام وعلومه ، وحملت معها تقديرا واضحا لسماحة الإسلام في الصورة التي عرفها الصليبيون في صلاح الدين ، وإيمانا بأن هذه القوة التي تحتل « وسط » العالم ، وتسيطر على بواغيزه وخلجانه ومداخله ومعابره بين الشرق والغرب لن تنزاح .

وفي أبان أزمة الإسلام ومعاركه كسب الإسلام أرضا جديدة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وانضمت ملايين جديدة في أجزاء مختلفة إلى الإسلام ، وحين فقد الإسلام الأندلس استطاع بعد سنوات قليلة أن يسيطر على القسطنطينية ، وأن يدخل أوربا ، ويصل إلى أسوار ڤينا .

وقد عرفت أوربا الإسلام من خلال مداخله إلى الأندلس ففرنسا فجنوب إيطاليا حتى نهر اللوار . في القرن الأول ، ثم عرفته بعد ذلك حين حاصر أسوار ڤيينا مرة بعد مرة ، حين استقر في قلب أوربا إلى عام ١٩١٨ تقريباً في نهاية الحرب العالمية الأولى ، وقبل بضعة وخمسين عاما .

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر بدأت أوربا غزواً جديداً للعالم الإسلامي حيث سيطرت على أجزاء كبيرة من قارة إفريقيا ومن الخليج العربي ، ثم كان احتلال الجزائر ومصر وتونس والسودان ، ومن قبل احتلال الهند وأندونيسيا .

وحملت أوربا عبر البواغيز والمضايق ثروات ضخمة من عالم الإسلام إلى

الغرب لم تتوقف خلال هذين القرنين . وقد صحبها عسف واحتلال وقسوة وتسلط . تحت أسماء مختلفة . منها رسالة الرجل الأبيض وتمدين الملونين تحت أسماء الحماية والوصاية والانتداب . وقد قاوم عالم الإسلام بالأجساد المتراصة ، وكان إيمانه بذاته ورسالته وعقيدته العامل الأكبر الذي جعله يقدم الضحايا والشهداء . في سبيل مقاومة الاستعمار الغربي المتسلط بأنواعه المختلفة وألوانه المتعددة .

غير أنه قد نشأ من قلب الاحتلال الغربي نفوذ جديد حمل اسم الصهيونية ، وعمد إلى السيطرة على فلسطين قلب العالم الإسلامي ، وحين انحسر نفوذ الاحتلال الغربي بدأ كأنما قد تحول الاحتلال إلى نفوذ صهيوني طامع في إقامة دولة مغتصبة ترث نفوذ الاستعمار وتعمل له من ناحية ، وتحاول أن تزيف تاريخاً وميراثاً لا يخضع لحقائق التاريخ . ولا يتجاوب مع الفطرة البشرية ، ويتعارض مع سنن الكون وقوانين الحضارات .

وهكذا انتقل العالم الإسلامي من حلقة الاستعمار العسكري والسياسي إلى مرحلة جديدة هي : مرحلة الاحتواء الفكري ، والغزو الثقافي في محاولة لإدامة النفوذ تحت أسماء أخرى . ومن خلال عمل دائب على القضاء على الذاتية الإسلامية ، واحتوائها والسيطرة عليها وتذويبها في بوتقة العالمية والأممية

وفي نفس الوقت الذي تمتد فيه عملية المواجهة وحركة المقاومة إلى مختلف الأبعاد ، تبدو من خلال السحب خيوط الأضواء الجديدة التي تعلن فجر جديد .

فالعالم الإسلامي اليوم قد وعى ذاتيته ، واستكشف أصالته ، وعرف مصادر الخطر ، ومحاذير التحدي ، ولم يبق أمامه إلا أن يواجه ذلك في إرادة غالبة وقوة قادرة . عرف أن مختلف المناهج التي عرضت عليه لا تستطيع أن تعطيه ما يعطيه مورده العذب . ومصدره الصافي ، ومعينه النمير: وعرف أن النصر إنما يجيء من العقيدة والقوة معاً . وأن القوة المادية وحدها لا تحقق النصر . ولا بد أن تكون في حماية عقيدة صادقة الإيمان بالله والالتجاء إليه .

وهو اليوم على الطريق إلى هذا الضوء الكاشف الذي أعلنه العاشر من رمضان ، فسارت فيه الجموع إلى الغاية المرتجاة.

وينتقل العالم الإسلامي اليوم من ناحية أخرى نحو الكيف لاستيعاب الكم ، فقد دخلت في الإسلام في السنوات الخمسين الأخيرة ملايين كبيرة في أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا ، وهي الآن في طريقها إلى الفهم العميق للإسلام والتحرر الكامل من التقاليد والعادات التي كانت تفرضها الأوضاع القديمة ، فهي تلتمس مفهوم التوحيد الخالص ، وتستلهم مصادر الإسلام الأولى ، ومنابعه الأصيلة .

وينتقل العالم الإسلامي اليوم من تمزق الأقليات إلى وحدة الفكر ، والعقيدة ، والثقافة ، عبورا بتلك الدعوات المختلفة التي حاولت أن تحمله عائدة مرة أخرى إلى ما قبل الإسلام من عنصرية أو نحلة ، أو دعوة قديمة عفا عليها الزمن ، وجاء نور الإسلام ليبدد الظلام حولها ، ويكشف زيفها ، وتتعالى اليوم نداءات الوحدة الإسلامية ، والرابطة القرآنية ، وتنطلق الدعوة إلى الله إلى مختلف الآفاق . ومن حيث مركز عالم الإسلام ، فإنه يمثل أضخم المواقع الاستراتيجية العالمية سواء بالنسبة للبحر والبر والجو ، ومن حيث ثروة عالم الإسلام فإنه يمثل أضخم موقع في ثروات الأرض والبحر والجبال . وقد كشفت فيه طاقات مختلفة من النفط والمنجنيز والفوسفات والكوبولت ، وتشير الأبحاث والدراسات إلى أن جباله وصحاريه تحوي المزيد من الثروات .

ومن هنا تبدو أهمية موقع العالم الإسلامي ومعطياته بالنسبة للبشرية كلها ، وهي ما تزال موضع نظر الدول الكبرى وتقديرها ، وما يزال العالم الإسلامي يمثل قارة وسطى بين آسيا وأفريقيا وأوروبا لها شأنها في الحاضر وفي المستقبل . وهي من أجل تقدم اليوم على دخول عصر العلم والتصنيع والتكنولوجيا لتأخذ مكانها الحق تحت الشمس .

ولتكون قادرة على العطاء للعالم كله ، فهي التي تحمل أسمى رسالة ، وأعظم دعوة ، وأصدق عقيدة . وهي القادرة على أن تبلغ البشرية كلها ، وأن تقدم لها ذلك الترياق على علاج معضلاتها ومشاكلها .

وقد اعترف بهذا برناردشو ، وجب ، وتوينبي وكثيرون ، وكشفوا عن قدرة الإسلام في إعطاء البشرية - ليس الموارد والخامات والطاقة فحسب - ولكن إعطائها السلامة والأمن النفسي ، والحلول السمحة السهلة لمشاكل التفرقة العنصرية ،

والتفاوت الطبقي ، وهي القادرة على تجديد دعوة الإسلام إلى « الإخاء البشري » القائم على العدل والرحمة والسماحة استمداداً من وحدة البشرية أساساً . فلقد ذهبت البشرية خلال قرون طويلة ، مذاهبها . فلم تجد سبيلا لتحقيق أمنها وسكينتها ، لأنها جاوزت الفكرة الربانية إلى أسلوب انفكر البشري القاصر عن العطاء المغلف بالهوى والمطمع الذاتي .

تلك في الحق هي رسالة الإسلام في عالمنا المعاصر وأمانته ، وهي التي تحرك الأحداث وتغير الأوضاع لتفسح لها المجال ، مجال التبليغ للبشرية كلها دعوة إلى السلام والأمن والرجاء والرحمة .

ولا ريب أن لهذه الدعوة علامات ودلائل ، فما هي تلك العلامات ؟

(٢)

ما يزال القرآن الكريم للمسلمين ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو : مفتاح الخروج من الأزمات . فقد أعطاهم الله في هذا القرآن بيان النصر ، وأسلوب العمل ، وسنن الكون والحياة ، وقوانين قيام المجتمعات والأمم والحضارات ، وسقوطها ، وكشف عن أحداث التاريخ البشري كله في ضوء هذا القانون . بل إن هذا القانون ذاته قد طبق على المسلمين في ظل حياة الدعوة الأولى والنبي ﷺ بين أظهر المسلمين . حتى لا يظن المسلمون أنهم يتميزون عن البشرية بشيء ، وليثقوا أنهم خاضعون لهذا القانون خضوعا كاملا . وفي خلال معركتين : « أحد وحنين » صدقت سنن الله في المسلمين حين تخلفوا عن أسباب النصر ، فكانت الهزيمة في أحد ، وفي حنين هزم المسلمين حين تفرقوا . فلما عادوا إلى التجمع تحولت الهزيمة إلى نصر .

وإذا ذهبنا نطبق قانون قيام الأمم وضعفها ، ثم عودتها إلى القوة مرة أخرى إذا ما التمست المفهوم الرباني الأصيل ، وإذا ذهبنا نطبق هذا على تاريخ المسلمين وجدناه واضحا صريحاً ليس في حاجة إلى مزيد من التفصيل في كل وقائع تاريخ حياتهم . ولقد كان المسلمون واعون تماما بذلك القانون ، فما أن ينحرف بهم طريق ، وتظهر بوادر الخطر ، حتى تعلو الصيحة إلى العودة لمنهج القرآن : ميزان الحياة ، والقائم بالقسط .

وما غفل المسلمون عن هذه الظاهرة الواضحة إلا عندما دخلت مفاهيم وتفسيرات ومناهج وافدة ، حاولت أن تفسر لهم تاريخهم على غير أصله الصحيح ، ومن خلال أساليب غريبة عليه . وكانت هذه المداخلة وهذا الاحتواء وسيلة لحجب كثير من الحقائق عن المسلمين . هذه الحقائق التي قدمها لهم القرآن : ﴿ **وحي الله المنزل بالحق والصلة الوحيدة الباقية بين السماء والأرض ، وبين العالمين ورب العالمين** ﴾ .

كان الخطر أن يأخذ المسلمون مفاهيمهم في القرآن والإسلام والتاريخ الإسلامي من مصادر غير مصادرهم ، ومن مناهج وافدة عليهم إن صلحت في بيئاتها . وفي تفسير عقائد أصحابها ، فإنها لا تصلح لتفسير الإسلام والقرآن اللذان يتميزان بالذاتية المفردة ، والطابع الواضح الخصوصية ، وإن كان الاتفاق تاما على أن الدين كله من عند الله لن يناله التغيير أو التأويل .

ولقد كشفت تجربة الأزمة التي خاضها المسلمون في مواجهة الحروب الصليبية والمغولية في وضوح عن هذه الحقيقة ، حقيقة الإسراع في التماس الأصالة ، والكشف عن مفهوم القرآن في الخروج من الأزمة . وقد تمثلت في عمل متصل حاسم قام به : نور الدين محمود . ثم صلاح الدين الأيوبي . تحت إسم التسلح الخلقي ، ونشر مدارس الحديث والسنة ، وبناء المجتمع على الشريعة . وإعادة مفهوم الجهاد إلى العمل بعد توقف ، والتماس نصر الله بالإخلاص له ، وطلب المعونة والهدى ، وهو ما يسمى : « التضرع في حالة البأس » .

وسرعان ما رجحت كفة الحق ، واعتدلت طريق المسلمين ، وأدال الله من الغاصبين ، ومزقهم شر ممزق ، وانجلت المعركة عن نصر كاسح ، وهزيمة ساحقة للعدو الذي تفرق وتمزق ، وعاد يحمل أشلائه . بل إن هذه الأزمة كانت مقدمة لمرحلة جديدة من توسع الإسلام وكشفه عن جوهره للبشرية . ذلك أن قانون الله وسننه في قيام الحضارات والأمم وسقوطها حاسم ونافذ ، ولن يصلح له إلا من يأخذه من جميع أطرافه ، ويلتمسه في مختلف الميادين .

وفي الحروب الصليبية والمغولية حقق الإسلام بعد الهزيمة عديداً من الانتصارات .

الأول : أنه نقل العلم الإسلامي إلى الغرب تحت اسم غير اسمه ، ونقل مفهوم الإسلام للإخاء الإنساني ، وأطلق حرية الفكر من قيود الوثنية والرهبانية جميعا . وبذلك وضع أوربا على منطلق النهضة والحضارة .

ذلك أن كل ما جاء بعد ذلك من دعوة إلى العلم ، وإلى التحرر من الوساطات القائمة بين الإنسان والله ، والتحرر من العبودية ، وكل ما يسمى بالحرية والديمقراطية وغيرها إنما كان ثمرة الاتصال ومصدره الإسلام .

ثانياً : أنه دفع أهل أوربا الغربيين الذين جاءوا إلى الشرق ، وعادوا يحملون معهم صورة أصيلة واقعة لمفهوم الإسلام وتطبيقه في الإيمان بالله الواحد ، وفي الأخلاق الكريمة ، وفي الإحسان والعفو ، وفي السماحة والفضل . كل ذلك دفع الغربيون المحاربون ومن ورائهم إلى اعتناق الإسلام بمجموعات كبيرة ، وخاصة بعد أن نقل إليهم المحاربون تلك النماذج الكريمة ، وفي مقدمتها صلاح الدين الأيوبي .

ثالثا : إن كل المحاولات التي جرت لإدخال المغول في أديان أخرى ، أو إدخالهم في أحلاف للتآمر على الإسلام وتطويقه من الخلف قد باءت بالفشل ، وكل ما دبر في هذا الصدد للربط بين الصليبيين والتتار الوثنيين قد تحطم تماماً ، حين دخلت أول قبيلة من التتار في الإسلام ، وهي قبيلة : بركة خان . وتوالى دخول التتار .

وهكذا جاءت هذه القوى لتهدم الإسلام فهدمت نفسها ، ودخل الإسلام في مرحلة جديدة من القوة والسيطرة . فقد احتوى المحاربين وحملهم على اعتناق دينه ، ونقل إلى الغرب صورة صادقة عن الإسلام هزت دوائر الغرب ودفعت بعض القادة إلى مواجهتها بالقمع الشديد ، لأنها صورت الإسلام على غير ما كان يصور حين دعى كل هذا العدد الهائل لمهاجمة بلاد الإسلام . فلما جاءت وجدت غير ما قيل لها ، وجدت رحمة وأمناً ، ولم تجد ظلماً ولا عدواناً .

تلك هي واحدة من نتائج الأزمة التي واجهها الإسلام في معركته مع الصليبيين والتتار جاءت في نهايتها بالنصر والفتح لأمر واحد : هو أن المسلمين التمسوا في الخروج من الأزمة أسلوب القرآن وقانون النصر وسنن الله في

الحضارات والأمم . وهي تتلخص في كلمات قليلة : هي العودة إلى منهاج الله الحق تطبيقاً وتنفيذاً على الأفراد والجماعات ، وفي مختلف مجالات الحياة .

وحين جاءت أزمة الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي ، كانت الصيحات الأولى كلها تدعو إلى التماس « منهج القرآن » ولكن الاستعمار استطاع أن يكسب أرضا ، وأن يغرس غرساً ، وأن تختلف الطرق ، وتتباين السبل والوسائل . فامتدت ساحة الصراع وتعددت المعارك ، وظن الكثيرون أن الأسلوب الوافد يستطيع أن يحقق للمسلمين الحرية والقوة والتقدم . وقد ثبت غير ذلك بعد التجربة المريرة ، ولكن حركات المقاومة كلها التي قامت في عالم الإسلام ، إنما كانت تستمد قوتها وكيانها من الإسلام نفسه . وأن طبعت بطابع وطني أو عصري ، كانت كلها إسلامية المصدر ، وكل ما نجح من هذه الحركات ، وحقق النتائج هو ما التمس هذا الأسلوب واستمسك به .

ولا ريب أن العالم الإسلامي اليوم يكشف بعد التجارب الطويلة أن الأسلوب الوافد لم يحقق له النهضة ، أو القوة . وأنه قد أخره طويلاً عن الوصول إلى الغاية المرتجاة ، وأنه أوقعه في متاهات ومغالطات . ولذلك فقد كانت صيحة الأصالة ، التي عرفها المسلمون في معركة الجزائر ، ومعركة العاشر من رمضان ضوءاً كاشفاً على سلامة الأسلوب المتحرر من مغالطات التغريب وزيوف الاستعمار وشبهات الفكر الصهيوني الذي يحاول اليوم أن يستقطب الفكر البشري كله . وعندما عرف المسلمون أسلوب القرآن نصرهم الله . وهم ما يزالون في حاجة إلى الاستمداد من هذا الأسلوب ليحققوا النصر الكامل .

فالمسلمون اليوم يتواصلون ويعقدون الخناصر بالوحدة والإخاء ، ويفتحون الطريق أمام وحدة الفكر التي تحررهم من كل تحديات الغرب في العنصرية والخلاف حول الدم والعرق ، وهم ينطلقون إلى التماس أسلوب العصر في التقدم العلمي والتكنولوجي ليديروه داخل دائرة فكرهم ولغتهم ، وهم ينظرون إلى كل المذاهب الحديثة في مجال الفلسفة أو الاجتماع أو الأخلاق نظرة الواثق بأنهم يملكون أصفى المذاهب وأصدق المفاهيم ، وأن الشريعة الإسلامية هي مصدر العطاء الأكبر لإقامة المجتمع الكريم . المجتمع البشري الصالح لكل زمان

ومكان . القادر على التحرر من أهواء النفس ، ومن أخطار التمزق ، ومن الصراع والقلق ، المستعلى عن الاستغلال والظلم المتقبل لروح الإخاء البشري القائم على كلمة الله .

والمسلمون اليوم يتقدمون إلى أمام ، بالقوة المادية ، والقوة المعنوية معاً . ويمتلكون إرادتهم وثرواتهم ، دون أن يكونوا في ذلك ظالمين أو مسرفين ، وهم يتأهبون ليقدموا للناس مع دورة الفلك نموذجاً عالياً من العدل والرحمة والخير والبر ، هو للبشرية كلها أسودها وأحمرها وأبيضها . وهم حين يتحررون من أهواء النفوس ، ويتقدمون إلى الأخوة الإسلامية ، إنما يقدمون للبشرية أصدق المناهج ، وأكمل الأيديولوجيات .

تحديات القرن الرابع عشر

حفل القرن الرابع عشر الهجري بالأحداث الجسام ، وكان بعيد الأثر في التحولات الخطيرة التي واجهت جغرافية العالم الإسلامي وتاريخه ومصيره ، ومن ثم فقد كان لا بد من نظرة شاملة إلى القرن الرابع عشر قبل الحديث عن التحديات التي تواجه القرن الجديد ، وتتمثل هذه النظرة في عدة عوامل ضخمة هي :

أولا : استكمل فيه الاستعمار الغربي عملية تطويق عالم الإسلام ، وهي الخطة التي بدأها الاستعمار قبل ذلك بوقت طويل . هذه المرحلة التي بدأت بعد سقوط الأندلس مباشرة ، وعلى أيدي قوات أسبانيا والبرتغال التي أخذت تغزو سواحل إفريقيا ، وتنتزعها من أيدي أصحابها المسلمين ، ثم امتدت هذه الحركة حتى بلغت شواطىء الهند ، وسيطرت على جزر الملايو ، وكانت مقدمة للاستعمار الهولندي في أندونيسيا ، والبريطاني في شبه القارة الهندية .

كذلك فإن قوى النفوذ الروسي أخذت في نفس الوقت تنتزع الأجزاء الإسلامية في آسيا . « القوقاز ، والقريم ، وبخارى ، والتركستان » .

وقد استولت فرنسا على الجزائر ، وتونس ، والسنغال ، ومدغشقر ، والمغرب بين عامي ١٨٤٧ - ١٩١١ . واحتلت إيطاليا ليبيا ، والصومال ، وأرتيريا (١٨٨٧ - ١٩١١) . واحتلت أسبانيا الريف « المغرب الأقصى » واحتلت هولندا جزيرتي جاوة وسومطرة ، وما يعرف الآن باسم أندونيسيا « ١٦٢١ - ١٨٧٤ »

واحتلت بريطانيا شبه القارة الهندية « البنغال ، والبنجاب » ونيجيريا ومصر والسودان وزنجبار وجزيرة قبرص .

ولم يبق في أول القرن الرابع عشر الهجري على استكمال تطويق عالم الإسلام إلا خطوات قليلة . فقد احتلت مصر عشية بدء القرن . ثم احتلت المغرب . وفي أبان الحرب العالمية الأولى احتلت فلسطين والعراق وسوريا . ثم سلمت فلسطين للصهيونية ، وقسمت تركة الدولة العثمانية بين فرنسا وانجلترا .

ولكن العالم الإسلامي لم يستسلم للاحتلال الأجنبي ، وقاومه مقاومة شديدة احتشد لها بالدماء والأرواح . وقد عرفت قبل بداية القرن مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري للفرنسيين من ١٨٣٠ - ١٨٤٧ . وتوالت حركات المقاومة ، وامتدت . وفي مصر كانت مقاومة أحمد عرابي للاحتلال البريطاني . كما كانت مقاومة محمد أحمد المهدي للإنجليز في السودان ، ومقاومة الشيخ شامل للروس في القوقاز .

وكانت حركة المقاومة في الهند للاستعمار الإنجليزي ، وفي أرخبيل الملايو للاستعمار الهندي . وفي قلب أفريقيا للاستعمار البريطاني والفرنسي .

وعرفت أسماء عمر المختار في مقاومة الاستعمار الإيطالي في ليبيا . وعبد الكريم الخطابي في ريف المغرب ، كما عرفت ثورة أحمد بن عرفان في الهند ، وثورة يعقوب في التركستان ، ولم يتوقف المسلمون خلال القرن الرابع عشر عن المقاومة حتى أرغموا الاستعمار الغربي على إعادة النظر في مخططاته ، والنزول على إرادة المسلمين والعرب على النحو الذي حقق لهم الانتقال إلى مرحلة الاستقلال .

وعرفت هذه المرحلة محاولات متعددة للإصلاح والبناء ومواجهة النفوذ الأجنبي من خلال حركة اليقظة الإسلامية ودعوات جمال الدين ، ومحمد عبده ، والألوسي ، والدهلوي ، والدكالي ، وابن باديس ، والطاهر بن عاشور ، وعشرات من المصلحين الذين كان لهم أبعد الأثر في يقظة الفكر الإسلامي .

* * *

وهكذا نجد أن القرن الرابع عشر بدأ باستكمال حركات الاحتلال ، ولكن سرعان ما نزل عند إرادة المسلمين والعرب الذين استطاعوا في شطره الثاني أن

يحققوا خطوات واسعة نحو الاستقلال والتحرر ، وفيه جلت القوات الأجنبية عن معظم أجزاء العالم الإسلامي ، وبدأ خطوات الوحدة والاتحاد عربياً وإسلامياً .

* * *

ثانيا : شهد القرن الرابع عشر الهجري تحديات الغزوة الصهيونية التي بدأت خطواتها الأولى في مؤتمر بال ١٨٩٧ . حيث توالت الخطوات بالتآمر والغدر من أجل السيطرة على فلسطين . فكان أول قرار رسمي يعطي الصهيونية العالمية حق الإقامة هو تصريح بلفور ١٩١٧ . ثم قيام دولة إسرائيل ١٩٤٨ . ثم احتلال بين المقدس ١٩٦٧ . وكان الاحتلال البريطاني هو الذي حضر لهذه المؤامرة الخطيرة باستيلائه على شئون الانتداب في فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى . وكانت الولايات المتحدة من بعد هي التي عمقت هذا الكيان ودعمته بالاشتراك مع روسيا السوفييتية .

ولا ريب كان النفوذ الأجنبي يرى في سيطرة الصهيونية على فلسطين وقيام إسرائيل : أنها قاعدة لاستمرار سيطرته على العالم الإسلامي . وكانت بريطانيا وأمريكا من بعدها ترى في الاحتلال الصهيوني لفلسطين بديلاً من الاستعمار الذي انتهى عهده ووسيلة لاستمرار رسالتها الاستعمارية ، والسيطرة الاقتصادية والثقافية على أخطر أجزاء العالم الإسلامي ، ولاسيما منطقة قناة السويس الاستراتيجية ، والقدس التي يتمثل فيها نفوذ الأديان الثلاثة « الإسلام والمسيحية واليهودية » .

ولا ريب أن لقيام الدولة اليهودية في فلسطين تاريخا طويلا . استهدف القضاء على الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية . وتقسيم البلاد العربية بين فرنسا وانجلترا . وكان للماسونية دورها الخطير في تحقيق هذه الخطوات التي أدت إلى تمزيق الوحدة الإسلامية ، وقيام الكيانات الإقليمية ، وإيجاد روح الصراع بينها وفي داخلها .

والواقع أن الصهيونية كانت تحديا جديدا للعالم الإسلامي أصبح مع مرور الزمن أشد خطرا من الاستعمار الذي أمكن إنهاء احتلاله من أغلب أجزاء العالم الإسلامي .

ذلك أن الاحتلال الصهيوني لفلسطين قد أخذ صورة أشد عنفا من الاستعمار نفسه ، فهو استعمار استيطاني من نوع أشد خطورة . ذلك أن الصهيونية لم تكتف بما أطلق عليه وطن قومي لليهود ، ولكنها لم تلبث أن أعلنت عن مخطط واسع لبناء امبراطورية كبرى يجري العمل لتنفيذها بالتوسع والاحتلال لأراضي الدول العربية المجاورة ، حتى تتحقق مؤامرة « من النيل إلى الفرات » . وأن إسرائيل تعدت حدود التقسيم منذ اليوم الأول ، وتوسعت أكثر من مرة ، وضمت القدس والضفة الغربية وصحراء سيناء وهضبة الجولان منذ عام ١٩٦٧ .

ولعل هذا هو الخطر الذي ما زال يواجه العالم الإسلامي على مشارف القرن الخامس عشر الهجري .

* * *

ثالثا : ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية بوادر خطر جديد في مواجهة وحدة العالم الإسلامي وحريته ومصادر ثروته ، تلك هي محاولات النفوذ الشيوعي في السيطرة على بعض أجزاء البلاد العربية والإسلامية تحت اسم مؤازرة هذه الشعوب على التحرر من الاستعمار القديم والنفوذ الغربي .

ولقد واجهت بعض البلاد الإسلامية « محاذير » هذه التجربة الشيوعية ، وتكشف لها مدى الأخطاء التي تعرضت لها . وخاصة أندونيسيا ومصر وبعض بلاد القارة الأفريقية .

وقد تبين بوضوح خيوط مؤامرة يجري حياكتها ، وتديرها القوتان الصهيونية والشيوعية من وراء ستار من أجل السيطرة على مقدرات العالم الإسلامي ، وقد كشفت حوادث كثيرة ووقائع متعددة هذا الخطر وتلك المحاولة .

ولقد استطاعت بعض الدول التي أحسنت الظن زمنا بالكلمات البراقة الخادعة ، أن تتخلص بسرعة من النفوذ الشيوعي ، ولا تزال دول أخرى تحاول ذلك ، وتعكس صورة الصراع في إفريقيا مدى المخاوف الخطيرة التي تواجهها القارة نتيجة تغلغل النفوذ الشيوعي وتزايده في هذه السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر ، وخطر انطلاقه إلى مواقع الثروة البترولية والمنافذ الاستراتيجية .

* * *

رابعا : واجه العالم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر : ما يسمى معركة الاستعمار الثقافي والاقتصادي ، وهي المتمثلة في البدائل التي أقامها النفوذ الأجنبي بعد انسحابه العسكري ، والسياسي الظاهر ، وتتمثل هذه البدائل فيما يسمى بالغزو الثقافي والتغريب . وهي محاولة ترمي إلى القضاء على الذاتية العربية الإسلامية ، وصهرها في بوتقة الأممية . وخلق قوى مؤازرة للنفوذ الأجنبي في البلاد العربية والإسلامية عن طريق بث الدعوات الهدامة ، والحركات الوافدة ، وخاصة : البهائية ، والقاديانية ، والماسونية ، وغيرها .

ويحظى عالم الثقافة والتعليم بالدور الأكبر من التحدي . كذلك فإن هذه المحاولات تستهدف اللغة العربية والقرآن الكريم وتاريخ الإسلام ، وقيم الإسلام الأساسية في محاولات متعددة ومختلفة للحيلولة دون تمكين البلاد الإسلامية من تحرير إرادتها وأحكام سيطرتها على مقدراتها ، والتماس منهج الأصالة في الحكم والتربية والاجتماع ، وخاصة ما يتعلق بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وأسلوب التربية الإسلامية ، والتمرد من سيطرة إمبراطورية الربا والتخلص من تبعات الانحلال والإباحية التي تتمثل في ركام فساد الحضارة الغربية في مرحلة التحلل والانهيار .

* * *

خامسا : لا تزال الخطوات مستمرة من أجل إعادة توحيد العالم الإسلامي . وقد شهد منتصف القرن الرابع عشر محاولات متعددة ومؤتمرات مختلفة . وكان أبرزها المؤتمر الإسلامي في لاهور والرباط . وقد شهدت هذه المؤتمرات تجمعات ، وخططا تستهدف إلى وضع خطط للتكامل الاقتصادي ، ولمحو الخلافات والفوارق القبلية والوطنية من بين جميع شعوب العالم الإسلامي وأحكام الرابطة الإسلامية باتخاذ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مصدرين للهداية والتوحيد . والعمل على تحقيق الاتحاد بين زعماء الشعوب الإسلامية ، وإدخال عناصر التعليم الإسلامي في جميع مناهج الدراسة والعمل على دعم اللغة العربية وتعميمها باعتبارها لغة الثقافة والعقيدة ، وبمثابة اللغة الثانية بعد اللغة القومية .

ولقد كان من بين قرارات هذه المؤتمرات ما نص على « أن المسلمين

يؤلفون وحدة اقتصادية إلى ما يوحّد بينهم من دين مشترك ، وشعور مشترك ، وطراز مشترك ، فأكثر الأقطار الإسلامية مناطق متجاورة . وهناك عامل ثالث من عوامل اشتراك المصالح بين هذه الشعوب : ذلك هو طراز اقتصادياتها . إذ أنها كلها ذات اقتصاديات زراعية لا تزال في مرحلة الزراعة والعامل الهام هو أننا إذا كنا مستقلين نوعاً سياسياً . إلا أننا لا نزال من الناحية الاقتصادية في قبضة الأمم القوية ، ولم يستطع بعضنا حتى بعد الحصول على الاستقلال ، التخلص من العبودية الاقتصادية .

* * *

سادسا : كشفت السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر عن تملك العالم الإسلامي لثلاثة عناصر من القوة التي تمكن الأمم من إقتعاد مكانها الحق ، وهي الثروة المالية ، والطاقة والتفوق البشري .

ولا شك كانت معركة رمضان علامة على طريق جديد للعالم الإسلامي من حيث أن العرب أصبحوا قادرين على مواجهة القوى الغازية بأحدث وسائل العلم والتكنولوجيا . وأصبحوا يمتلكون القدرة على إيجادها واستعمالها ، وأنهم حققوا النصر بها عن طريق مفهوم الأصالة الإسلامي الذي يجمع بين الإيمان الروحي والإعداد المادي باعتبار أن هذا هو أسلوب المسلمين على طوال تاريخهم في مواجهة العدو والمرابطة في الثغور .

هذه نظرة سريعة للماضي ، ويبقى علينا بعد ذلك أن نلقي نظرة على مطالع القرن الجديد . . .

نظرة عامة إلى الأحداث

أولاً : قاوم المسلمون ولم يستسلموا .

في أوائل القرن الرابع عشر الهجري كانت حركات الاستعمار الكبرى في العالم الإسلامي تركز قواعدها في الهند ومصر والجزائر وتونس والسودان كحلقة أخرى من حلقات تطويق العالم الإسلامي التي بدأت قبل ذلك بوقت طويل .

وفي هذا القرن تمزقت الوحدة الإسلامية الجامعة بالدولة العثمانية والخلافة الإسلامية وقد تنازعت الدول الكبرى ميراث العرب والإسلام وسيطرت على أضخم قواعده ومقدراته ومعطياته واندفعت الصهيونية العالمية من خلال مخططات الاستعمار لتسيطر على فلسطين وتجعل من احتلال بريطانيا للقدس مقدمة لسيطرتها عليها بعدخمسين عاما .

ولقد قاوم العرب والمسلمون مقاومة لم تتوقف من أجل الحفاظ على الكيان ولم يستسلموا وقدموا أنفسهم في سبيل الله والحق والأرض في معارك حاسمة في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي : في أفغانستان والقرم ومصر وسوريا والجزائر والعراق وباكستان دون أن يتوقفوا وقد حققوا كثيراً من الانتصارات .

وفي هذا القرن قامت دولتان كبريان للإسلام هما أندونيسيا والباكستان وتحررت العروبة من نفوذ الاستعمار وانبعثت من قلبها أضخم حركة لليقظة واستعادة مكانة العرب في قلب الإسلام .

لقد مر القرن الرابع عشر كله في مقاومة النفوذ الأجنبي الذي سيطر على

العالم الإسلامي وهي مقاومة صامدة ضخمة ؛ قام بها المسلمون في مختلف أجزاء الوطن ، قدموا فيها الأرواح والنفوس وضحوا فيها بكل ما يملكون ، على نحو استمدوا مفهومه وقوته من مفهوم الجهاد الإسلامي ، حتى شهد عدد كبير من كتاب العرب بأن كل الحركات الوطنية والقومية والسياسية في العالم الإسلامي كانت كلها تجري تحت راية الإسلام ومفهومه الأصيل .

« من مات دون أرضه فهو شهيد ومن مات دون عرضه فهو شهيد » .

ولقد قلب مفهوم الجهاد الإسلامي والصمود الإسلامي في مواجهة النفوذ الأجنبي بمختلف صوره ، حسابات المستعمرين ودفعهم إلى تغيير أساليبهم وخططهم : نعم غيروا الأساليب فقط ولم يغيروا الغايات الخطيرة . فقد أدخلوا أظافرهم الملوثة بالدم في قفازات من حرير وتخففوا من أساليب العنف ولم يكن ذلك إلا خداعاً وتضليلاً .

ثانيا : تحديات امام اليقظة

انبعاث حركة اليقظة هي أعظم ثمار القرن الرابع عشر غير أن حركة اليقظة لم تلبث أن واجهت امتحانات قاسية في العقود الأخيرة من هذا القرن : هي ترابط الاستعمار والصهيونية من أجل ضرب حركة اليقظة ودفعها عن طريقها الصحيح .

ومن ثم فقد كانت أخطر التحديات في العقد الأخير من القرن الرابع عشر يتجمع حول بؤرة واحدة هي الحفاظ على الذاتية العربية الإسلامية وحماية الأصالة وتحرير النفس العربية الإسلامية والعقل العربي الإسلامي من زيوف الشبهات والتحديات والأخطار الفكرية والثقافية التي تلقى إليهم عن طريق التبشير والاستشراق وحركات التغريب والشعوبية والغزو الثقافي من أجل إذابة الذاتية العربية الإسلامية في بوتقة العالمية أو الأممية وإخراج المسلمين والعرب جميعاً من تصورهم المستمد من قيمهم ومن مفاهيمهم القائمة منذ أربعة عشر قرناً على أساس التوحيد والأخلاق والإيمان مستمدة من القرآن متمثلة في فهم الإسلام الجامع بين الدين والدولة ، وبين العبادة والشريعة ، والقائم على فهم الإسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع . هذه الصورة التي كان الرسول محمد ﷺ نموذجها الأعلى وتطبيقها

الأصيل وكان المجتمع الإسلامي الأول منطلقها الصحيح .

ثالثا : مواجهة المذاهب الوافدة

لقد انكشفت لأهل العلم والثقافة في الغرب أن التوحيد هو قمة المعرفة واضطربت النفوس بعد ظهور مكتشفات العلم إزاء التعدد والوثنية وإزاء العقائد المضطربة والتفسيرات التي لا يقبلها العقل ، وشهدت صواريخ الفضاء المتجهة إلى القمر وإلى الكواكب بأن لهذا الكون خالق قادر ، وكشفت التلسكوبات الضخمة عن مدى سعة هذا الكون وعظمة الخالق الذي جعل وراء مجرتنا التي تحوي مائة ألف شمس مائة ألف مجرة أخرى وصدق الله العظيم : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ .

كل هذا يبين مدى ضخامة تبعة المسلمين إزاء تبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين ومسئوليتهم وتقصيرهم إزاء هذه الفريضة إلا من رحم الله من رجال لا تلهيهم تجارة قد وهبوا حياتهم صادقين .

كل هذا يدعونا إلى أن ندعو قومنا إلى التحرك من داخل قيمنا ومفاهيمنا في مواجهة الغزو الفكري والثقافي الذي يستهدف تمزيق النفس المسلمة والعقل المسلم وإخراج الأمة من إطاراتها الأصيلة وقيمها الأساسية لتتحرك من داخل فكر الغرب حتى تستسلم استسلاماً كاملاً لمناهجه وفلسفاته . وهذا أمر يجب أن نتكاتف جميعاً على الوقوف في وجهه لأسباب عدة .

أولا : لأن هذه المناهج الغربية لم تحقق للغرب نفسه ما يطمح إليه من بناء المجتمع الذي يجد فيه الاستقرار والطمأنينة سواء الطمأنينة الاجتماعية أو الروحية ومن العسير أن تخرج هذه الأمة من مناهجها إلى مناهج أمة أخرى لم تثبت في بيئتها أي صلاحية لها فكيف تستطيع أن تعطي الأمم الأخرى .

ثانيا : إن أمة لها عراقة الأمة الإسلامية تاريخياً وقيماً ومنهج حياة من العسير أن تتخلى عن ذلك كله في ظل تحديات مرحلة من مراحل الضعف أو التخلف وهي مرحلة عابرة في طريقها الضخم الطويل .

ثالثا : إن الدعوة إلى إخراج الجيل الجديد من إطارات الدين : هي دعوة

مدمر لكيان الأمة وشخصيتها ومعارضة لطبيعة الأشياء ومضادة لسنن التطور ومخالفة لأعمق أعماق هذه الأمة في مزاجها النفسي وتركيبها الاجتماعي : ذلك لأن هذه الأمة قد تشكلت والدين يوجه سلوكها وحياتها .

الدين بمفهومه الإسلامي لا بمفهومه الغربي ، أما العلم فهو ثمرة من ثمار الإسلام الذي دعا إلى البرهان والمعرفة وأعان على إنشاء المنهج العلمي التجريبي .

ولا ريب أن الدعوة إلى العلم بمفهوم الإسلام هي دعوة إلى التحرر من أخطاء الاحتواء والتبعية والعبودية لغير الله تبارك وتعالى .

أما الدعوة إلى العلم بمفهوم التغريب فهي دعوة إلى إسباغ مفهوم العلم على الفلسفات وهي محاولة مضللة فليس العلم هو الفلسفة وليست الفلسفة هي العلم أبدا .

العلم هو ثمرة التجربة المعملية المحسوسة ، أما الفلسفة فهي تلك النظريات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وهي ليست علماً لأنها قابلة للخطأ والصواب ، والفكر المتصل بالإنسان ومجتمعه ونفسيته ومعاشه لا يمكن إخضاعه لمقاييس العلم لأنه يتصل بالنفس الإنسانية التي تختلف في كل شيء ، وفي كل عصر ، والتي لا يمكن أن تقاس بالمقاييس المادية أو تكشف عن طريق الأنابيب .

رابعا : إن أي أمة لن تستطيع أن تستعيد مكانتها وأن تنتصر بعد هزيمة بخروجها عن ذاتها وقيمها .

بل على العكس من ذلك فإن أي هزيمة أو نكبة تحيق بأي أمة إنما يكون مصدرها هو تخلف هذه الأمة عن ذاتيتها والخروج عن مقومات فكرها ولن يكون نصرا أو استعادة لوجود الأمن خلال إعلاء هذه القيم واتخاذها أساساً لحركة المواجهة والمقاومة ولقد جربت الأمة الإسلامية ذلك على مدى الزمن .

لن تخرج الأمم من أزماتها بالتماس قوالب الغرب وسجون فكره ، وإنما تستطيع ذلك عن طريق أصالة فكرها وهي تجد الحلول الحقيقية في جوهر قيمها وتراثها فعليها أن تستمع إلى صوت الأصالة الداخلي العميق .

إن لدينا في ميراثنا الإسلامي ثروة ضخمة تستطيع أن تعطينا حلولا صادقة لكل أزماتنا وقضايانا فليس دعوة أصدق اليوم من الدعوة إلى التماس المنابع والحفاظ على الأصالة

رابعا : أخطر التحديات :

أولا : إذابة الشخصية .

إن التحدي الكبير الذي يواجه المسلمين والعرب اليوم : هو القضاء على أصالة هذه الأمة وشخصيتها وكيانها النفسي والروحي والعقلي كمقدمة لتحقيق الأهداف الخطيرة التي كشفت عنها بروتوكولات حكماء صهيون . والعمل على تدمير مفهوم الحضارة العربية الإسلامية ذات الطابع القرآني الرباني القائم على التوحيد والاخلاق والإيمان بالله والإيمان بالغيب والبعث والنشور .

لا ريب أن هدف النفوذ الاستعماري هو إذابة الشخصية وقد جاءت كل الشبهات المطروحة عن طريق التبشير والاستشراق والغزو الفكري والتغريب من أجل تحقيق هذا الهدف . من أجل احتواء هذه الأمة في بوتقة الأممية أو العالمية حتى تفقد طابعنا الأصيل وروحنا الحق .

ولقد استمات المسلمون أحقاباً دون أن يتحقق هدف عدوهم فيهم ولم يحرصوا على شيء قدر حرصهم على ألا تذوب شخصيتهم ذات الطابع الخاص ، الرباني المصدر ، الإنساني المظهر في الأمم لأنهم إنما جاءوا ليقيموا هذه الشخصية في الأرض ويثبتوا دعائمها . ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾ .

ولقد استطاع الفكر الإسلامي أن يحطم قيد الاحتواء الاغريقي وأن ينتصر على الفكر الوثني والباطني ومواجهة خطر الاحتواء والإذابة ولقد تلتقي الأمم في مجالات العلم والمعرفة العامة ولكنهم في مجالات الثقافة والعقائد يتميزون وتبرز ذاتية كل منهم ولقد تتبادل الثقافات خبراتها وأساليبها ولكنها لا تمتزج ولا تنصهر في صورة واحدة وستبقى الثقافة الإسلامية العربية متفردة بطابعها وذاتها .

من أبرز التحديات هي إخراج المسلمين من أصول فكرهم ومقومات كيانهم وذلك بتحريف مفهوم الإسلام واخراجه من طابع التكامل الجامع بين الدين والدنيا والعقل والقلب والروح والمادة ومحاولة تصويره دينا لاهوتياً تعبدياً

وذلك بامتصاص ابرز معالم الجهاد والشريعة الاسلامية والامعان في القضاء عليهما بالحملة والتزييف وطرح دعوات لها طابع الخروج من ضوابط النفس والمجتمع بالتحلل من الحدود التي اقامتها الشريعة الاسلامية حماية للنفس الانسانية والكيان الانساني من الانهيار والسقوط تحت سنابك الخيل الغازية المغيرة .

ثالثا : من أبرز التحديات :

تزييف مفاهيم الترابط الجذري الوثيق بين العروبة والإسلام يطرح مفهوم القومية الوافد الذي يختلف اختلافاً واضحاً ، عن مفهوم العروبة في جذورها الأصيلة المرتبطة بالتوحيد منذ دعوة إبراهيم والمتمثلة في اسماعيل جد العرب وقد كانت العروبة دائماً وعاء الإسلام وكان العرب حملة لوائه إلى أقصى الأرض وما زالوا مرجوون لجولة جديدة يحملون فيها الإسلام إلى العالم كله ويعيدون بناء حضارة التوحيد في مواجهة الحضارة الوثنية التي تصدعت وانهارت قوائمها حين خرجت عن قواعد التوحيد والعدل والأخلاق والإيمان بالغيب والبعث .

خامسا : رسالة التبليغ :

المسلمون اليوم وهم يدخلون عصرا جديدا من امتلاك الثروة والطاقة والتفوق البشري يجب أن يعرفوا مسئوليتهم الخطيرة تجاه الرسالة التي أنيطت بهم ووكلت إليهم فعليهم تبليغ هذه الرسالة إلى البشرية الحائرة التي تتطلع إلى ضوء من الهدى بعد أن وصلت بها الأيديولوجيات والمذاهب المادية غاية التمزق النفسي والتدمير والغربة والقلق ، وهي ما تزال تكمن في ركام الفكر البشري عن طريق وثني فإذا هي تتخبط بين الفلسفة المادية الغربية وبين الغنوصية الشرقية ووثنية البوذية والهندوسية ومخلفات الباطنية والمجوسية التي ما يزال يبعثها الغرب ليضرب بها توحيدنا ووحدتنا ومن حق رسالة الله علينا أن نبلغها للناس جميعاً ولكن من حقها أيضاً أن نكون نحن نموذجاً طيباً لها بأن نطبقها على أنفسنا ومجتمعاتنا ولن يتقبل الناس منا هذه الرسالة إلا إذا كنا نحن مثلاً أعلى لها ولذلك فإننا نتطلع أن يكون القرن الخامس عشر هو قرن الأصالة والرشد الفكري والتماس المنابع وتطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع الإسلامي وتنفيذ المناهج التربوية الإسلامية على

الفرد والمجتمع وفي عالم الأسرة والمرأة ، وفي التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

سادسا : مسئولية جيل القرن الخامس عشر

سيكشف التاريخ مسئولية هذا الجيل في وضع لبنة جديدة في هذا البناء الضخم : بناء الأمة الإسلامية : الأمة الخاتمة إلى شرفها الحق تبارك وتعالى بأن جعل محمداً ﷺ منها وحملها أمانة الإسلام خاتماً لرسالات السماء وأنزل عليها القرآن الكريم خاتم الكتب ومهيمناً عليها .

وقد وصل الإسلام في مطلع القرن الخامس عشر إلى كل ركن من أركان القارات الخمس بل ودخل كل مدينة وأقيمت المآذن في كل أرض ، وبلغ المسلمون ألف مليون ممن يقولون لا إله إلا الله هم ربع سكان العالم ، وبلغ حجيجهم مليونان وأصبحوا الفئة الثانية بعد سكان البلاد الأصليين في انجلترا وفرنسا وألمانيا وفي الولايات المتحدة لا تشرق الشمس إلا على مسلم جديد .

سابعاً : انتشار الإسلام ذاتيا

لقد استطاع الإسلام منذ اليوم الأول لظهوره أن يشكل لونه المميز على خريطة العالم وأن يمتد في سنوات قليلة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . وبذلك أقام عالمه المستقل المفرد ، ومنهجه الكامل المتجدد بالتوحيد والإيمان بالله ، والالتزام الأخلاقي في تفسير الكون والحياة ، للمسلمين قبلتهم الواحدة التي يتجمعون حولها والتي لن يحيدوا عنها ، تهوي إليها قلوبهم بالإيمان وعقولهم بالفكر . ومنذ ذلك اليوم لم تكن له قبلة أخرى وما تزال الكعبة البيت الحرام مثابة للناس وأمناً وستظل مركز الدائرة في أرض الإسلام .

ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام حاولت القوى المختلفة ضربه والإزالة منه ثم لما عجزت عن ذلك حاولت احتوائه وإذابته وصهره في بوتقة الأممية وما يزال الإسلام وسيظل قادر بتركيبه الرباني وتشكيله الإنساني القائم على الفطرة والحق والعدل ، على أن يقاوم كل محاولة لضربه سواء عن طريق الحروب الصليبية أو الغزو الاستعماري أو الاحتلال أم محاولات الماركسية والمادية والوجودية والفرديدية وغيرها .

والواقع أن هناك حقيقة كبرى على شبابنا وأجيالنا الجديدة والمتجددة أن تكون موضع تقديرها دائماً ، لا تغيب عن مفرق رأسها : تلك هي أننا نحن المسلمين نعيش في ظل « تحد » قائم كبير ، في منطقة ذاخرة بالطاقة والثروة والتفوق البشري - كانت ولا تزال وستظل - مصدر مطامع القوى المختلفة وتطلعاتها إلى الغزو والسيطرة ورغبتها في استنزاف الثروات وامتصاص الموارد ، وأن هذه المطامع جاءت في ثوب الحروب الصليبية بدعوى استعادة قبر السيد المسيح ثم عادت في ثوب تمدين البشرية باسم الاستعمار الغربي ثم عادت ثالثة باسم أرض الميعاد ، عاشت هذه الأمة موضع الطامعين والغزاة قروناً طويلة تنتهز فرصة ضعفها لتنقض عليها ولقد هزمت موجات الغزو واحدة بعد أخرى ولا تزال « القدس » هي خط الدفاع الأول عن « القبلة » ولقد قاوم العرب وقاوم المسلمون هذا الغزو في حطين وفي عين جالوت وفي الزلاقة وفي الارك واستجاشت أرض الإسلام بالقوى الإسلامية المتجددة الظافرة التي حملت اللواء واستشهدت في سبيل تثبيت الحق وتحرير الأرض وحماية بيضة الدين .

والإسلام منذ بزوغ فجره لم يتوقف عن الانتشار ويبلغ عدد الذين يعتنقونه إلى مفتح القرن الخامس عشر الهجري ما لا يقل عن ألف مليون مسلم دخل أغلبها إلى ساحة الاقناع والإيمان وبقوة الإسلام الذاتية وبفضل مبادئه التي تحمل التوحيد والعدل والكرامة والإيمان ، وقد وجد الإسلام من الملونين والمستعبدين قبولاً حررهم من كل عوامل الظلم والعبودية وما يزال الإسلام يقتحم آفاق العالم ويصل إلى كل ركن وقد أعلن مؤتمر لندن الإسلامي (مايو ١٩٧٦) أن عدد المسلمين في أوروبا يبلغ ٢٥ مليوناً و٢١٧ ألف نسمة وأن عدد المسلمين بالدول الأوروبية غير الشيوعية يبلغ نحو ثلاثة ملايين و٩٣٠ ألف إلى نسبة ١,٧٥ في المائة من عدد السكان أما عدد المسلمين بالدول الأوروبية الشيوعية فيقدر بنحو ١٩ مليوناً و٢٧٧ ألف نسمة أي بنسبة ١٨٪ من مجموع السكان ولا يدخل في هذا العدد مسلمو الجمهوريات الآسيوية التابعة للاتحاد السوفييتي .

وهكذا نجد أن الإسلام بعد أن طورد من أوروبا مرتين : من الأندلس ومن البلقان يعود مسلماً ويصل إلى كل مكان ، ليس في أوروبا وحدها ، ولكنه في الغرب كله ، وفي أمريكا لا يطلع الصبح يوماً إلا على مسلم جديد ويقيم

المسلمون في أوروبا كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعي لا يقاربه نظام فالمسلمون هناك يقيمون فاصلا بين الحياة في ظل الإسلام وبين الحضارة الغربية فإذا أضفنا إلى هذا أن الفكر الغربي قد إنبجس عن تيار جديد يريد أن يتفهم الإسلام ويرى أن السبيل الوحيد لصلاح البشرية ، عرفنا إلى أي مدى تكون قدرة الدعاة المسلمين في القرن الخامس عشر على توصيل الإسلام « علماً وقدوة » إلى العالمين .

وتلك هي المهمة الأخرى

الأولى دفع خطر الغزاة والثانية تبليغ الإسلام ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتماس مفهوم الأسبق الأصيل والمرابطة في سبيل كلمة الله وحماية هذا الكيان الذي تشكل باسم الله على الحق ليكون قادراً على حمل رسالة الله إلى العالمين .

ولسوف ينتصر المسلمون على كل الأخطار التي تواجههم ما استمسكوا بكتاب الله نبراساً وضياء وتطبيقاً في حياتهم الاجتماعية وسوف يخرجون من الأزمة كما يخرج الذهب من النار أشد نصاعة وصقلاً ويكونون بذلك في القرن الخامس عشر الهجري أهلا لاستعادة مكانهم الحق على هذه البسيطة شريطة أن يكون القرآن منطلق حياتهم وقانون مجتمعهم وإطار وجودهم كله .

ثامنا : خطوات الطريق :

لا ريب أن الخطوات التالية على هذا الطريق هي :

أولاً : بناء مناهج التربية والتعليم والثقافة على قاعدة القرآن وخططه الإنسانية والتحرر من نفوذ مناهج الارساليات والتبشير والاستشراق والفكر الماسوني الذي أباح نظريات التحلل كأسلوب لغزو المسلمين والعرب وتدمير كيانهم .

ثانياً : ترجمة العلوم والتكنولوجيا إلى اللغة العربية وإدخالها في إطار الذات العربية على أنها فكر قبل أن تكون لغة خالصة . واللغات أداة الأفكار وعليها بناء الشخصية ، فإذا ما ترجمت العلوم والتكنولوجيا إلى العربية وأقصد جميع علوم الطب والكيمياء والفلك والطبيعيات وغيرها فإن ذلك يخلق بيئة أكاديمية عربية ذات جذر إسلامي أصيل يمتد إلى أعرق أصوله التي أنشأت المنهج العلمي

التجريبي قبل ألف عام ومنها يدخل المسلمون والعرب عصر التحرر الكامل وعصر بناء الأسلحة والقوى والصناعات والخروج من السيطرة العالمية التي تمد حركتهم دون إقامة وجودهم الذاتي .

ثالثاً : إقامة وحدة الفكر العربية الإسلامية المستمدة من الشريعة الإسلامية أساساً ومن قيم الفكر الإسلامي والثقافة العربية الأصيلة الدافعة إلى الحركة والبناء والقائمة على أن مفهوم التقدم الأصيل ليس تقدماً مادياً خالصاً ولكنه تقدم إنساني جامع بين الفكر والنفس والمادة .

رابعاً : تأكيد الأصالة العربية الإسلامية ، والذاتية الشخصية والمزاج النفسي والاجتماعي الأصيل المنبثق من أعماق العقل والنفس العربية الإسلامية الذي أقامه القرآن الكريم كقوة أساسية حامية من غزوات الشبهات وأخطار الأعاصير التغريبية القائمة على الشكوك والريب وبذلك يتشكل المنهج الفكري العربي الناصع المتحرر من سيطرة فلسفات اليونان والهلينية والمخلفات الوثنية العربية والفرعونية والمجوسية وفلسفات وحدة الوجود والاتحاد والجبرية وتقديس العقل أو عبادة الأبطال أو علاء الجنس أو الإباحية أو المادية المنكرة لله والأديان والرسل والكتب أو المعطلة المنكرة للبعث والجزاء والمسئولية الأخلاقية .

(٢) وإن اتجاهاً جديداً بدا في عالمنا الإسلامي والعربي واقترنت به انتصارات حاسمة على أساس « الجهاد والشريعة الإسلامية » وقد دفع موجة التحديات الفكرية وكشف عن الشبهات والأخطاء ومكن الأمة من امتلاك « إرادة الأصالة » وتصحيح المفاهيم : كل هذا يؤكد أن هناك خطوة على الطريق الصحيح إلى المواجهة القادرة بالإيمان العميق لاستكمال النظرة وشمول الرؤية وتحرير النفس والعقل العربيين الإسلاميين وإخراجهما من دائرة التغريب التي تحاول أن تقصرهما على التفكير بمقاييس زائفة ذلك لأن الخروج من هذه الدائرة المغلقة هي أول علامات النصر الحقيقية وهي تعني التماس المنابع والأصول والخروج من المنحنيات التي حبست الفكر الإسلامي ما يزيد عن نصف قرن من الزمان غير أن ذلك يستلزم الدخول في دائرة الأصالة والثبات وتأكيدها وبناء قلاعها وحصونها التي تدافع بها عن نفسها ضد تجدد الغزو الذي يتمثل في إثارة

الشبهات والحملات الضارية من دعاة التغريب والتبشير والاستشراق والشعوبية .

(٣) إن على المسلمين في هذه المرحلة الدقيقة - في مطالع القرن الخامس عشر الهجري - وقد قطعوا مرحلة طويلة في مواجهة الاستعمار والغزو الصهيوني ومحاولات القوى المتحالفة لاحتوائهم وضربهم ، عليهم أن يثبتوا إزاء أمتهم وعقيدتهم وأن لا تحول المقدرات المادية دون ذلك الحفاظ والتشبث بوجودهم الذاتي وكيانهم الخاص وطابعم الإسلامي فلا تستهلكهم المعطيات المادية الحضارية وتقضي على أصالتهم وصلابتهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم وأن يكونوا قادرين على نقل أحدث مستحدثات العلم والتقدم والحضارة المادية لتكون مواد خام يصهرونها داخل إطار فكرهم ويحركونها داخل قيمهم ، وبذلك يصنعون الحضارة الإسلامية الجديدة : حضارة القرن الخامس عشر الهجري .

وعلى المسلمين أن يتعلموا من تجربة الحضارة الغربية أن أخطر ما واجه هذه الحضارة وأسلمها في وقت قريب إلى الأزمة الخانقة والصراع بين القوى مع ما امتلكه من أسباب التقدم المادي هو أنها « كسرت » الإطار الديني والأخلاقي الذي هو الحائط الحامي لكل نهضة من التعثر والتصدع ومضت تواجه الحياة بغير سناد يحمي ظهرها ، أو نور يضيء طريقها وبذلك صرعتها المادية وانحرف بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس وتغليب الترف والملذات والشهوات فانتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التي يتحدثون عنها ويبحثون لها عن علاج .

وهي (أزمة الانسان الحديث) وصراعه وتمزقه وغربيته وضياعه ، هذا الذي قاساه ويقاسيه من أهوال « غيبة » المعنويات وتجاهل أشواق الروح وتصدع النفس وتمزق الكيان الإنساني ، وفقدان الهوية والهدف ، والعجز عن فهم رسالة الإنسان وأمانته وغايته ومصيره . هذا الإنسان المستخلف في الأرض لإقامة المنهج الرباني الأصيل .

(٤) لقد آن الأوان أن يحمل المسلمون رسالتهم إلى كل أطراف الأرض ، وأن يذيعوا كلمة الله الواحد الحق في كل مكان . وليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة الحديثة وعطائها التكنولوجي والعلمي

والميكانيكي أن تسمو عليهم هذه الحضارة أو تحتويهم . هذا الفهم القاصر المدمر ، وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد في الفكر فيجعلوا كل معطيات الحضارة والعلم والفن خاضعة لحق الله وحدوده . وأن يقبلوا منها ما يتفق مع هذه الضوابط والحدود ويرفضوا ما سواها ، وأن يجعلوا اللغة العربية هي وعاء العلم والتكنولوجيا فينقلوا إليها كل معطيات العلم ومصطلحاته وقوانينه وأن يقيموا من الإيمان بالله وحده ، إيماناً بوحدة البشرية والإخاء الإنساني والعدل والرحمة باعتبارها هي معطيات الإسلام للانسانية ودعائم كل حضارة نامية وليجعلوا من كل ذلك إطاراً يتحركون فيه فيخضعون العلم والأدب والفن والقانون والاجتماع والتربية والاقتصاد للتقوى ، ويجعلون مقدرات البشرية ليست لفئة ولا طائفة ولا جماعة ولكن للناس جميعاً وبذلك يحققون إرادة الله تبارك وتعالى في بناء المجتمع الانساني الحق الذي تتطلع إليه الدنيا جميعاً بعد أن عاشت في الظلم والاستعباد عصراً طويلاً شقيت به وليطلع المسلمون الدنيا جميعاً على أنهم يمتلكون منهجاً خصباً قادراً على إسعاد البشرية حقاً ، وردها إلى طريق الحق والعدل وتحريرها من الجوع والخوف وتأمين النفس الإنسانية من القلق والتمرد .

فإذا فعلوا ذلك بحق كان القرن الخامس عشر هو بدأ الطريق إلى خير الإنسانية وضيائها والتماسها طريق الله تبارك وتعالى .

شبهات مثارة

● لا ريب أن حلول غرة القرن الخامس عشر الهجري . هو أكبر الأحداث ، وأجلها وأعظمها أثرا في حياة المفكرين المسلمين المعاصرين له ، وهو حدث من شأنه أن يهز النفس الإنسانية المؤمنة ، ويملأها بإحساس عميق بالمسئولية الضخمة ، والتبعة الثقيلة الملقاة على عواتق هذا الجيل من الدعاة إلى الله ، بعد تلك الجولة التي خاضها المجاهدون ، خلال القرن الرابع عشر في مواجهة أحداث ضخام ، ومواقف جلى ، عندما تجمعت قوى النفوذ الأجنبي ، والصهيونية والشيوعية في سبيل الانقضاض على الإسلام للإدالة منه .

وما زالت هذه المعركة قائمة ومستمرة في مطالع القرن الخامس عشر الهجري ، وقد ثبت لها الكتاب المسلمون الأبرار في مواقف المقاومة ، وكشفوا عن خلفياتها وزيفها وسمومها . ودحضوا شبهاتها ، وما زالوا على مواقع الخطر ، وثغرات الحمى مرابطين لا يغفلون . وقد حملوا في أيديهم أسهمهم معبأة يقذفون بها مواقع العدو في كل يوم لا يترددون ، ولا يتوقفون حتى يلقوا الله شهداء « ألا أن القوة الرمى . إلا أن القوة الرمى» .

وقد آمنوا بأنهم في رباط إلى يوم القيامة من أجل كلمة الحق ، ومن أجل تصحيح المفاهيم ، وتحرير القيم ، ولتكون كلمة الله هي العليا .

الرواد :

ولا ريب أن الدعاة إلى الله الذين سبقوا على الطريق في القرن الرابع

عشر ، والذين واجهوا خطر التغريب والغزو الثقافي ، والنفوذ الاستعماري في مطالعه ، وفي جولاته الأولى . قد أناروا الطريق ، وتركوا علامات مضيئة أمام الذين تعلموا على أيديهم ، وحملوا اللواء من بعدهم ، وساروا به على نفس الأسس ، وفق مفهوم السنة الجامعة والتوحيد الخالص ، والإيمان الصادق بأن الإسلام دين ودولة ، ونظام مجتمع ، ومنهج حياة ، وأنه منهج متكامل جامع بين الروح والمادة والقلب والعقل . والدنيا والآخرة . هؤلاء الذين قدموا أرواحهم خالصة في سبيل إعلاء كلمة الله ، والذين كانت صيحتهم هي التماس المنابع والعودة إلى تطبيق شريعة الله ومنهجه في السياسة والمجتمع والتربية والاقتصاد جميعا . هذه الدعوة الخالصة التي قطعت مرحلة طويلة في سبيل البيان والإقناع والايمان ، والتي كشفت ـ بالدليل الصحيح ـ فساد تجربة التبعية التي عاشها عالم الإسلام لمناهج الغرب ، في الاجتماع والاقتصاد والسياسة . وفي أسلوب العيش والحضارة . هذه التجربة التي امتدت من خلال الأيديولوجيتين الوافدتين : الليبرالية ، والماركسية ، وكشفت عن أنها أسلمت الأمة إلى النكبة والهزيمة ، والنكسة خلال أكثر من سبعين عاما من الجري وراء أسلوب الغرب .

الحقيقة الكبرى :

ثم تبين بأن منهج الإسلام الحق في بناء المجتمع الرباني هي المنطلق الوحيد . هذه هي الحقيقة الكبرى التي تتألق اليوم على أبواب القرن الخامس عشر الهجري . من خلال التجارب التي خاضتها هذه الأمة ، وخاصة تجربتها مع الماركسية في أندونيسيا والأفغان ومصر . ومن خلال تجربتها مع الليبرالية في باكستان وإيران وتركيا .

ومن خلال تجربة الجزائر ، وتجربة العاشر من رمضان ، مع إحياء أسلوب الجهاد الإسلامي ، الذي يعتمد على قانون النصر ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون**﴾ سورة الأنفال : آية ٤٥ . وعلى هذا القانون تحقق النصر وأزعج الغرب إزعاجا شديدا ، وجرت المحاولات لإجهاض هذه التجربة .

ويشرق اليوم فجر شهر المحرم من العام الهجري (١٤٠٠) والمسلمون

وأمتهم ودينهم حديث ضخم عجاج على كل لسان . ومن خلال كل صحيفة ، وبمقياس المصالح والمطامع والأهواء التي تقود كتاب الغرب إلى تصور يقظة المسلمين على أنها خطر يجب محاربته والقضاء عليه . بينما لن يجد العالم أصدق من المسلمين إيمانا بالإنسانية ، ورحمة بها وعملا من أجل سعادتها . ولكنها سموم الصهيونية والشيوعية . ونفوذ الرأسمالية الطامع في امتلاك مقدرات المسلمين ، والسيطرة عليهم ، وإدامة عبوديتهم وخضوعهم هو الذي يملي عليهم تلك الصيحات . ومن التحريض عليهم ، والتآمر بهم والدعوة إلى تطويقهم .

تطبيق الشريعة :

إن دخول تطبيق الشريعة الإسلامية مرحلة التنفيذ في باكستان وإيران . والانتصارات التي يحرزها المسلمون على الشيوعيين المغتصبين للأفغان ، وارتفاع صوت الإسلام في تركيا . كل هذا يشكل علامات لمطالع القرن الخامس عشر . توحي بامتلاك المسلمين لإرادتهم الحقة في بناء المجتمع الرباني الصحيح الذي يتطلع إليه الناس في كل مكان . بوصفه التطبيق الكامل لمنهج الإسلام . بوصفه ديناً ودولة . ومنهجا ونظام حياة .

ولا ريب أن التجربة تواجه بتحديات ضخمة ، وتقف قوى كثيرة دون وصولها غايتها ، وتبرز محاولات عديدة لإجهاضها قبل أن تكتمل ، وتحاول وكالات الأنباء ـ التي تمر أخبارها من خلال شبكة مراقبة صهيونية ـ تسقط كل الايجابيات ، ولا تبرز إلا جوانب النقض والخلاف . أن توحي بأن التجربة لم تحقق شيئاً ، حيث تلوّن كل شيء بلون قاتم . ولكن هذا كله لا يزيد قوة الحق إلا ظهورا وثباتا ، وهو ما لم تستطع الصحف العالمية أن تنكره .

جرائد العمالة :

فنرى جريدة لوموند الفرنسية الواسعة الانتشار تكتب تحت عنوان : « خيول الإسلام مسرجة . والغرب يرتعد من فرسانها» وتقول : « في باكستان » أطيح بنظام ذو الفقار علي بوتو ، لأن نظامه اعتبر ليبراليا أكثر من اللازم ، ولم يأخذ بعين الاعتبار تقاليد بلاده الإسلامية . وأصدر الجنرال ضياء الحق تشكيل مجلس للأيديولوجية الإسلامية ، مهمته إعادة تنظيم القانون الباكستاني بحيث يتمشى مع

الشريعة الإسلامية ، كما تقرر إلغاء الفوائد على قروض البنوك ، ومنع مذيعات التلفزيون من الظهور أمام الشاشة البيضاء مكشوفات الرأس ، ومنع الرقص وشرب الخمر من الملاهي .

أما في ماليزيا فقد طالب طلبة الجامعة بضرورة تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية بحق اللصوص ، وذلك بقطع يد السارق ، كما طالبوا بتطبيق التشريع الإسلامي على الزانية بالرجم . أما مسلسلات التلفزيون مثل (الرجل الآلي) فيسبق بثها دائما آيات من ذكر الله الحكيم .

وفي أندونيسيا كان أحمد سوكارنو موضع نقد الناس بسبب حياته الخاصة ، وانغماسه في ملذاته ، وتساهله مع الشيوعيين أعداء الدين ، وتسامحه مع الجالية الصينية الكبيرة التي اتهمها الشعب الأندونيسي بالعمالة لماوتسي تونج ، وبالرغم من أن الإسلام وصل إلى أندونيسيا متأخرا « كذا »؟؟ إلا أنه دخل بقوة في النفوس وتغلغل في مرافق الحياة . وقد أطيح بسوكارنو ، ورفع زعماء أندونيسيا الجدد راية الإسلام ، وانبروا إلى تصفية الوجود الشيوعي المناهض للدين ، وراح ضحية الأحداث التي تمخضت عنها التصفيات نصف مليون شخص على الأقل .

فما هو الربط بين كل هذه الحركات ؟ إنه الإسلام : القوة العظيمة التي يصعب الوقوف في وجهها عندما تستيقظ ، فجنود الله وصلوا بعد وفاة الرسول ﷺ من مشارف أوربا إلى أقاصي آسيا وجزر الفليبين ، وتضم الصين حاليا ما يزيد عن ٢٠ مليون مسلم ، ووصل النفوذ الإسلامي إلى جنوب روسيا في ذلك الحين . وهناك عدة جمهوريات سوفيتية يعتنق سكانها الإسلام . ويقول الخبراء إن ثلث سكان الاتحاد السوفيتي عام ٢٠٠٠ سيكون من المسلمين .

والغزو الإسلامي توقف . ولكن « مد » الإسلام لم يتوقف لحظة واحدة ، فهو الآن في مسيرته العظيمة في إفريقيا السوداء ، حيث تتهاوى أمامه أصنام الديانات الوثنية لترتفع كلمة الله .

ولقد وصل الإسلام إلى الصحارى الكبرى ، ومناطق السفانا ، وهو ماض في طريقه إلى أن يمتد وينتشر يوما بعد يوم ، والإسلام كما يقال في الغرب ليس إلا كنهر يأخذ مجراه الحقيقي ، فهو يعلم كل شيء من النظافة إلى عمل الخير إلى

العادات الصحيحة ، والمعاملات المالية ، وهو دستور كامل للحياة .

والأفارقة يعتبرون أن كل من يسلم يصبح ناجحا ومميزا اجتماعيا . فيلبس الدشداشة البيضاء ، وغطاء الرأس الأبيض الذي يميزه عن البقية ، وتضم أفريقيا السوداء حاليا ما يعادل ٥٠ إلى ٦٠ مليون مسلم (ملحوظة : هذا الرقم دون الواقع بكثير) .

وقد وصل المد الإسلامي إلى الولايات المتحدة ، ويقدر الخبراء المسلمين السود في الولايات المتحدة بعشر السكان . وعندما نتحدث عن الإسلام ننسى الاتحاد السوفيتي بالرغم من أن المد الإسلامي وصل أقصاه في هذه المنطقة ، ويبلغ عدد المسلمين ٢٢ في المائة من مجموع سكان الاتحاد السوفيتي . ولكن المدهش أن ٥٢ في المائة تقل أعمارهم عن عشر سنوات . وهذا يعني أن عدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي سيصل عام ٢٠٠٠ (٩٠ مليونا) من مجموع عدد السكان (٣٠٠ مليون) أي ثلث عدد السكان .

والمثير أيضا هو أن التعاليم الشيوعية لم تفلح خلال خمسين سنة من الجهد المتواصل . في أن تهزم الروح الاسلامية في الاتحاد السوفيتي ، والعكس هو الذي حدث بالضبط . فالثقافة الإسلامية لم تنجح فقط في مقاومة حملات التصفية التي تعرضت لها . ولكنها أصبحت اليوم راية المعركة من أجل المساواة . ومن حين لآخر ترد بعض الأخبار من الاتحاد السوفيتي عن أحداث شغب حدثت في بعض الجمهوريات الإسلامية السوفيتية . كما حدث في سمرقند . حيث أحرقت دار الأوبرا وهذا الأمر يفسر قلق السوفيت ، مما يجري في إيران وأفغانستان . فالاتحاد السوفيتي يخشى أن تكون أحداث إيران بمثابة حافز للمسلمين في جمهورياتها للتمرد . فماذا يمكن أن يحدث لو وصلت أصداء الثورة في إيران إلى فرسان الإسلام في جنوب الاتحاد السوفيتي . خصوصا وأن خيول هؤلاء الفرسان مسرجة حاليا . هذه الأيام (١٥ يناير ١٩٧٩) .

هذا ما أوردته إحدى الصحف الغربية . وهو يمثل صورة قريبة لمشاعر الغرب إزاء يقظة الإسلام في مطالع القرن الخامس عشر الهجري .

جريدة أخرى :

وبالنسبة لليقظة الإسلامية في تركيا تقول جريدة « صنداي تلغراف » : بعد زوال الامبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى . انتهى التهديد العسكري الإسلامي ، وحل محله الوجود البريطاني في الشرق الأوسط ، ونتج عن ذلك انتشار الأفكار والقيم الغربية وتغلغلها داخل الروح العربية ، وظهور جيل من القادة العرب متشوق لانتهاج الأسلوب الغربي . ولكن يبدو أن الدول الإسلامية سترث العالم بدون تبني النظم المعاصرة ، كما أن بعض أجزاء العالم الإسلامي تشهد عملية تجديد للإسلام بين شعوبها ، مما يعتبر خطراً جديداً ، يجب البحث عن وسيلة مناسبة للتصدي له ، فالإسلام يدعو إلى تجديد الجهاد مما يحكم على المسيحية بالانقراض» .

وجه الحقيقة :

ولا ريب أن ما يقوله الغربيون في هذا الشأن باطل . فقد ظل الإسلام يكرم المسيحية ، ويحترم الأمم الأخرى ، ولا يفرض عليها عقيدته ولا نظامه ، ولكنه يطالب بأن تترك له الدول الغربية أن يعيش منهجه الأصيل ، وأسلوبه القرآني ، وفي تركيا ترفع الحركة الإسلامية الدعوة إلى إنشاء صناعة إسلامية للعالم الإسلامي كله ، وإلى إنشاء سوق إسلامية مشتركة ، وتكشف زيف المحاولة المريرة التي قام بها كمال أتاتورك ، والتي لم تحقق بعد أكثر من خمسين عاما إلا التبعية للغرب ، دون أن تنقل المجتمع خطوة واحدة في طريق التقدم . حيث يتمثل التقدم الحقيقي في أسلوب الإسلام . ولقد تابعت إيران خطوات أتاتورك في تركيا . وكانت النتيجة هي ما نرى اليوم . فقد سقط هذا النظام لتبعيته ولعمله إلى ابتعاث القومية الإيرانية الوثنية المجوسية القديمة « كورش ، وقمبيز ، وبهلوي » وحيث أقام الشاه نظاما يمثل الديمقراطية الغربية يحمل طابع الديكتاتورية والاستبداد . وقد صدق معلق محطة لندن العربية حين قال : « إن الثورة الإيرانية انفجرت من جانب الأصالة الإسلامية ضد الجانب المظلم من التحديث » .

الفشل للباطل :

وهكذا نجد أن جهود خمسين عاما على غير الطريق الصحيح في تركيا

وإيران ، قد باءت بالفشل الذريع . وعادت الأمة الإيرانية ، والأمة التركية إلى الأصالة الإسلامية ، ولم تفلح هذه المؤامرة الضخمة المدعومة بكل قوى التبعية في سلخ الشعبين عن إسلامهما ، ويضارع هذا ما يعلنه قادة الفكر الإسلامي اليوم من أنه لا فلك في القرن الخامس عشر الهجري إلا فلك الإسلام الذي بدأت تشرق شمسه لتبدد ظلمات بعضها فوق بعض ، وتخلص البشرية مما تعانيه من ويلات ، وتكابده من شقاء ، يوم تلبي جيوش المسلمين نداء الجهاد ، وتزحف باتجاه القدس الشريف من كل فج عميق .

وتقول مجلة باري ماتش الفرنسية تحت عنوان :

« من إفريقيا السوداء إلى أقاصي سيبيريا المد الإسلامي يغزو العالم » .

« إن تركيا لم تهضم الإصلاحات التي أقرها كمال أتاتورك . مثل الحد من تدخل رجال الدين في السياسة ، وإلغاء المحاكم الشرعية ، وإجراءات تحرير المرأة خلال فترة الخمسين سنة التي مضت . وأن تطبيق إصلاحات أتاتورك لم تكن كافية لتغيير نفوس الأتراك ، وإقناعهم بهذه الأخطار الجديدة . فالقرآن الكريم بقي حيا في النفس التركية ، فكان ذلك كافيا لإعطاء قوة دافعة عظيمة » .

ويشير المقال إلى الحزب الإسلامي الذي تضاعف عدد أعضائه في السنوات القليلة الماضية ، والذي لا يكف عن المطالبة بالخضوع لتعاليم الإسلام وقوانينه .

التبعية والأصالة :

وتركز الدراسات السياسية عن ثورة إيران على عنصر هام : هو : « التبعية والأصالة» .

يقول فرد هوليداي في أعظم دراسة عن إيران : إن أخطر ما واجهه الإيرانيون هو التبعية للثقافة الغربية « كانوا ثائرين على نحو قومي وجمالي بسبب ذلك الشكل المجدد من الثقافة الغربية التي كانت تستورد إلى إيران ، ولذا تطلع عدد محدود من هؤلاء إلى العودة إلى القيم الإسلامية ، وكان التطلع إلى قيم ما قبل الإسلام يعني أفكارا متعصبة مناهضة للعرب» .

ويقول الأستاذ أحمد حسين : « إن إيران أرادت أن تكشف وجه الحضارة

الإسلامية . حيث لا فجور ولا خمور ولا ربا . وأن الدولة العصرية التي تعني حرية الفجور والخمور ، وسيادة اليهود عن طريق الفوائد الربوية قد أصبحت مرفوضة في بلاد الإسلام» .

ويقول : « إن ما يجري في العالم الآن منذ الحرب العالمية الثانية يدل على أن شمس الحضارة الغربية قد بدأت تغرب عن أوربا بشرقها . وبدأت حضارة الإسلام تطلع من جديد من الشرق . إن انبثاق الطاقة المحركة في الدول العربية والإسلامية . هذه الحركات الإسلامية التي أصبحنا نسمع بها في طول الدنيا وعرضها . إن ما يجري في الفيليبين وفي بورما وفي أرتيريا وتشاد ، وفي لبنان وفي قبرص ، وفي تركيا نفسها . وأخيرا هذا الذي حدث في إيران . كل ذلك يدل على أن دنيا الإسلام بدأت تتحرك ، وستقف الصهيونية بخاصة ، واليهود بعامة ، لتأليب أعداء الإسلام ضد هذه النهضة ، ولا حيلة لنا في ذلك ، فهي معركة . وقد اعتاد اليهود والأوربيون والأمريكان أن يقولوا : الويل للمغلوب . أما نحن المسلمين فلا نقول ذلك ، فلو ساد الإسلام وانتصر لما كان هناك « ويل » على أحد ، إن الإسلام لا يهدد أحداً ولا ينذر أحداً . وسوف يظل العالم الإسلامي يتلقى الضربات ، ويواجه الفتن المدمرة والمؤامرات ، وسوف يموت منه من يموت ، ويتعذب من يتعذب ، ويجوع من يجوع ، ولكنه يوم أن ينهض فسوف ينسى ذلك كله ، ويقدم للدنيا مجتمعا متحضرا فاضلا ، يعيش كل من فيه مسلما كان ، أو مسيحيا ، أو يهوديا بالسلام والأمان ، وحرية العقيدة وإثبات الذات ، لا من خلال الإباحية والفوضى ، وحرية العلاقات الجنسية ، وحرية الإجهاض ، وزواج الذكور . إن الحضارة الأوربية بشرقها وغربها بما فيها أمريكا هي ما قد وصفت ، وما تمثله إسرائيل بحق ، ولذلك يقفون جميعا خلفها . وفي مواجهة ذلك يجب أن نؤكد حضارتنا نحن حيث لا فجور ولا خمور ولا ربا» .

علامات على الطريق :

تلك هي علامات وأضواء على طريق القرن الخامس عشر . تكشف مجموعة من الحقائق : قوامها أن المسلمين يدخلون مرحلة الرشد الفكري ، فلا تخدعهم كلمات الاستشراق والتغريب التي تقول لهم إن متابعة أيديولوجيات الليبرالية والماركسية هي الطريق الوحيد للتقدم والحضارة والمعاصرة . فذلك كله

وَهْمٌ زائف قد ثبت لنا فساده بالتجربة العملية من خلال الهزائم والانتصارات التي مررنا بها ، والتي كشفت لنا أنه لا يوجد إلا طريق واحد هو : طريق الأصالة الإسلامية استمداداً من منهج الله والقرآن الكريم ، ولبناء المجتمع الرباني « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » .

إن هناك قوى ثلاثة تتصارع للسيطرة على مقدراتنا وقيمنا ، وتحاول أن تمحو شخصيتنا ، وتقضي على ذاتيتنا لننصهر في أتون الأممية ، ونحن مطالبون بالدفاع حتى الموت عن هذه الذاتية . هذا الطابع الخاص الذي صنعنا به الإسلام ، والذي هو العلامة لوجودنا ولرسالتنا ، وللأمانة التي حملناها لنذيعها في العالمين . فإذا فقدنا هذه الذاتية فقد انتهى وجودنا الحقيقي . وكل المحاولات اليوم تستهدف هذه الذاتية ، ولن نستطيع أن نبني حضارة الإسلام المستأنفة إلا بها وعلى أساسها . فقد دخلت حضارة الغرب العالمية مرحلة المحاق والأفول بعد أن عجزت عن أن تعطي الإنسانية أشواقها . والخصوم يريدون أن يحرقون في ساعاتها الأخيرة ، ويريد الله تبارك وتعالى أن نبقى لنقدم للبشرية الضياء والهدى والنور الذي تتطلع إليه البشرية ، وترجو به بناء مجتمع جديد قوامه العدل والرحمة والإخاء الإنساني ، ودعامته التوحيد الخالص . ومن هنا فقد سقطت كل دعوات ديمقراطية الإسلام أو اشتراكية الإسلام ، أو تتبيع الإسلام لأي منهج من مناهج السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد ، ويبقى الإسلام وحده هو عطاء الله ، وأمل البشرية لينقلها إلى الإنسانية . وتلك مسئولية المسلمين اليوم . فإذا قامت دولة الإسلام اليوم في أي بلد إسلامي ، فإنما هي الصورة التطبيقية التي يستطيع المسلمون أن يقدموها للمتطلعين إلى الحق والهدى والرشاد .

ولنحذر دعاة الماسونية الذين يقولون إن العالم العربي لم يحس بسقوط الخلافة الإسلامية ، ولم يتأثر بها . والواقع أن العرب والترك كانت تجمعهم وحدة جامعة . وأن إسقاط هذه الوحدة كان هدف الصهيونية للوصول إلى القدس . وأن وحدة المسلمين الجامعة ما تزال هدفا حقيقيا قائما . وأن كل خطوات التضامن والوحدة والتجمع إنما تصل أخيراً إلى تحقيق الغاية المنشودة بإقامة إمامة الإسلام العليا .

الباب الثاني

مفاتيح الأصالة الإسلامية

في مطالع القرن الخامس عشر الهجري على رسالة الإسلام العالمية الخالدة التي جاءت ختاماً لرسالات السماء ، وجاء كتابها « القرآن الكريم » خاتماً لكتب السماء ، ومهيمناً عليها . على الشباب المسلم المثقف أن يكون قد وقف مع ربه ومع نفسه ومع دينه وقفة تأمل وتذكر ، ليرى ما هي أمانته ، وما هي مسؤوليته إزاء هذا الدين الحق ، وإزاء هذه الأمة ، وأن يكون قد استوعب تلك التحديات التي تواجه هذه العقيدة الربانية المصدر ، الإنسانية المضمون وما يراد بها من مؤامرات ، وما يحاط بها من شبهات ، وما يتطلب الاستمساك بها ، والدفاع عنها ، وفداءها بالروح والنفس والمال . من جانب أهلها ، ومعتقديها من إيمان عميق ، وتربية للعقل ، وتزكية للنفس حتى تكون الأمة كلها على مستوى الخطر المحدق بها ، والمسئولية المنوطة بها إيماناً بأنهم أهل الله في هذا العصر ، والمتميزون عن البشرية بالتوحيد الخالص ، والمنوط بهم إقامة المجتمع الرباني في أرضهم ، وتبليغ رسالة الله الحق إلى العالمين .

* * *

(١)

ولقد قطعت حركة اليقظة الإسلامية منذ ظهورها في العصر الحديث مجددة دعوة الإصلاح ، والعودة إلى المنابع ، ومواجهة الخطر ، ومقاومة الغزاة . خطوات ثابتة ومراحل واسعة في مواجهة التحديات التي أقامها الاستعمار والصهيونية

والشيوعية عن طريق مؤسساتها المتعددة (ومنها التبشير والاستشراق والتغريب والشعوبية والغزو الثقافي) في سبيل القضاء على الفكرة الإسلامية ، وتدمير العقيدة الإسلامية ، واحتواء المجتمع الإسلامي في محاولة لإخضاع المسلمين لمفهوم العيش الغربي واحتوائهم تحت اسم الحضارة العالمية والأممية والثقافية ، وحتى تزول عنهم الذاتية الخاصة التي شكلهم الإسلام فيها ، وأقامهم عليها . بوصفهم الأمة المختارة لحمل التوحيد الحق إلى العالمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية تحديات خطيرة : استطاعت التغلب على بعضها ، وما زال بعضها الآخر في حاجة إلى جهد بالغ وسعي دائب لمواجهتها ولمحاصرتها ، والقضاء عليها ، وكان عليها وهي في مطالع القرن الخامس عشر الهجري أن تكون مستعدة لتقديم منهجها الجامع الأصيل الذي استمدته من منابع القرآن والسنة حيث لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولا « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي » هذا المنهج الرباني القادر على أن يعطي المسلمين في هذا العصر إجابة صحيحة لكل التساؤلات وحلاً شاملاً لكل المعضلات وضوءاً كاشفاً لكل الظلمات . هذا المنهج القادر بتطبيقه إذا استجمعت إرادة الأمة الإسلامية على أن تقيمها على طريق الله الحق .

وميزة الإسلام عالميته . فقد جاء كل نبي إلى أمته ، وجاء الرسول محمد ﷺ إلى العالمين وإلى البشرية جميعاً ، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين لا نبي بعده ، ودينه خاتم الأديان ، وكتابه خاتم الكتب المنزلة ، وليس الإسلام ديناً بمفهوم العبادة أو قاصرا على إقامة العلاقة بين الله والإنسان ، ولكنه حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والاقتصادية والأخلاق فهو نظام مجتمع ومنهج حياة . وقد رفض الإسلام الخرافات الوثنية ، وتعدد الآلهة وطوابع الإباحية والتحرر من ضوابط الأخلاق كما رفض العزلة عن الحياة أو الإقامة في الأديرة أو الخوانق .

وليس الإسلام دين روحي ، ولا مذهب مادي ، ولكنه يجمع بين المعنويات والماديات في تناسق عجيب ، وهو حين يرفض روح النسك بمفهوم الرهبانية ، واعتزال الحياة يرفض في نفس الوقت روح التحلل والإباحية والانطلاق وبغير

قيود . ويقيم الحياة والمجتمعات في إطار من الضوابط والحدود ، يحول بينها وبين الارتطام والانهيار ، ورهبانية الأمة الإسلامية هي الجهاد .

وقد قدم الإسلام أسلوباً جامعاً ومنهجاً متكاملاً يواجه الأمور والمشكلات مواجهة واقعية ، فيجتمع بين خطرة الفكر ونفثة الروح . وإلى تثقيف العقل وتزكية النفس ، وإلى الربط بين العقلانية والوجدانية ، وبين المثالية والتجريبية ، وحل الإسلام ثلاث من أكبر قضايا العصر ، وهي التي ما تزال معضلات كل العصور وهي : العنصرية ، والقبلية ، والطبقية .

- شجب الإسلام العنصرية ، وأحل محلها الإخاء .
- شجب الإسلام القبلية ، وأحل محلها التعارف .
- شجب الإسلام الطبقية ، وأحل محلها التضامن .

﴿ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض . وأن هذاصراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبع السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ومن أجل هذا . فإن شباب الإسلام المثقف يجب أن يكون ملماً إلماماً عميقاً بإبعاد هذا التحدي الخطير حتى يكون قادراً على مواجهته وحمل الأمانة التي حملها الأبرار جيلاً بعد جيل في سبيل الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه لا يفتر ولا يلين ولا يضعف ، وأن يعيش مرابطاً في سبيل الجهاد على مواقع المواجهة ، غير مستسلم ولا متراجع حتى يقبضه الله وتعالى على ذلك .

(٢)

إن أول ما يجب أن نؤمن به أن معنى الإسلام هو إسلام الوجه لله وإخلاص العمل له سبحانه وحده حتى لا يكون لغيره شريك يعبد ، وهو إسلام خضوع وانقياد لله وحده ، وليس لأحد غيره ، والدين واحد على لسان جميع الأنبياء **﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾** والدين منزل من عند الله ، وليس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية من نتاج الأرض ، وليس هو أفيون الشعوب ، وميزة الإسلام : التكامل بين القيم ، والإيمان بالأنبياء والرسل جميعاً . والإيمان برسالاتهم وكتبهم وتنزيههم جميعاً ، وعصمتهم . وقد أحيا الإسلام ملة

إبراهيم فهو لا يستمد تسميته من جنس ولا من بني ، ولا من نحلة وإسمه يعبر عن جوهر، وفكرته الأساسية ، وهي التسليم لإرادة الله وطلب هدايته .

(٣)

كذلك قطع الإسلام : الامتداد الفكري والثقافي بين ما قبل الإسلام وبعده . قطعه من العرب أولا ، ثم عن كل مكان ذهب إليه . وقد ذهب إلى قلب آسيا وأفريقيا ، فنزعها تماما من عبودية ألف سنة لليونان والرومان . ثم قطع امتداد العبودية الفرعونية والفارسية والقيصرية للإنسان ، وقطع امتداد الوثنية في العالم كله ، وأطلق العقل البشري من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد ، ورفعه إلى الاعتقاد بحياة أخرى وراء هذه الحياة .

● وليس في الإسلام طبقة معينة تدعى رجال الدين ، لهم في علاقاتهم بالمسلمين حقوقا ليست لغيرهم ، وإنما يوجد علماء متخصصون وفقهاء لهم حق المشورة والفتوى .

والرسول محمد ﷺ : هو النموذج الكامل المعصوم المؤيد بالوحي الذي لا ينطق عن الهوى ، وهو المثل الكامل والصادق الذي ظل المسلمون على مدى الأجيال (ولا يزالون) يترسمون خطاه ، وهو القدوة المثلى أمام المصلحين والتوابع والقادة والمجاهدين ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ .

وقد أعطى الإسلام مفهوم التوحيد الخالص ، ومنح الجماعة الإسلامية شحنة ضخمة من القوة والإيمان والاستشهاد والتضحية رفعت المسلمين في أقل من قرن من الزمان إلى السيطرة على القادتين : آسيا وأفريقيا ، وإلى الامتداد من الصين إلى جنوب فرنسا ، ثم ما زال الإسلام يقتحم في كل يوم أرضاً جديدة ، ويفتتح قلوباً جديدة حتى أربى عدد المسلمين اليوم على ألف مليون .

● ولقد جاء الإسلام للبشرية بعد أن مرت بمراحل طويلة من الإعداد والترشيد على طريق رسالة الله الواحدة وعلى أيدي الأنبياء والرسل حتى أوفت على الوجه الذي جعلها قادرة ومتصلة للرسالة الخالدة التي هي ختام الرسالات ، وآية الله الباقية في العالمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومنذ ظهر الإسلام وكل حدث في العالم والبشرية مرتبط به على نحو من الأنحاء ، فلم يزل منذ ذلك التاريخ عاملاً مؤثراً في الأحداث . ذلك لأنه قدم للبشرية الدين الأول من جديد ، وأقام عالماً خالصاً مستقلاً متميزاً بنظرته الربانية إلى الحياة ، وأسلوبه الإنساني في العيش ، وحضارته القائمة على العدل والإخاء ، وفكره القائم على التوحيد . ولقد حمل الإسلام إلى البشرية في مرحلة استرشادها : العدل والإخاء والتقدم . وأكد أن العلم فريضة ، ثم قدم منهجاً كاملاً تلتقي فيه غايات النفس الفردية ومطامحها العالية ، ويتم بناء الفرد وبناء الجماعة على السواء على طريق التكامل .

(٤)

اكتملت مفاهيم الإسلام وقيمه في حياة النبي ﷺ ، ولم تجر إضافة إليها بعد . سواء عن طريق اتصال الفكر الإسلامي بالثقافات الأجنبية ، أو عن طريق التفسيرات والشروح ، وبقي :

(منهج الإسلام الأصيل) صافيا محررا لم يختلط بأي مما جرت به الفرق أو النحل أو المذاهب ، وكان القرآن ولا يزال هو النص الموثق الذي لا يزال كما نزل به وحي السماء .

ولقد فتحت دعوة الاجتهاد الطريق إلى الفروع ، ولكنها لم تتصل قط بالأصول الثابتة ، والحدود التي أقامها الشرع ، وما بين من حلال وحرام ، ومن ضوابط وزواجر . وفي هذا الإطار أخذت المجتمعات الإسلامية حقها في الحركة حسب ظروفها وأوضاعها ومتغيرات الزمن والبيئة . ومن ثم تحرك الفكر الإسلامي في إطار القرآن . وتقرر في كل ما يواجه المسلمين أن يعرضوا أنفسهم عليه . ولقد كان مفهوم الإسلام الأصيل مرجعاً يرد دعاة الإعلاء بالعقل كالمعتزلة ، أو الإعلاء بالوجدان كالزهاد والصوفية فرفض الانحرافين ، وحطم قيد الإغريقية والهيلينية . وقد استطاع منهجه الأصيل أن يحول دون استيعاب الفلسفات له أو احتوائها إياه كما فعلت ببعض النحل والأديان .

(٥)

ومن أبرز قوانين الإسلام وسننه التي لم تتخلف : قدرة هذا النظام الفائقة

على تجديد نفسه ، وإعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر أو أصابته دخائل تحول بينه وبين جوهره الأصيل . وبذلك كان دوماً كياناً حياً قادراً على الحركة والنمو والامتداد ، متمكناً من التجدد كلما أصيب أحد أطرافه العطب .

ومن هنا كانت قدرته الفائقة على التوسع في مختلف البيئات والتكيف مع عديد المجتمعات . ومنذ أن بزغ نجمه إلى اليوم لم يتغلب عليه متغلب من الدعوات أو الأمم . وإن امتحن أهله بالأزمات والشدائد فهم لا يخرجون منها حتى يعودوا إليها متى ضعفت قبضتهم عن تنفيذ منهج الله في المجتمعات الإسلامية .

ولذلك فإن على المسلمين في إبان المحن والأزمات أن يعودوا إلى المنابع الأولى ، وأن يلتمسوا أصول الإسلام قبل ظهور الخلاف من أصوله القرآنية ، والسنة النبوية الصحيحة ، وأن نؤمن بأن كل ما انحدر إلينا من الماضي ليس إسلاماً منه ، فكثير منه قد وضعه شعوبيون وفلاسفة ملاحدة . وأن بين الحق والباطل : هوى النفس والظن الخاطىء ، فإذا تغلب الهوى استخدم العقل لتبرير الفاسد من الأمر ، والبحث عن الرخص دون العزائم ، وإيثار السلامة على المعاناة .

ولقد كشف الإسلام عن قدرة كاملة على الحركة والتطور والنماء والتوليد والأخذ والعطاء ـ كل ذلك داخل إطاره الثابت ومع احتفاظه بذاتيته الخاصة ، فهو يواجه المؤثرات الأجنبية حين تفرض عليه ، فلا يخضع لها . ولكنه يستفيد منها ، ويتقبل الصالح لنموه ، دون أن يدعها تسيطر عليه ، أو تغير ملامحه ، أو تحول طريقه ، أو تحتويه ، لقد جاء الإسلام حاكماً على الأمم والمجتمعات ، ولم يجيء محكوما . فهو ليس مطية ذلولا للحضارة الحديثة . وليس خادماً للمجتمعات أو الدعوات أو المذاهب . بل هو نظام مستقل كامل جامع له مقوماته الأصيلة التي قد تتشابه في بعض مظاهرها مع أنظمة أخرى . ولكنها في مجموعها متميزة بطابعها الخالص المفرد ، وهي لذلك لا تخضع ولا تنصهر ولا تحتوي ولا تستسلم .

(٦)

وتتمثل نظرة الإسلام الكاملة إلى الحياة والمجتمع ، والفرد في الجمع بين

الأبعاد الروحية والمادية والعقلية . ذلك أن مفهوم الإسلام له طبيعته الخاصة التي تلتقي فيها القيم والعناصر ، وتتشابك في توازن واع . وفي موائمة صالحة . ولقد أثبت مفهوم الإسلام الجامع المتكامل صلابته واستقلاليته وقدرته على البقاء ، فإنه في أكثر من أزمة لم يسقط ولم ينهار ، ولكنه كان يجدد نفسه ويستعيد صياغة مفاهيمه الأصيلة المستمدة من القرآن . ولقد كان كفاح المسلمين على مدى العصور قائماً على أساس الحيلولة دون هيمنة أي فكر أو ثقافة أو عقيدة على مفاهيم الإسلام الأساسية . ولقد جرت المحاولات قديماً عن طريق الباطنية والشعوبية لتحريف مفهوم الإسلام والسيطرة عليه . وكانت مفاهيم الإغريقية والوثنية والمجوسية تصارع في سبيل احتواء الإسلام . وقد عجزت جميعها . وفي العصر الحديث تتكرر المحاولة عن طريق الاستعمار والصهيونية والشيوعية .

وقد أثبت الإسلام مقدرته الفائقة على المقاومة والاحتفاظ بذاتيته نقية من كل محاولات الاحتواء والإفادة من كل ما يعرض عليه .

ولقد تميز الإسلام بقدرته على تصحيح طريقه ، وعرف بانتفاضاته مرة بعد مرة لتجديد نفسه ولإسقاطُ كل ما اتصل بجوهره من مفاهيم غربية عنه ، فهو قادر دوما على رفض الدخيل قدرة الأجسام الحية على رفض الغريب عنها .

(٧)

ولا ريب أن من أبرز طوابع الإسلام : هي « عالميته وإنسانيته » .

فقد جاء للبشرية كلها وللعالمين إلى يوم الدين . ومن أبرز دلائل عالميته وأهليته للبقاء واستحقاقه للانتشار .

- تطابقه مع الفطرة الإنسانية .
- قدرته على العطاء الكامل لكل العصور والأزمنة والبيئات .
- طابعه الإنساني في الإخاء والمساواة .

ويقوم مفهوم الإسلام أساساً : على تحرير الإنسان من كل القيود .

تحرير عقله وروحه وجسده جميعاً .

فهو يحرر الإنسان من قيد الإنسان ، من العبودية الفكرية ، ومن العبودية

الاجتماعية . ومن الانحراف إلى الإباحة والتحلل ، أو الانحراف إلى الزهادة والتجمد ومن الإنحراف إلى الترف والهوى وكل ما حرم الله .

وقد عني الإسلام بإفراغ مفاهيمه وتعاليمه ومقاصده في صيغة كلية وأصول عامة .

ولقد أقر الإسلام الخلاف في الفرعيات ، ووجد فيه سعة ورحمة ، وكان من أكبر معطياته : قدرته على الجمع بين الأخلاق من ناحية ، والقيم السياسية والمادية والاجتماعية فالإسلام يقدم للبشرية طابع أخلاقية الحياة ، ويربط الدنيا بالآخرة ، والنفس بالجسد ، والفرد بالمجتمع .

والإسلام لا يحتقر الأمور الدنيوية ، ولكنه يرمي إلى مثل أعلى رفيع جامع بين الدين والدنيا ، ومفهوم التقدم في الإسلام هو : مفهوم جامع معنوي ومادي في نفس الوقت .

ويرى الإسلام أن كل حضارة لا ترتكز على الخير والعدل حضارة زائفة .

(٨)

ولقد جاء الإسلام ظاهرة مستقلة عن فعل البيئة ، فهو لا يخضع ،شأنه شأن النبوات ورسالات السماء - للتفسير المادي للتاريخ . ولم يكن ذا علاقة برد فعل لظروف الحضارات أو أحوال الأمم .

ويخطىء من يقول : إن الإسلام جاء بعد أن خضعت الروم والفرس ، أو أنه جاء نتيجة انقلاب في نظم الإنتاج أو علاقات الإنتاج في قريش ، أو انبثاقاً من واقع اقتصادي على وجه العموم .

فقد جاء الإسلام كظاهرة ربانية قادرة على تحريك التاريخ وتغيير المجتمعات . وأعلن منذ يومه الأول المساواة في الفرص وضمان حد الكفاية للفرد . وتحقيق التوازن الاقتصادي بين الفرد والمجتمع .

ومن هنا فإن كل تفسير يهدف إلى تفسير حروب الإسلام اقتصادياً ، أو القول أنها كانت من أجل دفع الفقر أو رغبة في الحصول على الغنائم ، هو تفسير فاسد . وبذلك سقط ويسقط منطق نظرية التفسير المادي للتاريخ الذي يحتم

انبثاق كل انقلاب سياسي عن انقلاب مناظر في نظام الانتاج وعلاقاته .

(٩)

ما تزال تواجه « المجتمع الإسلامي » تحديات كبيرة نتيجة حركات التغريب والتبشير والاستشراق ، وحركات الماسونية والروتاري . وهذه المنظمات المشبوهة التي قامت لأحداث الانشقاق والانحلال بين الشعوب الإسلامية ، وهي من أتباع الاستعمار . وقد قامت على المدى الطويل بإفساد التعاليم الإسلامية والمصادر الإسلامية وإثارة الشبهات حولها .

ولا ريب أن هناك تحديات خطيرة تواجه المجتمع الإسلامية على طول أرض الإسلام » من المعتقد أنها جوهر المسئولية التي يحملها المثقفون المسلمون في مطالع القرن الخامس عشر . وعليهم أن يفرغوا لها الجهد والوقت والعزيمة .

● تطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمعات الإسلامية التي يقوم العمل فيها على أساس القانون الوضعي ، والتي تطبق جزئيات من الشريعة الإسلامية .

● بناء الاقتصاد الإسلامي بديلاً للاقتصاد الوافد الذي يقوم على مفاهيم امبراطورية الربا اليهودية صانعة نظام المصارف والفوائد والاقتصاد السياسي .

● بناء الشباب الجديد على أساس التربية الإسلامية الجامعة بين الروح والعقل والجسم من أجل دعم الأسرة وتأكيد ذاتيته الشخصية الإسلامية ، وبناء روح الأخلاق والعقيدة ، وسلامة السلوك الاجتماعي .

ولا ريب أن التيارات الوافدة ، والمؤثرات الأجنبية تعمل في ميدانين .

(١) تدمير الأسرة والمجتمع الإسلامي ، بإذاعة الفساد الاجتماعي ، والتحلل والترف والإباحية .

(٢) إفساد العقل الإسلامي والنفس الإسلامية بإذاعة المفاهيم الباطنية ، والشعوبية ، والمادية ، والوثنية القديمة ، ونشر الإلحاد ، وإذاعة مفاهيم الفكر الشيوعي والمادي والوثني الإباحي والتلمودي . إلى أرض الإسلام تحت أسماء كثيرة ، تحت إسم الفكر الحر ، وتحت إسم البهائية . وتحت إسم الماسونية (الروتاري) وتحت إسم العلمانية .

(١٠)

وقد وقف الإسلام موقف المعارضة والمقاومة والمواجهة أمام كل هذه التيارات الأجنبية (غنوص الشرق فارسيا وهنديا) وغنوص الغرب (الأفلاطونية المحدثة) . وكذلك مذاهب الشيوعية والليبرالية ، والقومية الضيقة والوجودية . يجالدها أشد مجالدة ، ويجاهدها أعنف جهاد .

ولا ريب أن التماس مفهوم الإسلام في مجال الأدب والتاريخ والحضارة والمجتمع يغير النظرة إلى أشياء كثيرة ، ويكشف زيوفاً كثيرة ، ويحطم مسلمات قائمة (قامت بالباطل والزيف) ليست لها حقيقة أساسية أو أصالة جذرية .

لقد استطاع التغريبيون والشعوبيون ، ودعاة الغزو الفكري خلال أكثر من خمسين سنة طرح كثير من المفاهيم المسمومة عن طريق الصحافة هي في حاجة إلى تصحيحها، خاصة ما اتصل منها بالدولة العثمانية ، والسلطان عبد الحميد ، وأتاتورك ، وغاندي ، والفرعونية والقصة والمسرح ، واللغة العربية ، والقانون الوضعي أن « الحداثة » وحدها لا تستطيع أن تقدم شيئاً ذا بال أو إضافة بنائه صحيحة . ، إذ لم تكن مرتبطة « بالأصالة ، وبوجود الأمة ، وحقيقة رسالتها وهدفها » . وأن التطلع إلى التقدم العلمي والتكنولوجي لن يكون له فائدة إيجابية إذا لم تصدر عن إيمان ببناء الأمة ، وأن تتحرك داخل إطار فكرها وقيمها .

كذلك ، فإن الحوار مع الفكر العالمي يجب أن يتم في داخل إطار « الأمانة » التي تحمل لواءها (الأمة الإسلامية) للبشرية كلها دفعاً إياها إلى الحق وحجزاً لها عن الشر .

(١١)

إن القيم الإسلامية الأساسية ثابتة راسخة ، لأن مفاهيمها الحضارية والفكرية تصورات ربانية رسمها خالق الكون العليم بطبائع الناس ودورة الأفلاك . فهي منزهة عن التناقض والالتباس قادرة على مواجهة مختلف العصور والبيئات ، وهي في ثبات أصولها قادرة على التفتح على مجالات الحركة والتطور وقابلة للتقدم والنهوض . وهي في غايتها ربانية خالصة تقصد وجه الله ، وتستهدف تحقيق المجتمع الرباني في الأرض .

ومن هنا لا تقر مفهوم العلم للعلم ، أو البطولة للبطولة ، أو الكرم للكرم . ولكنها تجعل العلم والبطولة والكرم موجها إلى الله تعالى .

ولقد كانت « السنة الجامعة » هي البوتقة الناصعة التي انصهرت فيها كل الثقافات والنحل والدعوات التي طرحت في فلك الفكر الإسلامي . فاستصفتها السنة وحررتها من شبهاتها ، وأخذت عصارتها الطيبة فضمتها إلى كيانها . فالسنة هي النهر الكبير ، والمذاهب والفرق روافد . والتقت « السنة » بالكلام كما التقت بالتصوف ، والتشيع . ولكنها صهرت خير ما في ذلك كله في مضمونها الجامع الأصيل الذي يستمد حقيقته ووجوده من الفهم النبوي للقرآن .

ولا يزال مفهوم الإسلام الأصيل « وسيظل » عائقاً خطيراً وحاجزاً هاماً ضد نشر ضلالات التقدميين الذين يريدون أن يخدعوا الناس بالاقتناع بزيف قولهم عن الإسلام من أن وظيفته ليست خالدة ، أو أن أحكامه وتشريعاته لم تبق صالحة للتطبيق ولا منسجمة من التطور الذي حدث في العالم ،وأنها نزلت في مجتمع بدائي وأدت مهمتها . فإن ما يدحض هذا القول أن منهج الإسلام هو منهج رباني صالح للبشرية في جميع مراحلها . وليس كمناهجهم ونظرياتهم البشرية التي لا يستطيع أن يتجاوز عصرها أو بيئتها والتي سرعان ما تفسد وتحتاج إلى الترميم بالإضافة والحذف . ذلك أنه من صنع الخبير المحيط بالأمم والعصور والأزمان . إن أبرز مفاهيم الإسلام هو : التكامل بين أعماق القلب ومجرى الفكر ، وإقامة مبدأ التعاون الذي هو أبرز وأكثر أصالة من مبدأ الصراع . وذلك بناء على ما قرره الإسلام ، وكشفت عنه الأبحاث العلمية من أنه ليس بين الإنسان والطبيعة صراع . ولكنها بينهما تكامل . ولذلك فنحن لا نقر عبارة صراع الأجيال ونؤمن بلقاء الأجيال .

لقد دعا الإسلام إلى ثلاث مقررات أساسية عالمية .
الإخاء الإنساني ـ ووحدة الشرية ـ ووحدة الدين .

كما حطم الإسلام عبودية الإنسان للإنسان ، وعبودية الأوثان .

لقد كان من الخطأ وصف الإسلام بأنه ثورة ضمن الثورات العديدة التي قام بها الإنسان على مر التاريخ . فهل الإسلام ثورة تمر بمراحل عديدة تستقر ، ثم

تتجدد ، وتتبدل . وهل الإسلام ظاهرة مرتبطة بعصر أو بيئة ، أو أنه جاء ردًّا على ظروف اجتماعية في القرن السابع الميلادي كما يقول بعض الباحثين .

(١٢)

الحق إن الإسلام ليس مذهباً ولا نظرية ، ولا أيديولوجية بشرية ، ولا دين أمة . ومن ثم فإن صفة « الثورة » لا تنطبق عليه ، وإنما هو « ظاهرة » ربانية جاءت في وقتها الذي حددته إرادة الله لنقل البشرية من الطفولة إلى رشد الإنسانية . ولذلك فهو ليس خاضعاً لمفهوم التفسير المادي للتاريخ ، أو مفاهيم الثورات أو الجبرية الاجتماعية التي وصفت بها الأيديولوجيات ، التي صنفها البشر ، والتي عجزت عن الاستمرار ما لم يدخل إليها تعديل بعد تعديل . كما عجزت عن العطاء الروحي أو النفسي للبشرية ، وتركتها تسقط في صراع الطبقات ، أو أزمة الغربة والتمزق النفسي .

(١٣)

إن مهمة الكاتب المسلم تتلخص في إضاءة الطريق أمام الإنسانية لتعرف ربها ، ولتعرف طريق الخلق إلى الحق وقفاً لتوجيه الرسول صلوات الله عليه . « اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، لا ضالين ولا مضلين ، عونا لأوليائك ، حربا لأعدائك ، نحب بحبك من أحبك ، ونعادي بعدواتك من خالفك » . وألا يكون الكاتب المسلم ممن ينطبق عليه صفة الضالين . **﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ﴾** .

وقد رأينا هؤلاء الكتاب ، وقد حلت بهم سنة الله وهم أحياء ، فأخزاهم الله في الدنيا ولهم في الآخرة لواء غدر . يوم ينصب لكل غادر لواء .

على الكاتب المسلم أن يعطي قراءه ما يحتاجون إليه وليس قصاراه أن يعطيهم ما يرغبون فيه ، عليه أن يرفعهم لا أن يهبط بهم .وعلى الذي ارتفع أن لا يهبط . وعلى الذي هبط أن يرتفع ، ويعاب عليه أن يبقى حيث كان . وعلى دعاة الفكر الإسلامي أن لا يبقوا بمعزل عن التيارات والأيديولوجيات ، وإدراك حقائقها وما ترمي إليه . ذلك لأن دعاة الفكر المادي يبذلون أقصى ما يستطيعون لتركيز سمومهم في طلائع الشباب المسلم المثقف موهمين إياهم أن طريقهم

ومبادئهم هي وحدها الكفيلة بتحقيق ما تطمح إليه الشعوب . وعلى المثقفين المسلمين أن يحذروا من « الالتباس » الذي يثيره التغريب بين القوى المتقابلة أو المتكاملة أو المتماثلة : كالروح والمادة ، والدينا والآخرة ، والعروبة والإسلام . على الكاتب المسلم أن يوجه المثقف المسلم إلى النظر إلى ما وراء النصوص والكلمات إلى أبعاد القضايا وخلفياتها ، وإلى ترابطها ، وإن لم يكن ذلك ظاهراً على سطح الأحداث .

وعلى الكاتب المسلم أن لا يعكس صورة عصره مبرراً للواقع الفاسد ، وإنما عليه أن ينقل مجتمعه من الشر إلى الخير ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الظلم إلى العدل ، وأن يفتح الطريق أمام أهل عصره إلى القيم ، وأن يربط بين واقعهم وبين المثل الأعلى ، وأن ينقلهم من الصورة القائمة في المجتمعات المعاصرة إلى المفهوم الأسمى الذي يحقق إرادة الله تبارك وتعالى في الأرض ببناء المجتمع الرباني .

على الكاتب المسلم أن ينقل البشرية إلى الإنسانية ، وإلى قيم الأصالة التي حجبتها المادية والوثنية والتقاليد ، وانحرافات الأجيال .

إن كثيراً من الكتاب يفخرون بأنهم يعكسون قيم عصرهم ، وهؤلاء ليسوا في الحقيقة إلا أتباع وأولياء وعبيد ، أما المفكر المسلم فهو القادر أن ينقل مجتمعه من الواقع إلى المثال ، ومن المادة إلى القيم ، ومن المادية والوثنية وأهواء النفس إلى التكامل الجامع ، والتوحيد والحق المبين . إن المفكر المسلم لا يقر دعوة الأغاني الخليعة ، والأفلام الإباحية الداعية إلى عبادة الحياة ، ولكنه يدعو إلى تذليل الحياة والناس إلى عبادة الله تبارك وتعالى .

(١٤)

إن الأزمة النفسية التي يمر بها « الشباب المسلم » إنما ترجع إلى غياب الطابع الديني والروحي والمعنوي ، وإلى غلبة المفاهيم المادية التي تجر أهواء النفس وراءها حتى تحجبها عن القيم والمثل والأخلاق ، وتحمل صاحبها على أن يلتمس أي وسيلة لتحقيق الهدف المادي وحده ولو على حساب الفيم والمثل .

إن أخطر ما يحاول التغريب والغزو الثقافي إقراره في الشعور الإسلامي ، هو الانعزال عن النظر في خلفيات الأمور ، فهو يستهدف تضييق دائرة الفكر وقصر

النظر دون معرفة البواعث . وقد تبين أن من خلف المخططات التي تواجه الشباب المسلم القوى والتنظيمات يجب كشفها ودحض شبهاتها . فليحذر شبابنا المثقف كتب الأحاجي ، وأحداث الإجرام والقتل ، وقصص العرافين والسحرة ، وقصص الحب والهيام ، مما يثير رغبة العامة ، ويدفعهم إلى اقترافها .

وفارق بين المسلم الرباني صاحب الرسالة ، وبين أي إنسان آخر لا يرى إلا ما تحت قدميه ، حيث يقنع بلقمة طيبة أو مركب فاره . أما المسلم الرباني فهو في سباق مع الزمن لا يشغله شيء عن ربه ودينه ، تسمو مطامحه إلى الآمال الكبيرة ، ولا يتوقف عند المطامع الصغيرة ، يرى الآفاق الواسعة ، وتتطلع إلى الأفق البعيد .

وعلى الشباب المسلم أن يبين الفارق العميق بين حكم العقيدة وحكم الهوى في مواجهة أي أمر من الأمور .

لقد حاول الإسلام أن يحطم قاعدة حكم المزاج ذي الظن والهوى للإنسان تحت اسم المبررات العقلية والمنطقية ، أن الله تبارك وتعالى لم يهب الإنسان العقل ليتمكن من تبرير الأسباب واختلاق العلل لما يريد عمله ، وإنما ليكون مهتدياً بنور الوحي يحل حلاله ويحرم حرامه ، وليحكم شرعة الله في كل الأمور ، والتماس حدود الله في كل المواقف . ، وإقامة ضوابط المجتمع التي تجعل المسلم فرداً وأسرة وجماعة على طريق الأصالة على طريق العزائم والإرادة الصلبة القادرة على المقاومة والتغيير على الصراط المستقيم .

على الشباب المسلم أن يعلم أن « العمر » هو رحلة سفر الإنسان إلى الله تبارك وتعالى ، فليحاول أن يستفيد منها لحظة لحظة . فالوقت هو الحياة . وإن علامة أعراض الله تبارك وتعالى عن العبد هو اشتغاله بما لا يعنيه من لهو الحديث ، أو أهواء النفس . وإن امرؤ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له من العمل الصالح لجدير بأن تطول حسرته .

وعلى الشباب المسلم أن لا يستسلم لأهواء النفس أو مغريات الحواس ، وأن يجعل الإيمان حاجزاً بينه وبين الشر ، ويجعل التقوى حامية له من الافراط والتفريط .

وأهم ما دعا إليه الإسلام : عزم الأمور وتزكية النفس .
والضعيف في الإسلام أمير الركب .
وعلى المسلم أن يطابق بين الكلمة والسلوك .
وأبرز معطيات الإسلام : الإيجابية المتفائلة برحمة الله .

وقد جعل الإسلام ضوابطه مستهدفة عدم استهلاك الإنسان لطاقاته الجسدية والمادية بالدعوة إلى القصد لا الإسراف وتقوم الغاية في الإسلام على فكرة التقوى والبذل ، بينما تقوم الغاية في الفكر الوثني على الرفاهية . هذه الرفاهية الجشعة التي تتعارض مع الرحمة والبذل والفداء .

(١٥)

العودة إلى المنابع هي : صيحة المسلمين في كل أزمة ، وكلما ادلهمت الأحداث وأحاطت بهم الأزمات . لقد كانت دعوة الغزالي ، وابن حنبل ، وابن حزم ، وابن القيم ، وابن عبد الوهاب ، وما تزال دعوة كل المصلحين .

ولا بد من حضانة فكر إسلامي يحول دون سيطرة أي فكر غريب كما تحول دون الانبهار بأي فكر ، أخذ يهز ببريقه بعض النفوس البسيطة . ولا بد من اعتماد منهج المدرسة القرآنية التي تعتمد على القرآن والسنة ، والقائمة على التربية وبناء الفرد المسلم . لقد كانت مدرسة اليقظة الإسلامية تعتمد المنطق والفلسفة وأسلوب الكلام في بعض مراحلها . ولما لم يحقق ذلك شيئاً ذا بال ، فقد برزت المدرسة القرآنية القائمة على الأصالة تماماً ، كما حدث في عصر الترجمة الأول . ولقد أثبتت المدرسة القرآنية أنها أكثر عمقاً وأصالة ، فقد حمل لوائها دعاة أبرار التمسوا منهج الفكر وأسلوب الرد والجدل من القرآن نفسه ، وقالوا : أن القرآن هو الأصل الأصيل للفكر الإسلامي فإنه يستطيع أن يقدم الإجابة الحاسمة ويدحض الشبهة الزائفة .

ولقد هزمت النظريات الفلسفية والأفكار الملحدة والوثنية كثيراً من الديانات والملل والنحل . بعد أن غزتها في عقر دارها ، ولكنها وقفت حائرة أمام الإسلام ، فلم تستطع صرف أبنائه عنه رغم أساليب القهر والعسف فبقي في معاقله كالطود الشامخ . ذلك لأنه استعصم بالأصالة والمنابع الأولى .

كذلك رفض الإسلام « التطور » على حساب « الأصالة » .

ورفض « التقدم » على حساب الجذور والقيم الإسلامية . كما رفض تضحية القيم العليا في سبيل التقدم المادي ، ولم يخضع الإسلام مفاهيمه للظن والأهواء البشرية .

ذلك أنه ليس في المناهج أو الدعوات أو الأيديولوجيات المطروحة من شيء إلا وعند المسلمون في ميراثهم وتراثهم مثله أو خير منه . وهو في الغرب مقطوع الصلة بالله ، ولكنه في الإسلام متصل الحلقات ، وهو في الغرب انشطاري ، ولكنه في الإسلام جامع متكامل .

إن المحاولات التي ترمي إلى استقطاب المسلمين واحتوائهم في إطار الحضارة الغربية ـ التي تمر بمرحلة الأزمة والتمزق ـ والتي يصرخ أهلها طالبين التحرر منها محاولات باطلة غاشة زائفة .

لقد كان موقف الإسلام على مدى تاريخه وحياته واضحا ، أنه لا يحتوى ولا ينصهر ولا يبرر الواقع الفاسد ، ولا يؤول لخدمة الحضارة الزائفة .

إن الإسلام بريء مما وصل إليه المسلمين في عصورهم المتأخرة من تخلف ، وإنما يرجع التخلف إلى تدهور أخلاق المسلمين ، وبناء حياتهم على هامش العقيدة التي هي عصمة الأمر كله ، وبعيدا عن تحذيراته التي هي صمام أمن المجتمعات . ومن هنا استطاع خصومهم أن يلجوا عليهم ديارهم ، ويستعمروا أرضهم ويسلبوهم أعز ما يملكون .

إن الحركات المناهضة للإسلام لم تنل من المسلمين إلا حين تراخت قبضة قادة المسلمين عن تطبيق الشريعة ، والتهاون في حماية الثغور والمرابطة فيها ، والحذر من العدو وإعداد العدة لمواجهته .

(١٦)

استهدف الإسلام : إقامة مجتمع رباني المصدر ، إنساني الطابع ، فيه عالمية الإسلام ، وشمول شريعته التي صاغها الحق تبارك وتعالى . والمجتمع الرباني المصدر ، الإنساني الطابع ليس مجتمعاً إقليمياً أو قومياً أو جنسياً . فقد ألغى

الإسلام أفضلية القبلية والعنصر والقوم بكل أبعادها ، وقلبها رأساً على عقب ، وأظهر صورة جديدة قوامها : الأخوة الإنسانية التي تحاول الأيديولوجيات الحديثة هدمها بالدعوة إلى القوميات والإقليميات ، وهي التي يحاول الاستشراق تشويهها بإعادة الحديث عن الصراع بين بني هاشم وأمية ، وبين عدنان وقحطان ، وبين الموالي والعرب ، وكلها محاولات باطلة مضللة . أو الدعوة إلى إحياء التاريخ القديم السابق للإسلام بتجديد الفرعونية والفينيقية . واليوم تنكشف شمولية الشريعة الإسلامية التي صاغها الحق تبارك وتعالى التي تدعو إلى إقامة المجتمع الأصيل ، ويقيم الوحدة الإسلامية على أساس روح الفكر والثقافة والإيمان ، وليس على أساس الصفات الجنسية لكل أمة .

ولعل من أبرز معالم المجتمع الإسلامي أنه لا يعرف الفصل بين الدين والحياة ، فإن شريعة الإسلام ستنظم أمور الدنيا ، كما تقرر أمور الدين . وإذا كان المجتمع الإسلامي ناطق بلغة القرآن لم يكن يعرف في الواقع أي فصل بين الحكم والإدارة ، والقانون والاجتماع ، والفن إلى آخر ما تبتدع ملكات الإنسان العقلية وتفرزه طاقاته البدنية من نشاطات أن مفهوم التقدم في الإسلام مفهوم جامع بين المادة والروح .

والواقع أن حقيقة النجاح هو العودة إلى الله ، والتماس شرعته . وإن هذا النجاح هو التقدم وأي تقدم لا يسلم البشرية إلى رضاء الله ، وتحقيق المجتمع الرباني في الأرض ليس أمراً حقيقياً . وليست كل مباهج الدنيا كالنجاح والثراء والسلطان والمتعة . إلا متعة عارضة يفرح الناس بها كما يفرح الأطفال بلعبهم ساعة من الزمان .

أما الفرح الوحيد الباقي هو : الفرح الذي ينبع من اتصال المخلوق الفاني بالله الأزلي الخالد . وكل شيء غير هذا الفرح ليس إلا آلاماً وأوجاعاً وإن كانت ترتدي ثياب السعادة .

ومن الحق أن معطيات الإسلام : هي وحدها القادرة على أن تحفظ للمجتمعات الإسلامية كينونتها ، وتمنحها قدرة ذاتية فائقة على مواجهة كل محاولات الإذابة والتشويه .

ومن هنا كانت محاولة الغزو الفكري العمل على تعطيل فعالية الشخصية المسلمة المتكاملة البناء بنزعها عن جذورها عن طريق إهمال هذه القيم الأساسية، وانتهاج أسلوب جديد في تناول المعرفة يتجاوز تكامل الثقافة الإسلامية، ويحيلها إلى مادة معزولة تدرس كوحدة قائمة بذاتها لا أثر لها في بقية المعارف التي يدرسها الملتقي، والتي تنطلق في معظمها من منهج يرمي في جملته إلى هدم الدين وتشكيك المسلمين في حضارتهم التي انفصلت عن واقع حياتهم عن حياة المجتمع النشطة التي توجهها حضارة المستعمرين، وتدفعها مؤسساتهم الجديدة.

ولقد كان من أسوأ ما نجحت فيه الحضارة الغازية فيما يتعلق بالشخصية المسلمة هو هذه الازدواجية التي نشاهدها في حياتنا المعاصرة بين مظاهر خارجية تعكس أشكال الحضارة الغازية وبين أصول حضارتنا الإسلامية، ويتجلى الصراع بين الأصيل والدخيل في ذلك التمزق الذي تعانيه الشعوب المسلمة بين قيمها الأصيلة وبين ما يهاجمها من مفاهيم وافدة وثيلات مضللة.

(١٧)

الأصالة الفكرية هي: القدرة على التمييز بين ما هو من المنابع الأولى، وما هو دخيل لا يتلاءم مع جوهر التراث، ثم القدرة على الأخذ والانفتاح على الفكر الإسلامي في حدود مقاصد القيم الأساسية التي قررها الإسلام الوسط في الإسلام ليس التوفيق بين اليمين واليسار، أو بين الشرق والغرب، ولكني بمعنى إدراك العدل الذي يتجنب به في الاعتقاد والعمل مخاطر الظلم في ممارسة الحياة، ومخاطر السلبية في رفض الحياة. كذلك فإن تحكيم العقول في حسن الأفعال وقيمها هو مقالة أهل الاعتزال.

أما أهل السنة فلا يرون للأعمال في نفسها حسناً ولا قبحاً. وإنما الحسنى ما أمر به الشرع، والقبيح ما نهى عنه الشرع. إن ميزة الإسلام أنه يجمع بين الزمني والروحي، والمطلق والنسبي، واللانهائي والمحدود، وخلود الآخرة وفناء الدنيا، وبين الأرض والسماء.

ولا تتم الدائرة ويحدث التكامل الجامع الذي هو ميزة الإسلام. إلا بالتقاء القوتين: الروح والمادة، والفرد والجماعة، والعقل والقلب تماماً. كما تتم

الدائرة الكهربائية بالسالب والموجب معاً في وقت واحد . فهما إن كانا متضادان من حيث الضوء والطاقة . فإن التضاد بين السالب والموجب لا يستلزم حدوث الصراع بينهما . . كذلك فإن التضاد لا يستلزم حدوث الصراع أو التصادم بين المتضادين . بل إن لقاء المتضادين يرسم دائرة التكامل .

لقد امتاز الإسلام على غيره من النحل والديانات بكونه : مذهباً وعقيدة . من شأن هذا التكامل أن يمنح القدرة على مواجهة التحديات وإعطاء الحلول الفعالة والصالحة ، وتقوم قاعدة الإسلام على الحركة في إطار الثبات . والثبات الذي هو إطار الإسلام إنما يقوم على ثبات القيم وتجري الحركة من داخله .

ومع أن التاريخ لا يعيد نفسه في وقائعه ، ولكنه يتشابه في مصدره القائم على ثبات الطليعة البشرية . وفي الإسلام يتمثل الثبات في أن الحق واحد لا يتعدد ، وأن الأهداف ثابتة ، والوسائل متغيرة . ومهما تغيرت الفروع فإن القوائم ثابتة .

على المسلم أن يكون في سباق دائم مع الزمن خوف الموت إلى عمل الصالحات ، وعلى كل إصلاح أن يبدأ من نقطة الواقع الحي القائم ، ولا يبدأ من الصور المتخيلة أو المثالية ، وأن يكون القرآن هو ضوء الطريق إلى حدود الله . ويجب أن تكون مختلف وسائل التطور بمثابة « مواد خام » تجري عليها عملية سبك إسلامية ، وتحويل ، وانصهار في القالب الأصيل . لا يقر الإسلام الفرار من الدنيا ، ولا تقديس الدنيا ، ولكنه يقرر التوافق معها ، والسيطرة عليها لتكون على طريق الله .

وقد جعل الإسلام التكوين الفردي هو أساس التقدم ، ولا يقر نظرية أن أساس التقدم هو التقدم العلمي المادي .

(١٨)

المسلم هو الذي ينادي الله بكلامه ، ويتلو كلام الله بالأسلوب الرباني المباشر ، حيث لا يوجد اليوم في الدنيا نص من النصوص بالأسلوب الإلهي غير القرآن الكريم . لم يعرض القرآن الكريم عقيدته في صورة نظرية ، ولا في صورة لاهوت ولم يعرضها في صورة جدل كلامي ، كالذي زاوله علم التوحيد . بل جاء

القرآن الكريم يخاطب فطرة الإنسان بما في وجوده هو وبما في الوجود حوله من دلائل وإيحاءات ، فالقرآن يخاطب الناس بالأسلوب الحيوي الذي يهزهم ، ويؤثر في أعماقهم ، وينفذ في عقولهم ووجدانهم ، أسلوب عرض القيم والتصورات والموازين عن طريق النماذج البشرية التي تعيش على أرض الواقع يأكل الطعام ويمشي في الأسواق : ذلك العرض الذي يستمد الإطار القصصي ، والقصة التاريخية كي تحرك عيرها الشخوص ذهاباً وإياباً . والقرآن معجزة الله الخالدة : يخاطب الخالق سبحانه الناس جميعاً مؤمنين وكفارا بالأسلوب الحيوي الذي يهزهم ويؤثر في أعماقهم ، وينفذ إلى عقولهم ووجدانهم .

وكان هدف القرآن بناء جماعة وحركة وعقيدة في وقت واحد : وفي ضوء هذا الفهم تشكل الجيل الذي بناه القرآن . وإذا كانت مدارس المعرفة المتعددة قد اختلفت عن السبيل للوصول إلى الحقيقة . هل هو الحدس أم العقل أو الحواس وتصارعت هذه المدارس فيما بينها . فإن ميزة الإسلام أنه وحده الذي قدم وحدة الفكر الجامعة بين هذه الوسائل الثلاث ، فحال ذلك دون الصراع الذي وقعت فيه الأمم .

ومن أجل ذلك لم يجعل الإسلام قداسة إلا للكتاب المنزل بالوحي على النبي المعصوم ، ولحديث النبي وسنته . أما تلك الصحف المكتوبة التي يتداولها الغرب فليس منها من الوحي إلا القليل ، وهي تفسيرات وتأويلات كتبها رؤساء الأديان . أما القرآن فهو النص الأصيل الموثق الذي حفظه الله من التحريف . وهو الذي هدى البشرية إلى التوحيد الخالص ، وعلى الأصل القرآني الثابت يحاكم المسلمون كل فكر وكل رأي . فإذا وافقه قبلوه ، وإذا عارضه ردوه .

(١٩)

أقام الإسلام مدرسة هي : مدرسة النظر إلى ما وراء النصوص والكلمات .

هل هدفنا هو اللحاق بالغرب أم استعادة ذاتنا ووجودنا ؟ .

إذا كان الهدف هو الوصول إلى الأمن والعزة والكرامة ، وامتلاك قدراتنا . فإن اللحاق بالغرب لا يحقق هذا ـ نقول هذا في ثقة تامة في ضوء تجربة

اتصالنا به على مذهبه ، وعلى جميع أيديولوجياته وفلسفاته .

وإذا كان الهدف هو الوصول إلى قيم الحضارة الإنسانية الحقة : من عدالة ورحمة وسماحة وقوة . فإن اللحاق بالغرب لا يحقق هذا ، وإنما يحقق ذلك كله (نور) مستمد من داخل قيمنا وقرآننا .

إن ضعف المسلمين ليس ناتجاً عن الإسلام . فقد أعطى الإسلام أجيالاً متعددة ، وإنما جاء ضعف المسلمين نتيجة تراخي إرادتهم وإغفالهم لتعاليم دينهم . ولقد عملت العناصر الأجنبية حثيثاً ودون توقف لتشويه الإسلام وتزييف مقوماته حتى لا يكون قادراً على العطاء .

إن الأخلاق هي دعامة الحضارة ، وطابع الحضارة أخلاقي في أساسه ، وأنه لا بد من ارتباط حقيقي بين الحضارة وبين النظرة إلى الكون .

إن التماسك بواسطة الأخلاق في المجتمع هو : الأداة الصحيحة لصنع التقدم ، وأن أول علامات اضطراب المجتمع وتفككه إنما تظهر في تراخي الأخلاق .

إن سقوط البشرية المتكرر في حروب متصلة ، وأزمات خلقية ونفسية ، إنما يعني عجزها عن استيعاب حكمة الاستخلاف في الأرض ، أو الاهتداء إلى النواميس والقوانين التي تحكم نظام الحياة والكون .

(٢٠)

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يخشاه الغرب ، فهو لا يخشى البوذية ـ ولا الهندوكية ـ ولا اليهودية . إذ أنها جميعها ديانات قومية لا يزيد امتدادها خارج أقوامها وأهلها ، وهي في نفس الوقت أقل من المسيحية رقياً . أما الإسلام فهو كما يسمونه دين متحرك زاحف ، وهو يمتد بنفسه وبلا أية قوة مساعدة . وهذا وجه الخطر فيه .

وأن هناك خطراً قائماً بالنسبة لنا هو : خطر عملية ضرب الإسلام بالإسلام عن طريق بعض الطوائف الدخيلة : مثل القاديانية والأحمدية والبهائية والأغاخانية . فهذه كلها تخالف الإسلام في أصله الأصيل : التوحيد ، وتتلقى

التوجيه من خصوم الإسلام وهم يعدونها لما أسموه ضرب الإسلام بالإسلام . هذه الطوائف تخالف الإسلام في أنها تقدس زعمائها وترفعهم فوق مرتبة البشر ، وتشرع لأتباعها من الدين ما لم يأذن به الله مستغلة اسم الإسلام لهدم الإسلام .

فالإسلام في الحقيقة هو الرفض الحضاري للغزو الغربي بفروعه الثلاث (ماركسية وليبرالية وصهيونية تلمودية) وسيظل الإسلام بمثابة الجامع الوطني والقومي والاجتماعي الذي تنكسر عنده أمواج الغزو الغربي . ولقد كان من أخطر محاذير التغريب والغزو الثقافي خطر استبعاد الدين والأخلاق من حياة المسلمين وتفكيرهم وعزل القيادات المثقفة وتصفية دورها في المجتمعات .

(٢١)

ليس علينا أن نأخذ مفاهيم الغرب لنطبقها على القيم التي نؤمن بها ، ولكن علينا أن ندرس مفاهيم الغرب دراسة مقارنة لنعرف مدى الالتقاء ومدى الاختلاف بين مفاهيمها وصولاً إلى الأصالة والتماسا للمفهوم المتكامل الجامع في مواجهة الانشطارية الغربية ، وأن نكشف عن وجهة نظر الإسلام في كل القضايا التي تدرس في جامعاتنا مقطوعة الصلة بأصولها التي نشأت منها ، وبأصالة نظريتنا إليها . إن أي نظرية أو مذهب وافد يجب أن يعرض على أصول فكرنا الإسلامي ، ذلك أن فكرنا متجدد بطبيعته قابل لاستيعاب المتغيرات ، ولكنه قائم على أساس ثابت له جذوره وضوابط . فنكون بذلك مصدقين لقول الرسول ﷺ .

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالية ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلية » ونكون من الطائفة التي عناها قوله : لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة .

وعلينا دائماً أن نكشف عن الفوارق الدقيقة بين مفاهيم الفكر الإسلامي والفكر الغربي في مختلف المجالات . إن مفتاح الخلاف بين الفكرين يتمثل في ظاهرة التوحيد والأخلاق ، والإيمان بالغيب ، والبعث والجزاء التي يقوم عليها بناء المفهوم الإسلامي .

(٢٢)

على المثقف المسلم أن يكون قادراً على تبيين « الحقائق » من النظريات . إن الحقيقة هي التي تؤكدها التجربة العملية . أما النظرية فهي فرض من الفروض .

نحن ندرس الفلسفة ، ولكن نعتقد أن الفكر الفلسفي ليس هو الفكر الإسلامي ، ونؤمن بأن الفكر الإسلامي قرآني المصدر . ونحن نقدر مكانة العقل ، ونراه أساس التكليف ، ولكننا لا نؤمن بأنه مقدس ، أو أنه قادر على أن يفصل في كل الأمور . وإنما هو مصباح زينة الوحي . فالوحي ضوء كاشف أمام العقل .

ونحن لا تهزنا صور البريق ، وخاصة براعة البيان إلا إذا كان صاحبه يصدر عن منطلق القرآن ، وهدى الإيمان . ويخشى الله ويتقيه . وقد تكون هناك نظريات لامعة تخدع العقل ، أو تعجب البسطاء . وهذه نحذرها لأنها ليست إلا من هوى النفس ومطامع الذات .

إن بناء الشخصية الإسلامية أساس ودعامة ، ورأس الأمر كله بناء الشخصية الإسلامية على امتلاك الإرادة الحرة وتوجيهها في سبيل إقامة المجتمع الرباني من اللبنة الأولى ، إيماناً بالبعث والجزاء الأخروي . ذلك أن التلمودية تريد أن تعمل على تغليب فكرة الجبرية على المجتمعات للقضاء على المسئولية الفردية ، وحرية الإرادة والالتزام الأخلاقي حتى تسيطر على عقول الناس وقلوبهم فكرة زائفة تدفعهم إلى الفساد والإباحية تحت اسم « جبرية المجتمع » وعدم مسئولية الناس الفردية . بينما يقرر القرآن المسئولية الفردية في عبارة صريحة ﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ .

وقد أشار القرآن إلى الإرادة الحرة للإنسان في ثلاثة وستين موضعاً .

(٢٣)

أخطأت كل المحاولات التي استهدفت تفسير تاريخ الإسلام قومياً أو مادياً أو اقتصادياً . كذلك تبين فساد المراجعات التي قام بها الاستشراق (الصهيوني والماركسي والغربي) لتفسير التراث الإسلامي لقصور المنهج الماركسي ، وفساد

المنهج الغربي . وقد كانت المحاولات التي أجراها التغريبيون لإعادة كتابة التراث : سواء في مجال السيرة النبوية ، أو التاريخ الإسلامي زائفة قاصرة . وكان أكبر أحقادهم في الخصومة مع الغزالي وابن تيمية ومناصرتهم للفلسفة والكلام والتصوف الفلسفي ، لإثارة الشبهات وطرح المفاهيم الزائفة التي حملتها الفرق الضالة والدعوات الهدامة ، والتي حطمها المسلمون مرة بعد مرة .

ولقد كانت المحاولة تجري لإحياء كل تراث قديم : الفرعوني والإغريقي والجاهلي العربي . الغنوصي والمجوسي والفارسي ، بأساطيره البابلية القديمة ، وإعادة صياغة هذه الوثنيات والفلسفات المجوسية والسريانية والباطنية وإحياء عشتروت وزيوس وباخوس ، وهدم تراث واحد : بالطعن فيه ، وحجبه وتزييفه ، هو تراث التوحيد الخالص ، والبطولة الإسلامية الباهرة ، والأمجاد القائمة على الرحمة وإنكار الذات ، والخلق الرفيع . هذه وحدها كان التشكيك يدور حولها ويجري إخضاعها للمفهوم الماسوني الوثني القديم ، ويلحق بها التزييف والتلفيق المتعمد لهذه البطولات والمعارك ، وإخضاع هذه المفاهيم ومقاييس العلوم الاجتماعية التي تقوم على التفسير المادي .

ومع ذلك فإن تاريخ الإسلام ما يزال يقدم للبشرية تلك الصورة الباهرة من البطولة المؤمنة بالله التي تعلي هدف الجهاد الخالص على كل هدف .

وقد تبين أنه ليس هناك صلة ما بين هذه المذاهب المادية ، وبين الحقائق العلمية التي لا تثبت إلا في المعامل . أما هذه المذاهب ، فهي نظريات وفروض تخطىء وتصيب . وقد عجز الفكر الغربي عن فهم البيان العربي ، وقصر عن فهم التكامل الجامع بين الروح والمادة ، وفشل في تحقيق الأمن النفسي أو اليقين العقلي ، وأخطأ في فهم الإرادة الفردية والحرية الإنسانية .

وكذلك فإن القياس المنطقي وحده ليس كافياً في إقامة النظريات الاجتماعية إذا تعارض مع واقع التاريخ ، كما أن الخطأ هو في الاستشهاد بواقع انتمائية وغامضة من التاريخ ، لتأييد وجهة نظر معينة ، بينما عشرات الوقائع تعارض ذلك المفهوم - إن معرفة جزء من الحقيقة والعمي عن باقي الحقيقة هو زيف يراد به فرض مفهوم غير أصيل .

يقول إيتان رنييه : إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي ﷺ لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم ﷺ . ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد . بل إذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء المستشرقون (فرنسيين وانجليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين) لا نجد إلا خلطاً وخبطاً . وذلك هو ما أورده دورني ولامنس ونولدكه .

ونقول أن روح التعصب والخصومة حملت الاستشراق على تغليب الهوى على العلم ، والباطل على الحق ، وهو الذي دفع البعض أن يحمل ما وجهه الفلاسفة إلى دين الغرب لينقلوه إلى الإسلام . فقد حملوا ما كتبه أوجست كومت ونيتشه ، ورينان لمحاربة الكنيسة الكاثوليكية ، إلى أفق الإسلام ليحاربوه به في الوقت الذي يعرف الجميع عمق الفوارق بين مفاهيم الغرب المسيحية وبين مفاهيم الإسلام في مختلف محاولات الفكر والحياة والاجتماع .

(٢٤)

على المسلمين والعرب أن يخطوا طريق مستقبلهم بأيديهم ، وأن يحاربوا أعدائهم بسلاح من صنع أيديهم. إن المستقبل للإسلام رغم هذا التوقف المؤقت. لم يبدأ المسلمون طريق الصعود بعد ، ولن يستطيعوا أن يبدأوا وهم يتجنبون عمداً ، تلك الطرق التي صبر عليها أسلافهم . إن الصراع اليوم هو بين الإسلام وبين هذه الأيديولوجيات المادية (غربية وماركسية ويهودية) والصراع تاريخي . لأن الإسلام قوة حقيقة تقف ضد الفكرة المادية التي تدين بها تلك الأيديولوجيات بالإضافة إلى أنه يجعل للحياة قاعدة روحية تصلها بالخالق ، وتسيطر على اتجاهها في الأرض . ولا تنتهي بالحياة إلى تحقيق أغراض مادية بحتة . فالإسلام يتضمن التطور الكلي الشامل المتناسق بين الوجود . والحضارة والأمم والحضارات ، وتقييم التكافل الاجتماعي في المحيط الإنساني ، ويكشف عن نظام اقتصادي رائع أخاذ خاضع للوجدان والتشريع ، فهو يرفض الفكر المادي الخالص ويقيم الطريق على تكامل العناصر ، ويجعل الوجهة روحية وأخلاقية ، ومن ثم تجده يصطدم مباشرة بالعقلية المادية في تياراتها الثلاث .

ومن ناحية أخرى فإن النظريات التي قدمها الغرب سرعان ما تصدعت وبان فسادها بمرور الزمن ، ثم تبين أنها لم تعد تصلح للتطبيق حتى في بيئتها الخاصة ، وأنها لم تلبث أن احتاجت إلى إدخال تعديلات جوهرية عليها ذلك لأنها اعتمدت على منطلقات هي بمثابة فروض عجزت عن الاستمرار ، أو أن تغير الأزمة والبيئات أصابها بالعطب والاضطراب . وبذلك انكشف الفارق البعيد ، والاختلاف العميق بين الفكر البشري ، وبين مناهج القرآن الثابتة ثبوت الفطرة القائمة على أساس ثبات بناء النفس الإنسانية . وكذلك تصدعت الماركسية والفرويدية والوجودية .

ولقد فسدت كل الشرائع البشرية لأنه ليس من حق البشر أن يشرعوا لأنفسهم . وكيف يملك البعض إرادة البعض ، ويقيد الإنسان إرادة الناس ، ويفرض عليهم القواعد والنصوص . كيف يمكن أن يكون من البشر للبشر من يعطي حق التشريع ، ولا بد أن تكون هناك جهة أعلى من البشر هي التي تمنح البشر قوانينها .

ولقد كانت النظرة البشرية محدودة بما ترى من المحسوس والمادة ، بينما جاءت النظرة الربانية واسعة شاملة تضم عوامل النفس والروح وما وراء المادة ، وتستوعب الأبعاد الروحية والمادية . والنفس والبدن ، والدنيا والآخرة . وحيث ينقض منهج الإنسان والنفس والمجتمع في المذاهب والنحل ، فهو مكتمل في القرآن بعيداً عن المادية والرهبانية . ومن الحق أن نقول أن النظم الغربية جميعاً ، قد عجزت عن تحقيق المطمح الأسمى للمسلمين في العصر الحديث ، ولم تستطع أن تكون بديلاً لمنهجهم الرباني الجامع .

وقد استطاعت التلمودية المادية أن تحتوي الفكر الغربي ، وأن تخرجه عن روحانية المسيحية ونظرتها المعنوية ، وكانت أولى علامات السيطرة إقرار الفكر الغربي بالربا واستعباد الأمم .

واليوم نجد المذهب الليبرالي والمذهب الشيوعي يتعاديان فهما يصدران عن منبع واحد هو المادية ومادية التاريخ والعوامل الاقتصادية فهم يرجعون إليها في تفسير مختلف التطورات الاجتماعية ويحجبون عوامل الدين والروح والمعنويات

ولذلك فإن الخلاف بين المذهبين لم يزل خلافاً في الفروع . فالماركسية وليدة الرأسمالية أصلاً . أما الإسلام فإنه يختلف عنهما جميعاً ، هو شيء آخر غير ما تدعو إليه الرأسمالية من إعلاء شأن الفرد ، وما تدعو إليه الشيوعية من إعلاء شأن الجماعة . شيء آخر يقدمه الإسلام هو حماية الفردية وحماية الجماعية ، وربطهما ورفع الفرد إلى الغيرية والتكامل مع الآخرين .

(٢٥)

إن أخطر ما يواجه ثقافتنا : خطر الازدواجية : في اللغة والتعليم والقانون .

الازدواجية هي اتباع طريقين مختلفين في وقت واحد . إن ذلك التحدي قد جاءنا نتيجة غلبة المناهج الغربية على مدارسنا وجامعاتنا ومجتمعاتنا . وعلينا أن نتخلص من هذا الخطر ، وأن نهضم الوافد ونصهره في فكرنا الأصيل . لقد صاغ الغربيون فن التربية وفق معتقداتهم وأخلاقهم وآدابهم فهي لا تصلح لنا أصلاً . لذلك لا بد أن تقيم الأمة الإسلامية منهجها التربوي الأصيل مستمدة أصوله من كتابها وتراثها . وتجعل ولائها للإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا .

(٢٦)

إن الترجمة من الآداب الأجنبية ، لها قوانين وأصول ، فلا يترجم إلا ما يضيف جديدا في مجال العلم والتكنولوجيا . والمعطيات البشرية . أما ما يتصل بالنفس والأخلاق والاجتماع ، والمطمح الذاتي ، والأدب الإنساني ، والدراسات المتعلقة بالعقائد ، والشرائع ، والقيم والأخلاق ، أو القصص والروايات . فإن تلك لا نحتاج إليها إلا لنعرف أوضاع أمم أخرى غيرنا ولذلك فإن الأمانة تقتضي أن نقدمها على هذا النحو ، وأن نكشف جوهرها أمام القارىء المسلم ، ونكشف علاقاتها بعصرها وبيئاتها ومفارقتها لعصرنا وبيئتنا . إن ترجمات بودلير وأوسكار وايلد ونيتشة وأزهار الشر وعشيقة اللورد شترلي ، ما حاجتنا إليها ، وهي لا تمثل مجتمعنا ولا ثقافتنا ولا قيمنا ولا أخلاقنا . إن غاية ما تعطينا هذه الترجمات هو أن تسمم عقولنا ، وتحطم قلوبنا وتقيم حجاباً بيننا وبين إيماننا الخالص بالله تبارك وتعالى ، وتحاول أن تلقي في نفوسنا قبولاً للإباحية والشر

والدعارة . إن كل ما يكتب ويترجم يجب أن يعرض على قيمنا الإسلامية العليا الأصيلة .

(٢٧)

حاول التغريب والغزو الثقافي خلق مذاهب هدامة داخل دائرة الإسلام الأصيل توصف بالتجديد : كالأحمدية والقاديانية تستهدف تأويل فريضة الجهاد ، وتزييف طبيعتها القائمة إلى يوم القيامة ، والقول بأنها فكرة مؤقتة . وتدعو إلى سلوك الطرق السلمية في التعامل مع الغاصبين ، وعدم مقاومة الأجنبي . والهدف هو إخضاع المسلمين عن طريق الاعتقاد والقضاء على أقوى دعامة على مدى تاريخ المسلمين ، والمواجهة والمقاومة في وجه الغزاة .

(٢٨)

إن فكرة القوميات الضيقة والإقليميات فكرة طرحها الاستعمار الغربي في أوائل هذا القرن لتمزيق الأمة الإسلامية وتصفيتها . وقد نجح ذلك إلى حد كبير .

لقد وضع النفوذ الأجنبي ثلاث نقط :

- تمزيق الوحدة الإسلامية إلى أمم .
- تمزيق العرب إلى إقليميات وأوطان .
- تمزيق كل وطن إلى عقائد ونحل .

وما تزال القيم الإسلامية التقليدية تحول دون ذوبان الشخصية الوطنية . هذه القيم التي لم تستطع القيم الأوربية محوها ، والحلول محلها .

لقد نقل الإسلام الناس من اختلاف الأجناس إلى اتحاد المشاعر . ومن العنصرية إلى الإنسانية ، وتحاول دعوات الغزو الفكري المادية نقله مرة أخرى إلى العنصرية . والأجناس . لقد بنى وحدته القائمة على وحدة الفكر أساساً . وفي الإسلام تفوق رابطة الفكر والعقيدة رابطة العنصر والدم . ولقد أبرزت هذه الوحدة السلاجقة والأيوبيين والمرابطين والموحدين والمماليك . لقد اشترك المسلمون من كل

العناصر في بناء الفكر الإسلامي ، وكتبوا بالعربية ودافعوا عن لا إله إلا الله ونصروا كلمة التوحيد .

أما الجهد الذي بذل من أجل وحدة العرب فإنه لم يحقق كثيراً مما كان يرجى له ، لأنه لم يبدأ على طريق الأصالة . لقد ظن كثيرون أن الوحدة العربية غاية . بينما هي في الحقيقة مرحلة على الطريق : طريق الوحدة الإسلامية .

ومن ثم فقد كانت كل المحاولات إلى قيام دعوات القوميات معوقاً لهذه الوحدة عن أن تتخذ طريقها الصحيح .

(٢٩)

إن إيقاظ الدعوة إلى الفرق والنحل هو : عامل من عوامل الحيلولة دون وحدة الجماعة الإسلامية ، وإعادة بعثها من جديد ، ولا ريب أن التفرقة بين العناصر والأجناس ، وعوامل البيئة هي إحدى « الخطط » التي يحرص الاستشراق والغزو الثقافي على تنفيذها . ولقد كانت هناك شبهات زائفة في هذا الصدد تقول بأن الإسلام ليس واحداً ، ولكنه متعدد ، وأن الإسلام مجموعة ديانات منها إسلام الترك ، وإسلام الهند . وكل إسلام يختلف عن الآخر . وهذا فهم لاهوتي كنسي ليس من أصالة الإسلام في شيء ، في محاولة لتطبيق الخلافات المسيحية في الغرب على مجتمع المسلمين . والمسيحية في نظر المسيحيين ليست ديناً عاماً بقدر ما هي شعور فردي « وإحساس شخصي بالأصول المقدسة ، لا صلة لها بالمجتمع » وتتكيف حسب وجهة الفرد وتتأثر بشخصيته . كذلك فإن من أخطر محاولات التغريب وصف العودة إلى المنابع بأنها عودة إلى التعاليم البدائية .

(٣٠)

حدد الإسلام للعقل مجالاته التي يخوض فيها حتى لا يضل ولا يشقى . فنهى العقل عن الخوض في ذات الله ، أو البحث عن الجوهر والماهية ، أو التشوف إلى ما وراء الطبيعة لاكتناه سر الحياة . وليس هذا حجراً على العقل . وإنما تصحيح لمساره وهدى لطريقه ومجالاته التي هو قادر عليها وأهل لها .

﴿ تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا ﴾ .

إن الحق تبارك وتعالى مطلق وغير محدود . بينما العقل محدود ومرتبط بالزمان والمكان ، فكيف للمحدود أن يدرك غير المحدود . إن هناك استحالة في البحث النظري فيما وراء الطبيعة . وهناك قصور من العقل الإنساني عن إدراك الجواهر والماهيات . وقد دعا الإسلام المسلمين إلى التحري عن الحق ، ودعاهم أن يغيروا مفاهيمهم إذا ظهر لهم دليل صحيح فيه وجه الصواب . فلا يأنف المسلم أن يأخذ الحقيقة من أي مصدر يأتيه ما دام مصدراً موثوقاً به ، وألا يتعصب لرأي ، ولا لمذهب تعصباً يعميه عن نظر ما عسى أن يكون فيه من خطأ أو انحراف .

(٣١)

في الوقت الذي تعجز فيه الحضارة الغربية عن فهم مصدر الخطر ، وتقف في صلف أمام سنن الكون الغالبة ، لا تريد أن تصحح موقفها . تقف الحضارة الإسلامية موقف الفهم الصحيح والاتجاه السليم نحو تصحيح موقفها وتحرر نفسها ، وذلك باتجاهها إلى المصدر الأصيل (القرآن) مؤمنة بأنه هو المنبع الأول الذي يقدم لها طرق النجاة في سبيل محاولة جديدة للنماء والتجدد .

إن دعوة الاقتباس والتقليد للفكر الغربي التي تحاول أن تمضي بأقصى سرعة ، لها محاذيرها ، وأخطارها . ومن أجل ذلك لا بد أن تكون للقيم الإسلامية ضوابط وقواعد تحفظ للشخصية الإسلامية أصالتها ودورها الحضاري البناء .

(٣٢)

ليس صحيحاً أن البشرية : مهددة بالمجاعة ، وإنما هي مهددة بالظلم بسبب احتكار الأقوياء للأقوات وحرمان الضعفاء منها . وأن الإسلام قدم منذ زمن بعيد قانوناً أصيلاً هو « قانون الوفرة » لقد انحسرت تلك الموجة الضالة التي حاولت أن تلتقط من السنة أو التراث القديم نصاً لدعم وجهة نظر الغزو الثقافي ، وتبين أن كثرة العيال مع قلة المال مشقة كبيرة ، ولكن ثوابها عند الله كبير . وكان النبي ﷺ فقيرا قليل الشيء ، وهناك أحاديث أخرى تصور ثواب من كثر عياله وقل ماله ومن قول النبي ﷺ : « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » .

ليس صحيحاً أن الجنس عملية بيولوجية لا علاقة لها بالأخلاق ، أو أن

الدين مزاج شخصي لا علاقة له بواقع الحياة . أو أن اللباس والزينة لا صلة لهما بتوجيه الشخصية .

(٣٣)

أعطى المسلمون أوروبا المنهج التجريبي الذي أحياها ، فلما عادت أوروبا أعطت المسلمين المنهج الأرسطي لتميتهم . فأخذ المسلمون منهج أرسطو فعزلهم عن حقيقة الإسلام ، التي أقامها بالمنهج التجريبي الذي صنعه المسلمون أساساً بعد أن رفضوا منهج أرسطو ، ثم رفضه الأوروبيون ونقدوه بما نقده به المسلمون . ولكن الغربيين الذين اقتبسوا العلم الاستدلالي من المسلمين فكان سبب ارتقائهم . ردوا إلى المسلمين المنهج الأرسطي ليستعينوا به على تقديم كل ما يريدون من سموم من حيث لا يشعرون بردهم إليه . ولقد ظل العقل الغربي بالرغم من استيعابه للمنهج التجريبي عقل انشطاري ، لأنه لا يستطيع أن ينظر نظرة كاملة للأبعاد المختلفة للأمور ، ويقصر نفسه على ناحية واحدة . إن أبرز ميزة للعقل الإسلامي أنه يؤمن بالتكامل والواقعية الصادقة ، وأية ذلك أنه يرفض القصة الخيالية ، ولا يتخذها بديلاً عن الواقع .

لقد انفصل الفكر الغربي منذ وقت بعيد عن قاعدة الإيمان بأن مصادر نواميس الكون وقوانينه قد أرساها الله تبارك وتعالى . وبذلك وقع الانفصام بين العلم والدين . كذلك فقد انفصل الفكر الغربي عن قاعدة ارتباط خلافة الإنسان في الأرض بشرط عبادة الله ، وتحقيق غاية الوجود البشري ، وهو إقامة منهج الله في الأرض . إن الفكر الغربي حين يبعد إرادة الله القائمة فعلا عن غاياته ووسائله ، إنما يفتح الطريق أمام أخطار الانهيار السريع ، ولو عقل لعرف أن الحضارة والعلم هما عطاء الله عن طريق عقل الإنسان . ولذلك فلا بد من أجل نجاحهما أن يسيرا في الطريق إلى الله وإلى غايته .

(٣٤)

كان الإسلام عاملاً أساسياً في دفع كل حركات التحرر التي قامت بها الشعوب المستعبدة في العصر الحديث . ذلك أن النضالات الوطنية قد انطلقت من تحت راية الجهاد في سبيل الله . وقد اعتبر الجهاد في سبيل الوطن جزء منه .

ولقد كان الإسلام في هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية والثقافية ضد الاحتلال والاستعباد . وكان الضمان لوحدة اللغة والثقافة . وفيه كانت تتجسد كل القيم النقية التي حاول الاستعمار القضاء عليها .

وبالرغم من كل الضربات التي وجهت للمسلمين خلال القرن الرابع عشر ، فإن عددهم قد تضاعف حتى بلغ ألف مليون مسلم على امتداد الكرة الأرضية كلها . لقد تأخرت التجربة الإسلامية لتجيء بعد أن فشلت كل التجارب البشرية . ويئس المصلحون العلمانيون من كل المناهج والأيديولوجيات ، ومنيت فلسفاتهم بالفشل ، ولم يبق إلا تجربة واحدة على العالم كله أن يجربها . تلك هي تجربة الرحمة والعدل والتوحيد .

لقد طبع الإسلام حياة العرب في الماضي ، ولا يزال يطبعها ، وسيظل يطبعها إلى آخر الدهر . ولذلك فإن أي حركة فكرية ، أو اجتماعية لا يستطيع أن تثبت إذا تجاهلت الدافع البديهي ، وهذا الأصل الفطري .

لقد استمرت الثقافة التي صبها اليونان والرومان ألف سنة قبل أن يجيء الإسلام ، ثم لم تلبث أن تلاشت تماماً بعد أقل من قرن من دخول الإسلام بلغاتها ومفاهيمها . وقامت على الزمن حقيقة لا تتغير ، هي الانقطاع الحضاري بين ما قبل الإسلام وما بعده .

(٣٥)

إن كل العلامات والدلائل تدل على أن دورة جديدة على وشك أن تبدأ لتأخذ مدارها تحت الشمس لحضارة إسلامية من المتوقع أن تكون هذه المنطقة هي التي تحمل الأمانة . لقد استعاد الإسلام من جهة العمق ما فقده من جهة الامتداد . قال السيد بن رجال : ردّاً على سؤال عن مستقبل الإسلام في أفريقيا الشمالية : كوني على ثقة يا فرنسا ، بأن الإسلام سينبعث من تحت أفواه مدافع المسيحيين .

على إن بدايات النصر ومطالع الفجر يجب أن لا تخدع المثقفين المسلمين ، وتخلق فيهم طمأنينة زائفة مستسلمة ، أو تشغلهم عن المثابرة والإصرار على تأكيد

الخطر الرباني الصحيح ، وتوسيد الطريق القراني الأصيل ، وتثبيت الخطأ على الطريق إلى الغاية الكبرى .

ليس هناك مكان للعلمانية في المجتمعات الإسلامية ، لأنه ليس هناك ازدواج للسلطة يترتب على نظرة الإسلام إلى الدنيا ، أو الحياة المادية على نحو ما للكنيسة من نظرة معينة خاصة إلى المادة .

وليس هناك حكومة إلهية في الإسلام معصومة من الخطأ . كما هو الشأن في الغرب ، يختلف عن الحكومة المدنية أو السياسية في المجتمع الإسلامي .

وليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة المادية وتراثها التكنولوجي والعلمي والميكانيكي أن تستوعبهم هذه الحضارة ، أو تحتويهم في إطار الفكر الغربي المدمر والقاصر . وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد والإيمان بالإخاء الإنساني ، والعدل والرحمة .

إن أولى بشائر اليقظة انتقالا إلى النهضة هي :تطبيق الشريعة الإسلامية .

وإقامة المجتمع الرباني ، وتحرير أرض الاسراء والمعراج وسيادة العقيدة الإسلامية ، وإقامة الوحدة الإسلامية .

إن علامات هزيمة حضارة الغرب واضحة ، وعلامات طلوع فجر الحضارة الإسلامية واضحة .

على المسلمين أن ينتقلوا من الإسلام إلى الإيمان .

على المسلمين أن ينتقلوا من الفكر البشري إلى الفكر الرباني .

على المسلمين أن يتجاوزوا سارتر وفرويد وماركس ودوركايم إلى القرآن والسنة ، وإلى تراث عريض أصيل فيه شفاءالصدور وسكينة النفوس : الإصلاح والتجديد للبشرية كلها في مختلف مجالاتها .

على المسلمين أن يتجاوزوا مرحلة التبعية إلى مرحلة الأصالة .

على المسلمين أن يتجاوزوا مرحلة الطفولة البشرية وصولاً إلى الرشد الإنساني ، لا نجاة إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية في بناء المجتمع ، وإقامة

الاقتصاد الإسلامي لدعم الأمة الإسلامية . وتطبيق التربية الإسلامية من أجل الحفاظ على الطفولة والسباب والمرأة والأسرة المسلمة ، وبناء الشخصية الإسلامية .

﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبع السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

صدق الله العظيم

الباب الثالث

المسلمون على أبواب عالم جديد

أولا : المسلمون على أبواب عالم جديد .
ثانيا : التجربة الاسلامية القرآنية .
ثالثا : مدرسة التبعية للحضارة الغربية .
رابعا : المنابع الاسلامية ما زالت صالحة للعطاء .
خامسا : مراجعة تراكمات الفكر البشري وزيوفه .
سادسا : طريق الفلسفة وطريق القرآن .
سابعا : مفهوم القوميات الزائف .
ثامنا : مؤامرة التغريب
تاسعا : بدأ عصر الرشد الفكري
عاشرا : الأصالة والعودة إلى المنابع

المسلمون على ابواب عالم جديد

مع إشراقة القرن الخامس عشر الهجري تتراكم الأحداث في أفق العالم الإسلامي على نحو يكشف عن أن المسلمين يدخلون عالما جديدا حقا ، وأن موقفهم من العالم ، وموقف العالم منهم يتغير على نحو مختلف بعد تجربة القرن الرابع عشر المريرة التي توالت في مجالات متعددة: من احتلال واستعمار على نحو عاصف ظن فيه الغرب أن باستطاعته السيطرة على هذا العالم ، وإذابته في بوتقته ، والقضاء على مقوماته وقيمه ، وصهره في أتون الحضارة الغربية ليكون مستعبداً وذليلاً وتابعاً . وقد أسلم أمره كله إلى هذه الحضارة الاستعمارية ، فأصبحت ثرواته ومصادره وخيراته وممراته ومضايقه كلها بيد القوة الغربية المسيطرة التي كانت قد حملت لواء الحضارة ، واستغلت بالعنصر والجنس واللون ، وامتلاك أدوات العلم والقوة والنفوذ .

غير أن الغرب لم يلبث أن اكتشف أن المجتمع الإسلامي يمتلك قوة جبارة تتمثل في تلك الذاتية الضخمة التي لا تلين أمام السلطان ، أو تستكين أمام الطغيان . أو تذوب في بوتقة الأممية ، وأن هذه القوة إنما هي مستمدة من تلك العقيدة التي يعتنقها ويؤمن بها . وبالرغم من محاولة أمم الغرب في فرض نظامها وقوانينها وأساليبها في التعليم والثقافة والفن للقضاء على هذه الذاتية وصهر هذه الأمة في بوتقة الغرب . هذه هي المرحلة التالية التي حاول الغرب فيها تذليل هذه الأمة واحتوائها ، وهذه المرحلة أيضا قد مرت بدون أن تحقق للغرب ما يرجو من صهر هذه الأمة في بوتقة الحضارة الاستعمارية وإذابتها ، ثم كانت المرحلة الثالثة

وهي مرحلة الثروة الضخمة التي بدأت تحصل عليها هذه الأمة نتيجة لما تخرجه أرضها من ثروات معدنية وبترولية ومنجنيز وكوبلت وغيره ، وهي مرحلة حاول الغرب مرة ثالثة أن يجعلها وسيلة للسيطرة الفكرية والثقافية والاجتماعية حتى يخضع العالم الإسلامي لنظمه وثقافته ومفاهيمه للحضارة والفن والمجتمع . ولكن مع هذا كله فقد تبين للغرب أن العالم الإسلامي قد اكتشف نفسه وعرف ذاته ، وأصبح يقدر تلك الثروة الروحية الحقيقية التي يمتلكها والتي يصدر منها عن عقيدته وثقافته وتراثه وتاريخه ولغته وقرآنه . هذا الكنز الضخم الكبير الذي حاول الغرب أن يحجبه عنه تارة ، أو يزيفه تارة ، أو يثير الشبهات حوله ، تارة ثالثة ، أو أن يقدم له مناهج أخرى وبطولات أخرى وصوراً أخرى من التاريخ والتراث ظناً أنه سوف يتعلق بها لأنه يراها مرتبطة بالأمم المنتصرة والمالكة للثروة والحضارة والقائدة للعالم .

ولكن كل ذلك قد انهار تماما بفضل تجدد اليقظة الإسلامية استمداداً من القرآن والسنة الصحيحة ، وبفضل إيمان العالم الإسلامي بفشل التجربة التي نقلها من الغرب . سواء تحت مظلة الديمقراطية الليبرالية ، أو تحت مظلة الاشتراكية الماركسية . وعندما عزم الدفاع عن أرضه المستقطعة بالهزيمة والنكبة والنكسة ، وحين وصلت الأمور غايتها بضياع فلسطين وبيت المقدس ، كل هذا هزّ النفس الإسلامية العربية هزّاً شديدا ، وكشف لها تلك الخوافي الخطيرة في مختلف مجالات السياسة والاجتماع والتربية والثقافة ، وعرف كذب تلك الادعاءات التي وجهها إليه رواد التجديد في الأدب وطلائع المثقفين المضللين أمثال : لطفي السيد ، وسعد زغلول ، وطه حسين ، وسلامة موسى ، وعلي عبد الرزاق ، وزكي نجيب محمود ، ولويس عوض وأتباعهم . هؤلاء التغريبيون الذين بدأوا جولتهم من قولة كاذبة مضللة بأن الشرق لا ينتصر على الغرب إلا بأسلحة الغرب الحديثة ، بالعلمانية والفكر المادي والديمقراطية أو الماركسية ، وبأسلوب الغرب في السياسة والاجتماع والتربية ، ثم تبين بالتجربة كيف أن هذه الطلائع كلها التي تربت في مدارس الإرساليات وفق مناهج كرومر ودنلوب ولورنس ومرجليوت وماسينيون وغيرهم وأتباعهم كانت على ولاء للمغرب وفكره وتاريخه ، وكانت على انتقاص شديد لأمتهم وتاريخها وعقيدتها وتراثها ، وأنها هي التي أردت هذه الأمة في تلك الحمأة الخطيرة التي هزت الوجدان الإسلامي بعد سقوط بيت المقدس عام ١٩٦٧

وكشفت عن حقيقة لا سبيل فيها ، وهي أن هذا الطريق الذي سارت فيه الأمة العربية ، وسار فيه المسلمون خلال سبعين عاما ، ويزيد إنما هو غير طريق الله الحق ، وأنه هو السبيل لهزيمة الأمة الإسلامية وقرآنها وعقيدتها ولغتها ، وأنه لا بد من وقفة للنظر ، وتقدير الأمور ، وماذا يكون من تقدير الأمور بعد أن فشلت الأيديولوجيتين الغربية والشرقية على السواء على أن تقدم للمسلمين والعرب ما يستطيع أن يحقق لهم امتلاك إرادتهم ليكونوا أمة قادرة على إقامة شريعة الله ، وتبليغ رسالة الله إلى العالمين ، ولم يكن بد من التماس صراط الله تبارك وتعالى **﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾** ومن هذا فقد شجب الفكر الإسلامي قبل نهاية القرن الرابع عشر ، كل هذه التجربة الوافدة ، واستطاع عن طريق أعلام أبرار أن يكشف هذه السموم ، ودحض هذه الفتنة الخطيرة من أمثال أقبال والمودودي والندوي وحسن البنا وعبد الحميد من باريس ، وعلال الفاسي وتلاميذهم .

ومن ثم فإن القرن الخامس عشر الهجري حين يقبل يجد وضوحا في الرؤ يا ، وتصميماً على الخروج من دائرة الاحتواء وفكرا جديدا واضح التعرف على القضايا والمسائل ، ويجد بحثاً متجدداً بأساليب تستمد من الأصالة والفطرة ، وأسلوب القرآن منطلقا للنهضة . أن الثلمة التي يبدأ القرن الخامس عشر الهجري بها هي « بيت المقدس » وهي نقطة الارتكاز في الموقف كله ، ولا يمكن أن تنطلق الأمة الإسلامية إلى غايتها إلا بعد أن تحرر هذا المسجد الأسير ، الذي هو عقدة الصراع الآن بين العالم الإسلامي كله من ناحية وبين قوى النفوذ الأجنبي ، والصهيونية والشيوعية من جهة أخرى وأن رفض العالم الإسلامي للأيديولوجيتين الغربية والشرقية هو منطلق لتحرير الفكر الإسلامي كله من التبعية ، وتحرير الأرض الإسلامية كلها من الاحتلال الصهيوني .

وإذا كان المسلمون خلال القرن الرابع عشر قد حققوا بعض الانتصارات بأسلوب الإسلام الأصيل ، وبأسلوب الجهاد المقدس ، سواء في تحرير الجزائر ، أو في العاشر من رمضان ، أو في الزحف على الصحراء المغربية المحررة ، فإن القضية الكبرى تبقى هي « احتلال إسرائيل لفلسطين ، ولبيت المقدس وهي لب التحدي الموجه إلى المسلمين خلال القرن الخامس عشر ، والذي يتطلب انطلاقا

حقيقيا من مفهوم الإسلام الأصيل ، بتطبيق شريعته ونظامه الاجتماعي ، وأسلوب في التربية والتعليم ، وتوجيه العلم والتكنولوجيا الإسلامية وجهة صادقة لبناء المجتمع الرباني الأصيل ، والاتجاه نحو الوحدة الإسلامية القادرة على دفع االعالم الإسلامي كله إلى طريق القرآن بإقامة شريعة الجهاد القادرة مع تحرير أرضه واستعادة المسجد الأقصى .

ولا ريب أن الحركة الإسلامية التي تلتمس طريقها في باكستان وإيران وأفغانستان ستكون معوانا على تحقيق هذه الغاية ، وتحرير العالم الإسلامي من النفوذ الموالي للأيديولوجيات الوافدة .

واليوم تعلو الصيحات من كل مكان في الغرب لبحث وتقدير وتقييم حركة التحول الاجتماعي والسياسي التي يعيشها عالم الاسلام في مطالع القرن الخامس عشر . وقد عقدت مؤتمرات عديدة من أجل بحث هذه القضية ، وخاض في هذا الأمر كثير من الباحثين الذين اختارهم النفوذ الأجنبي لإلقاء الضوء على هذه الحركة ، ومن هنا فإن محصلة هذه الأبحاث لن تحقق شيئا صحيحا يمكن للغرب الانتفاع به ، لأنهم إنما يستمعون وجهة نظر موالية لهم من كتاب وباحثين مستغربين لهم ولاء فكري للغرب ، ولهم كراهية وحقد شديدين للنهضة الإسلامية . ومن ثم فإنهم عاجزون عن تقييم الموقف تقييما صحيحا ، كذلك فإن كتابات الصحف الغربية أمثال : تام ونيوزويك واكسبريس لا تمثل تقييماً حقيقياً للموقف ، فإنها تصدر عن ولائها الصهيوني أو الغربي أو الماركسي الذي يحاول أن يلقي ظلالاً من الشك والشبهات على مرامي الوجهة الإسلامية التي لم تكن في يوم من الأيام معتدية ولا متعصبة ولا راغبة في التدمير أو الشر ، وإنما هي تستهدف شيئا واحدا هو امتلاك الإرادة الحقيقية التي تعطي لعالم الإسلام وجوده الصحيح ومكانه الصحيح بين موازين القوى . فالمسلمون ليسوا عدوانيين ولا متعصبين ،ولا يضمرون شيئا من الحقد لأي العناصر البشرية ، ولكنهم يطمعون في أمر واحد هو أن يكونوا قادرين على حماية ذاتيتهم ووجودهم وعقيدتهم من الانصهار في المجتمعات والحضارات ، وأن يحفظوا تراثهم وقرآنهم ودينهم ولغتهم من الانهيار أو الاحتواء .

وما نظن أن هذا العمل يزعج أحدا ، وهم بعد ذلك أهل عطاء للحضارات والأمم والمجتمعات لا يترددون في حمل رسالة الرحمة والخير والعدل والإخاء البشري للإنسانية كلها . ولذلك فإن هذه الدراسات التي عقدت في مؤتمرات جزيرة قبرص وغيرها ، وكتابات الصحف الغربية لا تعطي تقديرا حقيقيا للنهضة الإسلامية المعاصرة ولخير للغرب أن يسمع من أهل القضية أنفسهم ليقيم تقديراته على أسس صحيحة .

التجربة الإسلامية القرآنية

إن ما تنشره الصحف الغربية عن يقظة الإسلام أو عودة الإسلام بالإضافة إلى المؤتمرات التي يعقدها بعض الهيئات السياسية الغربية بعد أن تجمعت علامات توحي بأن المسلمين لم يجدوا أمامهم بدا من أن يعودوا إلى منهجهم الرباني كوسيلة وحيدة وصحيحة وأصيلة لبناء حضارتهم الجديدة ومجتمعهم المقبل ، وبعد أن أوشكت أن تنتهي تلك « الحضانة » التي احتضنتهم الغرب إياها خلال فترة تزيد على قرن ونصف من الزمان (١٨٣٠ ـ احتلال الجزائر) وليس غريبا على المسلمين أن يستيقظوا بعد هذه المرحلة الطويلة وأن ينفضوا عن أنفسهم غبار الهزيمة ، ثم غبار « الخدعة » التي خدعهم بها أناس من نحلتهم تربوا على موائد الغرب وعملوا تابعين لمناهجه وأهوائه في دعوتهم إلى التماس أسلوب العيش العربي أسلوباً لحياتهم ، خارجين عن ثوبهم الذي ألبسهم إياه الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ظنا منهم أن هذا المنطلق سيحقق لهم امتلاك إرادتهم ، أو هزيمة خصومهم ، أو تحرير أرضهم .

والحق أن المسلمين لم يصلوا إلى هذه الحقيقة اليوم إلا بعد أن مروا بتجارب مريرة منذ خلفوا وراءهم كتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، وحجبت عنهم شريعتهم ، وأسلوب تربيتهم ، وقبلوا ذلك مرغمين حين فرضت عليهم قيادات من خريجي معاهد الإرساليات وبعثات التغريب ، وظلوا مخدوعين جيلا بعد جيل بالرغم من صيحات دعاة اليقظة على مدى هذا التاريخ التي لم تتوقف بالتنبيه على خطر التبعية ، وعلى ضرورة استعادة القدرة على الأصالة ، والتماس المنهج الرباني الأصيل ولم يكن

بد من أن تعزز هذه التبعية الخطيرة آثارها ، وتحقق نتائجها بالهزيمة والنكبة والنكسة ، وسيطرة قوى النفوذ الأجنبي والصهيونية والماركسية خلال هذه المرحلة في احتواء المجتمعات الإسلامية والسيطرة عليها .

ثم ما تبين من بعد من فشل التجربتين الديمقراطية الليبرالية والاشتراكية الماركسية ، وما انكشف من الآثار الخطيرة التي عادت على المجتمعات الإسلامية من انهيار اجتماعي وتدمير اقتصادي وفساد أخلاقي . كل هذا قد وضح الآن بما لا يدع مجالا للشك بأنه لا بديل للحل الإسلامي . بل أن الحل الإسلامي هو حتمية لا مفر منها إذا أراد المسلمون البقاء ، واستعصموا بعقيدتهم ومنهجهم الرباني من الفناء المحتم بالاحتواء والتبعية والانصهار في الأممية العالمية . لقد تبين هذا كله اليوم ، وتكشف أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . ومن ثم فإن هذه الخطوات التي يخطوها العالم الإسلامي على مشارف القرن الخامس عشر لا سبيل إلى اختيار في العودة عنها أو معارضتها لأنها تجيء بعد أن أصبحت كلمة « الفناء » علامة على كل متابعة لأسلوب العيش الغربي ، وقضاء على هذه الأمة الوسطى : التي حملها الحق تبارك وتعالى الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورسالة التوحيد الخالص إلى العالمين . ولذلك فإننا حين نقرأ في (الهرالد تربيون) مثلا تحليلا لهذا الموقف نجد أنه بالرغم من كل محاولات انتقاص يقظة الإسلام يتبين أن الغرب يفهم اليوم حقيقة الإسلام ، وأنه ليس دينا لاهوتيا كالمسيحية، ولكنه نظام مجتمع ومنهج وحياة ،وأنه لا بد أن يكون قائما ومطبقا في مجتمعات المسلمين ، هذا الفهم لا بد أن يضيء الطريق أمام الغرب ليغير أسلوب تعامله مع عالم الإسلام .

ونحن نعرف أن الغرب منذ بدأ حملته الاستعمارية على عالم الإسلام ، وهو يعرف هذه الحقيقة ، ولكنه يراوغ فيها ، ويعمل على تغيير هذه المفاهيم في نفوس المسلمين وفي عقولهم بمحاولة إقناعهم بمفهوم جزئي للإسلام ليكون شبيهها بالمسيحية ، بأن الإسلام دين عبادة ، أي دين لاهوتي ، وأن من حق المسلم أن يقنن لمجتمعه ، وأن يلتمس من الأيديولوجيات الغربية المنهارة الآن ما يراه صالحا له . وتلك محاولة ضالة مسمومة ، قد باءت بالفشل والهزيمة بالرغم من التغييرات الخطيرة التي أحدثها النفوذ الأجنبي بفرض قانونه الوضعي ، ونظامه

السياسي والتربوي والاجتماعي ، فالمجتمع الإسلامي اليوم على أبواب القرن الخامس عشر يكشف عن معارضته التامة لأسلوب العيش الغربي ، ويرى أن التجربة المريرة قد فشلت في أن تحقق شيئا . فقد رفض الجسم الإسلامي العضو المراد زرعه ، ورفضت الأرض إنبات الثمر الذي ألقيت بذوره ، وأنه لا محيص أمام المسلمين من التماس منابعهم وشريعتهم ومنهجهم وأسلوب عيشهم الأصيل .

تقول الهرالد تريبون (١٩٧٩/٧/٢٨) :

منذ سقوط الأندلس والإسلام يكاد يكون غير مخلوط في أوربا . وهو الآن يبزغ من جديد عبر القارة . فالمآذن ترتفع في أوربا وترتبط صحوة الإسلام في أوربا بصحوته في بلاده . فالمسلمون يرفضون أساليب الغرب ومعاييره التي تفرض عليهم والمسلمون في أوربا يريدون أن يعيشوا حياة المسلمين ، وليس حياة الناس المقتلعين من جذورهم ، ولا يجب أن يتوقع منهم الغربيون أن يقلدوهم في معيشتهم .

وتقول الهرالد تريبون : والإسلام ليس ديانة بالمعنى الضيق للكلمة ، ولكنه طريقة كاملة للحياة ، وهو يصوغ الموقف الاجتماعي ، ونماذج السلوك لمن يتبعونه : طعامهم وملابسهم وزوجاتهم وحياتهم الأسرية ، وتعاملاتهم الاقتصادية ، وميولهم السياسية ، وكثيرا ما يتصادم الإسلام مع أساليب الحياة العلمانية في أوربا .

لقد استبان للغرب أن المسلمين لا يمكن أن ينصهروا في أتون الأممية العالمية ، وأنهم لم يجدوا أنفسهم خلال هذه السنوات التي فرضت عليهم فيها مناهج الغرب القانونية والتربوية ، وأن مجتمعاتهم أصابها الاضطراب والفساد والانحراف وهم يؤمنون اليوم بأن الغرب قد غشهم وضللهم ، كما ضللهم أتباعه من التغريبيين أمثال طه حسين وسلامة موسى ، وعلي عبد الرزاق وزكي نجيب محمود وغيرهم ، وأن الهزائم التي لحقت بهم خلال هذه السنوات ، وخاصة سيطرة النفوذ الصهيوني على بيت المقدس وأرض فلسطين المقدسة لا منجاة منها إلا بالتماس أسلوب العيش الإسلامي ومنهج القرآن .

وقد تبين هذا في وضوح في الندوة التي عقدت بجزيرة قبرص بالرغم من أن أغلب من ضمتهم الندوة من رجال التغريب ، بعض الحقائق التي لم يعد هناك سبيل إلى تجاوزها . ومن ذلك أن تجارب التنمية في أغلب البلاد الإسلامية التي وضعت تحت شعارات الديمقراطية الغربية أو الماركسية قد فشلت ولم تستطع أن تحقق الأهداف التي وضعتها لنفسها . وتبين أن الحل الإسلامي والمنهج الإسلامي هو الأسلوب الأمثل لنمط هذه المجتمعات ، وعللت فشل تجارب التنمية في هذه البلاد بأنها حاولت أن تأخذ غير الإسلام سبيلا .

كما تبين أن القسم الأكبر من الحركات الإسلامية في البلاد الإسلامية ، إنما جاءت كرد فعل لانهيار الأخلاق العامة . ليس فقط في حدود الأوامر والنواهي الدينية ، وإنما أيضا في نطاق الحياة الاجتماعية بمعناها الواسع مثل تفشي السرقة والرشوة والتراخي في العمل ، وعدم الانضباط والسكر وتعاطي المخدرات والجشع المادي وعدم الالتزام باحترام القانون ، هكذا تصور المؤتمرات الغربية واقع المجتمع الإسلامي في ظل أسلوب العيش الغربي الذي فرض عليها سنوات طويلة وكانت له نتائج خطيرة .

ولعل الغرب نفسه الذي صنع الأيديولوجيتين : « الرأسمالية والماركسية » هو الذي يعلن اليوم إفلاسهما ويدعو من خلال المنظمات العالمية إلى ضرورة قيام نظام اقتصادي عالمي جديد يحقق للطبقات الفقيرة والكادحة والوسطى حقها في الحياة بعد أن تبين فساد التنظيم الاقتصادي العالمي القائم .

نقول إذا كان الغرب نفسه هو الذي يعلن اليوم من خلال منظماته الرسمية سقوط النظامين . فإن العالم الإسلامي جدير بأن يكون يقظاً وقادراً على أن يتجنب الكارثة التي تحل به من التبعية الخطيرة ، وعليه أن يبدأ عصره الجديد وحضارته الجديدة بالتماس منهجه الإسلامي الأصيل القادر على العطاء بالرحمة والعدل والإخاء البشري ، ليس عطاءا قاصراً على المسلمين وحدهم وإنما على البشرية جميعا .

وهذا يتجلى لنا في مطالع القرن الخامس عشر الهجري ضرورة التماس المسلمين لمنهج العيش الإسلامي القرآني الأصيل الذي حجب عنهم خلال قرن

ونصف قرن بالقانون الوضفي بذيلا من الشريعة وبالنظام الرأسمالي والليبرالي بديلا من الشورى وبالنظام الاقتصادي الربوي بديلا من العدل الاجتماعي وبالقوميات والأقليات وصراع العنصرية الخفي تحت اسم القوميات بديلا من الإخاء البشري العالمي .

وعسى أن يستجيب المسلمون لصيحة الحق على مطالع القرن الخامس عشر كما استجابوا في مطالع فجر الإسلام .

مدرسة التبعية للحضارة الغربية

إن من أبرز معالم حركة اليقظة الإسلامية في مطالع القرن الخامس عشر الهجري هو : تكشف الحقيقة التي ظلت معماة على العرب والمسلمين خلال الجيل الحائر الذي قاده طه حسين وسلامة موسى وعلي عبد الرازق ، ومن بعده جيل آخر قاده زكي نجيب محمود ولويس عوض . تلك هي خدعة النفوذ الغربي التي كانت تقول بأن المسلمين والعرب لن يستطيعوا امتلاك إرادتهم إلا إذا « تغربوا » فكراً وثقافةً وأسلوب عيش ، والذين كانوا يفرضون على الثقافة صوراً (تعلى) من حضارة الغرب ، وبطولة رجال الغرب ، وتزدري حضارة الإسلام وبطولاته . لقد حاول هؤلاء أن يغرسوا في تربة الإسلام أن الفلسفة اليونانية هي مصدر الثقافة الإسلامية ، وأن الحضارة الغربية هي مصدر النهضة في الشرق ، وانخدع جيل بهذه المفاهيم المسمومة ، واحتقروا قومهم ، وجهلوا ذلك الميراث العظيم الذي قدمه لهم القرآن ، والذي كان مصدر تحرير العقل البشري كله من الوثنية والتعدد ، ومنطلق تحرر الإنسان من ظلم الإنسان ومن عبوديته الحضارات الفرعونية والفارسية والرومانية . كان الغرب ينكر الحضارة الإسلامية ويحجبها عن المسلمين والعرب حماية لوجوده في نفس الوقت الذي كانت دوائره ومنظماته تعترف بفضل الشريعة الإسلامية وعظمة عطائها ، وتعترف بأثر المنهج العلمي التجريبي الذي صنعه المسلمون على بناء الحضارة الغربية الحديثة .

ولكن صوت الحق ما لبث أن انبعث مجلجلاً مدوياً ، فقد أعلن رأس

المدرسة الحديثة : الدكتور محمد حسين هيكل أن البذر لا ينبت ، وأن الطريق لا يؤدي ، وأن تجربته التي قام بها من خلال الحضارة الفرعونية القديمة انبعاثا ، والحضارة الغربية اقتباساً قد فشلت تماماً وأنه لا طريق لها إلا طريق الحضارة الإسلامية ، فهو وحده الطريق وأن سيرة محمد ﷺ هي منطلق النهضة الحقيقية .

قال هذا هيكل رأس المدرسة الحديثة وأعلنه بعد أن استعلنت كلمة المدرسة الإسلامية التي نادت بالإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، ودعت إلى التماس حكم الله ، ورفعت المصحف بين أيديها نبراساً لمواجهة الغرب الزاحف لاحتواء المسلمين وتدمير حضارتهم .

ولكن المسلمين لم يستمعوا إلى النداء باكرين ، وكان عليهم أن ينتظروا حتى تنتطح قرن العنز في الصخر فتنكسر وهكذا ظلت الأمة سادرة في مفهوم الحضارة الغربية كمنطلق للتحرر . ومواجهة الغرب بأساليب الغرب ـ وهي أخطر مؤامرة سقط منها المسلمون في العصر الحديث حين تخلوا عن مقاييسهم وأسلحتهم وأسلوبهم القرآني في مواجهة الأحداث ، ولجأوا إلى أسلوب الغرب ودخلوا دائرة الاحتواء . ظلوا كذلك حتى كشفت النكبة ، ثم الهزيمة ، ثم النكسة عن الحقيقة باهرة كفلق الصبح : كشفت عن فساد دعاوي المدرسة الغربية الوافدة الضالة المضلة التي قامت على الخداع والغش ، لقد خدعهم المستشرقون وأغروهم بالمناصب والمراكز والموارد وهم بدورهم خدعوا أمتهم ، وهم المسئولون عن تلك الأجيال المضللة الحائرة التي اختلطت عليها النظرية الليبرالية ، والنظرية الماركسية ، والنظرية الفرويدية والنظرية الوجودية . لأن هؤلاء الرواد قدموا كل هذا الخليط إلى شباب أمتهم ليفسدوا عقليتها ويحطموا روحها . ولكن حركة اليقظة استطاعت أن تفتح الطريق أمام ضوء الحق ، وأن تحدد أمام الأجيال نقطة البدأ الأصيلة في كل أمور الثقافة والفكر ، وهي تبدأ من الإسلام نفسه . ومن كلمة التوحيد ، ومن الإيمان برسالة السماء التي حددت مسئولية الإنسان في الأرض والتزامه الخلقي ، وجزاؤه الأخروي .

لقد أعاد هؤلاء الدعاة إلى الفكر الغربي كل مقررات الفكر الوثني القديم : إخوان الصفا ، والباطنية ، والحلول والاتحاد ، وجروا وراء أوهام الفكر الغنوصي

والإغريقي ، وكانوا قناطر في نقل سموم الفكر البشري إلى أفق الفكر الإسلامي ، ولم يستطع واحداً منهم أن يكون مفكرا أيديولوجيا ، أو عالماً له نظرية ، أو قائداً له منهج محدد يمكن أن يوصف بأنه فيلسوف أمته . ذلك لأنهم جميعاً صدروا من فكر الغرب وفلسفاته وأقاموا كتاباتهم على هذه المذاهب التي تختلف كثيراً عن فكرنا وعقيدتنا . ولذلك فإنهم لم يجدوا تجاوباً حقيقياً من النفس الإسلامية العربية وكان يفجر نفوس هذه الجماعة الرائدة شعور النقص ومحاولة الاستعلاء بالتقليد ، وكانوا يجرون وراء فكرة وهمية صنعت عندهم عقدة التخلف التي كان حلها عندهم هو تقليد الأجنبي صاحب عقدة التفوق . وعجزوا عن أن يفهموا إبعاد المسائل وخلفيات الأشياء ، وأن يعلموا أن مصدر الهزيمة هو الغفلة عن المنبع الأصيل عن المصدر الرباني .

لقد عجزوا عن فهم روح أمتهم وفكرها وتغربوا ، وهزت نفوسهم ماديات الحضارة ، وأخذ قلوبهم بريقها . فكانوا لا يرون الحضارة فى قيمها الخلقية والإنسانية ، ولكنهم يقصرونها على المعاني المادية ، على المتاحف والقصور والشوارع ، وكأنها كل شيء في الحضارة . وكان التقدم المادي يلهب عقولهم ويسيطر على نفوسهم فينظرون إلى أوطانهم المتخلفة على أنها فقريباب ، ولا يرون إلا باباً واحداً لتقدمها هو التحضر المادي ، ولكن أصحاب الحضارة وهم نفسهم أصحاب النفوذ الأجنبي المسيطر على بلاده كانوا مكرة ، فهم لم يقدموا لنا العلم الذي نصنع به التقدم المادي ، وإنما قدموا لنا الفلسفة التي تزيغ القلوب وتفسد العقول . قذفوا هذا الشرق الإسلامي بالأيديولوجيات والنظريات والنحل وتركوه يصارعها وينقسم حولها ويضرب بعض ببعض ، ماركسيين وليبراليين . ومن وراء ذلك فكر الصهيونية التلمودية التي حولت قيمها ومفاهيمها إلى مذاهب وعلوم تدرس بجامعات العالم الإسلامي . واستطاعوا أن يبهروا الناس ثمة بالبريق الخاطف الذي سرعان ما ينطفىء . وانظر الآن فلا تجد فيما تركوه إلا ركاماً أسوداً . وتجد جريرتهم واضحة ، فإنهم هم الذين خدعونا حتى أوصلونا إلى مرحلة التصدع .

لقد قطع هؤلاء الناس صلتهم بالماضي وبالتاريخ وبالتراث وباللغة

وبالعقيدة . وبالعروبة والإسلام وصنعوا صلات جديدة واهية هي صلاتهم بالغرب بالفكر الغربي وهو فكر مسيحي المصدر مادي النزعة ، وثني الهدف ، ثم بالفكر الماركسي ، وهو فكر زائف جاء رد فعل للفكر الليبرالي الرأسمالي المتصدع . ولذلك فقد كانوا عاجزين عن أن يحدثوا في القلوب رضا لأدنى النفوس ولاءً - لم يستطيعوا أن يقدموا مطامح النفس أو أشواق الروح، لأنهم كانوا يسبحون ضد التيار . فلما ارتفعت كلمة الله ودعوة الإسلام وجدت الاستجابة الحقيقية ، لأنها تمثل الفطرة ، وتقدم للنفس البشرية ، والقلب الإنساني والعقل الإسلامي مطامحه وأشواقه . فلما وجدوا أن الدعوة الإسلامية تنطلق لأنها الفطرة حملوا عليها وهاجموها ، وحاولوا أن يدخلوا نفس المجال ويقتحموه بالكتابة عن السيرة والإسلام ليوجدوا بديلاً تحمله أقلام لامعة لها شهرتها . وليكون ذلك عاملاً أساسياً في تقديم البديل الزائف قبل القضاء على الأصيل الحق .

ولكن هذه البدائل انكشف أمرها وتبين فسادها ، وبان عوارها . فقد صدرت من منطلق الفكر الغربي فلم تستطع أن تستوعب مفهوم الإسلام الحقيقي الجامع القرآني المصدر . وقد سقطت لأنها لم تكن خالصة لوجه العلم ، وإنما كانت تحاول أن تستجيب لأهواء دفعت الأقلام إليها . كانوا يحاولون بها ضرب الشيوعية الزاحفة ، أو يحاولوا بها ضرب مفهوم الإسلام الصحيح ، وكانوا يحاولون بها إنكار المعجزات ، وفرض مفهوم ينكر الغيبيات ، ويفرض التفسير المادي للتاريخ .

وكانت من محاولاتهم حجب التراث الإسلامي الصحيح وراء فكرة الانقطاع الكاذبة بين ماضي الأمة وحاضرها . فلما بدأ التراث الإسلامي يشرق من جديد ، ويكشف عن جوهره الأصيل زيفوه بكتابات طه حسين عن الفتنة الكبرى وعلى هامش السيرة . ثم جاءت المرحلة التالية على أيدي الماركسيين الذين اعتبروا أن طه حسين قد فتح لهم الطريق وأزال من أمامهم الكثير من العقبات . ثم جاء زكي نجيب محمود ليكشف الصفحات المظلمة من تاريخ الفكر الباطني والوثني والشعوبي والمجوسي القديم الذي صارع الفكر الإسلامي الأصيل في عصر الترجمة ردحاً من الزمن . وجاء إحياء إخوان الصفا والمعتزلة والباطنية والفكر الفلسفي الصوفي ، وإحياء ذكرى أصحاب الزنج والقرامطة الذين سرقوا الحجر

الأسود وقتلوا الحجيج إلى بيت الله الحرام باعتبار أن هذا هو التراث الإسلامي الذي يجب تجديده .

لقد جددوا التراث بالفعل ولكنه التراث الزائف المسموم . لقد أعادوا إحياء التاريخ بالفعل ولكنهم أضاعوه في أسلوب الصراع السياسي بين الصحابة الأجلاء كما فعل طه حسين في الفتنة الكبرى . وهم في نفس الوقت قد حجبوا التراث الحقيقي . هذا الذي تكشف عنه اليوم أقلام طاهرة ونفوس نقية .

المنابع الاسلامية : ما زالت صالحة للعطاء

ما تزال يقظة المسلمين على أبواب القرن الخامس عشر موضع تعليقات الصحف الأجنبية وكتاب الغرب ، وهي تعليقات تصدر من أهواء النفس ، وأهواء الأمم ، وعن وجهة نظر مخالفة لوجهة نظر الإسلام والمسلمين ، بل هي تعبر بالصدق عن وجهة نظر معادية . ترى أن يقظة الإسلام من شأنها أن تقضي على ذلك النفوذ الأجنبي الذي لا يستطيع البقاء إلا بالوسطاء التابعين في مختلف مجالات الثقافة والاقتصاد والتعليم ، بل أن حرص الغرب على تطبيق القوانين الوضعية ، وحجب الشريعة الإسلامية ، وتطبيق أنظمة الديمقراطية والماركسية والقومية . وتطبيق نظام العلمانية في التربية والمجتمع ، إنما يستهدف في الحقيقة استبقاء النفوذ الأجنبي قائماً في مجموعة من القادة والرواد يمكنون النفوذ الأجنبي من السطو والسرقة ، واستغلال مقدرات الأمم الإسلامية ، وإذلال الشعوب حتى يظل الغرب (بشقيه) قادراً على استنزاف هذه الثروات والحصول عليها بأتفه الأثمان ، والحيلولة دون تمكن أصحاب هذه الثروات من الانتفاع بها في تنمية بلدانهم ، واستدامة بقائهم تابعين وأولياء ولتكون بلادهم سوق تجارة لهذه الأمم ، وما درى الغرب أن كل شيء له نهاية ، وأن مقدرات الأمم التي استنزفت خلال سنوات زادت على قرن ونصف قرن تكفي ، وأنه من الخير للأمم أن تعود إلى امتلاك إرادتها بتطبيق شريعتها ، والمحافظة على ذاتيتها ، وحماية تراثها وقرآنها وتاريخها ولغتها .

ومن مصلحة العالم كله أن لا يحول بين المسلمين وبين امتلاك إرادتهم ،

وتطبيق شريعتهم ، والمحافظة على ذاتيتهم وتراثهم وعقيدتهم ، وأن يقلعوا عن تلك المحاولة التي يتبنوا بها « تغريب » العالم الإسلامي ليظل على الدوام خاضعاً لهم وسائراً في فلكهم . فقد ثبت أن هذه المحاولة لم تنجح ، وأن المسلمين لن يتنازلوا عن ميراثهم الرباني . بل سيعملون على إقامة نهج حياتهم على أساسه .

ولذلك فإن تبوزويك تخطىء حين تقول : إن تطبيق الشريعة الإسلامية يهدد باضطراب الميزان السياسي بين المسلمين وغيرهم . ومن حق تبوزويك ومن ورائها أن يعلموا أن تطبيق الشريعة الإسلامية لن يضار به أحد من أهل الكتاب أو أهل الذمة . بل سيكونوا أكثر سلامةً وأمناً من وجودهم تحت ظل القوانين الوضيعة .

ولذلك فإن هذا الخوف من عودة الإسلام إلى دنيا المسلمين لا أساس له ، وهو لا يصدر عن فهم صحيح للإسلام أو للمسلمين ، سواء في حاضرهم أو في تاريخهم كله ، ولكنه من وساوس شياطين اليهود الذين يخشون عودة الإسلام إلى بلاد المسلمين بعد أن ظلت مؤامرتهم تحطم كل المحاولات التي قام بها الدعاة والمصلحون ، وخاصة ما دسوه من سموم من خلال الأيديولوجيات والفلسفات المادية المضللة التي استهدفت تزييف مفهوم النفس والأخلاق والاجتماع والتربية ، وتأخير نهضة المسلمين .

وتصدق تبوزويك حين تقول : إن الزحف الإسلامي يأتي تعبيراً عن الرفض لقيم الغربي المتفسخة والتي تضم الماركسية والرأسمالية . وأن الضجة المتنامية تطالب بالعودة إلى القوانين الإسلامية المعروفة بالشريعة وهي مبنية على القرآن وعلى سنة الرسول .

وتشير تبوزويك إلى البلاد التي تطبق الشريعة الإسلامية ، كالسعودية وليبيا . وتقول أن باكستان تتبعهما الآن . ومن المفترض أن تسير إيران على منهجهما . ويقوم المسلمون في نيجيريا والسودان والكويت بالضغط على حكوماتهم لتبني الشريعة الإسلامية . وتخشى تبوزويك من القصاص التي يلقاه الزناة وشاربوا الخمور وتقول لها أن مجرد الخوف من العقوبة الإسلامية الصارمة سيشكل مانعاً دون ارتكاب الجريمة ، كما أن ذلك النظام سيقضي على جريمة « الربا » في المعاملات المالية . وسيفرض الزكاة والعشور لتمويل برامج الرعاية الاجتماعية .

ويتبع ذلك إعادة النظر في مناهج التربية والتعليم لتكون موافقة للمنهج الإسلامي .

وسيؤدي هذا كله إلى تنقية المجتمع الإسلامي من سموم التغريب وأسلوب العيش الغربي . ولا ريب أن صيحات النفوذ الغربي والماركسي إنما تعبر عن الخوف من انقطاع السطو والسرقة والابتزاز والتهريب الذي لا يسيطر النفوذ الغربي والماركسي به إلا في ظل الأنظمة الفاسدة الربوية .

أما في ظل النظام الإسلامي الصحيح ، فإن النفوذ الأجنبي لا يستطيع أن يحقق سلباً أو نهباً يجري بالملايين ، بينما يحصل أعوانه على الفتات القليل ، وتضيع هذه الثروات على الأمم التي هي مالكتها في الحقيقة .

ومن هنا تأتي تلك الكلمات الضالة المضللة من القول بأن القوانين الإسلامية ترجع إلى القرون الوسطى أو أنها تؤدي إلى هروب المستثمرين الأجانب ، أو أن هذه القوانين وضعت لمجتمع التجار والرعاة ، ولا يمكن تطبيقها في عصر التكنولوجيا . كل هذه أوهام كاذبة ومضللة . فإن شريعة الله الحقة موازية لكل العصور والمجتمعات صالحة لها ، وأنها ليست قانوناً وضعياً أقيم من أجل مرحلة معينة ، فهو يسقط إذا تغيرت . وإنما هو قانون رباني المصدر إنساني الطابع يمتلك الصلاحية لكل العصور والبيئات من حيث قيامه على الفطرة وسنن الله في الكون والمجتمعات ، فهو لا يتعارض مع التطور أو التحول من بيئات الزراعة إلى بيئات الصناعة ، أو من البداوة إلى الحضارة .

إن هذا النظام الرباني المصدر الإنساني الطابع قادر على إعطاء المجتمعات التي تطبقه سعادة وأمناً . وأن البشرية بعد أن جربت أنظمة مختلفة خلال أربعمائة سنة أو تزيد لتعرف أنها لن تجد الأمن والسلامة إلا في ظل الإسلام العادل الرحيم المرتفع فوق الأهواء والمطامع .

وهذا الإحساس الذي يغمر أصحاب النفوذ الغربي الاستعماري الربوي باقتراب سقوط نظامهم هو الذي يدفعهم إلى تلك المؤمرات المكثفة التي يثيرونها الآن في وجه اليقظة الإسلامية ويريدون بها أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره .

إن الحقيقة التي ظهرت الآن ، ولم يعد في الإمكان طمسها أو المؤامرة عليها . هي أن الإسلام ليس ديناً بمعنى العبادة ، وإنما هو نظام مجتمع ومنهج حياة ، وأنه بجانب الدين يوجد تاريخ وحضارة وقيم ومعاملات . وتوجد القواعد الفقهية التي تسمح بالتجديد والتحديث والاجتهاد في أمور المتغيرات مع الحفاظ على الثوابت والحدود والقيم الأخلاقية التي لا تتغير مع الأزمة أو البيئات .

وإن البلاد الإسلامية قد جربت كل أنظمة الغرب (شرقيها وغربيها) واعتنقت فلسفاته ومفاهيمه ، ودرست أيديولوجياته ، ووجدت أنها جميعاً عاجزة عن العطاء الحقيقي . بل لقد اكتشفت البلاد الإسلامية بأن هذه الأيديولوجيات عجزت عن العطاء في بيئتها التي وضعت من أجلها . وقد تكشف للشباب المسلم الجديد أن هناك نقص واضح يرجع إلى أن المثقف المسلم يدرس مناهج الغرب ونظرياته وتاريخه ومفاهيمه في مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية . ولا يدرس مفهوم الإسلام الذي هو مفهومه القومي والأساسي ، ويدرس مفاهيم الغرب على أنها حقائق مع أنها في الحقيقة نظريات وفروض . وأن عليه أن يدرس وجهة نظر دينه وعقيدته في مختلف أمور الحياة . ذلك أن عقيدته جامعة شاملة ، وقد أعطت منهجاً كاملا . أما عقائد الغرب القاصرة على العبادات ، فإنها قد حاولت أن تستعير أيديولوجيات وضعية وبشرية فسدت بعد سنوات قليلة ، واحتاجت إلى الإضافة والحذف .

يقول تقرير مؤتمر جزيرة قبرص الذي عقد لدراسة انبعاث الإسلام : إن أزمة الدول العربية الحقيقية ليست أزمة فرد . وإنما هي من أزمة العالم الثالث . لقد جربت هذه الدول الأساليب الدستورية والليبرالية ، والانقلابات الفكرية ، والحزب الواحد ، ونظريات التنمية الرأسمالية والشيوعية . وقد فشلت جميعها ، وتعيش هذه البلاد منذ الحرب العالمية الثانية في أزمات منوعة ، والاقتراح الوحيد هو أن هذه البلاد في حاجة إلى نظريات ومناهج تنمية تأخذ في الاعتبار تراث وثقافة هذه الشعوب كجزء لا يتجزأ من عملية التنمية والتحديث وبعد فقد وضح الصبح لذي عينين ، ولم يعد هناك من مفر أمام المجتمع الإسلامي أن يحقق وجوده من خلال عقيدته وتراثه وشريعته . فهي وحدها القادرة على إخراجه من الأزمة ، وإدخاله في عصر امتلاك الإرادة .

- ٥ -

مراجعة تراكمات الفكر البشري وزيوفه

على أبواب القرن الخامس عشر يتحتم إعادة النظر في كل الأفكار التغريبية التي يرددها الاستشراق ورعاة التغريب والغزو الثقافي . هذه الأفكار التي يقف لها دعاة اليقظة الإسلامية بالمرصاد ، فإذا بهم يعيدونها بصورة أخرى ، ويغيرون جلدها . بعد أن تعرت وتكشف زيفها . ولعل أخطر ما يجب إعادة النظر فيه تلك السموم المبثوثة في الكتب المدرسية ، وخاصة في مجال التاريخ الإسلامي من حيث تصوير تاريخ الإسلام على أنه حلبة صراع بين الخلفاء أو تصويره على أنه صورة مضطربة من الخلاف والصراع . ويجب علينا أن نعرف أن الأيدي التي كتبت هذه الصفحات أساساً لم تكن أصيلة . وإنما كان وراء النفوذ الأجنبي الذي ذهب . وبقيت هذه الصفحات دون أن تتحرر من زيفها . ذلك أن النفوذ الأجنبي كان يعلم مدى خطر دراسة التاريخ على الأمم ، ومدى عظمة تاريخ الإسلام وبطولاته وأثره في تربية النفوس . ومن هنا محاولة تدمير الصورة الكريمة له في هذه المقررات المضطربة .

كذلك صهرت الدعوة إلى إعلاء شأن حركات الهدم والتدمير التي كان من ورائها الباطنية والمجوسية والقرامطة أمثال حركة الزنج والقرامطة ، والادعاء بأنها حركات تحرر ، بينما كانت في مصادرها الصحيحة محاولة للقضاء على الدولة الإسلامية ، وفتح الطريق أمام عودة الوثنية الفارسية .

وكان من أخطر الدعوات الدعوة إلى تفسير تاريخ الإسلام تفسيراً إقليمياً أو

قومياً أو مادياً اقتصادياً في محاولات متعددة قدمها دعاة الإقليمية والقومية والماركسية. وكلها زائفة وباطلة .

وكانت هناك محاولة انتقاص الدور الخطير الذي قام به المسلمون في سبيل بناء المنهج العلمي التجريبي الذي هو أساس الحضارة المعاصرة . وهناك من أنكر هذا الفضل إنكاراً تاماً ، رغبة في القول بأن الغرب هو الذي صنع هذه الحضارة . من هنا تمتلىء نفوس شبابنا بانتقاص حضارتهم وعقيدتهم التي هي مصدر الحضارة المعاصرة والإعجاب الزائف بحضارة الغرب ، ولو صدق هؤلاء الباحثون لنسبوا الفضل لأهله ولكشفوا عن انحراف حضارة الغرب إلى المفهوم المادي الذي كان من أثره ظهور أزمة الإنسان الحديث .

وأخطر من هذا كله محاولة تفسير التاريخ الإسلامي بمنهج غير منهجه ، وعن طريق فهم لا يدخل إلى تقديره رسالة السماء والنبوة والوحي وإرادة الله وقدرة العقيدة على تغيير المجتمعات وعلى إعطاء المحاربين القوة التي يتفوقون بها وهم العدد القليل على العدد والعدد .

كذلك فإن هناك الخطأ الكبير في اعتبار العامل الاقتصادي عاملا هاما في التأثير على المجتمعات والتاريخ وتطورها في بلاد الإسلام دون تقدير أثر القيم الدينية والأخلاقية المستقاة من الإسلام ، والتي هي العامل الأول في تشكيل النظم وتطورها . ومن هنا فإن نظرية التفسير المادي للتاريخ ، ونظرية ماركس الاقتصادية لا تنطبق على تاريخ عالم الإسلام . أو كما يقول الدكتور حسن شحاته سعفان أنه إذا صح أن الدول الأوربية قد تطورت بحيث وصلت في العصور الحديثة إلى دول تقدس المادة أولا . فإن ثمة دولا بالعكس لم يطرأ عليها تطور يجعلها تضحي بالمثاليات الأخلاقية والدينية تحت تأثير العوامل المادية .

وأخطر ما تواجه به من عبارات قولهم القديم والقدماء والسلف والتراث وهم لا يقصدون من هذه العبارات كلها إلا معنى واضحا لا يستطيعون الإفصاح عنه هو الإسلام . إنهم ينظرون إلى هذا التاريخ الإسلامي والتراث الإسلامي والعقيدة الإسلامية على النحو الذي نظر إليه الغربيون إلى تاريخهم وتراثهم وعقيدتهم فنبذوها ، لأنها لم تستطع أن تعطيهم المنطلق إلى النهضة . فقد أنكرت

تفسيرات الدين التقدم وحاربت العلم وعارضت النهضة ، ووقفت في وجه البناء ، وقسرت نفسها على الرهبانية ، وكراهية الحياة ، واحتقار المرأة . فحق للغرب أن ينبذ هذه التفسيرات ، وأن يخرج عليها ، لأن الدين الحق لا يدعو إليها ، ولكن ما بال المسلمين يجرون وراء هذه العبارات الخادعة ودينهم هو الذي كان مصدراً أساسيا لقيام المنهج العلمي التجريبي وقرآنهم هو الذي قدم للبشرية سنن الطبيعة ، وعلّم المسلمين البحث عن سنن الحضارات ، والمجتمعات ، وبذلك وضع أسس علمي الاجتماع والاقتصاد . وقدم أصدق تفسير لتاريخ البشرية .

وهناك تلك المحاولات الباطلة لتقديم مناهج : (القومية ، والعلمانية ، والديمقراطية ، والماركسية) بديلا لمفاهيم الإسلام الجامعة في سبيل الإخاء البشري الجامع ارتفاعا عن العنصرية والتعصب للأنساب والعراق والدماء .

وهناك العدالة الإجتماعية والشورى القائمة على الرحمة والحق ، وهناك تكامل القيم بعيداً عن دعوى العلمانية الباطلة التي اصطنعها المجتمع المسيحي خروجاً من سلطات البابوات ، وظلم رجال اللاهوت وسيطرتهم وحكومتهم الثيوقراطية التي لم يعرفها الإسلام .

كذلك فهناك الهجوم الدائم على البيان العربي والبلاغة ، والدعوة إلى العامية ، وإلى أسلوب وسط بين العامية والفصحى ، وكل هذا يستهدف النيل من القرآن الكريم ، وأسلوب القرآن ومحاولة دائبة على إيجاد فاصل عميق بين واقع أسلوب الكتابة وبين بيان القرآن .

ويتبع هذه الدعوة مهاجمة عامود الشعر وأوزانه وموسيقاه وقوافيه ، رغبة في القضاء على أصول البيان العربي ، والهدف كله أن تحطم لغة القرآن ، وتدمر ، وأن يعلو شأن اللهجات الإقليمية . وبذلك تعجز اللغة العربية عن أن تستوعب العلوم الحديثة والتكنولوجيا ، وأن تكون مصدرا للعلم وتطوره وآفاقه الواسعة التي من شأنها أن تنشىء الحضارة الإسلامية الجديدة .

إنها دعوة تصدر عن حقد شديد على وجود اللغة الفصحى وحروفها العربية ، وما تمثله من تراث مقدس وانتظام شمل العرب كافة

بالإضافة إلى مئات المسلمين الذين ينتسبون إليها ثقافيا وعقائديا . وهناك تلك الدعوة المسمومة إلى « تأويل الشريعة » والدعوة إلى « احتواء الشريعة » واستخدامها لتبرير فساد الحضارة الغربية وآفات المجتمع الربوي .

وهناك أسماء لامعة : كانت تبرز في صفوف الماركسية والشعوبية قد عادت لتظهر تحت اسم الإسلام ، ولكنها تحاول أن تدخل سموما ليقول مثلا أن الشريعة الإسلامية مرحلية ، أو أنها يمكن أن تتطور ، أو يمكن أن تعطل أجزاء منها إرضاءً لهيلمان الحضارة كالحدود مثلا .

وهناك من الكتاب من ظهر تحت اسم الإسلام يحاول أن يتخذ من تفسيرات الباطنية ووحدة الوجود ومفاهيم الفكر الغنوصي القديم مستخرجات لإفساد أصالة القيم الإسلامية . ومن ذلك من يدّعي أن العذاب في الآخرة معنوي أو غير ذلك من مفاهيم منحرفة أو مستقاة من تفسيرات الأديان والنحل الأخرى .

كذلك فإن هناك من يتحدث أو يكتب عن الأديان فيقول : إن الشرية كانت وثنية في أول أمرها ، ثم وحدت بنزول الأديان الثلاث . وأن أول التوحيد اليهودية ، وقد وقع في هذا كاتب كبير ويردده الذين قرأوا كتاب اليهودي ماكس مولر عن تطور الأديان ، وهو مفهوم باطل . فإن التوحيد جاء مع الإنسان الأول والنبي الأول ، وظل قائماً ، ثم ظهرت الوثنية ، ثم توالت الأديان تدعو إلى التوحيد ، وعاشت البشرية ولم تنقطع عن التوحيد يوما ولم يتوقف الفكر البشري عن صراع التوحيد ، وما زال وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهناك فكرة التوحيد التي يرددونها عن أختاتون ، وهي فكرة زائفة ، فإن أختاتون وحد الوثنية حول عبادة الشمس ، وكانت الوثنيات متعددة في أيامه .

وهناك من الكتاب من يتحدث عن السبعة آلاف عام من عمر الأوطان التي دخلت الإسلام . هذا الإسلام الذي جب ما قبله ، والذي أنشأ ذلك الانقطاع الحضاري بين عصور الوثنية والفرعونية وغيرها . وما تزال قصة السبعة آلاف عام من الأوهام والخرافات التي ابتكرها بعض دعاة الإقليمية والاعتزاز بالفرعونية . فأين وحدة التاريخ أو وحدة الثقافة المتصلة سبعة آلاف عام . لا اللغة واحدة ، ولا الدين واحد ، ولا مفهوم القيم ظل ثابتا ، وإنما كل شيء قد تغير ، وبقي

شيء واحد هو « الحنيفية السمحاء » دين إبراهيم . وهذا لا يمثل مصر وحدها ، ولكنه يمثل المنطقة كلها التي تحرك فيها إبراهيم وأبنائه من بعده ، ورفع عليها علم التوحيد ، الخالص .فلماذا يعودون لإثارة هذه العبارات أمثال : حورس أو أبيس او غيره ، وأين ما يسمى وحدة الثقافة المصرية أو السورية أو العراقية . والثقافة مرتبطة باللغة والدين ، وليست مرتبطة بالأرض .

إن فكرة السبعة آلاف عام هذه أسطورة خادعة بعد أن ثبت الانقطاع الحضاري ، وتبين أن كل ما كان قبل الإسلام إنما كان تمهيداً للإسلام ، وكان في مجمله وثنية وانحرافاً عن مفهوم الدين الحق . فقد كان قائماً على تفسيرات رؤساء الأديان وانحرافاً عن التسلسل التاريخي بين دين إبرهيم وما جاء به موسى وعيسى وصولاً إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

طريق الفلسفة وطريق القرآن

إن من أهم ما تكشف من آفاق الأصالة على أبواب القرن الخامس عشر تلك التفرقة الواضحة بين الفلسفة المادية وما وصل إليه العلم التجريبي من حقائق .

لقد قامت الفلسفة المادية على احتمالات البحث العلمي حين كان يخطو خطواته الأولى ، وحين لم يكن قد حطم الذرة بعد ، وحين كان متغطرسا مستعليا يظن أنه قادر على الكشف عن كنه الوجود والحياة . ولكنه الآن قد تحول كثيراً عن هذه الوجهة بعد أن ثبت عجزه إزاءها ، واكتفى بالعمل على تفسير ظواهر الأشياء . ثم جاءت إنحناءته الكبرى أمام عظمة صنع الله بعد أن تبين أن هناك جانبا خفيا من العلم لا يمكن كشفه أو تفسيره إلا بالاعتراف بموجد صانع . وهو الذي يدير هذا الكون لحظة بعد لحظة بالدقة البالغة التي تدهش الألباب وتعجز أمامها كل قوى الضبط والتقدير .

هذا هو موقف العلم التجريبي اليوم ، فهو على طريق الله بعد أن كشفت التلكسوبات الضخمة عظمة الكون واتساعه وتعدد المجرات التي تحفل بألوف الملايين من الأقمار والكواكب : وبعد أن وصل الإنسان إلى القمر وإلى بعض كواكب المجموعة الشمسية ، ثم تبين له أنه لم يقطع إلا يسيرا من تلك المساحات الواسعة الشاسعة .

هذا موقف العلم وهو يختلف عن موقف الفلسفة المادية ، أو ما يسمونه

فلسفة العلم . ومع أن الفلسفة المادية تعرف أن العلم قد آمن، أو أوشك أن يؤمن ، فهي ما تزال سادرة في طريقها المظلم المسدود . وقد أخذت تقوم في السنوات الأخيرة بدراسة الإنسان والمجتمع والأخلاق . فقدمت مفاهيم ضالة زائفة لأنها عجزت عن أن تفهم الإنسان فهما جامعا (روحا ومادة ، وقلبا وعقلا وجسدا) . وتوقفت عن فهمه كمادة وكجسم وكمجموعة من الأهواء والشهوات والمطامع تجري حول العيش والجنس .

أما الإسلام فإنه يقدم مفهومها جامعا للنفس الإنسانية ، كما يقدم مفهومها للوجود والطبيعية والكون ، تستمد مفاهيمها من الفطرة وتتكامل فيها القيم ، وهي بذلك جامعة تأخذ الإنسان من جميع أطرافه ، وهي مانعة تستطيع أن تواجه كل تطورات الحضارة والمجتمع والبيئات . ولذلك فإن المسلم الحق ليس في حاجة إلى الفلسفات لأنه إذا كان يريد أن يفهم منظومة الوجود والكون . فإن القرآن قدم له فهما وافيا كاملا لا يحتاج بعده لإنفاق الجهد للوصول إلى عشر معشار هذا المفهوم الجامع الكامل الذي قدمه الإسلام ليحمي الإنسان من الضلال ، وليصرفه إلى ما هو في حاجة إلى استعمال العقل فيه وهو عمران الكون ، وكشف ذخائر الأرض .

وإذا كان المسلم يريد منهجا للحياة ونظاما للمجتمع ، فقد قدم له الإنسان هذا المنهج ، وهذا النظام على نحو إنساني شامل جامع صالح لكل زمان ومكان .

وإذا كان المسلم في حاجة إلى دراسة الإنسان ، فإن مفهوم الإسلام للإنسان أوفى مفهوم ، فهو سيد الكائنات تحت حكم الله وهو المستخلف في الأرض لعمارتها ، وهو الذي حمل أمانة العمل على أساس المسئولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي .

وهكذا تنكشف نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان في أوفى مفهوم . بينما تقدم الفلسفة الغربية نظرات متباينة أشد التباين من عقلية استنباطية ، أو مثالية متطرفة أو مادية بعيدة عن الوقائع أو بعيدة عن العقل والروح . وأحيانا لا يتفق مع موازين العقل، ولا تلتقي مع الفطرة ومع هذه السعة في معطيات الإسلام مما يتطلبه الإنسان من مفاهيم . فإن قومنا يحجبون هذا كله ، ويسرفون في ترجمة تلك

الفلسفات المادية المتضاربة ، ويتركونها بين أيدي شبابنا حتى دون أن يطلعوهم على الظروف التي وجدت فيها هذه التيارات ودون أن يقولوا لهم إنها نظريات وفروض قد تصدق وقد لا تصدق ، ودون أن يوجهوهم إلى أنها من نتاج مجتمعات أخرى لها ظروفها وأوضاعها وتختلف معنا حتى في أدق دقائق العقائد والآداب والأخلاق . بل إن الأمر أخطر من هذا كله ، فإنه قد ظهرت في أعقاب أزمات الحضارة المادية والحروب الشاملة المدمرة (الحربين العالميتين) فلسفات قاصرة على قيادة الفكر والحياة ، لأنها فلسفة أزمات لا تتناول الإنسان ككل ، ولا تهتم اهتماماً جادّاً بمكانه في الكون ورسالته على الأرض ، بل تعبر عن الجانب المادي في الإنسان وهو على كل ليس بالجانب الحقيقي في طبيعته . هذا فضلا عن أن تطور الحضارة المادية ، واتجاه الأمم إلى أسباب القوة من جهة ، وإلى الترف من جهة أخرى . وإلى جانب قصور النظم التربوية على مستوى العالم كله ـ كما يقول الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ـ وعجزه عن تكوين النموذج الإنساني المتزن من الناحيتين الفكرية والخلقية . كل هذا حد من تأثير الدين الحق بروحانيته وأخلاقياته ، وتصوره للكون والإنسان ، ومقدرته على تنظيم أمور الحياة .

هذه الخلقيات للفلسفات الغربية المطروحة في أفق فكرنا الإسلامي يجب أن نعرفها لنلقي الضوء الكاشف على فسادها ، وعدم حاجتنا إليها . لقد كانت تحديات الحرب العالمية الأولى والثانية عاملاً أساسيا في ظهور جميع الأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة من وجودية وماركسية ، ومادية وتفسير مادي للتاريخ . ولذلك فهي ليست فلسفات ناتجة عن مجتمعات طبيعية ، ولكنها جاءت كرد فعل لأحداث عارضة ، فكيف يمكن للمجتمع الإسلامي الذي يختلف تماماً عن المجتمع الغربي ، والذي لم تكن له مثل تلك التحديات والأحداث أن ينقل هذا أو يحاول أن يطبقه في مجتمعه . هذا فضلا عن أن المجتمع الغربي بشقيه هو مجتمع مسيحي الأصل ، والمسيحية دين وصايا ، ولم تحمل معها نظام مجتمع ـ لأن نظامها الاجتماعى وشريعتها موجودة في الموسوية ـ وهى عندما انفصلت عن اليهودية حاولت أن توجد نظاماً اجتماعياً ، فقداستعملت الفلسفة وأسلوب العقل ومن ثم انبثقت أيديولوجيات الرأسمالية والقومية والعلمانية والماركسية وغيرها . أما المجتمع الإسلامي فالأمر فيه يختلف كل الاختلاف .

ونجد اليوم دعوة ملحة من التغريبيين والشعوبيين ودعاة الفكر الوافد إلى طرح المذاهب الفلسفية في أفق فكرنا . وهي دعوة معروفة الهدف والهوى والغرض . ذلك لأن الفلسفة التي ترجمت في القرن الرابع الهجري هي أكبر ضربة وجهت إلى مفهوم الإسلام الصحيح وإلى التوحيد الخالص . ولولا أن القوى الإسلامية واجهتها مواجهة شاملة صادقة لأفسدت مفهوم الإسلام الصحيح ، ولأثرت فيه تأثيرها في المسيحية واليهودية .

لقد بدأ المسلمون صلتهم بالفكر الغربي من خلال ترجمة العلوم والطب والفلك والكيمياء . ووقف المسلمون موقف المعارضة لترجمة الشرائع وترجمة الآداب . ولكن أسلوب الترجمة انحرف في عهد المأمون واستطاع نصارى نصيبين والرها وجران وجنة سابور أن يجدوا فرصتهم لإدخال مفاهيم مسيحية إلى الفلسفة التي ترجموها . وقد تبين أن ترجماتهم كانت زائفة ومحرفة .

وهكذا فقد كانت الفلسفة دخيلة على الفكر الإسلامي ، وكانت آثارها في الكلام والاعتزال والتصوف بعيدة الأثر من حيث تحريف المفهوم الأصيل .

ولا ريب أن الفلسفة والكلام تفسيرات بشرية غير منزهة عن الخطأ . وقد استمدت مفهومها من المنطق اليوناني الذي هو في أصله علم الأصنام . وقد واجه علماء المسلمون هذا التيار وقاوموه . وكان الغزالي من أقوى المخاصمين لها . فقد انتقد الغزالي الفلاسفة في مسائل قدم العالم والعلم الإلهي والبعث . وقال إن ما ذهب إليه الفلاسفة فيها مناقض للقرآن .

وبعد الغزالي رفض علماء المسلمين أسلوب المنطق الأرسطي . وكان الغزالي مقدمة لدور ابن تيمية القوي الحاسم . لقد رفض الغزالي الفلسفة كتصور أيديولوجي يوناني من حيث الخلط بين عالمي الغيب والشهادة . وقد أعلن ابن تيمية منطق القرآن بديلا لمنطق أرسطو . وتبين من بعد صورة واسعة واضحة من الرفض والإهمال لكل ما دعا إليه الفارابي وابن سينا .وقد عدت هذه المدرسة تابعة للفكر اليوناني .

وكان الإمام الشافعي بمنهجه هو أول خطوات التحرر من التبعية وبناء منهج إسلامي أصيل للبحث . وقد تبين أن انتشار الفلسفة وسيطرتها في هذه المرحلة

كانت العامل الأول في الانهيار الذي أصاب المجتمع الإسلامي إلى جانب عوامل أخرى سياسية واقتصادية وخارجية كالتتار والصليبيين ، ولكن محاولات الغزو من خلال الفكر التي قامت بها قوى الشعوبية والباطنية والمجوسية كانت أكبر ضربات المعاول التي مهدت للغزو الخارجي ومكنته من هزيمة المسلمين . ولقد تبين للمسلمين أن منهج أهل السنة والجماعة ، المنهج القرآني هو وحده المنطلق إلى النصر وإلى امتلاك الإرادة . واليوم يحاول المستشرقون أن يدفعوا تيارات الفلسفة إلى السيطرة على الفكر الإسلامي وتزييفه وحجبه عن الأصالة التي تستمد من المنابع والقرآن والسنة ، في محاولة لإحداث فتنة شبيهة بفتنة العصر العباسي ، وصولا إلى هزيمة مفهوم الإسلام الأصيل .

ولقد كانت الفرصة مهيأة في هذا العصر لترجمة سموم الفكر الغربي وأوحاله وشبهاته جميعا . وهي متضاربة مختلطة لتدمير العقل الإنساني والقلب المسلم . ولكن المسلمون تنبهوا إلى هذا الخطر وكشفت حركة اليقظة ، هذا التيار الأسود ، وعرفوا أن طريقهم واحد : هو طريق القرآن .

مفهوم القوميات الزائف

لقد كانت مؤامرة الإقليميات والقوميات التي فرضها النفوذ الأجنبي على العالم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر الهجري من أكبر العوامل المدمرة التي قضت على الوحدة الإسلامية ، والخلافة الإسلامية ، وروح الإخاء الإسلامي القادر على مواجهة الخطوب والأحداث ، وما تزال المفاهيم الوافدة التي أصبحت مسلمات في هذا المجال أكبر عقبة أمام وحدة إسلامية شاملة . لقد ساعد على تعميق الفروق تلك الدعوة إلى القوميات المحلية بكل ما تحمل من اعتزاز بالماضي وإعلاء للحضارات الوثنية التي قاومت الإسلام والتي هزمها الإسلام سياسيا وعسكريا .

لقد كانت الدعوة إلى القوميات مؤامرة مسمومة استهدفت تدمير الوحدة الإسلامية الجامعة تحتَ مظلة الخلافة ، ولقد جاءت الدعوة إلى الوحدة العربية في أول أمرها محاولة لرد التحدي الذي قامت به الطورانية في تتريك العرب الداخلين تحت لواء الدولة العثمانية إبان حكم الاتحاديين . ولكن هذه الدعوة العربية لم تلبث أن أصبحت هدفا في حد ذاتها وحملت معها سموم المفهوم الواحد فأعلت شأن الجنس والعنصر ، وحاولت أن تكون كيانا خاصا مستقلا . كما حاول دعاتها إخراجها من مفهوم الإسلام ومضمون التكامل من العروبة والإسلام إلى مفهوم القوميات العلماني المفرغ من العقيدة والثقافة والتاريخ الجامع . وإدخال مفهومٍ غربي يرى أن الدين ليس عنصراً يحكم - إنه مفهوم لاهوتي، بينما الإسلام ليس ديناً بمفهوم العبادة وحدها . ولكنه دين ومنهج حياة . ولذلك فإن مفهومه يختلف .

لقد حاول النفوذ الأجنبي أن يجعل الوحدة العربية هدفا نهائياً . بينما لم يكن في الحقيقة إلا مرحلة نحو الوحدة الإسلامية .

ولقد صاحب الدعوة إلى أقلمة الوحدة العربية وتغريبها وإخراجها من مفهومها الأصيل الواضح دعوات إلى أقلمة البلاد الإسلامية : تركيا ، وأفغانستان ، وإيران ، وباكستان في محاولة لحجب المفهوم الإسلامي الجامع وراء مفهوم قومي يحاول إحياء التاريخ القديم السابق للإسلام . فدعت تركيا إلى الطورانية ، ودعت إيران إلى كورش وقال الفرس أنهم متحدرون من أصل إري . وقال الترك إنهم متحدرون ن أصل مغولي . واستهدف كل هذا القضاء على روح الإسلام الجامعة التي أعلت من شأن الإخاء الإسلامي القائم على المفهوم الإنساني . وبدأت صيحات النحل القديمة والعروق والدماء بحيث حاولت أن تنال من الوحدة التي صنعها الإسلام والتي جمعها القرآن ، وبدأت تظهر ثقافات فارسية وتركية وهندية لا تتقيد كثيرا بالانتماء الإسلامي .

وكانت هذه من أشد ألوان الحروب الثقافية والمؤامرات التغريبية التي واجهها العالم الإسلامي لأنها اعتمدت على التقسيمات السياسية ، واعتزت بالحدود الإقليمية . وفي إطار هذه المحاولة لتمزيق الوحدة الإسلامية الجامعة كانت محاولة النفوذ الأجنبي بإثارة الخلاف بين الدولة العثمانية في تركيا ، والدولة الصفوية في إيران ، على أساس خلاف بين السنة والشيعة ، ومن ثم اتسع نطاق هذا الخلاف بحكم إثارة الخلافات حتى لا يجتمع أهل لا إله إلا الله على عقيدتهم الجامعة .

واستعلت في أقطار كثيرة الدعوة إلى النحلة القديمة قديما المصريون إلى الفرعونية ، واللبنانيون إلى الفينيقية والعراقيون إلى الأشورية ، والبابلية ، وظهرت دعوات البربرية وغيرها .

وكلها كانت محاولات استعمارية تغريبية للقضاء على التكامل الجامع بين الحلقات الثلاث الوطنية والعربية والإسلامية . ثم تبين من البحث التاريخي أن هذه المذاهب قد بادت وانتهت ، وأنه لا سبيل إلى إحيائها ، لأنها لا تملك لغات ولا تراث ولا ثقافة . وأن مثل الفرعونية والفينيقية ليست جنسا من أجناس

البشر ، ولكنها عصر من عصور الحكم . وقد تبين أن هذه كلها موجات خرجت من الجزيرة العربية ، وانداحت في هذه المنطقة شرقاً وغرباً . وأن صلة ألسنتها البائدة باللغة العربية صلة وثيقة .

وظهرت دعوات أخرى إلى الرابطة الشرقية ، وإلى الوحدة النيلية ، وإلى الهلال الخصيب ، وإلى سوريا الكبرى . وكلها دعوات أرادت أن تنال من مفهوم الإسلام الجامع ، وتحول دون الوحدة الإسلامية القائمة على ترابط العرب والترك والفرس والهنود والأفارقة والماليزيين الأندونيسيين بالإسلام ديناً وثقافة وفكرا . وأن القرآن هو اللغة الجامعة بين هذه العناصر التي تلتقي تحت اسم (**لا إله إلا الله محمد رسول الله**) والتي تلعب الآن في مطالع هذا القرن ألف مليون من المسلمين .

وهكذا كانت الفكرة العربية في مرحلة من المراحل باستعلائها العنصري مخاصمة للمسلمين ، وكان مفهومها الغربي الوافد محاولة للقضاء على الفكرة الإسلامية ، وكانت بتركيبها العلماني المادي محاولة لحجب المفهوم الإسلامي الجامع .

ولم يكف النفوذ الأجنبي أن يمزق البلاد الإسلامية إلى أحزاب سياسية ، ولكنه ذهب إلى تمزيقها من ناحية إعلاء العنصر والدم والعرق ، وتقديمه على وحدة الفكر الإسلامي الجامعة التي ليست بمفهوم الدين اللاهوتي المفرق الذي عرفته أوربا في المسيحية ، فكانت قومياتها صراعا معه ، ذلك أن الإسلام دعا إلى الاحتفاظ بالهوية الخاصة مع الالتقاء على صعيد التعارف العام ، والأخوة الإنسانية .

ولقد تبين فساد النظرية التي تقوم بالخصائص الإقليمية والفوارق القومية . ذلك أن الفكر هو الذي يشكل الأمة ، والفكر الإسلامي هو الذي يشكل الأمة الإسلامية .

أما فوارق القوميات والأقاليم من حيث اللون أو العادات أو اللهجات . إذ التقاليد أو المعطيات المادية ، فإنها كلها فوارق قليلة الأثر تدخل في نطاق الفروع والجزئيات التي لا تؤثر على المعاني الكبرى والقيم الأساسية .

ولقد حاول النفوذ الأجنبي أن يوجد فوارق بين أبناء الأمة الإسلامية عن

طريق التعليم والثقافة ، وأساليب الاحتلال والسيادة العسكرية والسياسية ، ولكن المسلمين كانوا يتنادون بقوة أمام الأحداث الخطيرة ويتجمعون بسرعة إزاء الأزمات التي تصيب أي جزء منهم .

إذا أن بـالـعـراق مـريض أمسك الشرق جنبه في عمانه

ولا ريب أن كل هذه المؤثرات والمحاولات إنما تستهدف إخفات صوت الإسلام ، وإضعاف طابعه الموحد الجامع تحت أسماء تاريخ عربي ، وجامعة عربية ، وحضارة عربية ، وثقافة عربية ، فضلا عن المواطنة والقومية الضيقة وإعلاء التاريخ الإقليمي كالفرعونية والفينيقية ، أو القول بأن اللغة العربية لغة العرب وحدهم ، أو إعادة تفسير التاريخ الإسلامي على أنه تاريخ قومي . وهكذا نرى المسلمين وقد تبعثروا على نحو سبعين جنسية معزولة عن الأخرى ومحبوسة وراء أسوار الإقليميات والقوميات . أو نرى عروبة مقطوعة عن الإسلام فكرا ، وعن المسلمين جغرافيا . ولقد حاولت الدعوة المسمومة إلى الإقليمية والقومية بمفهومها الغربي أن يصبغ كل شيء بلونها حتى القيم العامة ، فظهر ما يسمى التربية العربية والقانون العربي والاجتماع العربي ، وليس في ذلك شيء صحيح كلية ، لأن قيم التربية والقانون والاجتماع إنما هي قيم إسلامية أساساً .

وليس من ريب في أن النفوذ الغربي حين عمل على تعميق لمفهوم القوميات والإقليميات في البلاد الإسلامية ، كان يعمل من أجل إسقاط الجامعة الإسلامية ، وإقامة القومية اليهودية ، وكانت دعوته إلى العالمية تهدف إلى القضاء على الذاتية الإسلامية التي شكلها الإسلام ، وصهر وحدة المسلمين الفكرية في أتون الأممية العالمية . وكان هدف اليهودية العالمية أن يحطم الوحدة الإسلامية كما حطمت وحدة العالم المسيحي الذي كان قائما تحت لواء الكنيسة .

لقد علت صيحة القوميات واشتعلت نارها في الخمسينات والستينات في أفق العالم الإسلامي . وظن الكثير من الكتاب أن القوميات سوف تقضي على مفهوم الوحدة الإسلامية الجامع . وظنوا أن القومية دين أو منهج متكامل . بل لقد بلغ من سفه السفهاء أن قالوا : الدين جزء من القومية . وهكذا ، كله كلام منقول من مفهوم القوميات الوافد الذي نشأ أساساً من خلال علاقة المسيحية

كدين بالقوميات الأوربية . ولكن إذا جئنا لننظر في أفق الفكر الإسلامي . هل نستطيع أن نقول : إن الإسلام دين لاهوتي كالمسيحية يصارع القوميات ، وهل نستطيع أن نقول : إن العلاقة بين العروبة والإسلام كالعلاقة بين المسيحية والقوميات الغربية . إن هذا القول يعني أن الإسلام دين لاهوتي . والحقيقة أنه منهج حياة ونظام مجتمع . ومن ثم فإنه ليس ديناً بمعنى يحمل الصدام مع العناصر أو الأمم . فقد أعلن القرآن أن الله خلق الناس شعوباً وقبائل . وجعل بينهم التعارف والتلاقي ، وليس الخصومة والصراع . ومن ثم فإن الدعوة إلى القوميات مضادة للفطرة ، لأنها تخلق الخلاف والتمزق . ولذلك فقد سقطت كما سقطت دعوات الديمقراطية والاشتراكية وغيرها مما لا يجد قبولا في الروح الإسلامية والمزاج الإسلامي القائم على الأخوة والتكامل والرحمة والانفتاح على أهل القبلة جميعاً .

ولقد اتقدت هذه الدعوى وتعالى نارها ، ثم هبطت وأصبحت ركاما بعد أن فشلت في أن تحقق هدفا . ذلك أن الأصالة الإسلامية التي عمقت في التربية أربع عشر قرنا لا يمكن أن تقتلع جذورها بهذه السهولة .

لقد كانت الصيحة مصطنعة ، ولم تكن أصيلة ، ومن ثم انطوت ، ولكن علينا أن نعمق هذا الفهم حتى لا تجيء القوى الأجنبية فتثير هذه الفتنة مرة أخرى في خلال القرن الخامس عشر ، وهي لن تتوانى أن تفعل إذا وجدت إلى ذلك منطلقا .

ما تزال مؤامرة التغريب من أخطر المؤامرات التي واجهت الدعوة الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجري ؛ وما تزال آثارها ممتدة إلى اليوم . ولذلك فنحن في حاجة إلى وعي كبير .

مؤامرة التغريب

وليس من شك أن حركة « تغريب الشرق » أو « تغريب الإسلام» [Wastrutsm] هي دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها ، ولها قادتها الذين يقومون بالإشراف عليها وهي حلقة من مخطط واسع في تأكيد الاستعمار ودعمه ، قوامها « غزو فكري » بعيد المدى يستهدف القضاء على معالم شخصية الأمة وتحويلها إلى صورة غربية الملامح لعزلها عن القيم والمثل والتراث الذي يتصل بها . والذي كان عاملاً على تكوينها خلال الأجيال الطويلة .

كان الاستعمار يعلم أنه بعد أن سيطر على « عالم الإسلام » بجيوشه وقواه العسكرية ونفوذه السياسي لا بد يوما أن ينسحب ، فكان لا بد من وضع مخطط دقيق لإبقاء نفوذه في المناطق التي احتلها ، وكان لا بد له أن يبقى مقيما حتى تتكون الطلائع التي تخلفه من أهل الأقطار نفسها ، تؤمن بفكره ، وتسير في اتجاهه ، وتخدم مصالحه ، على أن تتكون تلك الطلائع عن طريق التعلم في مدارسه وصحفه وكتبه ، وأن تسير وفق أهدافه ، وتكون أمانتها للغرب أكثر من أمانتها لأوطانها .

لقد كان الاستعمار والنفوذ الأجنبي يعلم أن السيطرة الكاملة على هذه الأمة أمر مستحيل . فإن له من مقومات شخصيتها القوية الصامدة العنيدة ، ومن أسس فكرها الإسلامي القرآني ما يحول دون الاستسلام أو الركوع أو الخضوع لأي قوة خارجية أجنبية ، فكان لا بد من القضاء على هذه المقومات ، وتحويل

وجه الأمة إلى قيم أخرى تدمر كيانها وتفرض عليها التسليم للقوى الخارجية في أن تسود وتمتد وتتوسع . وبذلك يبقى الاستعمار حيّاً في صورة أخرى من صور النفوذ الأمريكي . إذن فالتغريب أساسا : هو محاولة لتغيير المفاهيم في العالم الإسلامي ، والفصل بين هذه الأمة وبين ماضيها وقيمها ، والعمل على تحطيم هذه القيم بالتشكيك فيها ، وإثارة الشبهات حول الدين واللغة والتاريخ ، ومعالم الفكر ومفاهيم الآراء والمعتقدات جميعا .

ولقد صور كرومر منهج هذا العمل الذي اصطنعه الاستعمار حين قال : « إن الشبان الذين يتلقون علومهم في أوربا يفقدون الصلة الثقافية والروحية لوطنهم ، ولا يستطيعون في نفس الوقت الانتماء إلى البلد الذي منحهم ثقافته فيتأرجحون في الوسط ويتحولون إلى مخلوقات شاذة ممزقة » . وكان هذا بالطبع هو الهدف من الإرساليات المختلفة التي غزت بلادنا في صور مدارس وجامعات ، وفي البعثات الموجهة إلى أوربا وإلى عواصم الدول المستعمرة . وفي هذا يقول جبران : إن الشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي . والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة فرنسية صار سفيراً لفرنسا . والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا . وكان هذا هو الحق إلى حد كبير . فقد غزا الغرب الشرق بجحافل من العلماء والمبشرين والمستشرقين والأثريين والصحفيين وشيدت مؤسسات ضخمة في مختلف عواصم العالم الإسلامي تفتح أبوابها لثقافتها في بلادها . وبدأ هذا النفوذ الفكري يعمل ويسيطر في مجالات المدرسة والجامعة والصحافة والثقافة والتربية والسينما والإذاعة .

وهكذا كان التغريب عملا خطرا دقيقا قوامه محاربة القيم التي عاشت عليها أمتنا في أسلوب مغلف بالضباب ، يحاول أن يثير غمامة كثيفة من التشكيك والاستهلانة بكل ما لدينا من قيم باسم « القديم » البالي الموروث ، ولم تمض سنوات قليلة حتى كان أبرز المسيطرين على الصحافة في العالم الإسلامي من هؤلاء المتنكرين لقيمنا الذاهبين مع التغريب في طريقه . وقد ظلت الصحف الوطنية تسقط واحدة بعد أخرى ، بينما ظلت الصحف التي تخدم التغريب تقوى وتتسع . وفي مجال الترجمة كان الهدف هو بث فكر جديد قوامه القصص المكشوفة والآراء

المسمومة ، وفي مجال المدرسة كانت تقدم الكتب التي تنقص من قدر أمتنا ، وتصم تاريخنا بالضعف ، وماضينا بالذلة . وسيطر على الجو الفكري كله تيار هدام قوامه الاستهانة بكل القيم ، وفي مقدمتها القيم الإسلامية كما فرضت الحضارة على بلادنا أسوأ ثمراتها ، ولم ترسل لنا إلا تجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو بغية تحطيم كيان المجتمع ، وبدت في جو مجتمعنا ريح تدعو إلى الرخاوة والمتعة واللذة والتخلص من كل القيود .

ولقد كانت هذه الدعوة تستهدف تدمير القيم الأساسية لهذه الأمة ، قيم المقاومة والصلابة والتصميم والعزم ، بغية تحويل نظر الأمة عن الجهاد والتضحية والفداء .

عملت حركة التغريب في عدة ميادين . بدأ العمل فيها غربيون نزلوا إلى المعركة ثمة ثم أسلموا مقاليد الأمور من بعيد إلى كتاب من العرب من أصحاب التبعية والولاء للاستعمار ، وكانت كلمة حرية الفكر ، والتقدمية ، ومقاومة الرجعية والتجديد والتطور من الكلمات البراقة التي لعبت دوراً كبيرا في خداع المثقفين .

ولقد اتخذت حملات التغريب على القيم والمعوقات والتاريخ واللغة والعقائد مظهرا علميا براقاً لم يخل من التعصب والهوى والحقد ، والاستعلاء ، وإنكار فضل العرب والمسلمين على الحضارة .

(٢)

لماذا حرص الغرب على غزو الفكر الإسلامي وإخضاعه لسيطرته بأدواته ووسائله المتمثلة في التبشير والاستشراق . للإجابة على هذا لا بد من العودة إلى ماض طويل : قال فيه « دزائيلي » رئيس وزراء بريطانيا أنه لا سبيل إلى بقاء النفوذ الأجنبي في البلاد ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض ، وأشار إلى القرآن . وعندما وقف اللورد اللنبي في القدس عام ١٩١٨ بعد أن دخلتها جيوش الحلفاء . وأعلن أنه الآن قد انتهت الحروب الصليبية . وكانت الحروب الصليبية قد انتهت عام ١٢٩١ ومضى عليها أكثر من سبعة قرون . غير أن الغرب لم ينس يوماً أنه طامع في الثأر من الإسلام بإعادة السيطرة على العالم الإسلامي مرة أخرى . فإذا كانت

الحروب الصليبية قد فشلت من قبل . فإن الاستعمار قد استطاع أن يحقق عام ١٩١٨ ما عجزت عنه الحروب الصليبية وهو تمزيق العالم الإسلامي وإسقاط الدولة العثمانية ، والسيطرة على مقدرات المسلمين . والواقع أن هذه السيطرة العسكرية كانت الخطوة النهائية لحملة ضخمة قام بها الغرب في سبيل تأكيد نفوذه منذ أوائل القرن التاسع عشر بغزو بريطانيا للهند ، وهولاندا لأندونيسيا . وفرنسا للجزائر .

ولما كانت ثقافة العالم الإسلامي المستمدة من القرآن تقوم أساساً على روح لغزو والقوة والجهاد ،ومقاومة كل من يحاول السيطرة عليها . أو اغتصاب مقدراتها . فقد كان النفوذ الأجنبي خفيا بأنه يقضي على هذه المقومات الأساسية بإفسادها وإدخال الشبهات والشكوك إليها . ومن هنا بدأت حركة التغريب تنمو في ظل التبشير والاستشراق ، وتجري محاولتها الأساسية في إفساد مفاهيم الإسلام واللغة العربية والقرآن ، وتزييف العلم ، وإدخال مناهج ومفاهيم مضطربة متناقضة ، ودعوات متعارضة تحمل ألوية الإلحاد والإباحية والتحلل والشعوبية ، وتدعو إلى الإقليمية والقومية الضيقة والعنصرية والمادية والوجودية ، وتخلق دعوات الفرعونية والبابلية والأشورية والفينيقية والبربرية على نحو مثير غريب لا حد لاندفاعه وتحوله . ومن خلال حركة « التغريب » برزت دعوة الشعوبية التي تقوم أساساً على احتقار التراث الإسلامي ، وبث الشكوك في التاريخ والأدب ، واتهام الإسلام بالقصور والتخلف . ومن هنا تداخلت حركة التغريب تداخلا خطيرا ، وفيها يحمل اللواء كتاب غربيون ، ومستشرقون ، ويتبعهم كتاب عرب ، وتقوم صحف واسعة الانتشار ، ودور نشر ضخمة في بعض العواصم العربية بالدعوة لما يقدمونه إلى شباب العرب والإسلام من سموم .

وأبرز ما تهدف إليه حركة التغريب هي : تغيير المفاهيم الإسلامية والقيم الأصيلة للأمة . وإلقاء بذور الشبهات حول كل قيمة ومفهوم ، في مجال العقائد والاجتماع والتاريخ ، مستهدفة إحلال مفاهيم الفكر الغربي بديلاً عن مفاهيم الفكر الإسلامي في قضايا المجتمع والمرأة والدين والسياسة والاقتصاد والتربية . ولا شك أن محاولة فرض مفاهيم الغرب لقيمنا من شأنه أن يخلق آثاراً بعيدة

المدى ، ويحدث تحولا غربيا في كل أوضاعنا ومقدراتنا . ولقد امتدت حركة التغريب من خلال مؤسسات التبشير والاستشراق ، واستطاعت أن تكون لها مراكز وقوى ورعاة وأعوانا في النفوذ الاستعماري . هذه المراكز ظهرت آثارها بعد أن انحسر سلطان الاحتلال ، وفرض وجهة نظر خطيرة كان لها أبعد أثر في تحـول المجتمع الإسلامي من طابعه الإسلامي إلى طابع منحرف .

بدأ عصر الرشد الفكري

لا ريب أن أخطر القضايا التي تعرض لها العالم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر هي قضية الوحدة الإسلامية ، فقد كان القضاء عليها هو : هدف النفوذ الأجنبي باعتبارها العامل الأول في ربط المسلمين فكريا واجتماعيا . وقد جاء هذا العمل مبتدئا بإزالة دعاوى القوميات والإقليميات ، وإثارة التاريخ القديم ، وانبعاث الآثار القديمة التي سبقت الإسلام بهدف إقامة أنظمة سياسية تعلي في دعاواها العرق والعنصرية والاستعلاء بالوطنيات والبطولات القديمة ، والالتصاق بالأرض .

ومن هنا بعثت دعوات إحياء الفرعون وكورش وطوران ، ولم تكن هذه الدعوات في حقيقتها إلا عاملا من عوامل الهدم للوحدة الإسلامية الجامعة التي تمثل أساسا في وحدة الفكر والثقافة والعقيدة من خلال مفهوم القرآن والتوحيد الخالص والرحمة والعدل والإخاء البشري .

ولقد عرف العالم الإسلامي بعد أن تمزق إلى قوميات مدى أبعاد المؤامرة التي أودت بالوحدة الإسلامية . ومن ثم بدأت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وإلى التضامن الإسلامي في خلال سوات قبل وبعد سقوط الخلافة العثمانية . وقد جرت محاولات متعددة للتوافق واللقاء بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، وكشف دعاة اليقظة الإسلامية عن أهمية هذا التكامل في المجالات الاقتصادية والمالية ، بالإضافة إلى ما حبت به الطبيعة بعض المناطق بمواد تختلف عن المناطق

الأخرى بحيث يعطي إحداها ما يزيد عن حاجتها ، وتأخذ ما تحتاج إليه .

وقد رأى أكثر الباحثون اهتماما بهذه القضية أن وحدة الفكر هي الأساس الحقيقي والدعامة الأصيلة لوحدة الأمة الإسلامية ، وأن الضرورة تدعو إلى الالتقاء الثقافي على المعاني الأساسية والجامعة بحيث يستمد الفرس والترك والهنود والماليزيين وغيرهم مفهومهم من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وأن يكون مفهومهم ربانيا قرآنيا إنسانيا لا ينحرف نحو مذاهب الرأسمالية ، أو يتجاوز إلى مذاهب الاشتراكية خاصة بعد أن جربت مناطق كثيرة من العالم الإسلامي هذه الأنظمة وثبت فشلها وفسادها وعدم جدواها .

كذلك فإن الأمة الإسلامية لا بد أن تلتقي على مفهوم ، الأصالة والعودة إلى المنابع واستلهام أسلوب العيش الإسلامي والقرآن بحيث تكون أنظمتها مستمدة من الشريعة الإسلامية ووفق نظام التربية الإسلامية ، وأن تتحرر من القانون الوضعي الذي أفسد الحياة الإجتماعية كما تتحرر من النظام الربوي الذي أفسد الحياة الاقتصادية وأن تطبق الشريعة الإسلامية كاملة في مجال الحدود والاقتصاد والسياسة والاجتماع .

ومن دعائم العودة إلى الوحدة الإسلامية التحرر من التبعية الثقافية وتحرير الفكر الإسلامي من تلك السموم التي قذف بها الفكر الوافد عن طريق التغريب والاستشراق والتبشير إلى أتون الفكر الإسلامي ، وخاصة شبهات الفلسفات وتفسير التاريخ الإسلامي تفسيرا ماديا واقتصاديا . وكل ما يتصل بفلسفة التصوف والكلام والمنطق والاعتزال . وان يتحرر أفق الفكر الإسلامي من تلك الوثنيات التي ابتعثها الاستشراق وخاصة في مجال الفكر الباطني والمجوسي والغنوصي واليوناني وهي السموم التي كشف عنها الفكر الإسلامي في القرن الرابع بعد ترجمة الفلسفات وحرر منها الفكر الإسلامي وأعاد الفكر الإسلامي إلى مفهوم السنة والجماعة الملتزم بالمصدر القرآني ومفهوم التوحيد .

ولا بد أن تكون اللغة العربية هي منطلق الوحدة الجامعة لأنها لغة العقيدة والثقافة ، وأن تنمو بحيث يصبح العالم الإسلامي كله قادراً على الكلام والكتابة والتعامل بها ، وأن لا تغلبها اللغات الأجنبية ولا اللهجات المحلية ، وأن يقرأ

القرآن في كل مناطق العالم الإسلامي باللغة العربية ، وأن تدرس مختلف علومه بها .

وتجري الآن في باكستان وإيران محاولات لدعم اللغة العربية وإنمائها بحيث تحقق هذا الغرض ، كما تجري محاوت واسعة لتطبيق الشريعة الإسلامية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . ولا شك أن هذه هي مفاتيح الوحدة الإسلامية الحقيقية التي يجيء بعدها التكامل الاقتصادي .

وخير ما تتوجه إليه الثقافات الإسلامية هو مفهوم القرآن والتوحيد الخالص ، والجمع بين الوجدانية والعقل في منطق قرآني بعيد عن الفلسفات ، وعن مفهوم التصوف الفلسفي ، أو مفهوم العقلانية المعتزلي . فإن إعلاء أحد هذين المفهومين سيكون عاملا على عدم إبلاغ مفهوم الإسلام الأصيل غايته وهدفه الحقيقي .

كذلك فإن تاريخ الإسلام الحقيقي هو مصدر القوة . أما التاريخ القومي والإقليمي فإنه لن يستطيع أن يحقق شيئا ، لأنه إنما يستمد وجوده من خلفيات ميتة ومنهارة ، وهي خلفيات ما قبل الإسلام من حضارات وثنية وثقافات منحرفة قد قامت جميعها ولم تترك شيئا يمكنها من العودة أو الانبعاث . وقد قطع الإسلام التاريخ الحضاري وخلف فجوة واسعة بين عصر الإسلام النامي المستمر منذ أربعة عشر قرنا بدون انقطاع وبين عصور ما قبل الإسلام التي لم تكن في ميزان التاريخ الحق إلا تمهيداً لعصر الإسلام بوصفه خاتم الأديان وشريعة الله الخالدة العالمية التي ستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد جاء القرآن مهيمناً على الكتب المقدسة السابقة . وجاء الإسلام ليظهره الله تبارك وتعالى على الدين كله . وعلى المسلمين أن يحطموا تلك المؤامرات التي أثارها الاستعمار في العهود القديمة وما زال يتتبعها من خلال إيقاظ الخلافات بين السنة والشيعة ، أو بين العرب والفرس ، أو بين العرب والترك ، أو بين العرب أنفسهم . فإن هذه كلها محاولات تغريبية ، تستهدف تأخير الوحدة الجامعة ، وعلى المسلمين أن يلتقوا على الإخاء الإنساني ومنهج القرآن حتى لا تتقاذفهم الأهواء السياسية المختلفة المتصارعة .

يقول الدكتور محمد الكتاني : أن الوحدة الحقيقية للعالم الإسلامي هي الوحدة التي تقررها العقيدة أي أنها عقيدة والتزام وسلوك . أما كونها عقيدة فيفرض علينا أن نعتقد بأن المسلمين أمة واحدة كما خاطبها القرآن ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وكما كان القرآن دائما يخاطبها كأمة من المؤمنين ، أي أنه دائرة حول عقيدتها تحارب أو تسالم أو تجاهد أو تتحرك في كل سبيل بوحي هذه العقيدة لا بوحي المنفعة والمصلحة الضيقة ، والأهواء السياسية أو بالمفهوم العلماني للسياسة . فالمسلمون إذاً أمة لا تمايز بين أجناس المسلمين وشعوبهم وقومياتهم وحياتهم . ومن شأن هذا الالتزام أن تنشأ عاطفة تنمي أمامها كل العواصف المناقضة والمحايدة ، وعقيدة المسلمين أنهم لم يكن يجمعهم إحساس وجداني موحد ، ولم يكونوا يتصرفون طبقا لما تفرضه العقيدة من تبعات .

ولا ريب أن الالتزام بمقتضيات العقيدة تجاه وحدة الجماعة الإسلامية معناه تجاوز المفاهيم الوطنية والإقليمية والقومية والعرفية في العالم الإسلامي . فالإسلام لا يعرف إلا مجتمعا يقوم على العقيدة ويتحرك بوحي العقيدة ويقيم حدوده الجغرافية والسياسية على أساس العقيدة كذلك ، وليس من ريب أن التقاء المسلمين على وحدة الفكر الأصيلة المستمدة من التوحيد الخالص ، والتي تبني مجتمع العقيدة وتقيم الشريعة الاسلامية وتبني أجيالها بناء تربويا إسلاميا سوف يجعل العالم الإسلامي كله قادراً على امتلاك إرادة ، وثروته ومعطياته من ناحية ، وقائما يقظا بالمرابطة والمصابرة على كل ثغوره وحواشيه في مواجهة محاولات الغزو الخارجي المتكررة والتي لا تتوقف من جانب الغزو الخارجي الذي يطمع في السيطرة على قارة الإسلام كما أسماها نابليون الحافلة بتضاريسها الجغرافية ووضعها الاقتصادي ، ومكانتها الدولية في الحرب والسلم وثرواتها ومدخراتها من عطاء الله الوافر الذي هو قوام هذه الأمة في مواجهة أعدائها .

ومن هنا فإن مفهوم وحدة الفكر الإسلامي الجامع ستكون بمثابة الحصن القوي المدعم الذي يواجه كل محاولات الانتقاص بالمؤامرة من القوى الشعوبية والباطنية والحاقدة ومن القوى الخارجية المتآمرة .

وقد علمت الأمة الإسلامية أن النفوذ الأجنبي يؤخر امتلاكُها إرادتها

ليستطيع الحصول على أكبر قدر من ثرواتها ، وهو مخطط على أساس أن تظل متخلفة . ولذلك فهو يصهرها في دائرة احتوائه العلمانية والمادية والرأسمالية ، والماركسية ، لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لكي يستطيع قتل مكانتها الحقة

وليس من سبيل إلى الخروج من هذه الدائرة الصماء المغلقة المظلمة إلا التماس منهج الله تبارك وتعالى ، وإقرار مفهوم التوحيد الخالص ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، ووحدة الثقافة ، وأسبقية اللغة العربية ، ونظام التربية الإسلامية .

هذا هو وحدة الطريق الجاد الشاق الذي يحتاج إلى جهد وافر خلال القرن الخامس عشر الهجري ليحقق للمسلمين الخروج من دائرة الاحتواء الغربي ، والوصول إلى عصر الرشيد الفكري ، وبلوغ حركة اليقظة الإسلامية مداها في مجال النهضة الحقيقية التي تعطي لعالم الإسلام مكانته الأولى الحقة .

الاصالة والعودة إلى المنابع

إن من أبرز الظواهر المصاحبة لمطلع القرن الخامس عشر، هو رفض المذاهب الأيديولوجية الدخيلة، ومحاولة تنقية الفكر الإسلامي فيها، وفحص النظريات الوافدة التي تقدم لشباب الإسلام في مجال العلوم الاجتماعية، والنفس والأخلاق والتربية. وقد برزت حقيقة واضحة في هذاالمجال، أن هذه المفاهيم التي تقدم على أنها «علماً» ليست أكثر من وجهة نظر بشرية لإنسان ما. أو أنها فرضية من الفرضيات القابلة للصواب أو للخطأ، أو محاولة لحل مشكلة أو معضلة. وأنها ليست بحال من الأحوال حقيقة علمية شبيهة بالحقيقة العلمية التجريبية. ذلك لأن مجالات النفس والاجتماع والأخلاق، وما يسمى بالعلوم الإنسانية من الصعب أن يقال عن معطياتها أنها «علمية» لأن كل ما يتصل بالنفس لا يمكن مقايسته على التجريب، وهو يختلف بين فرد وآخر، وعصر وآخر، وبيئة وأخرى. وقد جاء هذا بعد الفشل الذي منيت به التجربة الليبرالية الديمقراطية، والتجربة القومية، والتجربة الماركسية، في كل تطبيق لها في أي جزء من أجزاء العالم الإسلامي. كل هذا الذي جرى خلال القرن الرابع عشر الهجري من محاولة لتطبيق نظام وافد أو اصطناع أسلوب العيش الغربي قد كشف عن نتائج سلبية خطيرة عوقت حركة اليقظة الإسلامية انطلاقا إلى النهضة.

ولقد أصبح من علامات اليقظة النظر بعين الحذر والنقد إلى ما يطرح في الأسواق من مطبوعات مشوهة تحمل اسم الجنس أو اسم المراهقة، أو من أمثال شرلوك هولمز وأرسين لوبين وسوبرمان، وخاصة تلك المسلسلات الموجهة إلى

الصغار مما لا يتلاءم مع هدف مطالبنا كمجتمع مسلم .

وقد جاءت هذه المحاولات كما نعلم تطبيقا للبروتوكول الثالث عشر من بروتوكولات صهيون « لكي نبعد الجماهير من الأمم غير اليهودية عن أن تكشف بنفسها أي مخطط عمل جديد لنا سنلهيها بأنواع شتى من الملاهي والألعاب . وسرعان ما سنبدأ الإعلان في الصحف داعين إلى الدخول في مباريات شتى من كل أنواع المشروعات كالفن والرياضة وما إليها » .

وهكذا نرى أن كل الأفكار المطروحة في هذه المطبوعات مأخوذة من مصادر أجنبية فهي لا تطابق مجتمعنا ، ولا تقدم حلولا لقضايانا ، وهي تصدر عن مفهوم مختلف من حيث العقيدة والثقافة والتربية .

ولذلك فنحن اليوم في حاجة إلى أن نروي أطفالنا قصصا إسلامية وعربية تكشف صفحات من بطولاتنا وتاريخنا حتى ينشأ أولادنا وهم مستوعبون من وراء الوعي ، تلك الحقيقة .

أما قصص الأطفال المطروحة التي تشكل بطولات مجتمعات أجنبية فإنها تخلق شعورا بالضعف والنقص والقصور فضلا عن معارضتها لمفهوم الإسلام في التربية وتكوين النشء .

كذلك فإن عملية اقتباس الثقافات الأجنبية بالترجمة لم تعد تمثل ضرورة كبيرة بعد أن اصطنعت الثقافات الغربية بالفسير المادي للتاريخ ، ووقوعها تحت سيطرة الفلسفة المادية التي تنكر الروح والمعنويات والخالق والدين .

ومنذ وقت غير بعيد كشف هذه الحقيقة مفكرون غربيون حين قال أحدهم : لقد أضاعت الحرب العالمية الثانية الثقة في المدنية الغربية ، أو كادت ، وضاعت من نفوس الكثيرين الثقة بما يسمونه في أوربا وأمريكا بالخلق المسيحي . فقد انهار هذا الخلق في كثير من البلدان ، وكاد يصدق قول الفيلسوف الانجليزي برتراند رسل في قوله « أنه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد واحد هو المسيح » .

ولقد جرت محاولات كثيرة لإدخال فلسفات ضالة إلى أفق الإسلام منها :

الفلسفة الغاندية، والفلسفة التولستوية ، وهي فلسفات تستمد مفاهيمها من إنكار مفهوم الإسلام الجامع ، وهي أشبه مفاهيم القاديانية والبهائية ، التي تعارض مفهوم الجهاد ، وتجنح إلى دعوات ضالة باطلة تستهدف القضاء على روح المقاومة والدفاع والصمود والمرابطة التي يقوم عليها الفكر الإسلامي في مواجهة تحديات الغزو الخارجي .

والواقع أن كل هذه التيارات قد هزمت ، وقد قاومها المفكرون المسلمون طويلاً وكشفوا زيفها ، وأصبح على المسلمين في مطالع القرن الخامس عشر أن يقيموا منهجهم الأصيل الجامع في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية مستمداً من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، ودعم اللغة العربية لتكون لغة العلم والتكنولوجيا بأن ننقل العلوم الحديثة إليها لا أن ننتقل نحن إلى العلوم الحديثة في لغاتها . وذلك يتطلب تعريب التعليم الجامعي كله في مجال الطب والهندسة والعلوم في العالم العربي كله . وهذه العملية تتطلب أولاً إيجاد المصطلحات الجديدة ، وقد وجدت الآن في أيدي الباحثين معاجم كاملة منها : المعجم الطبي الموحد ، والمعجم العسكري الموحد . وقد قدمت المجامع ألوف الألفاظ في مختلف مجالات العلوم .

ولعل أهم ما تتميز به مطلع القرن الخامس عشر هو :

(١) الأصالة .

(٢) الأنتقال من اليقضة إلى النهضة عن طريق الرشد الفكري الذي يلتمس المنابع التي استقى منها المسلمون في العصر الأول ، وكلما واجهتهم الأزمات ، فإن في هذه المنابع النور الكاشف ، والهدى الصحيح لكل ما يواجههم من أحداث ، وعليهم أن يلتمسوا منطلقهم كله من كلمة الله الحق . وأن يكون التفسير الإسلامي للأحداث هو السبيل الأول ، وأن لا تخدعنا التفسيرات الغربية أو الماركسية ، لأنها لن تهدينا إلى الحق . بل ستضلنا عنه . (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . والعودة إلى الأصالة هي السلاح الوحيد لمقاومة التغريب والغزو الفكري .

فقد خرجت أوربا من الحروب الصليبية بنتيجة أساسية أن العالم الإسلامي

أمة عريقة في حضارتها ، وأن السيطرة عليها لا يكفي لتحقيقها الغزو العسكري ولكن يجب أن يسير إلى جوار ذلك الغزو الفكري ويستهدف روح الأمة وجذورها لما يقول : الدكتور إبراهيم العدوي : فقد أدركت أن العالم الإسلامي سوف يقاوم الغزو العسكري ، وأن أسلحة المقاومة لديه سهلة ، ميسورة من حيث الفداء والاستشهاد . ولذلك كان لا بد من دعم الغزو الفكري للقضاء على روح الأمة التي توجب المقاومة . وهدف الغزو الفكري هو مسخ شخصية الأمة ونبع الأصالة والإبداع فيها حتى تتوقف عن النمو . ولذلك فقد عمدت إلى تحريف المقومات العلمية والحضارية للبلاد العربية إذ كرس نفر منهم جهوده لإبادة كتابه : التاريخ والحضارة محاولين توجيه البحوث توجيهاً استعمارياً فأنكروا على علماء المسلمين الأصالة الفكرية بهدف إسقاط مرحلة هامة من مراحل التطور الحضارة والإنسان ، ولذلك بإغفال شأن الحضارة الإسلامية صاحبة الفضل على نهضة أوربا في مطالع العصور الحديثة ، كما تسللوا للبحث عن العاميات بهدف أن يحتقر المواطنون لغتهم العربية ، والتشدق بلغة المستعمر ، كما نشروا « التفتيت » وهو أخطر سلاح يشهره أعداء العرب والمسلمين وإثارة النزعات القديمة (الفرعونية . الفنيقية . البابلية) وخلق الوطنيات الضيقة ، وهكذا نجد أننا قد وعينا اللعبة وعرفنا أبعاد المؤامرة .

البابُ الرّابع

منَ اليقظة إلى النهضة

- ٢ -

منذ شهور قليلة بدأ العام (١٤٠١) الهجري الذي يدخل بالإسلام والمسلمين إلى قرن جديد . ومن شأن هذا أن يجعلنا قادرين على مراجعة حساباتنا ، والتعرف على تاريخنا ، والنظر في التحديات التي تلقاها أمتنا منذ العصر الحديث في مواجهة تحديات النفوذ الأجنبي بأخطاره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية ، حيث فرض على الأمة الإسلامية لأول مرة في حياتها العريضة أن نلتمس منهجا غير منهجها في القانون والتربية والاجتماع على نحو أصبحت فيه « الذاتية الإسلامية » معرضة للاحتواء والانصهار في بوتقة الأممية ، والذوبان في العالمية . وهذا أخطر ما يجب مواجهته في مثل هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية ، ولن يتحقق ذلك إلا بالتربية ، تربية الشخصية الإسلامية ، والإنسان المسلم في مجال المجتمع . تربية تقوم على الأصالة والتماس المنهج الإسلامي من المنابع الأولى ، المنابع النقية التي قدمتها رسالة الإسلام ببعثة رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ إلى البشرية ، وأمامنا الطريق واضحا ومضيئا ممثلا في القرآن الكريم . ذلك النص الثابت الموثق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وفي سيرة الرسول ﷺ وشمائله وتصريفه للأمور وعمله في مجال الدعوة وفي حياته الخاصة .

والمسلمون اليوم وهم يدخلون عصرا جديدا من امتلاك الثروة والطاقة ،

والتفوق البشري ، يجب أن يعرفوا مسئوليتهم الخطيرة تجاه الرسالة الخالدة التي أنيطت بهم ، ووكلت إليهم . فعليهم تبليغ هذه الرسالة إلى البشرية الحائرة التي تتطلع إلى ضوء من الهدى بعد أن وصلت بها الأيديولوجيات . والمذاهب المادية غاية التمزق النفسي ، والتدمير والغربة والقلق .

ومن حق رسالة الله علينا أن نبلغها للناس جميعا ، ولكن من حقها علينا قبل ذلك أن نكون نحن نموذجاً طيباً لها بأن نطبقها على أنفسنا ومجتمعاتنا . ولن يتقبل الناس منا هذه الرسالة إلا إذا كنا نحن مثلا أعلى لها . ولذلك فإننا نتطلع أن يكون القرن الخامس عشر الهجري هو قرن الأصالة والرشد النفسي . والتماس المنابع ، وتطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع الإسلامي وتنفيذ المناهج التربوية الإسلامية على الفرد والمجتمع وفي عالم الأسرة والمرأة . وذلك بعد أن مر القرن الرابع عشر كله في مقاومة النفوذ الأجنبي الذي سيطر على العالم الإسلامي . وهي مقاومة صامدة ضخمة قام بها المسلمون في مختلف أجزاء الوطن الإسلامي ضحوا خلالها بأرواحهم وما يملكون في سبيل الدفاع عن البيضة والذود عن الأرض والعقيدة .

ويجب أن نذكر أن غرة القرن الخامس عشر الهجري جديرة بأن تكون موضع تقدير ، حيث يكتب التاريخ مسئولية هذا الجيل في وضع لبنة جديدة في هذا البناء الضخم : بناء الأمة الإسلامية . الأمة الخاتمة . التي شرفها الحق تبارك وتعالى بأن جعل محمدا ﷺ منها وحملها أمانة الإسلام خاتما لرسالة السماء ، وليظهره على الدين كله . وأنزل عليها القرآن خاتما للكتب السماوية ، ومهيمنا عليها .

وقد وصل الإسلام فى مفتتح القرن الخامس عشر إلى كل ركن من أركان القارات الخمس . بل ودخل كل مدينة . وأقيمت له المآذن في كل أرض ، وبلغ المسلمون ألف مليون ممن يقولون « لا إله إلا الله » هم ربع سكان العالم . وبلغ حجيجهم هذا العام مليونين ، وأصبحوا الفئة الثانية بعد سكان البلاد الأصليين في انجلترا وفرنسا وألمانيا . وفي الولايات المتحدة لا تشرق الشمس كل يوم إلا على مسلم جديد .

يمثل الإسلام في تعداد البشرية اليوم ربع (٢٥ ٪) من سكان هذا الكوكب الذي يبلغ الآن أربعة مليارات من البشر حيث يبلغ المسلمون (مليار) = ألف مليون ، فكل أربعة أشخاص في العالم يدين منهم واحد بالإسلام .

والإسلام ينمو نمواً مضطرداً على جبهة واسعة في القارات الخمس ، ويتمثل الآن في أغنى مناطق العالم بالثروة والطاقة كما يتميز بالتفوق البشري ، وهو يكسب كل يوم أرضاً جديدة وقوى مضاعفة .

وتمثل المناطق الإسلامية في أفريقيا وآسيا تكاملا تاما من حيث السهل والجبل والجفاف والصحارى وأنواع المحاصيل وما تخرجه الأرض من بترول وحديد ومنجنيز وكوبلت ، ويشمل مختلف القطاعات الاستراتيجية العاملة في الاتصال والانفصال بين القارات المختلفة والمحيطات ، كما يضم عديدا من الأجناس والسلالات واللغات والقوميات لم يتوقف الإسلام عن الانتشار منذ بزوغ فجره حتى في أشد أيام الصراع بينه وبين الاستعمار . وقد بلغ عدد الذين اعتنقوه من غير العرب حتى اليوم ٩٠٠ مليون مسلم (العرب مائة مليون مسلم) . وقد انتشر بقوته الذاتية وبفضل مبادئه التي تحمل رسالة التوحيد والإخاء البشري بين الملونين والمستعبدين وغيرهم من البشر .

إن الفتح الإسلامي لم يفرض الإسلام على أهل الأقطار ، ولكنه أقام لهم النظام السياسي العادل الذي دفع أهالي الأقطار إلى الدخول في الإسلام تلقائيا . ثم إن الذين دخلوا في هذا النطاق هم بالنسبة للذين وصلتهم الدعوة السليمة بمثابة واحد إلى عشرة ممن اعتنقوا الإسلام .

يرجع ذلك إلى أن الإسلام يتميز بأنه نظام اجتماعي ، ومنهج حياة يقيم العلاقات بين الأفراد والمجتمعات ويؤكد على العدل الاجتماعي والرحمة ، مما حمل الكثيرين من المستضعفين والعبيد والأرقاء والفقراء إلى الدخول فيه . وقد جاءت تعاليمه ضد تركيز الثروة وضد الاحتكار وضد استقلال الإنسان لأخيه الإنسان ، ومقاومة الربا ، والاستقلال . والمسلمون في مجموعهم أمة ، وليسوا دولة : أمة

أساسها العقيدة وليس العنصر أو الجنس أو القومية أو الوطن ، والرابطة بينهم رابطة فكرية ، وليس الإسلام ضد القومية ولا ضد الوطنية .

فالإسلام لا يعارض القوميات ، ولكنه يقيم بينها علاقة روحية وفكرية تتسامى بها عن العنصرية والاستعلاء بالدم ، والعالم الإسلامي متكامل من الناحية الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية ، وأداة الوحدة الحقيقية والأساسية فيه هي وحدة الفكر بوصفها أداء الرسالة ، وتبليغ الدعوة ومقاومة العدوان وحماية المجتمع ، ولا يمكن أن تسمى هذه الوحدة وحدة دينية . فالإسلام ليس دينا بمفهوم الغرب أو مفهوم المسجد . وإنما هو منهج حياة ونظام مجتمع . والنظرة الإسلامية في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي ليست دينية بل هي فكرية جامعة وحضارية أساسا . وهي بذلك تتناقض مع الديمقراطية وتختلف مع القومية ، وتتباين مع الماركسية والاشتراكية ، وتشكل نظاماً آخر أوسع نطاقاً وأكثر سماحة ، يعمل على تذويب الفروق العنصرية وتلاقي المسلمين على وحدة فكرية جماعية سمحة رحيمة . والرابطة الإسلامية هي رابطة فكر وثقافة وتكوين نفسي ووجداني . وقد أخذت الروابط القومية والوطنية تتكامل في حلقات . وحينما يحل الإسلام يحل معه الفضل والرحمة والتحضر .

والإسلام في أفريقيا السوداء هو الذي رفع مستوى حضارة ومعيشة أتباعه بالنسبة إلى العناصر الوثنية . وهو الذي هداهم إلى النظافة والسماحة والخلق الحسن .

- ٣ -

انبثقت اليقظة الإسلامية انبثاقا طبيعيا من خلال ظلال الجمود والجبرية والتخلف حين ارتفعت الصيحة في الجزيرة العربية وفي الأزهر وفي اليمن في وقت متقارب داعية إلى التماس جوهر الإسلام ومنابعه الأصيلة القائمة على التوحيد . وكان العالم الإسلامي قد بلغ مرحلة عجز فيها عن الحركة الصحيحة . وقد أصاب المجتمع الإسلامي ذلك الإحساس بالإجهاد والضعف بعد دورة كاملة امتدت ألف عام كانت مليئة بالحركة والحيوية .

وقد اندفعت حركة اليقظة اندفاعا طبيعيا ذاتيا من قلب الفكر الإسلامي

نفسه الذي كان دائما قادراً على تصحيح طريقه كلما انحرف عنه . وكانت له تلك المقدرة الفائقة على التماس المنابع عندما تلم به الأزمات والأحداث .

وامتدت حركة اليقظة من الجزيرة العربية إلى الهند إلى ليبيا إلى السودان ، واستجاشت مستمدة مفاهيمها من القرآن والسنة لتكون مصدراً لما أطلق عليه من بعد « الحركة السلفية » التي قادها جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، والتي وصلت إلى تونس والجزائر ومراكش ، وكان لها دعاتها وحملة ألويتها .

لقد بدأت حركة اليقظة أول الأمر مجددة للعقيدة ملتمسة لمفهوم التوحيد ، فلما واجهت الاحتلال والغزو السياسي الغربي اتسعت مهمتها فحملت لواء مقاومة الاستعمار ، ورفع راية الجامعة الإسلامية في مواجهة أوربا وغزوها الاستعماري . ودخلت حركة اليقظة مرحلة بعد مرحلة حتى كان امتحانها الشديد بعد سقوط الخلافة التي كانت تجمع بين العنصرين العربي والتركي في دولة واحدة كانت بمثابة القيادة العامة للمسلمين جميعا خارج الدولة العثمانية .

سقطت الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى ، وتوالت لقاءات المسلمين في سبيل التجمع ولم تتوقف ، وحاولت الدول العربية التي مزقها الاستعمار إلى إقليميات أن تتجمع حول محور العروبة الإسلامية ، وأن تربط نفسها بالدول الإسلامية في مؤتمرات عديدة عقدة في كراتشي ومصر ومكة المكرمة . وكان التجاوب واضحاً بين أجزاء العالم الإسلامي دون أن يفقده سقوط الخلافة : ذلك الشعور القوي القائم على الإخاء والتضامن وتبادل المنافع والخبرات والتجمع في مواجهة الأحداث والأزمات .

غير أن الجديد الذي شهدته حركة اليقظة قبيل الحرب العالمية الثانية هو محاولة قيام جبهة شابة مؤمنة تدعو للعودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وكان ذلك علامة على الانتقال من مجال الفكر إلى مجال الدعوة . ومن مجال الدعوة إلى مجال الحركة . . فقد ظهرت مجموعات عديدة تحمل لواء الإسلام والدعوة إليه والدفاع عنه ، ومطالبة أهل الحل والعقد باستعادة الإسلام لمكانه الطبيعي في المجتمع الإسلامي قبل أن ينتزع الاستعمار منه قيادة المجتمع في مجال السياسة والقانون والاقتصاد والتربية والتعليم .

شهدت حركة اليقظة الإسلامية تطوراً قبيل الحرب العالمية الثانية في سبيل تحقيق غايتها وهي « تجديد مفهوم الإسلام » التماسا للمنافع الأصيلة ، وتطبيق الإسلام كنظام مجتمع ، واعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً للقوانين والنظم تحقيقا لمفهوم أن دين الدولة هو الإسلام . غير أن الاستعمار وقد أحسّ بحظر انتقال الفكر الإسلامية الى المجال العملي . وكانت معركة فلسطين قد أعطت الصورة التي هزت دوائر الإستعمار حين تقدمت هذه الجماعات المؤمنة إلى ميدان القتال وأعادت مفهوم الإسلام الأول في الجهاد والموت في سبيل الله والدفاع عن الأرض والعرض على نحو حطم مخططات الاستعمار التي عاش عمره كله يغرسها من خلال سيطرته على مناهج التربية والتعليم لاحتواء المجتمع الإسلامي وتفريغه من مفهوم الجهاد والقوة والإيمان بالله .

ومن هنا كانت حركة الاحتواء قد استطاعت أن تدمر هذا التيار النابض من حركة اليقظة وتسوقه سوقا إلى ساحات التعذيب والاتهام والسجن حتى تثير حول الفكرة الإسلامية كلها غباراً كثيفاً . غير أن حركة اليقظة قد اتخذت لها من مواقع مختلفة في العالم الإسلامي مهجراً وملتمساً للحياة والنماء بحيث استطاعت أن تطبع الفكر الإسلامي كله بطابعها ، وأن تستصفي تحت لواءها جميع العاملين في الحقل الإسلامي ، وأن تندفع في العمل لمقاومة التغريب والغزو الثقافي ومعارضة تيارات الإلحاد والإباحة والعلمانية والشعوبية والماركسية جميعا في قوة وصلابة .

ولا ريب أن حركة الاحتواء كانت بسلطانها المادي ونفوذها الاستعماري وما مكن لها من قوى ومال ،كانت قادرة على ضرب حركة اليقظة وكان لها منابرها القوية في واجهات عديد من الصحف الكبرى بالأسماء اللامعة والدعوات ذات البريق الخادع في محاولة للسيطرة ، على حركة اليقظة والإدانة منها ، وبالرغم من أن حركة اليقظة لم تكن تملك في أغلب أقطار العالم الإسلامي صحافة قوية أو إعلاماً قادراً ، فإنها استطاعت بوسائلها القليلة أن تجعل صوتها مستمراً ، وإن لم يكن مرتفعاً ، وأن تواجه كل التحديات والسموم التي كانت تطرح آناً بعد آن بالتنفيذ وكشف الزيف ، وتصحيح المفاهيم ، وتحرير القيم على نحو يشهد لها بالمرابطة على ثغرات الوطن الإسلامي في يقظة تامة .

ولعل أبرز ما تتسم به حركة اليقظة في هذه المرحلة أنها أصبحت « قرآنية الاتجاه » بعد أن مرت بدور الدفاع الكلامي والفلسفي ، وبأساليب الغرب وأساليب الخوف من الاتهام بالجمود وأساليب المواءمة والتبرير والتأويل ، فإنها قدر قد استطاعت أن تشكل مدرسة ضخمة تقوم على المفهوم القرآني نجد من صفوة رجالها البنا ، أبو الحسن الندوي ، المودودي ، المبارك ، الغزالي ، وعشرات .

- ٥ -

إذا كان لنا أن نسأل اليوم ما هي مصادر ثقافتنا ، كنا قادرين على أن نعرف أنها ليست أفلام السينما والمسرحيات ، وهي أيضا ليست الروايات والكتب الرخيصة المبتذلة التي تصل إلينا من هنا أو هناك ، وليست هي شيئا من ذلك الركام الذي طرحته الأمم في طريقنا من مذاهب وأفكار وفلسفات .

وإنما نحن نصدر عن منهج فكر أصيل ، لا بد أن يكون قائما في كل نفس ، راسخاً في كل عقل وقلب ، وعلى ضوئه وفي نوره ومن خلال قيمه وأصوله وأصالته نستطيع أن نفحص كل ما يقدم إلينا ونحكم له أو عليه . فلا نكون ريشة في مهب رياح المطامع . ذلك أن أي إنسان منا ما هو إلا ابن هذه الأمة . وهذا الفكر ، وهي بنوة عريقة ، ونسب كريم . فقد حمل هذه الأمة وهذا الفكر آباؤ نا أشرف رسالة وأعظم دعوة ، وكانوا من أمة هذا النبي ومن المؤمنين بهذا الدين القويم .

ولقد قاموا خلال تاريخهم الطويل أعمالا خالدة في مختلف مجالات البطولة والعلم والإخاء الإنساني . وشادوا للحضارة ذلك الحصن الباذخ ، وكانوا قادة الهدى والنور والخير في كل أرض وعصر . فحن حين ننظر اليوم إلى موقعنا من التاريخ أو من الجغرافيا أو من العلم أو من الحضارة ، نجدنا بحق : خير أمة أخرجت للناس . وحق علينا أن نذود عن هذا الشرف الذي وصفنا به ، وأن نحميه ، وأن نقوم على إتمامه مواصلين الرسالة حاملين اللواء لا يسقط من بين أيدينا أبداً ، وأن نظل قادرين على الدفاع عن الأمانة وتبليغ الرسالة إلى الأمم جميعا ، إلى الأمم الحائرة التي تعيش اليوم في قلق وتمزق نتيجة غلبة المادية عليها .

ومن حق هذا الميراث العظيم الذي نفخر به نحن اليوم ، ونباهي أمم

الأرض جميعاً أصالة ومجداً ، أن نكون نحن قادرين على حمله لنكمل البناء ، ونقيم دعائم جديدة على الطريق . ومن هنا فمن العار على أمة كأمتنا أن تكون تابعة أو ذيلا أو محتواة لأمم أخرى أو لفكر آخر ، وكيف يمكن أن يخضع للاحتواء والتبعية من يحمل أصدق المفاهيم وأكرم الدعوات ، وأقرب مناهج الحياة ارتباطاً بالحياة ، واتصالا بالفطرة والتقاءاً مع العقل والعلم ، وأقدرها على بناء التقدم والمعاصرة بمفهوم جامع أصيل لا يتخلف فيه العقل عن العقل ، ولا الروح عن المادة ، وتلتقي فيه الدنيا والآخرة وتقوم قواعده على الثوابت الأصيلة القائمة كالأساس أو كالإطار ، مع الاعتراف بالمتغيرات المتحركة من أجل التجدد والتطور .

- ٦ -

إن أبرز المهام العاملة لأمتنا الإسلامية والعرب جزء منها ، التوصل إلى تأسيس وتأصيل مدارس واتجاهات إسلامية تسعى وتستوعب العلوم الحديثة وتفرغها في إطار عربي إسلامي .

كذلك نحن مطالبون بالعمل على تأصيل الفنون والأدب والعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وأن نحرر الشخصية العربية الإسلامية من التبعية بكل صورها وألوانها .

ويتميز تراث الإسلام عن تراث الأمم الأخرى في مظاهر هامة :

- الرحمة في مواجهة العداء والانتقام .
- السماحة في مواجهة التعصب .
- الشرف في مواجهة الدعارة والفساد .
- الإخاء في مواجهة العنصرية .

أما القول بأن التراث القديم عبء يجب التخلص منه أو على الأقل التخفف منه حتى يمكن اللحاق بركب المدنية الغربية الحديثة ، فهو قول مردود . إذ لم يشكل التراث الإسلامي أي عبء على المسلمين ، بل كان ضوءاً كاشفاً لهم .

كذلك فقد كذبت دعواهم حين قالوا : إن الحضارة الإسلامية لم تكن أكثر من جسر عبرت عليه الحضارة اليونانية من عصور سابقة إلى عصر النهضة ثم العصر الحديث .

ذلك أن المسلمين هم الذين قدموا أعظم دعامة في النهضة والحضارة ، تلك هي « المنهج العلمي التجريبي » الذي صنعه علماء المسلمين استمراراً من القرآن ، وروح الإسلام . وقد يقال عن التراث الغربي أنه عبء ، لأنه ليس إلا مجموعة من الأساطير والخرافات وأهواء الفكر البشري الضالة المضلة . ولكن التراث الإسلامي الأصيل المستمد من القرآن والسنة والفقه الإسلامي على غير هذا النحو . وليس في التراث الإسلامي ما يحتاج إلى المراجعة إلا تلك الصفحات التي كتبها الباطنة والمجوس ودعاة وحدة الوجود والحلول والاتحاد . ومن كتابات الفلاسفة المشائين الذين تابعوا الفكر اليوناني في ماديته وإلحاده . أو الفكر الغربي في إباحيته وفساده ، وهذه كلها صفحات لا يمكن أن تنسب إلى الفكر الإسلامي القائم على مفهوم التوحيد أو التراث الإسلامي الأصيل .

- ٧ -

يقول واحد من دعاة الإسلام البارزين في العصر الحديث : إن المعنى الذي حرص الاستعمار والنفوذ الأجنبي على إسقاطه من النفس الإسلامية ، هو إبراز الإسلام كعقيدة وتربية . حيث لم يكن في يوم من الأيام راضيا بالذل ، ولا مساندا للخضوع ولا معينا على العبودية . وقد ربى الإسلام معتنقيه على الاعتزاز الكبير بكرامتهم » ورباهم على الإيمان بأنهم خلقوا ليفرضوا وجودهم فوق هذه البسيطة ، ولينتزعوا مكانهم تحت الشمس ، لا ليكونوا عبيداً ، ولكن ليكونوا سادة . وما كان الإسلام يوماً حليف الطغيان ، ولا حليف الظلم ، فالإسلام هو الذي استطاع أن يحرر العرب والمسلمين من رق الدول المستعمرة ذات العدة والعدد . رغم أن المسلمين لم يكن لهم سند ولا مورد .ولم تكن قوتهم الأساسية التي واجهوا بها الاستعمار غير قوة الروح والفكر والعقيدة .

وإذا كان الإسلام قد أدى دوراً في الحركة الوطنية في المرحلة السابقة ، فكان عامل تحرر . فإنه مرجو اليوم في المجتمعات المتحررة أن يكون عامل تقدم . . . ذلك أن الإسلام بعد أن حرر المسلمين يستطيع أن يدفعهم إلى إقامة دولتهم ومجتمعهم .

وأهم المحاذير في هذه المرحلة : الخوف من الوقوع في براثن ما يسمى

بالتلقيح بدعوى التفتح . فالإسلام متفتح بطبعه ، ولكن على قاعدته الأساسية لا يأخذ إلا ما يتطابق مع روحه ومفهومه .

وعلى المسلم أن يكون على إحساس واع بالنوافذ والأبواب الخارجية ، وما يهب عليه منها من رياح وتيارات ، وألا يغلق الباب عليه ، ويظن أنه أصبح في مأمن .

وأن علينا أن نحذر الأهواء المضلة التي تتخفى وراء مظاهر براقة من التسميات العلمية الخادعة . ولنعلم أن المنهج العربي في البحث يقوم على أمرين خطيرين : الهوى والاستعلاء ، ولا يصلح المنهج العلمي إلا حين يقوم على ضبط النفس والإخاء البشري . وقد واجهت المناهج والأيديولوجيات الغربية هزائم متوالية في التطبيق ، لأنها عارضت الفطرة ، ولأنها استجابت للأهواء ، ولأنها لبشريتها لم تتمكن من متابعة تحولات الزمن والبيئات .

إن انطلاق المسلمين اليوم لبناء مجتمعهم الإسلامي ، لا يمكن أن يتم بدون الارتكاز على قاعدة أساسية تكون هي المصدر والمنطلق ، ونقطة البدء ، ونقطة النهاية . والواقع أن هذه القاعدة ليست سوى المنهج الأصيل الذي قدمه القرآن لبناء المجتمع . وعلى هذه القاعدة تقوم الثقافة ويقوم النظام الإجتماعي والسياسي والاقتصادي والتربوي .

- ٧ -

اليوم ، والمسلمون يستشرقون مرحلة جديدة من حياتهم على طريق القوة والنهضة ، فإن أولى الأمور التي تحتاج منهم إلى اهتمام عميق ، هو ألا تحولهم المقدات المادية عن وجودهم الذاتي وكيانهم الخاص ، وطابعهم الإسلامي ، وأن يكونوا قادرين على نقل أحدث مستحدثات العلم والتقدم والحضارة المادية ، لتكون مواد خاماً يصنعونها داخل إطار فكرهم وقيمهم . وبذلك يصنعون الحضارة القادمة : حضارة القرن الخامس عشر الهجري الذي أوشك أن يهل هلاله ، والذي يتطلع إليه المسلمون اليوم كعلامة على عصر جديد تعود فيه الكرة مرة أخرى إلى أيدي العرب والمسلمين .

إن أخطر ما واجه الحضارة الغربية الحديثة ، وأسلمها في وقت قريب إلى الأزمة الخانقة ، والصراع بين القوى ما امتلكته من أسباب التقدم المادي هو أنها كسرت الإطار الديني والأخلاقي الذي هو الحاجز الحامي لكل نهضة من التعثر والتصدع . ومضت تواجه الحياة بغير سناد يحمي ظهرها ، أو نور يضيء طريقها . وبذلك صدعتها المادية الغالبة وانحرفت بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس ، وتغليب الترف والملذات والشهوات ، فانتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التي يتحدثون عنها ويبحثون لها عن علاج . وهي أزمة الإنسان الحديث وصراعه وتمزقه وغربته وضياعه . كل هذا الذي قاساه ويقاسيه من أهوال نتيجة غيبة المعنويات ، وتجاهل أشواق الروح وتصدع النفس وتمزق الكيان الإنساني ، وفقدان الهوية والهدف ، وفهم الرسالة والأمانة والغاية والمصير للإنسان المستخلف في هذه الأرض . فليحذر المسلمون اليوم ، وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة الحديثة وتراثها التكنولوجي والعلم والميكانيكي أن تستوعبهم هذه الحضارة أو يحتويهم هذا الفهم المدمر القاصر . وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد في الفكر ، ومن اللغة العربية في الأداء فينقلوا إليها كل معطيات العلم مع الإيمان بوحدة البشرية والإخاء الإنساني والعدل والرحمة باعتبارهما معطيات الإسلام للإنسانية ، وليجعلوا من هذا كله إطاراً يتحركون فيه ، فيخضعون العلم للأخلاق والتقوى . ويجعلون مقدرات البشرية للناس جميعا ، وليست لفئة مستعلية أو مسيطرة على أقدار العباد .

وبذلك يحققون إرادة الله في بناء المجتمع الإنساني الحق الذي تتطلع إليه الدنيا جميعا بعد أن عاشت في الظلم والاستعباد عصرا طويلا شقيت به ، وليطلع المسلمون الناس على أنهم يمتلكون منهاجا قادرا على إسعاد البشرية حقا ، وردها إلى طريق الحق والعدل ، وتحريرها من الجوع والخوف وتأمين النفس الإنسانية من القلق والتمرد .

- ٩ -

إن البشرية في عالم الحضارةوالتكنولوجيا قد وصلت إلى قمة العطاء في مجال الماديات . ولكنها قصرت في مجال الوجدان والمعنويات وتضاءلت إلى الحد الذي جعلها تجهل مصدر العطاء نفسه وهو الحق تبارك وتعالى ، فقد عجزت عن فهم

عطاء الله ، وما ألهم البشرية من قدرة في مجال العلم ، يرجع هذا إلى غلبة الفكر البشري المتجدد من الفكر البابلي والمجوسي والهيليني القديم بمفاهيمه الوثنية والمادية والإباحية التي تشكلت على مدى العصور تحديا لدين الله وحدوده وضوابطه ، وخروجا على شرعة الله حين أعطى الإنسان لنفسه حق التشريع ، وحول مطامعه وأهواءه إلى قانون وضعي فاسد .

ولقد جربت البشرية مختلف الأيديولوجيات ، وتبين لها عجزها جميعا عن العطاء ، لأنها قامت على إعطاء الإنسان جانبا واحدا ، وجربت أوربا (الرهبانية) وهي عطاء الروح قرونا مات خلالها الزرع وجف الفرع ، ثم هي تجرب اليوم (المادية) وهي عطاء الجسد ، فلا تحصد إلا ذلك التدمير والأزمة والتمزق ، ولكن العطاء الحقيقي هو عطاء دين الله الحق : الإسلام .. عطاء التوازن والتكامل والمواءمة بين الروح ، والمادة ، والقلب ، والعقل ، والدنيا والآخرة . والتماس حدود الله وضوابطه البناء الإنساني والبناء الإجتماعي .

إن الفكر الغربي محاصر اليوم بنظريات ثلاث : النظرية المادية ، والدوافع الاقتصادية، والدوافع الجنسية. والفكرة الوجودية ،وكلها تصف الإنسان بأنه حيوان ، وكلها تحتقره احتقاراً شديداً . وهناك دعوى الجبرية التي تحاول أن تخلي الإنسان من المسئولية الفردية . وتلقي هذه المسئولية على المجتمعات ، بينما الإنسان الفرد هو المسئول عن أخطائه وآثامه ، وهو المحاسب عليها ، ولن يفلت من العقاب ، لأن المجتمع قد فسد ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ هذا الإنسان الذي قدم الإسلام منهج حياته على نحو لم تعرفه الأيديولوجيات البشرية المليئة بالأهواء ، هو المسئول عن الأمانة ، وهي بناء المجتمع الرباني بالقيم والخلق والانتقال من الأنانية إلى الغيرية ، وهو صاحب المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي ، وهو المحاسب والمبعوث يوم القيامة للجزاء .

أما مفهوم الفلسفات والأيديولوجيات الغربية فإنه قد دمر المجتمعات وألقى عليها ظلالا مظلمة سوداء من طوابع المتعة الحسية المسرفة ، وطوابع الظلم منها في وضوح تام أنه يرفض (أسلوب العيش الغربي) ولا يقبل إلا معطيات العلم والتكنولوجيا مادة خاما غير مقيدة أو مشروطة ليصهرها في بوتقة المفهوم الإسلامي واللغة العربية ولتصنع منها النموذج الرباني للحضارة .

شهادات متعددة تقدم بها رجال منصفون للحضارة الإسلامية ، والشريعة الإسلامية ،فهل حفل بها أبناؤنا وعرفوا كيف تمتلىء نفوسهم ثقة بمنهجهم الأصيل .

تقول الدكتورة سجريد : شهادة تقدير لدور المسلمين في حضارة الغرب « بينما يتميز الفكر الإغريقي بالحدس والنظر العقلي في الكشف عن الأشياء بسبب تحقيرهم للعمل اليدوي الذي لا يليق بالإنسان الحر وتفضيلهم الانطلاق إلى سماء الأفكار العامة . فإن العرب آثروا السير المتأني للتجربة الحسية والملاحظة الدقيقة والمتكررة والارتقاء في إناة من الخاص إلى العام ، وبعبارة موجزة ، فإن العرب آثروا استخدام المنهج الاستقرائي ، فهم إذن مبتكروا التجربة بالمعنى الدقيق للكلمة وهم المبتدعون الحقيقيون للبحث التجريبي . لقد تركوا للغرب أثمن هدية ألا وهي منهجهم في البحث العلمي الذي أخصب النمو الهائل الذي دعم معرفة الغربيين بالطبيعة » .

ويقول رجال المؤتمر الدولي للقانون المقارن في دورته (٧ يوليو ١٩٥١) أن المناقشات أوضحت بجلاء ما للمبادىء والقانون الإسلامي من قيمة لا تقبل الجدل ، ما دللت على أن تعدد المدارس والمذاهب داخل هذا النظام القانوني الكبير . إنما يدل على ثروة من النظريات القانونية والفن البديع . وكل هذا يمكن هذا القانون من تلبية حاجيات الحياة العصرية يبدون الرغبة في تأليف لجنة لوضع (قاموس) للقانون الإسلامي من شأنه أن يسهل الإقبال على تأليف القانون الإسلامي ، وأن يكون موسوعة للمعارف القانونية مرتبة حسب الأساليب العصرية .

ومن ناحية أخرى نجد أن السبق الإسلامي واضح في ابن خلدون والغزالي وابن القيم في مجالات متعددة . بل أنه قد تبين اليوم أن منهج ديكارت قد استمد أبرز مقوماته من الإمام الغزالي .

إن الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده يروي أنه لما كان محاضرا في تونس ، وطلب إلى المؤرخ التونسي الأستاذ عثمان الكعاك أن يساعده على دراسة العلاقة

بين ما قـاله الغزالي وما قاله ديكارت . وكان المؤرخ التونسي يعمل مديرا للمكتبة الوطنية استطاع أن يصل إلى مكتبة ديكارت في باريس وعثر في محتوياتها على ترجمة لكتاب الإمام الغزالي (المنقذ من الضلال) منذ القرن الحادي عشر ، وكانت المفاجأة عندما وجد أن ديكارت وقف عند عبارة (الشك أول اليقين) ووضع تحتها خطا أحمر ، وكتب على الهامش : يضاف ذلك إلى منهجنا .

وكان الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) أن الشك أول مراتب اليقين . وكتب ديكارت هذا المعنى بعده بستة قرون (أنا أفكر فأنا إذن موجود) .

- ١١ -

هناك ملاحظات هامة يجب أن يلتفت إليها كل من يحاول أن يدرس الفلسفات الغربية ، فإن تطورات العلم قد كشفت فسادا كثيرا من هـذه الفروض ، وكان أولى بهذه النظريات أن تسقط لولا أن دعاة الفلسفة المادية هم الذين يجددون هذه القروض المنهارة بالرغم من مخالفتهـا بما يقـرره العلم التجريبي .

وأخطر ما في هذا ، أن النظرية الماركسية كلها قائمة على أساس من العلم سقط بظهور تحطيم الذرة . بل إن النظرية الدارونية التي بدأت بها الفلسفة المادية تبين فسادها بما كشفت عنه الحفريات من ظهور جماجم وعظام تكشف كلها عن أن الإنسان الأول كان قائماً كما هو اليوم ، وأن فكرة الارتباط بين الأجناس باطلة . فقد تبين أن كل جنس من الإنسان والحيوان قد نشأ مستقلا ، ولم يدخل عليه أي تغيير . كذلك النظرية الجنسية التي دافع عنها فرويد تبين فسادها تماماً ، وأن عوامل الدفع والتبرير في الإنسان متعددة ، وليس الجنس أهمها ولا أولها . كذلك تبين فساد نظرية مندل التي كانت تقول بقلة الموارد على الأرض . وقد كشفت التجارب عن ظهور طاقات وموارد جديدة استوعبت أضعاف سكان الأرض في عهـد مندل . كـذلك فقد تبين فساد نظرية نيتشة في الدعوة إلى إبادة الضعفاء والزنوج والمرضى ، وهي علامة من علامات جفاف ينابيع السخاء البشري وهي عودة شريعة الغاب . كذلك يبين اعتماد فرويد على تحليل مجموعة من المرضى ليس بينهم صحيح واحد . فكل أبطال فرويد شواذ ومرضى . وكان اعتماده على

الأساطير أوضح مداخله إلى الأهواء التي أراد أن يذيعها ويفسد بها البشرية .

وقد فتح الباب واسعاً أمام الكتابات الجنسية التي عمدت إلى تحطيم الأخلاق والعقائد . وبالرغم من أن النظرية فاسدة علميا وعن طريق الإحصاء والتجربة . فقد روج لها اليهود كما روجوا لسارتر وماركس وداروين من أجل خلق ذلك التيار الخطير الذي يقول بحيوانية الإنسان ، فهو لا يسعى إلا إلى لقمة العيش كما يقول ماركس أو إلى الشهوة الجنسية كما يقول فرويد . وجاء دور كايم (اليهودي أيضاً) فدعا إلى تحطيم الفطرة . وأعلن أن الدين ليس من الفطرة ، وأن الجريمة هي الفطرة . ثم جاء فريزر بنظريته المسمومة التي تقول بأن الدين تطور من عبادة الأب إلى عبادة الطوطم إلى عبادة قوى الطبيعة إلى عبادة الأفلاك إلى عبادة الأصنام ، ثم وصل إلى عبادة الله الواحد .

ومعنى هذا أن الدين من صنع البشر ، لا هو منزل من عند الله ولا هو فطرة في القلب ، وقالت النظرية : إن الإنسان هو الذي خلق ، وأن الله من ابتداع العقل البشري ﴿ **تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا** ﴾ وقد تمكن اليهود احتضان هذه النظريات الزائفة ، وجعلوا منها موادا تدرس في جامعات العالم أجمع لا على أنها نظريات ، بل على أنها حقائق ، وكما قامت الرأسمالية في أحضان اليهود الذين قاموا بتمويل الثورة الصناعية قامت (الماركسية ، الاشتراكية ، الشيوعية) في أحضانهم ، ومن صنعهم . وذلك يهدف إلى تحقيق مطامع الصهيونية العالمية في السيطرة على العالم . لقد تبين فساد هذه النظريات وبطلانها بعد أن جربها الغرب نفسه ، ولدينا في الفكر الإسلامي المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية مناهج اقتصادية واجتماعية وسياسية وتربوية حاسمة تقدم للبشرية مطامحها وآمالها في المجتمع الكريم ، والمنهج العادل الرحيم .

- ١٢ -

لا ريب أن الثقافة الإسلامية كائن حي يستمد وجوده من تلك الجذور الأساسية للإسلام (قرآنا وسنة) وهي تقوم على قواعد ثابتة ، ولها هدف واضح ورسالة جامعة .

أولا : الإسلام دين ودولة : نظام حياة ومنهج مجتمع ، وعلى الفكر

الإسلامي أن يؤصل هذا المفهوم في مواجهة الدعوات الوافدة التي تحاول أن تصور الإسلام (ديناً) بمفهوم العبادة وحدها .

ثانيا : تقديم رأي الإسلام ووجهة نظره في مواجهة الأيديولوجيات الغربية الوافدة من مختلف قضايا الاقتصاد والاجتماع والقانون والسياسة .

ثالثا: التعرف على قضايا الاستشراق وشبهاته وتحدياته والرد عليها على النحو الذي يمكن من دحضها وتصحيح المفاهيم .

رابعا : معرفة مصادر الخطر الحقيقية المتمثلة بالتبشير المسيحي وأثره العميق في مدارس الإرساليات ومناهج الجامعات الوافدة وما اتصل منها بمناهج التربية والتعليم في مختلف بلاد العالم الإسلامي .

خامسا : النظر إلى اللغة العربية الفصحى ودورها في الربط بين المسلمين وبين القرآن الكريم ، ومواجهة محاولات العاميات ، والدعوة إلى لغات أصحاب النفوذ الأجنبي أو الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية .

سادسا : الكشف عن عظمة الشريعة الإسلامية وأثرها العميق في المجتمعات التي طبقتها ، ومدى الفوارق العميقة بينها وبين القانون الوضعي .

سابعا : الكشف عن مفهوم العلم في الإسلام . ذلك المفهوم الذي مكن المسلمين من تقديم المنهج العلمي التجريبي إلى البشرية ، وكيف يجعل الإسلام العلم خالصا لله تبارك وتعالى .

ثامنا : النظر في مفهوم النفس والأخلاق والاجتماع كما يرسمه الإسلام ، وكيف يحقق للإنسان المسلم الشخصية الكريمة المثلى ، ومقارنة ذلك بالمفاهيم الغربية وأثرها في تمزق الإنسان الغربي وفساد المجتمعات .

تاسعا : مواجهة الدعوات الهدامة والكشف عن خلفياتها وجذورها وأخطارها وتحرير وجهة نظر الإسلام فيها .

عاشراً : تأصيل مفهوم الإسلام للتاريخ والحضارة والكشف عن العلاقة بين مناهج الإسلام وبين تطبيق البشر على أساس أن ما يجري على مدى القرون قد يطابق مفهوم الإسلام وقد يختلف معه .

لماذا يحجبون التراث الإسلامي في الغرب عن أهله ؟

لقد ذهب أكثر من عالم مسلم ، وعربي ، وأكثر من باحث إلى خزائن الغرب ، وطلبوا كتبا معينة من التراث مما سرقه الغرب من بلادنا في القديم وأودعه في خزائنه ، فرفض أمناء هذه الخزائن اطلاع المسلمين عليه ؟

الإجابة :

(١) حتى لا يعرفوا مصادر علم الغرب التي أخذوها من التراث الإسلامي .

(٢) حتى لا ينتفعوا بتراثهم في تجديد حياتهم ، ووصل ما انقطع .

(٣) حتى يظهروهم على المتشابه والمختلط والمضطرب فقط من هذا التراث أنهم يستخلصون من هذا التراث نظريات علمية في القانون والاجتماع والاقتصاد ينسبونها إلى علمائهم ، ويعلنونها في مؤتمرات كبرى ، ثم يعجز أصحاب التراث عن تعقبهم لأنهم لا يملكون النص ، ثم هم يفخرون بها ويتيهون على الناس ، ولقد ظلوا أكثر من قرن من الزمان ينكرون أنهم أفادوا من التراث الإسلامي شيئا . بل وأعلنوا في جرأة وغرور أن المسلمين لم يقدموا شيئا ، اللهم إلا ترجمة تراث اليونان ، ثم كشفت الأيام الحقيقة كاملة ، وجاء علماء مخلصون أمثال : درابر ، وجستاف لوبون ، وجورج سارطون ، والدكتورة سجريد هونكه فأثبتوا فضل المسلمين .

لقد كانت الخطة هي أنهم يترجمون ويبعثون من هذا التراث تلك الصورة الضعيفة للمراحل المتأخرة ، وصور الصراع بين الفرق ، والدعوات الهامة والغالية التي قادها الباطنية والمجوس وأعداء الإسلام ، هذه هي التي اهتموا بها .

اهتموا بتعاث شعر بشار بن برد وأبي نواس .

اهتموا بتعاث فكر ابن عربي والحلاج والسهرودي .

اهتموا بتعاث فكر ابن الراوندي وما نسب كذبا إلى عمر الخيام . . .

ولقد أمضى لويس ماسبتون أربعين عاماً من حياته يجمع شعر الحلاج

وينشره ليضل به شباب المسلمين بإثارة مفاهيم مضطربة تختلف عن أصول التوحيد الخالص .

ثم كانت الخطة أن يعرضوا علينا تراثنا ناظرين إليه بعين السخط والنقد والتحقير والازدراء ، ولا نستطيع أن ندافع عنه لأنهم يملكون مصادره ونبقى هكذا متطفلين على موائد الغرب ، والطعام طعامنا .

إن في التراث الإسلامي صفحات زاهرة من شأنها أن ترد الثقة إلى نفوس شبابنا وتؤكد لهم عظمة أمتهم وعظمة الدور الذي قام به آباؤ هم في مجال الحضارة الإنسانية .

- ١٤ -

تتحدث الفلسفات مع العقل ، ويتحدث الشعر والفن مع العواطف والوجدان ، ويجري مجرى الفلسفات علم الكلام والفكر المعتزلي ، ويجري مجرى الشعر والفن كتابات المتصوفة الذين يعيدون كلمات الإشراق والحلول والاتحاد والحدس وغيرها .

وبذلك يقف أصحاب هذا المذهب عند جانب واحد من أبواب المعرفة ، ويقف الآخرون عند باب آخر ، ثم هم يعجزون بعد ذلك في التعرف إلى أبواب المعرفة الأخرى .

أما المنهج القرآني في المعرفة فإنه يتعامل مع الحس والفكر والبديهة والبصيرة والبرهان العقلي ، وعبرة التاريخ فلا يدع بابا من الأبواب دون أن يقدم للإنسان منه مدخلاً ومنطلقا إلى معرفة الله تبارك وتعالى وإلى دعوته ومنهجه .

وكلما التمس المسلمون منهجه اقتربوا من النفس الإنسانية واستطاعوا فهمها ، واستطاعت هي التلقي الكامل الجامع الذي يقضي على تلك الدعاوى التي يجردها العقليون على الوجدانيين ، و يجردها الوجدانيون على العقليين . ومنهج كل منهما قاصر وناقص وانشطاري ، وليس هناك منهجا جامعا متكاملا غير منهج القرآن .

ولقد جرت المحاولات للتوفيق بين الفلسفة الإغريقية والفكر الإسلامي على

النحو الذي قام به الفارابي وابن سينا . وقد باءت هذه المحاولة بالقصور والهزيمة لأنها استهدفت ربط فكر جزئي عقلاني بفكر جامع متكامل ، ولأنها حاولت ربط مفاهيم الوثنية الإغريقية بمفاهيم التوحيد الإسلامي فضلا عما عرفت عنه الفلسفة من التعقيد والجفاف والنقص والانحراف ، وعجزها عن إعطاء النفس الإنسانية ذلك الرحيق الخالص الذي تستمده من الفطرة على النحو الذي يقدمه لها القرآن الكريم .

وهكذا نستطيع أن نؤمن بأن منهج الإسلام هو المنهج الأخير للبشرية ، وأنه المنهج الوحيد القادر على هدايتها لسماحته وسعته وتنوعه واشتماله على كل عناصر المناهج ، من عقلانية ووجدانية مع التحرر من نواقصها وانحرافاتها . وقد جاء بعد كل هذه المناهج الفلسفية والكلامية والعقلانية والوجدانية ليكشف عن سلامته وكماله إزاء نقصها وقصورها وانشطاريتها .

- ١٥ -

لقد استطاع الفكر الإسلامي في القرن الرابع والخامس الهجري أن يحطم قيد الاحتواء الإغريقي وأن ينتصر عليه . وذلك بفضل الحذر واليقظة إزاء خطر الاحتواء والإذابة . واليوم هناك صيحة تحذير عامة صدرت من عدد من المفكرين المسلمين تقول بأننا نفقد أصالتنا تدريجيا ، ونتنازل عن الصفات المميزة لنا يوما بعد يوم نتيجة غزو أسلوب العيش الغربي لنا ، وسيطرة قيم وافدة على مفاهيمنا وسلوكنا .

ويرد الباحثون ذلك في الأغلب إلى عدم القدرة على استيعاب الفروق الدقيقة بين الخيوط العامة أو الروح العامة للإسلام ، وما يتشابه أو يتعارض مع روح التلمودية ، أو روح الفكر الغربي ، أو طوابع الفكر البشري الوثنية أو المادية أو الإباحية . وإذا كانت بقايا آثار النفوذ الغربي ما تزال قائمة بفرض القوانين الوضعية ، ونظام التعليم الغربي وإقرار المنهج العلماني في مجال الجامعات ، وما تأثرت به الأسرة من تصدع نتيجة ما أصاب المجتمعات الإسلامية من تحلل . أقول إذا كان كل هذا قد وقع فإن الخطر أصبح محيطا الآن بآخر هذه الحصون ، وهي الفكر الإسلامي ، حيث تجري محاولة احتوائه في إطار الأممية وإذابته في أتون

العالمية . ونحن نجد اليوم التفسير الغربي لعشرات من المفاهيم والقيم . ويجري على الأقلام والألسنة ، بينما يتباعد المضمون الإسمي تحت أستار من التأويل والتمويه .

إن للفكر الإسلامي إجابة في كل مفهوم ، ومسألة ، وقضية ، يجب أن لا تغيب عنا . وقد كذبت الوقائع ذلك الادعاء الباطل القائل بوحدة الثقافة العالمية ، وهي عبارة خلابة المظهر ، براقة الصورة ، ولكنها تخفي من ورائها طابع الاحتواء الذي يستهدف إذابة كل الثقافات الإنسانية في بوتقة الفكر الغربي المسيطر الآن ، فهي دعوة إلى « تسييد » الثقافة الغربية على ثقافات الأمم ، ولا سيما الثقافة الإسلامية التي تسود أفريقيا وآسيا . ومن حسن الحظ أن تتكشف الأهواء والمطامع وراء وحدة الثقافة العالمية التي تتنازعها الآن قوى كثيرة منها الفكر الليبرالي الغربي والفكر الماركسي ، والفكر الصهيوني أيضا ، وإذا كانت هذه الدعوات تتصارع وتحاول أن تفرض كل منها نفوذها على المناطق التي تتصل بها فإنها تعد في مجموعها موجهة في الأغلب إلى احتواء الثقافة الإسلامية ، لأنها هي الثقافة الوحيدة القادرة على استقطاب الدعوة الإنسانية بالخلق والرحمة والإخاء والعدل . بعد أن تهاوت وفسدت مختلف الأيديولوجيات والمذاهب التي حاولت منذ قرنين أو ثلاثة أن ترسم للإنسان مثلا أعلى ومنهج حياة .

ولا يزال الفكر الإسلامي القرآني المصدر ، في نصاعته وربانيته ، وسوف يظل الفكر الإسلامي مدافعا عن وجوده حتى لا يقع في براثن احتواء الثقافة العالمية ، وسيظل قادرا على العطاء للإنسان في نفس الوقت .

ولقد كان المسلمون في مختلف العصور ، حتى في أشد العصور تخلفا وضعفا ، قائمون في وجه هذه المحاولة ، وكانوا في عهود الاحتلال والاستعمار السياسي والعسكري غاية في اليقظة ، وأخشى أن يكونوا من بعد قد تراخوا قليلا بعد إحساس بالأمن في عصور الاستقلال والحرية .

- ١٦ -

إن محاولة بعث التاريخ القديم السابق لظهور الإسلام ، وابتعاث

الحضارات القديمة إنما يهدف لتحويل أنظار المسلمين والعرب عن دينهم وحاضرهم ، وعن الدور الخطير الذي قام به الإسلام في تغيير المفاهيم والقيم بعد سقوط الحضارات الفرعونية والفارسية والرومانية ، أو التأثير فيها ، أو إثارة الشبهات حولها . ولا ريب أن ذلك يهدف إلى تفكيك عرى الأخوة العربية الإسلامية .

يقول هاملتون جب : « لقد كان من أهم مظاهر سياسة التغريب في العالم الإسلامي تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التي ازدهرت في البلاد المختلفة التي يشغلها المسلمون الآن » .

ولا ريب أن محاولة إثارة الحضارات القديمة كالفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية ، إنما يرمي إلى إحياء العنصريات والثغرات القومية والإقليمية التي قضى عليها الإسلام ، ومن شأن هذا الاتجاه أن يحطم الوحدة الإسلامية الجامعة التي أقامها الإسلام ، وأن ينمي هدفا مسموما هو الدعوة الباطلة إلى ما يسمى وطنا يهوديا في فلسطين ، استمداداً من مفاهيم زائفة مضللة حملت لواءها الصهيونية العالمية .

كانت فكرة القوميات والإقليميات هي الدافع وراء تلك الرغبة البالغة الأهمية في نظر النفوذ الأجنبي ، وهي تمزيق وحدة هذه الأمة التي جمعها الإسلام والقرآن والتوحيد على أصول واحدة جامعة ترد إليها كل الأمور .

ولقد اصطنعوا لتحقيق هذا الهدف وسائل مختلفة ودعوات متعددة ، ترمي إلى نبذ الماضي ، والتاريخ ، والتراث ، وإحياء الفلكلور والأساطير الذي هو ركام العصور الساحقة المظلمة لطفولة البشرية قبل أن تبلغ الرشد الفكري ، كما أنها حاولت أن تتسربل بالدعوة إلى أدب إقليمي أو قومي بحجة تصوير الروح المحلية في كل بلد . وأبرز دلائل بطلان هذا أن الأمة الإسلامية تصدر عن أصول واحدة مشتركة ، وأن خلافات الأقاليم والأقطار هي خلافات قليلة لا يؤبه لها . وفي هذا المجال نحذر من دعوى العالمية الباطلة والزائفة التي تقدمها الأيديولوجيات الديمقراطية والاشتراكية والماركسية والصهيونية ، أو الدعوة إلى دين واحد ، فإن هذه كلها محاولات مضللة .

- ١٧ -

أخطاء كثيرة يجب أن نتنبه إليها ، جاءت من اصطناع المنهج الغربي الوافد القائم على الانشطارية والمادي الاتجاه ، والوثني الطابع : من ذلك خطأ التجزئة بين العروبة والإسلام . وخطأ الفصل بين الحاضر والماضي . وخطأ القول بأن الإسلام دين عبادة . فالإسلام منهج حياة ونظام مجتمع . وخطأ القول بأن تخلف العرب يرجع إلى الارتباط بالإسلام .

فقد كان الإسلام هو مصدر تلك النهضة الباذخة التي أظلت العالم ألف سنة . وخطأ القول بأن العالم الإسلامي بدأ نهضته بالحملة الفرنسية . ذلك أن نهضة العالم الإسلامي بدأت قبل ذلك بنصف قرن من قلب الجزيرة العربية . خطأ القول بأن في الإسلام ما يسمى رجل الدين أو الحكومة الدينية (البثوقراطية) . فإن الإسلام لم يعرف الحكومة البثوقراطية وعالم الدين في الإسلام ليس له صفة رجل الدين في الغرب . ومن خطأ القول : التفرقة بين العلم والأخلاق أو القول بأن هناك ثقافة عالمية واحدة . ومن خطأ القول بأن القضاء الإسلامي هو مصدر تخلف المسلمين . ومن الخطأ القول بأن الشريعة الإسلامية شريعة أمة بدوية ، فقد شهد لها أساطين القانون وتمنوا أن يطبقها العالم . ومن أخطائنا أن نتعلم العلوم الحديثة دون تأصيل مصادرها ، أو نقرأ الكتب المترجمة من اللغات الأخرى دون أن نعرف مؤلفها وعصرها وظروف كتابتها ، ومدى الفوارق بين فكرنا وفكرها . ومن أخطائنا النظر إلى الفكر الوافد على أنه حقائق أصيلة ، أو النظر إلى الأيديولوجيات والنظريات على أنها حقائق في حين أنها « فروض » ومحاولات بشرية تخطىء وتصيب . ومن أخطائنا الاعتماد على مصادر الغرب ، ومن الأخطاء الغربية ذلك التجاهل لدور المسلمين وحضارتهم وفكرهم . وكذلك خطأ المحاولة التي يقوم بها الاستشراق ورجال التغريب لتفسير الشريعة الإسلامية تفسيرا يبرز أنماط الغرب أو تأويلها تأويلا يجعلها تابعة للفكر الوافد كالقول بديمقراطية الإسلام أو اشتراكية الإسلام وهي قولة زائفة .

- ١٨ -

بعد أن تعددت أساليب الباحثين في العصر الحديث في شأن فهم العقائد

الإسلامية ، نشأ هناك إيمان بأن الأسلوب الصحيح هو الأسلوب القرآني لا أسلوب علماء الكلام ، ولا ما أطلق عليهم المعتزلة الجدد . وهو ذلك المفهوم الذي دعا إليه من اتخذ منطلق الفلسفات والمنطق وغيرها أسلوباً لهذا الفهم . وقد تبين فساد هذا الأسلوب أو عجزه على الأقل عن إعطاء النفس المسلمة الفهم الصحيح المستمد من الفطرة والأصالة . وتأكد أن الطريق الوحيد في فهم العقائد الإسلامية هو الاعتماد على طريقة القرآن الكريم ، والرسول ﷺ في توصيل العقائد الدينية إلى النفوس واستيلائها على المشاعر والقلوب بدون تعمق في الألفاظ أو تشعب في البحوث أو إيراد للآراء والمذاهب ، أو خوض في مصطلحات الفلاسفة والمناطقة والكلاميين والجدليين . وتلك ـ كما يقول الإمام حسن البنا ـ هي طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم مع العناية ببيان آثار تلك العقائد في النفوس ، ليعلم المسلم نفسه من درجة استيلاء العقيدة الإسلامية عليها . فإن كانت متأثرة بها حمد الله على نعمته . وإن كانت هذه الآثار ضعيفة في نفسه عمل على علاجها ، وتقوية إيمانها . فقد كانت العقائد عن أسلافنا عواطف مستقرة في القلوب ، ومشاعر مسئولية على النفوس ، فهي إن صارت عندنا جدلاً وكلاما ضعف إيمان الأمة ، وتسرب إلى دينها الخلل والوهن . وأساس العقائد الإسلامية ـ ككل الأحكام الشرعية ـ ، كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . هذه العقائد يؤيدها العقل ويثبتها النظر الصحيح . ولهذا شرف الله تعالى العقل بالخطاب وجعله مناط التكليف ، وندبه إلى البحث والنظر والتفكير : **﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾** .

والعقائد الإسلامية أربعة أقسام .

الإلهيات ، والنبوات ، والروحانيات ، والسمعيات .

أولا : الله تبارك وتعالى من حيث صفاته وأسمائه وأفعاله .

ثانيا : الأنبياء من حيث صفاتهم وعصمتهم ومهمتهم والحاجة إلى رسالتهم (ويلحق بها الأولياء والمعجزة والكرامة والكتب السماوية) .

ثالثا : الروحيات : (العالم غير المادي) . والملائكة عليهم السلام ، والجن ، والروح .

رابعا : السمعيات : الحياة البرزخية ، والحياة الروحية ، كأحوال القبر ، وعلامات القيامة ، والبعث ، والموقف ، والحساب والجزاء .

وقد تعرف الحق تبارك وتعالى إلى خلقه بأسماء وصفات تليق بجلاله ، ولا يصح أن نطلق على الله تبارك وتعالى إسماً أو وصفا لم يرد به الشرع . إنه علم واحد هو لفظ الجلالة ﴿الله﴾ . وباقيها يلاحظ فيها معنى الصفات ، يكفينا أن نعلم أن اسم الذات هو هذا الإسم المفرد « **الله جل جلاله** » .

- ١٩ -

يمثل الدكتور موريس بوكاي علامة على ذلك التيار الجديد ، الذي يشق طريقه في الفكر الغربي المعاصر في مرحلة القلق والتمزق الذي يسود المجتمع الغربي بعد فشل الأيديولوجيات ، وحاجة الناس إلى أفق جديد من آفاق التطلع إلى أشواق الروح ومطامح النفس بعد أن غلب طابع المادية والإباحية على الحضارة والمجتمعات .

وهو ليس أول هذه الدعوة إلى التماس الأصالة والفطرة ، ولكنه حلقة منها ، فقد توالت هذه الدعوة منذ وقت بعيد ، وظلت متصلة ، ولكنها كانت متواضعة ، أما اليوم فقد أخذت تستلفت نظر المثقفين الغربيين .

وأهم ما يؤكد عليه موريس بوكاي :

أولا : إن الشعور الديني بالغرب تحت التأثير السائد من اليهودية والمسيحية يشهد اليوم انحساراً كبيراً جداً ، فالترجمة المادية لهذا الهبوط قابلة للقياس بمنطق الدقة ، فنحن نجدها في هبوط الاتجاهات أو الميول من الشباب .

تقول الإحصائيات أنه كان لفرنسا ١٩٦٥ ما يقرب من ٢٦ ألف قسيس ، وكان من الممكن لسلك رجال الكنيسة أن يتجدد بصورة مرضية بمتوسط قدره ١٥٠٠ سنويا من القسس الجدد ، إلا أنهم لم يبلغوا عام ١٩٦٧ أكثر من ٤٨٩ ، ومن ذلك العام أخذ عددهم ينخفض باطراد ليصل إلى ١٣٦ في ١٩٧٦ و٩٩ في سنة ١٩٧٧ . ثم أن عدد الطلبة المسجلين في المدارس الاكليريكية من القلة بحيث يمكن معه التأكد بأن عدد ما سيتم تكوينهم سنويا من المقاومة في السنوات القادمة

لن يصل إلى مائة . الأمر الذي يمكن معه القول بأن الكنيسة لن يكون لها في غضون عقود قليلة سوى عدد ضئيل من الرجال .

ومن الأسباب الأساسية لهذا النفور من الحياة الدينية في البلاد المسيحية فقدان الثقة في الكتب التوراتية .

ثانيا : إن بحوثاً متعددة أخذت تظهر من ١٩٧٠ هي من إنتاج لاهوتيين مسيحيين أنفسهم . بعد أن قام هؤلاء بدراسة دقيقة للأصول مستعملين كل العناصر التي تمنحها لهم المعرفة العصرية في مجال علم الله وعلم الآثار والتاريخ . وقد أصبح الناس يسلمون بأن الأناجيل الشرعية الأربعة ليست سوى ترجمة لما كانت تعتقده في عيسى جماعات مختلفة لا تتفق فيه ، كما يبدو من النصوص على رأي واحد . لأن أحداثا من رسالته قد عولجت بصورة تختلف باختلاف نظرة أصحاب الأناجيل الناطقين بلسان تلك الجماعات .

ثالثا : إن تناقضات كثيرة بين الأناجيل (بين مرقص ولوقا ومتى) نجد تفسيرها في هذه البحوث العصرية التي أجراها الخبراء المسيحيون الذين بينوا أن صياغات متتالية لنصوص انجيلية قد لفقت انطلاقا من روايات سمعية عن عيسى كانت ذائعة لدى الجماعات المسيحية الأولية . وأن ذلك كله قد أفضى إلى الأناجيل الحالية . وهكذا يقوم الدليل على تلاعب الرجال بالمعلومات الأولية بهدف إنتاج نصوص مكتوبة وصفت بأنها مكتوبة للمناسبة أو للنضال ، لأنها كانت نتيجة لصراعات بين جماعات متنافسة تسعى كل منها إلى إنقاذ نظراتها الخاصة .

رابعا : أدت المعارف العصرية والمتنوعة والمطبقة على دراسة النصوص في الأفكار الموضوعية إلى عدم منح التوراة تلك الأصالة التي كانت تضفي عليها ، ودون برهان أو دليل في القرون الماضية ، وأهمها تناقض قصص الخلق والطوفان . هذا ما قالوه هم بألسنتهم .

- ٢٠ -

إن هناك وجهة نظر تكاد تجمع عليها كل العقول المنصفة الصادقة النظرة ،

وهي أن المجتمع البشري اليوم قد سئم ويئس من منبع أوربا والغرب الذي لم يستطع خلال هذه النهضة الهائلة الطويلة أن يضيف إلى رصيد الإنسانية إلا الحديد والنار والبارود والدخان والقنابل المدمرة والغازات السامة والآلات المبيدة . وأن الفراغ الذي حدث الآن في قيادة الإنسانية ، فراغ رهيب ، ولكنه فراغ لا يستطيع أن يملأه أحد إلا العالم الإسلامي .

وما زالت كلمات العلامة : محمد إقبال التي رددتها منذ أكثر من نصف قرن تدوي في آذان العالم حين قال : إن أوربا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقي لأخلاق الناس . أما المسلم فإن له من هذه الآراء النهائية القائمة على أساس من تنزيل يتحدث إلى الناس من أعماق الحياة والوجود ، وما تعني به هذه الآراء من أمور خاصة في الظاهر يترك أثره في أعماق النفوس . إن الأساس الروحي للحياة عند المسلم هو إيمان يستطيع المسلم أن يسترخص الحياة في سبيله . وبما أن القاعدة الأساسية في الإسلام تقول : أن محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين ، فإنه ينبغي أن يكون شعب من أكثر شعوب الأرض في الحرية الروحانية .

يقول محمد إقبال : على المسلم المعاصر أن يحذر الوقوع في الخطر الذي يمكن فيما ينطوي عليه الفكر الأوربي الجديد من إلحاد . وخصوصا وأن أساليب الخداع فيه كثيرة ، فقد انخدع به كثيرون من المسلمين كما انخدع بالفعل به بعض الدعاة في الهند . فعلينا أن نعيد النظر في تفكيرنا الإسلامي من جانب ، وتمحص هذا الفكر الجديد بروح مستقلة يقظة من جانب آخر . إن أخف الأضرار التي أعقبت فلسفة الغرب المادية هي ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه ، والذي أدركه هكسلي وأعلن سخطه عليه ، إن الفلسفات الجديدة (الاشتراكية الحديثة الملحدة) قد أعلنت العصيان على ذات المصدر الذي كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف ، وهي إذن ليست بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية .

وعلى المسلم أن يقدر وضعه ، وأن يعيد بناء حياته الإجتماعية على ضوء المبادىء القاطعة في الإسلام كمبدأ التوحيد ، وختم الرسالة ، وأن يستنبط من أهداف الإسلام التي لم تتكشف إلى الآن إلا تكشفا جزئيا . تلك الديمقراطية الروحية التي هي الحكاية الأخيرة للإسلام ومقصده .

- ٢١ -

خدعنا في مرحلة البحث عن الحق حين دعينا إلى مفاهيم يطلق عليها أصحابها « الإسلام الحضاري » أو الإسلام الثقافي . وخيل إلينا حيناً أن هذا هو هدفنا في العصر الحديث ، وأن هذا المنطلق كان لا بد أن يحطم النفوذ الأجنبي ، وقوائم التغريب والغزو الثقافي التي قد أرسيت أعمدتها في قلب فكرنا ومجتمعنا ، ثم تبين لنا فساد هذه النظرية ، ووجدنا أنه لا بد من العمل في سبيل الإسلام العقائدي .

كذلك فقد خدعنا مرة أخرى حين دعينا إلى الفكر الفلسفي في معالجة مفاهيم الإسلام على ذلك النحو الذي عرفه علماء الكلام ، والمعتزلة ، ثم ظهر أن هذا الأسلوب لا يحقق شيئاً ، وأنه يفتح متاهات لا حد لها في تضيع الجهود ، وتجعلنا واقفين في مكاننا خارج الساحة .

وخدعنا مرة ثالثة حين ظهر كتاب السيرة أمثال هيكل وطه حسين وتوفيق الحكيم ، وظن الناس أن هؤلاء يدعون إلى عقيدة الإسلام حقا ، ثم تبين لنا أن ذلك كله لم يكن إلا محاولة لاستبدال الدعوة الإسلامية الحقة بأسماء لامعة لها تاريخها وتبعاتها وأهدافها . ووقف عالم إسلامي جليل أمام الناس فقال لهم : هل تؤمنون حقا بالإسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع نتبعكم ؟ فصمتوا كأنما على رؤوسهم الطير .

- ٢٢ -

أخطر ما طرحه الفكر الغربي على أفق الفكر الإسلامي نظرية الانشطارية وطابع التشاؤم ، والفكر الإسلامي بطبيعته فكر إنساني الطابع ، قائم على الفطرة التي فطر الله الناس عليها فهو متكامل يفيض بالرحمة والطمأنينة والسماحة ، ولا يقبل في أصدق مواقفه أن يتقبل الانشطارية أو التشاؤم . قام الفكر الغربي أساسا على الانشطارية ، وعلى الفصل بين القيم ، وعلى عصور سادت فيها ظاهرة واحدة ، ثم جاءت عصور سادت فيها الظاهرة المعتادة في خروج من النقيض إلى النقيض ، دون قدرة على التوسط أو المواءمة أو التكامل . بينما لم يعرف الفكر الإسلامي هذه التجزئة ، ولم يقرها ، ومن الانشطارية سقط الفكر الغربي في أزمة

المادية عن طريق إعلاء العلم وتقديس العقل ، ومن ثم كان إنكاره لجوانب أخرى في الحياة والنفس غير المادة والعقل .

ومن هنا عمت ظاهرة التشاؤم وجدانه وفكره وطبيعته بطابع الملل والتمزق والتمرد والصراع ، والخوف من الموت ، والرغبة في اعتصار الحياة ، وإنكار الآخرة والجزاء .

ولا ريب أن الإنسان القائم على المادة والروح معاً لا يستطيع أن يكون روحا صرفا يعيش على النسك والزهادة ، ولا مادة صرفاً يقوم على الإباحة والانطلاق ، ولكنه هما معا . إن الفكر الغربي حين فصل الروح عن المادة ، والقلب عن الجسد ، خلق أربع تحديات خطيرة هي الانشطارية ، والشك والارتياب ، والإباحة والتشاؤم . فإذا أردنا أن نجد نقطة أساسية للانحراف لقلنا إنها إنكار طابع هام وعنصر جذري من عناصر النفس الإنسانية هو جانب الإيمان والعقيدة والروح والعالم الداخلي والغيبي كله . هذا العالم الذي اختفى تماما في هذا العصر ، ورفعت الفلسفة المادية المعاول لهدمه وتحطيمه وتدميره . هذا هو مفهوم الإنشطارية التي تقبل بالعقل والجسم ، وترفض بالروح ، وتقبل بالمادة ، وترفض الوحي ، وتقبل بالأيديولوجيات وترفض الدين ، ومن هنا كانت أبرز مظاهر الفكر الغربي المعاصر : هو التشاؤم والقلق والتمزق والغثيان ، وذلك نتيجة السرف في الإباحة والشك والارتياب .

ولا شك أن مصدر هذا الاتجاه هو الأيديولوجية التلمودية ، التي تقدم الإباحية والشك والسحر والأساطير والخرافة ، وتنكر البعث والوحي والفطرة وأخلاقية الحياة ، والمسئولية الفردية .

ولقد جدد اليهود الفكر البشري القديم ووضعوه في صور عصرية براقة وخدعوا به الكثيرين تحت اسم الفلسفات والأيديولوجيات وعملوا على أن يدفعوه باسم العلم ، ويجعلوه منهجا يدرس في الجامعات والمعاهد ، وأخضعوا له الفكر المسيحي الغربي ، وهم يحاولون الآن أن يخدعوا به الفكر الإسلامي . لقد جمع هذا المنهج كل ما حمله الفكر البشري من وثنية وإلحاد ، وتعدد واحتقار للأخلاق والقيم ، وإنكار للجزاء والحساب في سبيل إشادة امبراطورية الربا ، وعبادة

العجل الذهبي ، والتكالب على ماديات الحياة . وبذلك سيطر اليهود على الفكر البشري ، وعمدوا إلى احتواء الفكر الغربي كله بداخله ، ولم يعد الآن في العالم كله من يستطيع أن يكشف هذا الزيف ، ويرد هذه الجائحة عن منهج الله (منهج القرآن) غير المسلمين أصحاب منهج التوحيد الخالص .

- ٢٣ -

﴿ **إقرأ باسم ربك** ﴾ هذا طريق العمل لدعوة الله عن طريق التعلم الذي أقسم الله به ليقرأ المؤمن ويكتب باسم الله الذي خاطب رسوله في مستهل الدعوة الإسلامية ﴿**إقرأ باسم ربك** ﴾ فجعل القراءة والكتابة خالصة لوجهه الكريم ، وجعل العمل الذي يشتق من القلم والعلم والفكر ربانياً مبرءاً من الأهواء ، وجعل مسئولية البيان من أبلغ مسئوليات الإسلام الذي أنزل دعوته بلسان عربي مبين ففرض على من يعلم أن ينقل ما علمه الله إلى من لا يعلم من الناس أن ينقل ما علمه الله إلى من لا يعلم من الناس ، وأن لا يكتم مما يعلم شيئا . وبذلك تجددت رسالة الكتاب والدعاة والباحثين المسلمين على نفس الطريق الذي سار فيه رسول الله ﷺ وصحابته وحملة العلم عصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل ، وشاء الله تبارك وتعالى أن تكون هذه المرحلة التي نعيشها حافلة بالتحديات والأخطار ، وتحتاج إلى جهد ضخم مكثف في سبيل مواجهة الأخطار . هذه الأخطار التي عرفها الإسلام منذ يومه الأول ، والتي لن تتوقف . وقد سجل ذلك الحق تبارك وتعالى في قوله : ﴿**ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب ومن الذين أشركوا أذى كثيراً** ﴾ ولقد شاء الله تبارك وتعالى أن يصارع الباطل الحق ، وأن يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، وأن يجد المسلم وجوها عديدة من الخطر والتحدي لا بد أن يتصدى لها ، ويقف أمامها ، ويردها عن دينه ومجتمعه ﴿ **وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ فلا بد من التماس المنابع ، وعرض كل ما يطرح في أفق الفكر الإسلامي من نظريات ومذاهب وأيديولوجيات واحدة على ذلك الأصل الأصيل . « القرآن الكريم » النص الموثق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصدر الضياء الأوحد ، وصلة الأرض بالسماء ، وكلمة الله هي الباقية في أعقاب المسلمين جيلا بعد جيل إلى يوم يبعثون ، وهي الحق الذي نلوذ

به ، وصدق رسول الله : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا . كتاب الله وسنتي » والمسلمون اليوم على مشارف القرن الخامس عشر الهجري الذي تهل أضواءه يواجهون خطرين عظيمين . خطر يتصل بعقيدتهم وهو خطر المذاهب المادية التي تؤثر في ثقافتهم وتعليمهم ، والتي تقدم لهم مجموعة من المفاهيم الضالة المضلة التي تحجبهم عن جوهر التوحيد الخالص ، وخطر يتصل بمجتمعهم ويتمثل في تلك الأخطار التي تتصل بالشباب والمرأة والأسرة والمجتمع والطفل ، والتي تثيرها قصص ومسرحيات وأغان ودعوات ضالة تحاول أن تدمر هذا البناء الاجتماعي الشامخ الذي بناه الإسلام .

والهدف من هذا كله أن يتحقق لليهودية العالمية السيطرة على العالم كله بعد تدميره اجتماعيا وأخلاقيا ، وأمامنا بروتوكولات صهيون تكشف في وضوح عن هذه المؤامرة الخطيرة ، والتي تقوم على تلك الدعوى الباطلة ، والأسطورة الزائفة لاستلاب أرض المسلمين ، وقد جاء الاحتلال اليهودي الصهيوني مرحلة جديدة من مراحل الامتحان الخطير الذي يواجهه المسلمون والعرب بعد الاحتلال الفرنسي البريطاني ، واستطاع أن يكشف للمسلمين فساد الخطة التي كانوا يتخذونها وسيلة للحرية ، وهي اصطناع أساليب الغرب في العيش والحياة ، والتماس مناهجهم في التعليم والثقافة . وقد تبين اليوم أن هذه التبعية الخطيرة هي التي أذاقتهم بأس الاستعمار : احتلال وهزيمة ونكسة خلال أكثر من ثلاثين عاماً تغلب فيها المسلمون بين مناهج الديمقراطية الغربية والماركسية الشيوعية . وقد عجزت كلتا التجربتين أن تمد المسلمين والعرب بمنهج حياة يحررهم من السيطرة أو يدفعهم إلى النهضة . وقد تكشف الآن بما لا يدعو إلى الشك أن هذا الأسلوب زائف وفاسد .

وأن السبيل الوحيد للمسلمين والعرب إلى النصر والتحرر والقوة ، وامتلاك الإرادة هو أن يلتمسوا منابعهم ، وأن يطبقوا شريعتهم ، وأن يعودوا إلى أصالتهم ، وأن يجدوا أنفسهم في منهج الإسلام الصحيح . أسلوب حياة ونظام مجتمع ، وأن يأخذوا من الغرب العلوم التكنولوجية فيضعوها في دائرة فكرهم الإسلامي ولغتهم العربية .

إن من أكبر المهام التي يفرضها علينا التحدي « بناء ذاتية المثقف المسلم » فنحن مطالبون أولا بأن نعرف ركائز فكرنا وعقيدتنا ونعتقها ، ونملأ بها كل كياننا الروحي والنفسي والعقلي ، ثم في ضوئها نواجه كل ما يكتب ونحكم على كل ما نقرأ .

إن الخطر الذي تخطف أولئك الذين غلبوا على أمرهم من أبناء أمتنا فانتاشتهم الرياح الهوج مغربين أو مشرقين يرجع إلى عجزهم وعجز أهلهم أن يكشفوا لهم ركائز فكرنا وعقيدتنا ، ومن ثم لم يجدوا ليطفئوا عطش أنفسهم ، إلا أن يقرأوا تلك السموم المبثوثة في كتابات « نيتشة وفرويد وماركس وسارتر » . ولقد كان في استطاعتهم أن يحذروا خطرهم ، لو أن الذين ترجموا كانوا مؤمنين بهذه الأمة ، فقدموا وجهة الفكر الإسلامي إزاء هذه الآراء ، ولكنهم تركوا هذا الفكر يصل إلى نفوس بها فراغ شديد فأفسدها وانحرف بها . ولذلك فقد حق علينا أن نحذر أتباعنا وإخوتنا من الأسماء اللامعة والمطبوعات الفاخرة ، والكلمات البراقة ، وأن يعرف الرجال بالحق ، فمن عرف الحق عرف أهله . وعلينا أن نسأل أنفسنا : هل نحن في حاجة إلى أن نعتنق مذهبا من هذه المذاهب ؟ وهل أمتنا في حاجة إلى منهج جديد وافد ، أو نظام جديد مجلوب من خارج دائرة فكرها ؟ وهل في استطاعة أمتنا ولها ذلك التراث العريق والتاريخ العميق ، والدور الكبير الأصيل في بناء الحضارة الإنسانية أو تقبل كل ما يفد إليها كأنه حقائق علمية أو حقائق ثابتة ، دون أن تفحصه وتعرضه على قيمها الأصيلة ؟ وهل هي حقا طبقت قيمها هذه ثم انكشف عجزها عن أن تقدم للمجتمع ما يتطلع إليه من نهوض وتقدم ؟

أم هل نحن نريد أن نبني نهجا جديدا في الحياة يحجب طريقنا الأصيل الذي سرنا فيه ؟ وهل يمكن أن تكون ثقافتنا أو فكرنا أو أدبنا الحديث مستقلا عما سبقه من التاريخ المتصل ؟

تلك الأسئلة لا يستطيع المثقف المسلم أن يجب عليها إلا إذا كان قادراً على أن يفهم أصول فكرنا وركائز قيمنا ، وأن يعرف أبعادها ومعطياتها . ذلك أن أبرز

قوانين فكرنا هي التكامل والترابط بين القيم ، والاستمداد من مفهوم التوحيد الخالص ، والالتقاء بالفطرة ، والتجاوب مع الطابع الإنساني الأصيل . إن النظرة الضيقة المحددة : القاصرة على الإقليمية والتخصص والنظرة الانشطارية ليست نظرة فكرنا الرحب ، وهي نظرة لا تعطي التكامل القائم بين الدين والمجتمع ، ولا تكشف عن طابع الأخلاقية الذي ينتظم كل مجالات التربية والاقتصاد والسياسة .

هذا الفهم الموسع المتكامل الرحب ، من شأنه أن يثري آفاق حياتنا فنتعرف على عالمنا الإسلامي وأمتنا العربية بكل قضاياها وتحدياتها ، ونعرف مجالات الفكر في سعة ، ونعرف تلك الحقيقة الواضحة ، وهي أننا نعيش في عصر بلغ فيه التحدي الأجنبي الفكري مداه في محاولة لاحتوائنا ، ونعرف كيف يقوم في قلب عالمنا رأس جسر للصهيونية والاستعمار بالإضافة إلى تحديات مذاهب الإلحاد والمادية وغيرها مما يتجمع ليواجهنا عن طريق مؤسسات ظاهرة صريحة هي التبشير والاستشراق عن طريق قوى خفية تتمثل في بروتوكولات صهيون ، وما تدبره في خفاء عن طريق الفكر والثقافة ، وبواسطة الدعوات والأيديولوجيات في سبيل تحقيق ذلك الهدف الخطير المعلن ، وهو السيطرة على العالم بعد القضاء على كل قيمه ، ومثله وأخلاقياته واستبعاد أهله .

ولقد كان بعض المثقفين يسخرون من هذه التحديات نتيجة قصر نظرهم على المؤسسات الظاهرة ، ولكن وثائق كثيرة تسربت في السنوات الأخيرة كشفت عن مدى ما تتحرك نحوه هذه القوى التي يمكن أن يقال اليوم أنها في مواجهة سافرة مع الفكر الإسلامي عن طريق اللغة العربية والتاريخ والتعليم ، وشرائع المجتمع وقيمه ، وعن طريق مهاجمة الدين بصفة عامة والإسلام على وجه الخصوص ، ومحاولة تحوير مفهومه وإثارة الشبهات حوله ، وحوله قيمه وتعاليمه وشريعته ورسوله وتاريخه .

هذا التحدي يجب أن يكون قائماً في نفس كل منا وعقله لا يغيب عنه لحظة فلا ننظر في أمر من أمور الثقافة والفكر والاجتماع إلا وهو مستحضر ذلك الخطر الذي ترمي إليه كل الطامعة في بلادنا ، والتي ترى أن خير وسيلة لاحتوائنا هو

استقطاب فكرنا ، وأننا أمة لا يمكن أن تخضع إلا إذا خلعت أنيابها ، وأنياب أمتنا هي الإسلام والقرآن واللغة العربية .

- ٢٥ -

روج المؤرخون الغربيون ومن جاراهم من مؤرخي العرب الذين تتلمذوا عليهم مجموعة من الأفكار الزائفة منها أن العالم الإسلامي قبل الوجود الغربي ، وقبل التحدي الاستعماري كان في سبات عميق حضاريا ، وأنه بدأ يتحرك أثر صدمة القوة الغربية . والواقع أن نهضة العالم الإسلامي قد انبعثت من أعماقه قبل وصول الاستعمار الغربي والحملة الفرنسية بالذات بأكثر من خمسين عاما . ولكن هكذا الاستعمار يشوه الوجود العربي والإسلامي ليبرر وجوده واحتلاله . مدعيا أنه جاء لتمدين الشعوب المتخلفة . وقد جاء التدخل الأجنبي بعد أن أوشكت حركة اليقظة فيه على النجاح فأجهضتها . فاحتلال الجزائر ، ثم بعد فترة إنجازات ضخمة كان من شأنها ـ لولا الاحتلال ـ أن تعيد للجزائر حيويته الفكرية والسياسية ، ولقد صارعت الحركات الوطنية والفكرية في مصر وتونس عبر القرن التاسع عشر لفئات الحاكم المستبدة للحصول على مزيد من حرية العمل والفكر . وفي كل مكان في الخليج وفي الجزيرة . وفي مصر كانت الحياة الفكرية الاجتماعية تموج باليقظة والمقاومة ، وقد استلهمت هذه الحركات قبل النفوذ الأجنبي التراث الإسلامي والأصول الإسلامية في تحديد وجهتها ، واعتقدت أن هذه الأصول كفيلة بإحداث التغيير المناسب بحيث تعيد للمجتمع الإسلامي حيويته الفكرية والسياسية والإجتماعية . غير أن القوى الاستعمارية كانت تهدف إلى تجميد الشريعة الإسلامية ، ودفع المجتمع الإسلامي العربي إلى الاحتواء في إطار النظم الغربية الوافدة ، والتصورات الغربية ، فجاءت النظم الجديدة مقتبسة من الغرب ، فكان لهذا أثره في الازدواج الذي عرفه المجتمع الإسلامي بين نظام تربوي غربي ، ونظام تربوي إسلامي .

ومن ثم فإن القلة التي تعلمت في مدارس الإرساليات هي التي حكمت ، وسيطرت ، وسارت على طريق الغرب . هذا الطريق الذي كان من نتيجته الهزيمة والنكسة والنكبة ، وكانت تلك المحاولات في ربط البلاد بالنفوذ الغربي ثم

الماركسي ، ومن ذلك الادعاء بأن سقوط الدولة الرومانية المقدسة في المغرب هو الفاصل بين العصور القديمة والحديثة . والواقع أن الإسلام وليس غيره هو أعطى الغرب والعالم كله هذا الفجر الجديد .

ومن ذلك الادعاء بأن الإسلام عامل أصحاب الأديان الأخرى معاملة غير رحيمة . وقد شهد بعدالة الإسلام غير واحد من المؤرخين المنصفين . يقول : « بلاسكويبانبيث » في كتابه الكاتدرائية : « عندما جاء الفتح العربي استمرت سلسلة الأساقفة المضطهدين ، لكنهم لم يعودوا يخشون على أرواحهم ، كما كان الحال أيام التعصب الروماني . إن المسلمين لا يقتلون رجال الدين ، وإنما هم يحترمون عقائد أهل البلاد . وقد ظلت جميع كنائس طليطلة في أيدي المسيحيين باستثناء الكاتدرائية التي تحولت إلى مسجد جامع . لقد احترم العرب أساقفة الكاثوليك وكهان اليهود ، كل ما حصل أن الكنيسة لم تعد تحصل على الإيراد الكبير الذي كانت تستولي عليه قبل ذلك .

وكذلك في مجال البحث التاريخي فقد شهد لهم هاملتون جب بالإنصاف . قال : « إن العرب هم أول من ألف في الأديان والمناهج لأنهم كانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى ، وحاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالحجة والبرهان . ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانات توحيدية . ويحظى ابن حزم هنا بالنصيب الأوفر » .

ويقول الكاتب المسيحي « إميل الغوري » إن الإسلام لم يعترف بالديانتين اليهودية والمسيحية ، فحسب . بل حرص على سلامتها والأسس التي بنيتا عليها . وكان بعض أهل الكتاب واليهود منهم بخاصة قد خرجوا على أصول الدين ونأوا بها بعيداً عن الصراط المستقيم ، وابتدعوا البدع ، وشوهوا سلامة الدين بالخزعبلات والترهات والأباطيل والاسرائيليات .

- ٢٦ -

أبرز ما أخطأ فيه الماركسيون والشيوعيون في تفسير التاريخ الإسلامي ، مقولتهم في صراع الطبقات ومقولتهم في العامل الاقتصادي .

يقول الاستاذ طه محمد كسبة : أن الماركسيين لم يستوعبوا مضمون الرسالة الإسلامية . ذلك الصراع الذي ثار بين المسلمين بعضهم البعض ، والذي اتخذه الماركسيون دليلا على صحة دعواهم . إنما كان صراعا ذا طابع سياسي ، ولم يكن صراعا طبقيا تغلبت بموجبه طبقة على أخرى ، أو فئة على أختها . والخطأ أنهم نظروا إلى التاريخ الإسلامي بنصف عين . ذلك أنه لم يقرأوا التاريخ الإسلامي كله ، كما أنهم لم يقرأوا التاريخ البشري كله ، وكل الذي فعلوه أنهم ساروا على نهج إمامهم ماركس حين تخير أحداثا بعينها من تاريخ البشر ، وأطلقها على التاريخ كله ، فقد كانوا يقرأون ما كان يعنيهم ، ويتفق مع أصول نظريتهم الأولى في استخراج أفكارهم وأحكامهم وآرائهم ، فكان ما يثير انتباههم ويلفت أنظارهم منظر تلك الدماء التي تسيل على صفحات التاريخ ، ولم يكن ينفذ إلى أنوفهم خيوطها ، ويستخرجون منها أحكاما ومبادىء وأفكار واستنتاجات يطلقونها على التاريخ كله مثلما فعل ماركس حين اعتمد في استنباط نظريته على بعض مراحل التاريخ دون الأخرى .

وهنا تسقط دعوى إطلاق « الصراع الطبقي » وحتميته على المجتمع الإسلامي . ذلك أن الإسلام لم يكن أساساً من إفراز النظام الطبقي في قريش ، ولم يكن الإسلام ديناً رجعيا يحفظ للظالمين والمستغلين أموالهم وامتيازاتهم ، كما أنه لم يكن مخدراً للفقراء والمحتاجين والمعدمين ، يجعلهم في حالة تبدل ورضى بفقرهم وعجزهم ، كما دعا إلى العمل والحركة والسعي على الرزق ومجاهدة النفس والمشركين والمستغلين .

وما جاء الإسلام نتيجة انقلاب عسكري أو سياسي قامت به مجموعة من الأفراد الذين يطلقون على أنفسهم ثواراً ، أو مجموعة من العسكر ، كما أنه ما جاء نتيجة إنقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقاته المتشابكة في قريش . وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة . وجاء الإسلام منذ البداية مقررا المساواة في الفرص وضمان حق الكفاية لكل المواطنين ، وتحقيق التوازن الاقتصادي بين الفرد والجماعة ، وجاء بمبدأ الملكية الخاصة ، والملكية العامة ، ومبدأ الاقتصاد الحر الموجه جاء بكل ذلك في الجزيرة العربية في وقت لم تكن ظروف الإنتاج وعلاقاته تدعو إليه بحيث يمكن أن يقال أن ما حدث كان انبثاقاً من واقع اقتصادي ، وتحدى

بذلك منطق الماركسيين التاريخي وحسابات المادية التي تحتم انبثاق كل انقلاب سياسي من إنقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقاته .

وعليه فإن الصراع الذي ثار بين المسلمين ، والذي يتخذه الماركسيون حجة ودليلا على صحة نظريتهم . إنما كان من أجل الحكم ، وكان صراعا سياسيا لا طبقيا ، ولا يقره الإسلام بحال من الأحوال ، فهو خارج عن منهج الإسلام وبعيد عن روحه السمح . ويبقى الإسلام بجوهره السياسي الذي يشع بروح الأخوة والمصالحة بين المسلمين ، والذي يقرر في صراحة : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » هذا عن بطلان دعوى صراع الطبقات . أما بالنسبة للعامل الاقتصادي ، فيقول الدكتور حسن شحاته سعفان : « أن النظم الاجتماعية السائدة في مصر وسوريا ولبنان وغيرهما من دول الشرق الأوسط إذا درست في تطورها منذ العصور الإسلامية للآن نجد أن العالم الاقتصادي في هذا التأثير وفي تطورها لم يكن بأكثر أهمية من غيره . بل على العكس كانت المثاليات الدينية والأخلاقية المستقاة من الإسلام أولا هي العامل الأول في تشكيل النظم وتطورها ، ثم يأتي العامل الاقتصادي كعامل ثاني في معظم الأحيان .

وبالجملة فإن الزعم بأن العوامل المادية هي العوامل التي تؤثر الأثر الأكبر في تشكيل النظم الاجتماعية من دينية وسياسية وأخلاقية وتربوية هو خطأ محض .

- ٢٧ -

ما تزال اللغة العربية الفصحى هدفا من أبرز أهداف التغريب والغزو الثقافي بوصفها لغة القرآن الكريم ، والهدف هو حجب هذه اللغة وتغليب العاميات من ناحية ، واللغات الأجنبية من ناحية أخرى . وهناك من المناورات الخطيرة ما يدعو إلى ما يسمونه « اللغة الوسطى » وكل هذه محاولات لوضع حاجز بين اللغة العربية الفصحى : لغة القرآن ، وبين اللغة المعاصرة ، وهناك من يصطنع برامج باسم اللغة يقول إنها لغة صحراوية في صورها واستعداداتها وكتاباتها ، ويحاول أن يجعلها في الدرجة الثانية للغة الشارع والبيت . بل إن المجامع اللغوية تدرس الآن العاميات واللهجات ، وتوغل فيها . وتدعو إلى لغة مستمدة من الكلمات المستعملة في المجتمعات . وقد حمل لواء هذه الدعوة : سلامة

موسى ، وسعيد عقل ، وأنيس فريحة ، ولويس عوض ، وهدف هؤلاء واضح ومعروف .

إن اللغة العربية الفصحى لغة القرآن هي الهدف . . .

يقول الأمير مصطفى الشهابي : « إن اللهجات العامية تعد بالعشرات ، بل بالمئات ، وكلها اليوم لا ضابط لها من نطق أو صرف أو نحو أو اشتقاق أو تحديد لمعنى الألفاظ ، فهي كلام العامة يستعمل في الأغراض المعاشية ، وفي علاقات الناس بعضهم ببعض . ومعنى هذا أن العامية لا يمكن أن تكون لغات علم وأدب وثقافة . وليس في مقدورها أن تعيش طويلا ، أو أن يعم بعضها أو كلها الأقطار العربية كافة ، وكل ما يكتب بلهجة عامية يظل محصوراً في قطره ، وقلما يفهمه غير أبناء ذلك القطر ، أو غير طائفة من أبناء ذلك القطر ، فإذا تدارسنا خصائص هذه اللهجات ، ووضعنا لكل منها قواعد رجراجة ، فماذا يكون مغبة هذا العمل . إن أخشى ما نخشاه أن يستهوي هذا الموضوع عقول بعض هؤلاء الطلاب ، فيعكفوا على معالجة تنظيم الكتابة والتأليف باللهجات المختلفة ، وعلى طبع هذه الرطانات ونشرها فتكون النتيجة تشويشا وضرراً يباعد بعض الأقطار العربية عن بعض بدلا من أن تتوحد بلغتها ، وتكون النتيجة مخالفة تمام المخالفة لما يتوقع من تدريس اللهجات العامية في خدمة الفصحى .

أما القول بأن تدريس هذه اللهجات يقضي إلى معرفة مشكلات الفصحى ، وإلى مداواة أدوائها فهو قول ضعيف في نظرنا ، فأدواء الفصحى معروفة تحتاج إلى من يعالجها بإخلاص ونشاط وصبر ومثابرة . وأهمها وضع المصطلحات العلمية أو تحقيقها وتبسيط قواعد الكتابة والإعراب والصرف والنحو ، وتبسيط الكثير من تعليلات القواعد الصرفية والنحوية وجميع هذه الأمور الشائكة يعرفها علماؤنا الإثبات ، ولا علاقة لها باللهجات العامة وقواعدها وتدريسها . ومن الطبيعي القول بأن هذا التبسيط لم يمس جوهر الفصحى وسلامتها ، وأنها ستظل صعبة في نظر بعض الناس ، ولا مجال للبحث عن بعض الآراء التي تذهب إلى جعل التبسيط تشويها للفصحى .

المطلوب هو رد العامي إلى الفصيح ، وتقريب العامية من الفصحى ،

ويمنعون طغيان العامية عليها . . إن قضية الفصحى والعامية لا تحل بدراسة اللهجات العامية وتدريسها للطلاب . بل تحل بنشر قواعد الفصحى مع الاحتفاظ بسلامتها . وعلى الأخص نشر التعليم في سواد الشعوب العربية . ومنها فرض التكلم بالفصحى على المعلمين وعلى التلاميذ في جميع المدارس ، ومنع طبع وسائل بالعامية أو التكلم بها في المدارس والمسارح ومحطات الإذاعة ودوائر الحكومات .

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي : أن هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم . وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه لفصاحته . ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يرنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء عليها ، وأحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق فيها .

- ٢٨ -

إن تصور الإسلام على أنه دين (أخلاق فردية وأحوال شخصية) تصور خاطىء نتج من الأساس المبثوث في أذهان الناس العاديين حول الإسلام ، هو ثمرة التآمر الثقافي والفكري والسياسي والحضاري الذي نشط في تعزيزه الغرب عبر معاهده وجامعاته وعملائه الحضاريين في أرض الإسلام ، ولو صح هذا التصور ما كان ينبغي أن يحدث ما حدث في تاريخ الإسلام ، وما نشأ وترقى من حضارة منهجية ملتزمة في جوف الجزيرة العربية وبغداد ودمشق والأندلس وقرطاج والهند وبخارى .

ولو كانت مهمة الإسلام في هذا الكون هي فقط تهذيب وتشذيب أخلاق الناس لما كان هناك داع تاريخي لكل الفتوحات الإسلامية . ولكل جند الإسلام ولكل السرايا القتالية المدججة بالسلاح التي كان يباركها رسول الله محمد ﷺ . ولو كانت مهمة محمد عليه الصلاة والسلام تنحصر في أطر الأخلاق الفردية والمناقبية المثالية . لو كانت مهمته هي تلك لما أرسل طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق - بالمعنى الحرفي للكلمة - بيت سويلم على من فيه ، حيث يجتمع بعض المنافقين الذين كانوا يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . ولو كانت لما غزا سبعا وعشرين غزوة . قاتل فيها في تسع غزوات . .

(بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف) .

ولو كان داعية إصلاحيا لما لقي ما لقيه يوم أحد حيث رماه عتبة بن أبي وقاص فكسر رباعيته اليمنى السفلى ، وجرح شفته السفلى . وعبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته ، وابن قمئة جرح وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، لو كانت بعثته فلسفة إشراقية لما فعل كل ذلك ، أو لقي كل ذلك عليه الصلاة والسلام . لقد كان إعلانا عاما لتحرير الإنسان في الأرض ، إعلانا حركيا إيجابيا يراد له التحقيق العلمي في صورة تحكم البشر بشريعة الله ، وتخرجهم بالفعل من العبودية للعباد للعبودية لله وحده بلا شريك . اتخذ شكل (الحركة) إلى جانب (البيان) ذلك ليواجه الواقع البشري بكل جوانبه بوسائل متكافئة لكل جوانبه .

لذلك كان للقرآن موضوع ، وبحث رئيسي وهدف : موضوعه ، الإنسان ومدار وجوده ، .

بحثه الرئيسي : أن النظريات التي وضعها الإنسان وتقديراته الخيالية ، وخضوعه لسلطان الأهواء ، ثم المواقف التي اتخذها على أساس تلك النظريات كلها في حقيقتها باطلة . وكذلك مفهوم الإنسان نفسه من ناحية المصير . وإنما الحق هو الذي علمه الله للإنسان حين جعله خليفة له في الأرض ، وبموجب هذا الحق فإنه ليس هناك منهج من المناهج يقوم على الصحة ، ويتوصل إلى العافية إلا المنهج المطروح في القرآن . أما هدفه فهو دعوة الإنسان إلى هذا المنهج الصحيح . هذه الدعوة الجديدة ما جاءت لتعايش الأوضاع الجاهلية التي كانت سائدة في بيئة النزول والبعثة في الجزيرة العربية . بل جاءت لتلغي الواقع ذاك ، وتنشىء واقعا آخر بكافة وجوهه السياسية والاقتصادية والاجتماعية . جاءت الدعوة الجديدة لتنشىء أمة ذات تصور خاص ، وثقافة خاصة ، وبيان خاص وسياسة خاصة ونظام اقتصادي خاص ، وتشكيل اجتماعي خاص . وباختصار أمة متميزة عن سائر الأمم ، دعوة منوط بها لا تعديل الأوضاع في الجزيرة العربية ، بل نقلها من الجاهلية إلى التوحيد ، ولذلك كانت تعد الأمة للقيادة البشرية .

وما كان القرآن يقدم نظرية بقدر ما كان يصنع حركة وتنظيما ووعيا بعيد المدى . أما معالجات الإسلام فكانت تتصف بالشمول والجذرية والواقعية ، وإعطاء حق التشريع لله تبارك وتعالى وحده . والقضاء على القبلية باعتبارها الوحدة السياسية المرتكزة على رابطة الدم . ومن خلال التأكيد على معنى الأمة التي رابطتها الإيمان بالفكرة والدعوة الإسلامية بديلاً لرابطة الدم .

الباب الخامس

قضايا القرن الخامس عشر وتحدياته

(١) منهج المعرفة الإسلامي: منهج القرآن .
(٢) العودة إلى الأصالة .
(٣) أمانات الكاتب المسلم .
(٤) انتصرت الفطرة التي جاء بها الدين الحق .
(٥) جاء الغزو بعد الغفلة عن المرابطة والإعداد .
(٦) عصر الأصالة الإسلامية .
(٧) الدعوة الإسلامية تشق طريقها .
(٨) التراث .
(٩) الاقتصاد .
(١٠) بناء الأجيال .
(١١) أزمة الحضارة المعاصرة .
(١٢) القانون الوضعي والشريعة الإسلامية .
(١٣) بعد أن عجزت الأيديولوجيات .
(١٤) أرنولد توينبي وحضارة الإسلام .
(١٥) الصهيونية الماركسية .
(١٦) تحرير البشرية من الفكر الوثني .
(١٧) البشرية ومنهج الله .
(١٨) عطاء الإسلام للقانون الدولي .
(١٩) انكشف فساد النظريات الوافدة .
(٢٠) التحرر من التبعية للفكر الوافد .
(٢١) محاكمة التراث والفكر الوافد في ضوء القرآن .
(٢٢) ثلاثة كتب يجب الحذر منها .
(٢٣) الاستشراق : ينفث سمومه .
(٢٤) الفطرة وليس البدائية .

(٢٥) فساد التفسير القومي والإقليمي .
(٢٦) الاكتفاء الذاتي الإسلامي .
(٢٧) بين العقيدة الربانية والفكر البشري .
(٢٨) من التبعية إلى الأصالة .
(٢٩) تحديات الأصالة .
(٣٠) ليس ديناً ولكن نظام اجتماعي كامل
(٣١) تحديات في وجه الفكر والعقيدة .
(٣٢) ثبات الأصل وتغير الفروع والوسائل .
(٣٣) من حقائق التاريخ الإسلامي .
(٣٤) حضارة القرن الخامس عشر الهجري .

منهج المعرفة الإسلامي : منهج القرآن

عرف الفكر الإسلامي ثلاث مناهج في المعرفة والبحث هي : منهج الفلسفة والكلام ، ومنهج الوجدان والذوق ومنهج القرآن . وقد خضع الفكر الإسلامي في بعض المراحل للمنهج الفلسفي ، وخضع في فترات أخرى لمنهج الوجدان . وقد آن الأوان أن يتحرر من المنهجين الجزئيين ليلتمس منهجه الأصيل الجامع ، منهج القرآن الذي يتحرر به من انشطارية المعرفة وتجزئة النظرة والخضوع لواحد من دوائر النظر سواء في خضوعه للعقل أو للحس .

ولا ريب أن منهج الفلسفة يمثل تياراً من الفكر البشري كان معروفاً قبل الإسلام ، ارتبط بالفكر اليوناني . وإن منهج الوجدان كان مرتبطاً بالفكر الغنوصي ، والهندي والبوذي . وأن القرآن الكريم جاء ليقدم للبشرية المنهج الرباني الجامع الذي قدمه الدين الخالص منذ أرسل به أنبياء الله ورسله . ثم كان الإسلام خاتماً لهذه الرسالات ، محرراً للعقل البشري ، وللنفس الإنسانية من الخضوع لإحداهما ، أو فصل إحداهما عن الآخر ، مقرراً تكاملها مع دون انفصال ، فربط بين العقل والقلب ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾

ولقد كان لانحراف البشرية عن منهج التكامل الجامع بين العقل والقلب الذي جاء به الدين الحق أبعد الأثر في الأخطار التي واجهت الأمم . ولا تزال تواجهها في مجال الحضارة والمجتمع ، وفي مجال النفس الإنسانية التي أصابها

التمزق والصراع . بل أنه ليمكن رد أزمة الإنسان المعاصر كلها إلى هذا الانحراف في إعلاء مفهوم العقل ، أو إعلاء مفهوم الوجدان . وليست الحاجة ماسة بالنسبة للمسلمين إلى التماس أسلوب الفلسفة أو الكلام مع وجود منهج القرآن الكريم الذي قدم المعرفة والعقيدة في أكثر من نهج وطريقة بحيث أعطى كل الطرق التي تتصل بالنفس والعقل والوجدان والتاريخ والحكمة والمنطق .

عرض القرآن الكريم لكل القضايا التي عاشت الفلسفات تناقشها . وقال فيها الكلمة الأخيرة : وخاصة قضايا الألوهية والوحدانية ، وقدرة الله المنزهة ، ومخالفة الله تبارك وتعالى لكل من عداه من الموجودات ، وعلم الله بجزئيات الكون المجردة ، وأجزائه المميزة ، وإعلان الحقيقة التي تقرر باستحالة إدراكه جل شأنه بحاسة البصر ، وأزلية الباري ، وثبات القيم ، وقصة بدأ الخلق ، ومصير العالم في الحياة الأخرى .

لقد قدم القرآن الكريم للمسلم وللإنسانية عامة حقيقة القول في هذه القضايا التي شغلت الفلاسفة والمتكلمين والصوفية . والحكماء عصوراً طويلة ، ودهوراً متوالية ، ولا تزال تشغلهم . وبها يكتفي المسلم عن الخوض في هذه الأبحاث ، وليس معه من أدوات البحث غير العقل الذي هو جهاز له عمله وله اختصاصه ، وله مسئوليته ، والذي هو مناط التكليف ، وكما وصفه الإمام الغزالي مصباح يوقد من نور الوحي . هذا العقل ليس معداً ولا قادراً ، ولا مستطيعاً للخوض في هذه القضايا . ومن أجل ذلك فإن الحق تبارك وتعالى بينها ، وكشف وجه الحق فيها في القرآن الكريم حتى لا يشغل المسلمون أنفسهم بها ، ويتفرغون لمهمتهم الأساسية ، وهي عمران الأرض ، والكشف عن ثرواتها ، والنظر في خلق السموات والأرض ، والتعرف إلى عبرة التاريخ والحضارات القديمة لتستقيم رسالتهم في الحياة الدنيا على كلمة الله ، وليكون عملهم قائماً على هدف واضح ، هو بناء المجتمع الرباني في الأرض .

ومن هنا فالمسلمون اليوم ، وهم يلتمسون طريق الأصالة من شأنهم أن يأخذوا منهج القرآن ، ويقيموا بناء مجتمعهم عليهم ، ويشكلوا حضارتهم الجديدة على أساسه ، وأن يدعو ذلك الركام الضخم من الأبحاث التي قام بها الفلاسفة

أمثال : الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا وغيرهم ، لأنها لم تستطع في مجموعها أن تصل إلى حقيقة المنهج القرآني ، وإن حاولت أن تخضع له الفلسفات العقلانية . والوجدانية ، وعجزت عن ذلك تماماً ، ودخلت من خلال ذلك محاولات لم تكن في خدمة الطريق الصحيح . إذ سيطر عليها بعض خصوم الإسلام من الباطنية والقرامطة وغيرهم ، واستعملوها لضرب الإسلام نفسه .

ومن أخطر هذه الدعوات دعوة تقديس العقل ، أو تقديس العلم أو الاتحاد والحلول أو التناسخ ، وكلها دعوات باطلة هدمها الإسلام وكشف عن زيفها . فكل ما قاله الفلاسفة عن سلطان العقل وتقديس العقل باطل في النظرة الإسلامية الصحيحة . ذلك لأن هذا الرأي منقول من الفلسفة اليونانية ، وهو عماد علم الأصنام اليوناني المعارض كل المعارضة لعقيدة التوحيد ، وهو مفتاح شرور الدعوات المادية والوثنية والإلحادية والإباحية التي هبت على المجتمع الإسلامي قديماً ، والتي تلتمس اليوم هذه المفاتيح لتجد لها في أفق الفكر الإسلامي اليوم طريقاً ومدخلاً .

ولقد قامت دعوة الإسلام ومفكريه على تحرير الفكر الإسلامي من قيود الفكر الوافد سواء اليوناني أو الغنوصي . وكان الإمام الشافعي هو أول من هاجم الفكر اليوناني ، وقال أنه مستند إلى خصائص اللغة اليونانية التي تختلف عن خصائص اللغة العربية . ثم جرى على منهجه الإمام ابن تيمية ، فكشف من نصوص القرآن عن منهج للمعرفة ما هو مخالف للمنهج اليوناني . هدفه موافقة صريح المعقول لصريح المنقول .

وأكد علماء المسلمون منذ ذلك الوقت على أن للمعرفة طريق جامع للعقل والقلب لا ينفصلان . والإسلام يجمع فيهما ولا يفرق . وكان الإسلام انطلاقاً من القرآن قد قدم للبشرية المنهج التجريبي الذي أنشأ نهضة العلوم التي حققت نتائج ضخمة في مجال الرياضيات والكيماويات والفلك ، والتي انطلق منها للعلم الأوروبي وصولاً إلى التكنولوجيا . قبل الإسلام لم تكن الروح العلمية الصحيحة قد ولدت ، وليس في الكتب القديمة إلا خيوطاً مفرقة بعضها صحيح وبعضها من الأساطير . وقد استصفى العلماء المسلمون هذا التراث كله ، فنحوا زائفة ، وحققوا التجربة العملية على الصحيح منه ، وأقاموا بجهدهم الواسع ، وخبرتهم

العميقة انطلاقاً من دعوة القرآن الكريم إلى النظر في الكون ، وإلى برهان المنهج العلمي التجريبي الذي طبقوه في مجال العلوم . ولكنهم أقاموا أيضاً منهج المعرفة الجامع ذي الجناحين : روح ومادة ، قلب وعقل . وطبقوه في مجال العلوم الإنسانية . وبذلك عرفت البشرية في العصر الحديث ، أن العلوم الإنسانية لا تخضع للمنهج التجريبي الذي تخضع له المادة .

كذلك وضع المفكرون المسلمون أساس علم مقارنات الأديان ، وكانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى - كما يقول : هاملتون جب - وحاولوا أن يفهموها ويردوا عليها بالحجة والبرهان . ثم أنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانات توحيدية . ويحظى ابن حزم هذا بالنصيب الأوفر .

وقد تجلت مقدرة المسلمين في علم البصريات . كذلك كانوا هم واضعي أساس علوم الاقتصاد والاجتماع والتاريخ . وقد شهد لابن خلدون بهذا السبق عشرات من علماء العصر الحديث .

ولقد أعلن الغربيون منذ وقت بعيد أنه لا يمكن لأحد أن يتخصص في علم الفلك ما لم يعرف اللغة العربية ، ومما يدل على تقدير علماء الفلك المعاصرين لخدمات العرب والمسلمين في هذا المضمار أن أطلقوا اسم أبي الفداء ، والبتاني على براكين القمر .

واليوم والمسلمون يتطلعون إلى عصر جديد من النهضة يلتمسون به استعادة مكانتهم ، فإن عليهم أن يعتصموا بمنهج القرآن فهو وحده الطريق الموصل . وكل الطرق فيما عداه مسدودة ، وقد جربوها فلم توصلهم ، بل ذهبت بهم إلى السراب والتيه ، وعليهم أن يلتمسوا الصلة الجذرية بين حاضرهم وماضيهم الإسلامي . هذه الصلة التي لم تنقطع يوماً واحداً خلال تلك الأربعة عشر قرناً . فإن وجودهم القائم هو ثمرة ذلك الماضي المتصل بذلك الجذر الأصيل ، جذر التوحيد الخالص المرتبط بالحنيفية السمحاء التي حمل لواءها إبراهيم عليه السلام . هذا التوحيد هو المنهج الذي لا يتخلف عطاؤه . فلا تدنو به وجهة كاملاً متوازناً موائماً بين العقل بفكره وتأمله ، وبين الوجدان بعاطفته وأشواقه . فإذا التزمنا هذا المنهج تجاوزنا كل الأخطار . لم تستطع تلك الدعوات المبطلة المتجددة اليوم على

أيدي دعاة التغريب والغزو الثقافي أن تحول بيننا وبين الأصالة المرتبطة بالتجدد والحركة والنماء . ذلك لأننا إنما نلتزم في كل قرار وكل نظرة منهجنا الرباني القرآني الذي لا يضل ، والذي هو بمثابة المنار الثابت الصادق النصيحة ، والذي يحمل الضوء الكاشف الذي يهدي إلى سواء السبيل .

إن منهج الأصالة الإسلامية الجامع الذي عرفه دعاة الإسلام على مدى التاريخ هو وحده الذي يعصم أمتنا في هذا الطور انتقالاً من اليقظة إلى النهضة . وهو الذي لا ينجرف بنا إلى عقلانية تنكر الوجدان ، ولا إلى وجدانية تنكر العقل . ولقد تجاوز المسلمون في العصر الحديث هاتين المرحلتين إلى منهج القرآن الكريم الجامع ، بعد أن أدى كل من هؤلاء وهؤلاء دوره في مواجهة الأحداث والأخطار . ولم يعد هناك اليوم إلا طريق القرآن الكريم ، ومنهج القرآن الكريم نبراساً لهذه الأمة في الخروج من كل الأزمات ، ومواجهة كل التحديات ، والدخول إلى ساحة النصر . وامتلاك الإرادة .

- ٢ -

العودة إلى الأصالة

تحاول كتابات كثيرة أن تعلي من شأن المأمون ، وتكيل الاتهامات والانتقاص للخليفة المتوكل الذي نصر السنة وكشف زيف المعتزلة .

وتتردد كتابات الغربيين من المستشرقين وتابعيهم من كتاب لتغريب بالإشارة إلى ما يسمونه الدور الخطير الذي قام به المعتزلة في تحرير الفكر الإسلامي . وقد حاول ذلك أمثال : أحمد أمين في كتابه « فجر الإسلام - وضحى الإسلام » . . بل إن مخطط الاستشراق قد دفع الطائفة الأولى إلى الكتابة عما سموه « عصر المأمون » من الشباب الذي تعلم في الجامعات . ومنذ ذلك الحين تتوالى هذه الكتابات التي تحاول أن تصور المأمون بأنه كان حر الفكر ، وكانت ندواته مفتوحة لأصحاب الأديان والنحل والمذاهب للمناقشة ، وأنه كان رحب الصدر وسمحا .

ولكن ما حدث من بعد كشف خلاف ذلك كله ، بل وعكس ذلك ، كشف عن أن المأمون كان على هوى الفكر الوافد ، وأنه آزر دعوة باطلة وظالمة ، هي دعوة خلق القرآن ، وحمل العلماء عليها بالقوة ، وترك في ذلك سنة سيئة امتدت في خليفتين بعده ، واستمرت سبعة عشر سنة ، وكان الإمام ابن حنبل هو الرجل الصامد المؤمن الذي قاسى المحنة واحتمل العذاب .

والحق أن المأمون من واقع تاريخه وأحداث حياته لم يكن على تلك الصورة التي يحاول تصويره بها الذين أعزوه بالتبعية لمحاولتهم الخطيرة ، وجندوه لها .

والواقع أن المأمون اشترك في أكثر من مؤامرة ، ووقع في أكثر من شرك

منها شرك المعتزلة ، وشرك ترجمة الفلسفة . والمعروف أن القاضي يحيى بن أكثم قاضي القضاة نهاه عن الاشتراك في محاولة المعتزلة . وقال له : الرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق . فإن ذلك أصلح في السياسة .

ولكن المأمون لم يلبث أن عزله ، وولى أحمد بن دؤاد عام ٢١٧ هجرية . وكان معنى هذا أن وقع المأمون في فخاخ المعتزلة بعد أن دخل إليه بشر بن غياث المريسي ، وزين له الاعتقاد بخلق القرآن . ومن ثم تسلط المعتزلة على المأمون فقال بقولهم ، وذهب إلى حد تأجيج نار الفتنة في مسألة فرعية جعلها على رأس المسائل ، وحمل إليها العلماء ، ولو كان كيساً فطناً واعياً على النحو الذي يصورونه به لتحاشي هذا الخطر . أما هو فقد خضع لابن أبي دؤاد ، ودخل مرحلة إرغام الناس على الرأي الخاطىء .

وتلك منقصة أخرى في شخصية المأمون الذي كان محتوى من الفرس والمجوس والطامعين في الخلافة من غلاة الشيعة . فمال إلى الأخذ بالعنف ، وإرغام الناس على الأخذ بما يعتقد ذلك أنه في عام ٢١٨ دعا إلى تسخير قوة الدولة في حمل الناس على القول بخلق القرآن . وأرسل كتاباً إلى والي بغداد أبو إسحاق بن إبراهيم ، طلب منه امتحان القضاة والمحدثين في مسألة خلق القرآن . كما أمره أن يأخذ على القضاة العهد بأن لا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن اعتقاداً منه أن القاضي لا يوفق في قضائه .

والشاهد لا يوفق في شهادته إلا إذا كانت عقيدته على هذا النحو ، بل إنه أوصى أخاه المعتصم في كتاب العهد الذي صار به خليفة بتأييد رأيه في خلق القرآن ، ولم يكن لدى المعتصم من العلم ما يجعله يدلي برأي في هذه المسألة . وقد ظلت هذه القضية قائمة كفتنة كبرى حتى جاء المتوكل عام ٢٣٢ فقضى على نفوذ المعتزلة . وأظهر الميل إلى السنة والمحدثين وأعلى من شأنهم . ومن هنا كانت نقمة الاستشراق على هذ العودة إلى الأصالة .

والواقع أن الاعتزال في تقدير كثير من الباحثين يهودي المصدر . كذلك فإن الصلابة التي وقف بها الإمام أحمد بن حنبل ما تزال موضع تقدير المؤرخين .

فكيف يقال إن العودة إلى الأصالة يعتبر ضعفاً أو نقصاً أو قصوراً . وقد كان طابع الفكر الإسلامي في مختلف أدواره قادراً على مقاومة الدخيل والتماس المنابع . وقد حدث هذا بالنسبة للاعتزال . وبالنسبة للفلسفة . وبـالنسبة للتصوف الفلسفي . ولكل الدعوات الضالة التي حاولت أن تخرج الإسلام من أصالته . وكان الإمام الشافعي مقاوماً للفكر الهيليني . وكان الإمام أحمد بن حنبل مقاوماً لفتنة خلق القرآن . وكان الإمام ابن تيمية مقاوماً لكل هذه الفرق الضالة الزائفة . ولقد أظهرت هذه المحن رجال كثيرون صمدوا في الميدان منهم : عبد العزيز بن يحيي الكتاني تلميذ الشافعي الذي قصد من مكة إلى بغداد ، وواجه الموقف وهو على أشده ، وانتصر على المعتزلة .

كذلك فقد ارتبط عصر المأمون بخطر آخر هو : فتح باب الترجمة للفلسفات ، وخاصة الفلسفة اليونانيـة التي تسمى فلسفة الأصنام ، والتي تقوم على مفهوم وثني خطير . وقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية ، وإلى جزيرة قبرص وكاتب امبراطور الروم بشأن إرسال كتب الفلسفة . وانحرفت حركة الترجمة التي كانت قائمة أيام الرشيد على ترجمة الطب والعلوم الطبيعية والرياضة إلى ترجمة الإلهيات الوثنية . ولقد دفع هذا الاتجاه أحد علماء الدين المسيحيين حين قرأ امبراطور الروم رسالة المأمون في طلب الكتب القديمة حين قال : الرأي أن تعجل بإنفاذ الكتب إلى الخليفة ، فإن هذه العلوم ما دخلت دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها .

وكان هذا تلخيصاً صحيحاً للقرون الثلاثة التي تلت عملية الترجمة ، فقد أحدثت اضطراباً شديداً في الفكر الإسلامي لم ينج منه إلا بقوة القرآن الكريم نفسه الذي حمى الفكر الإسلامي من التبعية للفكر الهليني أو الغنوصي على النحو الذي سقط به الفكر المسيحي والفكر اليهودي من قبل . وكان من أخطر تبعات المأمون في هذا الصدد أن جاء بحنين بن إسحاق النصراني على مذهب النسطوري ، فسلمه هذه العملية فعمد هو وإخوانه إلى إفساد الترجمة وإدخال مفاهيمهم النسطورية المسيحية . كذلك فقد خلطوا بين تراث أفلاطون وتراث أرسطو .

وكان أسوأ ذلك كله أن كان حنين بن إسحاق يكتب ما يترجم على رقاق

سميكة . ذلك لأن المأمون كان يزن له ما يكتب ذهباً وكان يوسع الكتابة على الرقاق حتى يحصل على أكبر قدر من المال في نفس الوقت الذي يفسد فيه ما يترجم ويجعله دعاية لدينه .

لقد تكشف في السنوات الأخيرة فساد هذه الترجمات وهدفها الذي قصد إليه النساطرة الذين استقدمهم المأمون . والواقع أن هناك إجماع على القول بأن إدخال المأمون للفلسفة الإلهية إلى الفكر الإسلامي هو الذي أسقط الحضارة . فقد كان طابع شؤم ، ونذير سوء إيذاناً بزوال سلطان العرب . ولقد كان من أثر ذلك تلك الخطوة التي خطاها المأمون بالتوسع في الترجمات الفلسفية ، وعهده في ذلك إلى محترفي الترجمة السريان ، قد فتح الباب واسعاً أمام الشبهات ، فشاع في زمنه الشك ، وراج الباطل ، وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحية تحمل في طياتها جراثيم المذاهب المختلفة ، والنحل المتعارفة ، وظهرت الفرق التي كادت تؤلف بآرائها وعقائدها أدياناً جديدة ، فلم يلبث الدولة إلا قليلاً حتى حطت عليها جحافل المغيرين من التتر والمغول ، فقوضت دعائمها وكان الكثير من أتباع هذه الفرق أعواناً للمغير على تحقيق هذه الغاية ، وخسر العرب عقيدة الإيمان الفطري وقوة الاعتقاد النقي وتركوا الدين الحق إلى تلك الشبهات التي أثارها الفكر البشري ، والتي أيقظت الشك ، وأثارت الفتن ، وبلبلت الألسنة .

لقد كانت الدعوة إلى ترجمة كتب العلوم ، ولكن مخطط الغزو دفع إلى ترجمة كتب الفلسفة فأفسدت مفهوم الفكر الإسلامي ثلاث قرون . لقد بدأ أول الشر من الاعتزال والترجمة .

وكانت الضربة القاضية هي سقوط بغداد تحت سنابك خيل المغول والتتار ، ولم يصلح المسلمون حالهم إلا عندما عادوا إلى مفهوم أهل السنة والجماعة .

فهل يمكن أن يقال أن العودة إلى الأصالة هو نقص أو ضعف أو تخلف على نحو ما يصور كتاب التعريب عصر المتوكل . عصر السنة الذي انخذلت فيه دعوات الغزو من فلسفية ، ومعتزلة ، ومجوسية ، وتصوف فلسفي ، وأوهام .

نحن لا نبرىء المأمون من هذه التبعية الخطيرة بالرغم من صورة النهضة والحضارة التي عرفها عصره .

إن العودة إلى الأصالة عام ٢٣٧ حين جاء المتوكل ومعه اعتدال الميزان أقوى من تلك الصورة المزخرفة التي يوصف بها عصر المأمون . لقد انتقم الله تبارك وتعالى من ابن أبي دؤاد انتقاماً شديداً . فأصيب بالفالج ، وصودرت ضباعه وأخذ من ولده مالاً بلغ مائة ألف وعشرين ألف دينار ، وجواهراً بأربعين ألفا . وعادت السنة إلى مكانها ، وعاش أحمد بن حنبل بعد عزل أبن أبي دؤاد أربعة أعوام يشاهد تقلص نفوذ وثراء وغنى هؤلاء الذين طمعوا في أمر الدنيا وخرجوا عن جوهر الدين . ولقد تبين منذ أيام الواثق أن المؤامرة فاسدة ، وأن الدعوة باطلة . وقد جوبه الواثق بحجة دامغة ، ودعت ابن أبي داؤد وأعادت للخليفة صوابه وصرفته عن متابعة الأذى بسببها .

كانت الكلمة التي تصدع الآذان عصرا بعد عصر : القرآن الكريم كلام الله غير مخلوق .

امانات الكاتب المسلم

على الكاتب المسلم أن يعطي القراء ما يحتاجون إليه ، وليس قصاراه أن يعطيهم ما يرغبون فيه . إن على الكاتب المسلم أن يكشف لقرائه عن خلفيات الأحداث ، بأمانة وصدق . وأن يطلعهم على واقع التاريخ ، ويجمع لهم من شظاياه وشطائره ما يمكن أن يعطي زاداً في مواجهة تحديات التغريب والغزو الثقافي .

كانت خطة جمال الدين الأفغاني كما سجلها الشيخ محمد عبده : أنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها وتهيئتها للقيام على شئونها حتى تلحق بالدول القوية ، فيقوم للإسلام شأنه . وللدين الحنيف مجده ، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الشرق ، وتقلص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية . . وكان إيمانه بالوحدة الإسلامية قائماً على أساس أن يتلاقى ويتجمع في رباط سياسي واجتماعي . وليس قيام دولة واحدة تضم الجميع .

كان مفهوم الدعوة إلى الوحدة العربية في أول الأمر مفهوماً إسلامياً أصيلاً جامعاً بين العروبة والإسلام ، وكان أبرز هؤلاء الدعاة : محب الدين الخطيب ، رشيد رضا ، شكيب أرسلان . وكان هذا مفهوم جميع رجال حركة اليقظة الإسلامية .

أشارت جريدة التيمس اللندنية إلى أن الإسلام يتقدم بخطى سريعة في غرب إفريقيا حتى أن بعثات التنصير والأوروبيين على السواء يواجهون قلقاً شديداً

مما يترتب على انتشار الإسلام في المنطقة كلها . وقالت التيمس : وكان الاعتقاد قديماً أن الإسلام هو دين شعوب الصحراء . وقد يتقدم إلى الحضر . وما كان أحد يصدق أنه يستطيع أن يخترق المناطق الاستوائية ، وأن يصل إلى الجنوب ، كما حدث في سيراليون ، وساحل العاج ، والداهومي .

ويختلف الغربيون في اتجاههم الفكري نحو مستقبل الإسلام في إفريقيا . فمن قائل أن تقدم الإسلام لن يضر بالمصالح الاستعمارية ما دام يسير في الخطوط التي رسمها له الإسلام . بينما يرى آخرون ضرورة الحد من تقدم الإسلام عن طريق نشر البدع والخرافات ، حتى يكون هذا بمثابة حائل يقف أمام ضغط الإسلام المتزايد .

يقول : أحمد فارس الشدياق في كتابه : المخبأ عن فنون أوروبا ، من أنه كان يعرب التوراة أثناء وجوده في انجلترا ، وكان يشرف على الترجمة قسيس إنجليزي يعرف شيئاً من الدين ، وكان كلما كتب الشدياق جملة فصيحة ، سارع إليه القسيس ومسحها ، واستبدل بها جملة ركيكة . وهكذا كان القسيس يقف أمام الشدياق ليبدل الجملة الرفيعة الأسلوب بجملة ساقطة . فإذا سئل القسيس عن الهدف من وراء ذلك أجاب بأنه إنما يريد أن يباعد أسلوب التوراة وأسلوب القرآن .

عندما انحرف الفكر الإسلامي نحو الاعتزال ظهرت « السنة » قوية حية عملاقة واعية إلى التكامل حتى لا ينحرف الطريق . وعندما ظهر التصوف الفلسفي واتسع نطاقه ، وحمل معنى الجبرية ظهرت دعوة التوحيد تحمل لواء العودة إلى المنابع الأولى .

من أخطر الظواهر التي تجدها عند الكتاب الشعوبيين والزنادقة ، وخصوم الإسلام ظاهرة التمويه والمراوغة : تجدها عند المعري ، وابن عربي ، وطه حسين . وتتمثل في محاولة قول أشياء معينة بصورتين : صورة الإيجاب ، وصورة السلب . وتكون متعددة في السلب ، ولكنها تحاول أن تكون وسيلة للإعلان عن النفس في حالة الاتهام ، وهي محاولة لقول أشياء معينة واضحة قويمة ، لتكون رداء للآراء المسمومة ، والأفكار المنحرفة . ومن هذه الكلمات المصنوعة يجد الكاتب أو من

يدافع عنه أدلة تخدع الذين يريدون أن يكشفوا زيفه . ولم يحافظ أبناء إسرائيل على عهد الله . فنقل الله الملك والنبوة والكتاب والحكم إلى أبناء إسماعيل في محمد ﷺ ، وكشف عن أن بني إسرائيل عجزوا عن حمل الأمانة ، وأفسدوا في الأرض ، وأعطى الله تبارك وتعالى الرسالة الخاتمة للعرب ، وكلفهم بأمرين :

(١) - القيام على أمر الله بالرحمة والعدل والخلق .
(٢) - تأييد الحق ومعاداة أعداءه ومخاصمتهم ومجابهتهم .

كان هؤلاء الكتاب قناطر للفكر الغربي :

ساطع الحصري : حمل محاولة فصل العروبة عن الإسلام .
علي عبد الرزاق : حمل محاولة فصل الدين عن السياسة .
طه حسين : حمل لواء فصل الأدب عن العقيدة .

وقف الإسلام أمام غنوص الشرق (فارسياً - أو هندياً) كما وقف أمام غنوص الغرب (أفلاطونية المحدثة) موقف العداوة والبغضاء يجالدها أشد مجالدة وأعنف جهاد . . إن كثيراً من الإسرائيليات تسرب إلى بعض كتب التفسير فشوه صفحاتها الوضاءة ، كما أن فيضا من الأساطير تدفق عليها وعلى كتب الملاحم والمغازي . فالتبس فيها الحق بالباطل . والواقع بالخرافات .

يقول الإمام أحمد بن حنبل : ثلاثة لا أصل لها - التفسير ، والملاحم ، والمغازي . أي أنها ليست لها أسانيد صحيحة متصلة . يقول أدولف هتلر في كتابه : كفاحي : مما زاد نقمتي على اليهود تكالبهم على جمع المال بجميع السبل الملتوية . وقد لمست الحقائق التي لا تخطر ببال للدور الذي يمثله اليهود في ترويج سوق الدعارة . والاتجار بالرقيق الأبيض . هذا الدور الذي يؤديه اليهود بمهارة ولم يتنبه إلى خطورته الشعب الألماني إلا في الحرب العالمية الكبرى . أما أنا فقد شعرت بالغثيان حين اكتشفت أن اليهودي هذا المخلوق الضعيف هو الذي يستثمر البغاء السري ، ويحوله إلى تجارة رابحة .

ويقول : بعد أن تكشفت لي حقيقة اليهود انكببت على دراسة نظريات قادتهم ، فوجدت نفسي أمام عقيدة مبنية على الحقد والأنانية - عقيدة يعني انتصارها هزيمة للبشرية ، وما لبثت أن اكتشفت الصلات الوثيقة بين هذه العقيدة الخطيرة

والمبادىء التي يدعو إليها اليهود ، وأدركت مع الأيام أن أهداف الحركة الاشتراكية الديمقراطية هي نفسها أهداف اليهود كطائفة ، واليهود كنظرية ، والصهيونية كحركة سياسية .

دعا جارودي الشيوعيين العرب إلى أن يدخلوا في الإسلام ظاهرياً ، ويحاربوه من الداخل بتقويض أركان منظماته . يقول قدور الوطاسي : إن لدى قادة الحضارة الأوروبيه تصميما لتمزيق رقعة الإسلام من طرفها الغربي طنجة وطرفها الشرقي باكستان ، ووسطها فلسطين . ومن ثم تنهال عليها معاول الأيديولوجيات التي أخذت تغزو البيوتات . إنهم يرون أن إسرائيل هي الغاية البعيدة الموجودة وراء هذه المناورات ، وهي إيقاف المد الإسلامي .

إن دوجول بعد الهزيمة الفرنسية حاول الانتحار ، وأرسل يطلب الراهب الذي يعترف عادة لديه ، فقال له معللاً ما عزم عليه ، أن أوروبا الغربية الآن تنهار أمام النازية . . ومعنى هذا انهيار الحضارة النصرانية بصفة نهائية . وهناك في الصين شعب قوي نسميه الخطر الأصفر ، ولكني لا أعتقد أن يكون البديل الصحيح ، فالحضارة الصينية لا تبلغ درجة حضارتنا المسيحية ، ولكن الذي أخاف منه هو هذا الخطر الذي يمتد من طنجة إلى كراتشي : إن الإسلام ذو حضارة وثقافة ، وهو جدير بأن يكون الوارث لنا .

يقول فؤاد حسنين : إن موقف أوروبا منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد كل البعد عن الإنصاف والعدالة . كان الشعور السائد هو إنكار حق كل فرد يخالف الأوروبيين عقائدياً . كان مبعث هذه النظرة الظن في أن الاعتراف بالفضل للمسلمين خطر يهدد العقيدة المسيحية . هذه النظرة الأوروبية دليل قوي على ضيق أفق الأوروبيين . لقد كان ظهور النبي محمد ﷺ ودين الإسلام ان أهم عوامل في تقويض أوروبا . وذلك بأن بعث في العرب روحاً جديدة ، فلم تمض أعوام قلائل حتى تدفقت القبائل العربية في موجات متلاحقة غامرة على شاطىء البحر المتوسط ، ولم تقف عندها . بل واصلت زحفها حتى بلغت المحيط الأطلسي . وهكذا نجد العرب ينتزعون شرق وجنوب وغرب العالم القديم من حالة الركود والجمود ، ويهيئون السكان لحياة أفضل بعد أن ظلوا قرابة ألف عام يتيهون في بوادي الجهالة .

انتصرت الفطرة التي جاء بها الدين الحق

ليس غريبا أن يكون العالم المعاصر كله قد عاش خاضعاً لسنوات طويلة لمسلمات كاذبة ومضللة فرضتها عليه قوى التغريب والغزو الثقافي استمدادا من شبهات يذخر بها الفكر البشري من باب فرضيات وصل إليها بعض الفلاسفة ، أو المتسربلين بمسوح العلم خضوعاً لسموم مدفونة عجزوا عن كشفها تستهدف تدمير الإنسان . وقد ظلت هذه السموم تعمل عملها لأن ما وصل إلينا من كشوف حديثة ، لم يمكننا من الوصول إلى الأسلحة المضادة التي تدحض فساد هذه الدعاوى مع أن عقيدتنا الربانية بأصالتها وعمقها واستلهامها الصادق للأمور كانت تعطينا دائماً الدليل الذي لسنا في حاجة بعده إلى دليل على فساد تلك الأفكار الوافدة .

إن حقائق كثيرة كشف عنها الإسلام من روح الفطرة استطاعت أن تنفذ إلى ساحة العلم رغم أنف دعاة المادية والعلمانية والإلحاد لتفرض نفسها ، ولتكشف زيف دعاواهم وبطلانها

إن هناك مجموعة من هذه الشبهات التي ظل دعاة التغريب يرددونها على أنها حقائق حتى باتت في نظر البعض مسلمات وهي في الحق مسلمات كاذبة ، لأنها بالرغم من مظهرها العلمي الخادع ، فهي لا تؤكد الفطرة ، ولا توازي العلم الصحيح . ومع الأسف فقد خضعت لها أعناق البشرية فأذلتها وأخرجتها عن مفاهيم الأصالة التي قدمها الدين الحق عن طريق الفطرة وأسلوب العلم الحقيقي .

فإذا ذهبنا نحصي هذه المسلمات الخاطئة لوجدناها كثيرة جدا ، ولوجدنا من ورائها سوق نافقة ، ودعاوى عريضة ، وقوى تزفها ، وتدق لها الطبول حتى لا ينكشف زيفها ، وأساليب براقة تحجب فسادها ، ومحاولات متصلة لتجديدها ، وإصلاح ما يعتوره الفساد منها وما يتعارض مع تحولات الزمن والبيئات .

غير أن الباطل لا يستطيع أن يعيش طويلا ، والزيف لا يمكن أن يثبت أمام الحق الواضح الصريح المتوهج المضيء دوماً . وذلك أن التجارب البشرية التي صاحبت العلم لم تلبث أن كشفت فساد هذه الأمور الباطلة ، وردت الإنسانية إلى مفهوم الفطرة قليلا قليلا ، وفي عشرات الميادين ، وباء أصحاب الفلسفة المادية بالخزي والبطلان .

ولا ريب أن ما تصحح به التجربة البشرية اليوم تلك المفاهيم لهو دليل جديد على صدق ارتباط العقيدة بالفطرة وسلامتها ، ورفضها لكل ما يتعارض مع طبيعة الأشياء مهما طال مطال التضليل والخداع ، وهو دليل أكيد على الوجهة التي لن تلبث البشرية طويلا أن تطرق بابها ، وهي وجهة الإسلام بضوء القرآن الكاشف ، أو بعبارة العلامة : وحيد الدين خان حين يقول : إن التجارب البشرية قد أوصلت الإنسان إلى باب الحق ، وليس لحاملي القرآن الكريم إلا أن يفتحوا هذا الباب المغلق لتدخل القافلة البشرية إلى عالم الرحمة الإلهية حيث ربهم لهم منتظر ، ولدينا عدد من النماذج التي نقدمها في هذا المضمار .

وفي مجال الأيديولوجيات المتصارعة الآن في العالم يبدو واضحا ذلك القصور . قصور العقل البشري بالنسبة لمعطيات هذه المذاهب ، فهي لا تستطيع أبدا أن تصل إلى الحقيقة كاملة . وإنما يقف عند جزئية منها سواء في شأن الرأسمالية أو شأن الماركسية ، أو الاشتراكية ، فكلها عاجزة قاصرة ، وذلك لأن هذه المذاهب قامت في الأساس على القيم المادية وعجزت عن أن تستوعب القيم الروحية . ومن ثم فقد عجزت أن تصل إلى المصدر الحقيقي لحل مشكلة المجتمعات .

يقول ماركس : إن الرأسمالية تقوم على الاستغلال ، ولكن هل الاستغلال هو كل شيء . وهل استطاعت الماركسية أن تقضي على الاستغلال . إن الماركسية

نفسها فرضت الجبرية الاقتصادية ، وهي لا تقل بشاعة عن الاستغلال والعيب هو أن العلاج الرأسمالي للمجتمعات مادي الأصل ، فهو لا يحل مشكلة الأخلاق ، ولا يرد الإنسان إلى إنسانيته إلى فطرته . وكذلك الحل الماركسي يعجز عن ذلك من ناحية أخرى لأنه مادي المصدر أيضا ، إن كلا النظامين في حكم التطبيق اليوم فاسدان ، لأنهما يعارضان الفطرة بوجه من الوجوه. إن النقص الواقع فيهما معا هو إهدار الجوانب الإنسانية ، والروحية والأخلاقية ، التي لا يقدمها سوى دين الله الحق، التي يقدمها الإسلام .

يقول الدكتور إبراهيم دسوقي أباظة في هذا المعنى : إن الاستغلال شعور مصدره النفس عندما تتحرر من ضوابطها الروحية فتسقط في أسار المادة . وتحيل الإنسان في النهاية إلى عبد يتحرك بوحيها . ويحكم بقوانينها . فتلك الجبرية الاقتصادية التي سقطت فيها الماركسية ، وهي لا تقل بشاعة وظلما عن الجبرية المادية التي سقطت فيها الرأسمالية ، فكلاهما رغم تباعد الشقة مردود إلى نبع واحد هو : النبع المادي ، ولن يخفى الاستغلال إلا بعودة الإنسان إلى إنسانيته إلى ارتداده ، إلى فطرته التي جعله الله عليها ، والاعتراف بتركيب الإنسان الحقيقي . أي بأنه مادة وروح ، فكما أن له في المادة ضرورة ، فإن له في الروح ضرورة . وكل نظام يبنى على أساس المادة وحدها فهو نظام فاسد مهما كانت دقة تنظيمه .

فإذا جاوزنا الفكر السياسي إلى الفكر الاجتماعي وجدنا الحقائق واضحة تماما . لقد عجز القانون الوضعي أن يحقق هدف الأمن للنفس أو للمجتمعات ، لأنه من صناعة البشر والبشرية ، ولأنه بعد تجربة ضخمة واسعة لأكثر من أربعة قرون تعود مرة أخرى لتسأل : هل للإنسان أن يشرع للإنسان .

يقول اللورد اكتون : إن دروس وتجارب التاريخ البشري كله ، تشهد بأن الإنسان يظلم ويفسد حين يحصل على السلطة المطلقة ، والطبيعة البشرية تؤكد على أن الإنسان يستطيع أن يعيش حياة صحيحة تحت إشراف سلطة أعلى منه ، بينما السلطة المطلقة تفسده لا محالة .

ويقول في هذا المعنى البروفسور ب. ف. سكينر : إن تصميم الإنسان لا يسمح له بتحمل الحرية الكاملة . وأن الشيء الذي يناسب الإنسان ليس الحرية بدون حدود بل (الترويض المنظم) ، فهذا ما يطابق الطبيعة البشرية .

إن كل ما حرمه الدين وحلله القانون الوضعي كان مضادا للفطرة ، ومصدرا للأزمات البشرية . وفي هذا يقول العلامة وحيد الدين خان : إن القانون الإلهي حرم الربا ، بينما أجازه القانون الوضعي باعتباره صفقة تجارية وقد اثبتت تجربة التاريخ صحة القانون الإلهي ، وبطلان القانون الوضعي فبسبب تحريم الربا استمر الاقتصاد الإسلامي لمدة ألف سنة بدون أن تظهر طبقة فاحشة الغنى ، وأخرى فاحشة الفقر . وأن النظام الاقتصادي الحديث القائم على الربا هو أول نظام من نوعه أنشأ الوضع الاقتصادي القلق في المجتمع بتوزيع الثروات بطريقة غير عادلة . وهذا النظام عاجز عن حل هذه المعضلة .

وكذلك مما عارض الفطرة محاولة الفكر الغربي المادي تبرير الجريمة ، ونسبتها إلى التركيب البيولوجي للإنسان . وبذلك لا يعاقب المجرم . وذلك معارض تماما لمفهوم الدين الحق ، الذي قضى بأن يحتمل كل إنسان تبعة أعماله ، وجزاء تصرفاته ، حيث تقوم نظرية العقوبة في الشريعة الإسلامية على أساس حرية الاختيار التي تقسم بها أفعال الإنسان ومسئوليته عنها . غير أن محاولة الفكر البشري في القول بغير هذا ، كانت له نتائج خطيرة وبعيدة المدى في استشراء الفساد ، وتعاظم الجريمة . لقد كانت النظرية التلمودية في علم الجريمة التي قالت بأن الجريمة ليست عملا متعمدا . بل هو اضطراري . وأن سبب الجريمة يكمن في أحوال المجتمعات والأمراض العقلية ، والعصر المادي ، والمطالبة باعتبار المجرم مريضا ومعالجته بدلا من معاقبته من أخطر التحديات في وجه القانون الإلهي والفطرة . وقد مضت المجتمعات الغربية في احتضان هذه الدعوى الباطلة زمنا . ثم تبين لها إفساد هذه النظرية ، وأوضحت البحوث والتجارب فساد هذا التجاوز الخطير . فقد اتضح كما يقول العلامة وحيد الدين خان : أن الناس في المجتمعات المزدهرة والصحية أكثر ميلا إلى اقتراف الجرائم منهم في المجتمعات الفقيرة وغير الصحية . لقد أخفقت التدابير العلاجية في الحيلولة دون الجرائم . بل لقد ارتفع معدل الجرائم في الدول التي سلكت سبيل التخفيف في العقوبات ، واضطرت دول كثيرة إلى إعادة حكم الإعدام بعد أن رفعته لكثرة الجرائم . وأخيرا قال العلماء أن كون القتل يستوجب عقوبة الإعدام للقاتل هو بمثابة عملية ردع عظيمة لا تستطيع البشرية أن تنفك عنها .

ومن هذه المحاولات ما عملت الحضارة الغربية على انتزاعه من الفطرة ، وسنن الدين الحق ، وهو علاقة الرجل بالمرأة . فحيث يقرر الإسلام أنهما يكملان بعضهما البعض، وأن لكل منهما رسالته حاولت الفلسفات المادية القول بأنهما متساويان . وقد عمدت إلى هدم مهمة المرأة الحقيقية مهمة الأسرة والبيت ، ورعاية الطفولة . ولقد ذهبت أوربا ، وذهب الغرب وراء هذه المحاولة الخطيرة ردحاً طويلاً حتى تكشفت له أخيراً تلك النتيجة الصارخة . انحلال الأسرة ، فضلا عن أن المرأة لم تستطع أن تحقق لها وجوداً موازيا للرجل أو مساوياً له . فقد عجزت الفطرة عن أن تحقق ما ليس منها ، ولم تستطع المرأة الحلول محل الرجل في أي مجال من مجالات اختصاصه ، وجاءت الأبحاث العلمية لتكشف صدق وجهة نظر الدين الحق ، فأثبتت أن هناك فروقا عميقة بين تكوين الرجل ، وتكوين المرأة فروقا بيولوجية ونفسية ، وأن تصميم كل منهما مختلف . وأن هذا التصميم أريد به مهمة خاصة مختلفة ، وتبين فساد مذهب المساواة .

لقد استفاقت أوربا على الحقيقة بعد النتائج الخطيرة ، والآثار البعيدة المدى من مشكلة الأولاد المحرومين من تربية الوالدين واستشراء الزنا واللقطاء ، والبيوت المنهارة بسبب الاختلاط ، وحوادث الطلاق ، وتمزق الأسرة ، وظهور أردية التحلل والغربة ، والتمزق النفسي . جاء كل هذا الذي يسمونه أزمة الإنسان الحديث نتيجة تجاوز الفطرة في مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة . حتى قال الباحث الكبير : إن هناك حقيقة خطيرة ، هي أنه قد انفرط عقد المجتمع الإنساني كله بسبب تحطيم التوازن الطبيعي بين الرجل والمرأة . ذلك أن الإنسان في حاجة إلى علاقات الأب والأم والأخ والأخت والزوجة والأولاد .

وهكذا نجد أن مجال الفكر السياسي ، والفكر الاقتصادي والفكر الاجتماعي الغربي تجاوزات خطيرة تحاول أن تقتحم الفطرة الإنسانية إلى انطلاقة محمومة ، ولكن عصارة التجربة تؤكد ذلك الحصاد الضخم من الفساد والتدمير الذي أصاب المجتمعات ليعود الباحثون من جديد ، فيؤكدوا أنه لا سلام للبشرية إلا عن طريق الدين الحق الذي هو مؤازرة الفطرة .

جاء الغزو بعد الغفلة عن المرابطه والاعداد

ما تزال المرحلة التي عاشتها الأمة الإسلامية في مجالدة النفوذ الأجنبي ، ومقاومة الاستعمار موضع دراسة ومراجعة وتحليل . هذه المرحلة التي بدأت عام ١٨٣٠ تقريباً باحتلال فرنسا للجزائر ، والتي استمرت حتى استكمل الاستعمار الغربي إطباقه على العالم الإسلامي في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ . وقد كانت المرحلة الأولى من هذا النفوذ ، وهي مرحلة عسكرية غازية ، قد قوبلت بنضال عسكري حمل لواءه رجال أبطال قاموا في سبيل إعلاء كلمة الله ، وتحرير الأوطان ، وكان من أبرزهم : أحمد عرابي في مصر ، والأمير عبد القادر في الجزائر ، وعبد الكريم الخطابي في المغرب ، ومحمد شامل القفقاسي في تركستان ـ وأحمد عرفان في الهند . لقد تقدمت الأمة الإسلامية إلى المقاومة بأسلحتها القليلة إزاء أسلحة الغرب الضخمة ، واحتشدت بالأجساد في سبيل المقاومة وقدمت شهداءها . . وكادت تظفر بالنصر ، لولا التآمر الذي كان سلاح الاستعمار الحقيقي للقضاء على هذه القوى المجاهدة المؤمنة بالله ، والمدافعة عن العرض والأرض . ولذلك فقد كانت هزيمة أحمد عرابي ، وعبد الكريم الخطابي وعبد القادر الجزائري ، ومحمد شامل : ليست إلا عن طريق التآمر والغدر وحده . وأن هؤلاء الأبطال لو واجهوا المعارك مواجهة متحدة صريحة لهزموا النفوذ الأجنبي . وأزالوه . ولكن هذا النفوذ استعمل سلاحا خطيراً هو التآمر ، واصطناع بعض ضعاف النفوس لمعرفة الخطط ، والقواعد .

وقد أعلن كرومر في مذكراته أنه لولا المؤامرة لما هزم عرابي . وكذلك الأمر

في شأن المقاومة الباسلة التي قام بها الأمير عبد القادر سبعة عشر عاماً في وجه النفوذ الفرنسي الزاحف على الجزائر . أما المقاومة التي قام بها الشيخ شامل في وجه الزحف الروسي ، فقدكانت فوق ما يتصور العقل من الإصرار والاستقامة . كذلك كان الأمر في موقف عبد الكريم الخطابي .

ولكن الاستشراق يحاول في كل حين أن يزيف الحقائق ، وأن يصيب هذه الأسماء الكريمة برشاش من الشك . . وليس هناك ما يمكن أن يوجه إلى هؤلاء الأشاوس الأبرار ، إلا أنهم ما كانوا يعرفون أسلوب السياسة بأكاذيبه وأباطيله ومناوراته ومحاولاته الخادعة فهم قد آمنوا بأن العدو الذي هاجم البلاد هو العدو ، وأنه لا سبيل إلى التفاهم معه في شيء إلا بإجلائه أولا . وهو أسلوب كان مزعجا للنفوذ الأجنبي الذي كان يريد أن يجد من يمكنونه من أغراضه ، من الخونة طلاب المغانم الذين دلوا العدو في حرب أحمد عرابي على مواقع الجيش ، أو تآمروا على الأمير عبد القادر ، أو خانوا شامل أو الخطابي .

وسيظل هذا الجيل من المجاهدين موضع تقدير مهما يقال عن قصور معلوماته ، أو عدم قدرته على مواجهة ذلك الهول الوافد الخطير ، فإنه ضحى بنفسه ، وقدم شهدائه ، ومات واستشهد دون أن يستسلم .

ولقد حرص الاستعمار ، وقد عجز عن أن يقضي على هؤلاء الأبطال ، فإنه عمل على نفيهم من أوطانهم ، فنفى عرابي وعبد الكريم ، وعبد القادر عن أوطانهم .

هاجم عرابي بريطانيا في التل الكبير في مصر .

هاجم عبد الكريم فرنسا في ريف المغرب وفي معركة أنوال .

هاجم عبد القادر فرنسا في الجزائر .

هاجم شامل النفوذ الروسي القيصري في القرم .

هاجم عرفان بريطانيا في الهند .

لقد استمر عبد القادر سبعة عشر عاما حتى حطم الاستعمار خطوط

تموينه ، وحصره حصاراً شديدا . . كذلك قاوم شامل جيوش قيصر روسيا زهاء خمسة وعشرين عاما .

يقول عبد القادر القادري : إن الإمام محمد شامل القفقاسي كان على نمط الأمير عبد القادر الجزائري . خرج من المشيخة إلى الأمارة ، وتناول السيف عن طريق القلم حيث كان من أتباع الحركة النقشبندية التي أسسها محمد البخاري ، فانتشرت في الصين ، وتركستان ، والقفقاس ، وقازان ، وتركيا .

وكان الأمير عبد القادر الجزائري من أتباع الحركة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجزائري ، ولم تكن هذه الحركات في ذلك الوقت إلا معسكرات جهاد ونضال ومقاومة للنفوذ الأجنبي . وقد كان لها دورها في الحروب الصليبية في مصر والشام . ولقد ظل عرابي وعبد القادر وشامل يجاهدون حتى نفذ الزاد ، وفنيت المؤونة ، وأشرف المجاهدون على الفناء . فأخذ عرابي إلى سيلان حيث أمضى بها بضعة عشر عاماً ، ونقل عبد القادر إلى دمشق حيث عاش بها بقية عمره . أما الشيخ شامل فقد سمح له بالذهاب إلى المدينة المنورة حتى مات ودفن فيها عام ١٨٧١ ، أما الأمير عبد الكريم الخطابي فقد نفي في جزيرة رينو في المحيط الهندي ، ثم أتيح له أن يهرب إلى مصر ، فأمضى فيها بقية حياته .

هذه المرحلة من حياة العالم الإسلامي ، يمكن أن يطلق عليها مرحلة الجهاد المسلح غير المتوازن . فقد استيقظ عالم الإسلام من غفوته ، فإذا بالقوى الأجنبية محاصرة له ، وفي يدها أحدث الأسلحة بعد أن غفل عن حماية نفسه . ولذلك فإنه لم يكن من المعقول أن يستطيع المجاهدون كسب المعركة . . ذلك لأنهم لم يكونوا قد وضعوا أنفسهم حيث أمرهم القرآن الكريم بالمصابرة ، والمرابطة ، والإعداد للقوة التي ترهب العدو ، وتحول بينه وبين اجتياز ساحة البلاد الإسلامية . ولقد بدأت هذه المعركة قبل وقت طويل عندما هاجمت اسبانيا والبرتغال الشاطىء العربي الإسلامي لأفريقيا ، والمغرب ، والجزائر ، وتونس على أثر إخراج المسلمين الأندلسيين في محاولة السيطرة على هذا الشاطىء العربي الإسلامي . ثم جاءت مرحلة الاستعمار البريطاني والفرنسي . . هذه التي اتخذت أسلوب وضع الحبل في عنق العالم الإسلامي من أقصى نقطة وهي :

« كانتون » . ثم تنتظر حتى تعرف متى تستطيع أن تسيطر . وقد جرت المحاولة الأولى في بلاد الملايو . . (هولندا) والهند (بريطانيا) . وفي المنطقة الأمامية كان الغزو الفرنسي للجزائر هو أبرز هذه الأحداث وأشدها أثرا . فقد هزت المعركة الإمام محمد علي السنوسي الذي قام بجولات ضخمة إلى مختلف أجزاء المنطقة مستمدا من الدعوة الأولى : دعوة التوحيد في الجزيرة العربية أسلوب العمل ، وكان أسلوب العمل التربوي الذي قام به منطلقا لحركة اليقظة الإسلامية . . ولقد كان الجزائري والخطابي مجاهدان بالسيف ، وهما مع ذلك علماء فقهاء . وكذلك كان الشيخ شامل عالما قديراً . وكان عرابي من خريجي الأزهر الشريف ، هذه الطبقة التي أزعجت الاستعمار فعمل للقضاء عليها ، وخلق طبقة جديدة في نطاق الاستعمار ومفاهيمه ووجوده . هؤلاء الذين تعاملوا مع الاستعمار بأسلوب الأخذ والعطاء ، وقبول الواقع بأسلوب السياسيين لاجهاد المجاهدين . . وهذه هي الفكرة التي عمد الاستعمار فيها إلى بناء أجيال تؤمن به وتواليه ، وتعجب بحضارته . وكانت قدرة الاستعمار مع عجز القوى الوطنية عاملا هاما في فرضه القانون الوضعي بديلاً من الشريعة الإسلامية ، وأسلوب التعليم العلماني بدلاً من أسلوب التربية الإسلامية . وكذلك فرض أسلوب الاقتصاد التربوي عن طريق المصارف بديلاً من أسلوب الاقتصاد الإسلامي . كل هذا هو الذي خلق الأزمة الحالية أزمة التغريب والغزو الثقافي التي تحتاج إلى جهود ضخمة من رجال حركة اليقظة الإسلامية لتحرير الوطن الإسلامي كله من هذه التبعية ، والتماس منهج الأصالة المستمد من المنابع الإسلامية التي يمثل (القرآن الكريم) فيها حجر الرحى . ولذلك فإنه لا بد للمسلمين من العودة إلى طبيعة مجتمعهم الأصيل ، وهي قيام روح الجهاد الذي يعتمد على استيعاب التكنولوجيا الحديثة ، وصهرها في بوتقة الإسلام ، واللغة العربية ، حتى يكون عالم الإسلام قادراً دوماً على الدفاع عن نفسه ومواجهة أي قوى عدوانية زاحفة ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ .

إنه درس يجب أن لا نغفل عنه عندما فقد المسلمون أسلحتهم . هو أن الغزو جاء وقد غفلوا عن الثغور وتركوا سنة من أقوى سنين عقيدتهم، وهي المرابطة والإعداد .

عصر الاصالة الإسلامية

مع انبثاق فجر القرن الخامس عشر الهجري يتساءل كثيرون : هل نحن حقاً على أبواب الأصالة الإسلامية الذي يتمثل في العودة إلى المنابع .

إن حركة اليقظة الإسلامية منذ ظهرت بواكيرها في قلب الجزيرة العربية في نجد واليمن بالذات كانت علامة أن المسلمين بدأوا يدخلون عصراً جديداً من الأصالة التي كان يطلق عليها أنذاك (العودة إلى منهج السلف) الذي هو في حقيقته جوهر الإسلام كما عرفه الصحابة والتابعون . ذلك المفهوم الأصيل الذي يستمد مفاهيمه من جوهر التوحيد الخالص وهو نفس المنهج الذي حدده الإمام الشافعي حين وضع أصول الفقه، والإمام أحمد بن حنبل حين دعا إلى الاستمساك بمفهوم السنة الصحيح ، وحين رفض مفاهيم الفلسفات اليونانية والهندية والغنوصية التي حاولت أن تنفذ إلى السنة . حين قال (دلوني على شيء من كتاب الله) ثم جاء بعد ذلك ابن تيمية وابن القيم ، فصاغ هذه المفاهيم الحقة محرراً الإسلام من المذاهب والنحل والفرق التي حاولت أن تنفذ إلى الدين الحق ، ونقله من أسلوبه القرآني الأصيل إلى أساليب الكلام والفلسفات . . هذا المنهج الذي لم يتوقف عن أن يحمله المجاهدون جيلاً بعد جيل ، فلم يخل جيل من هؤلاء الدعاة الأبرار حتى جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد ، والشيخ الشوكاني في اليمن . فأنجح الله قصدهما ، فاستقر المنهج الإسلامي في القصر الحديث ديناً ودولة وروحاً وعقلاً ودنيا وآخرة .

ولقد حاول التغريب والغزو الثقافي أن يغض من شأن دعوة (التماس المنابع) بأن يطلق إسم الوهابية على دعوة التوحيد أو يطلق إسم السلفية على العودة إلى المنابع . ولكن هذه المحاولات قد باءت بالفشل . . ذلك لأن أي أمة تريد أن تنهض فإنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا ربطت حاضرها بماضيها ، وأن تلتمس من منهجها الأصيل سبيلها إلى النهوض . ولقد عملت دول كثيرة على ابتعاث تراثها . مع أن هذا التراث في حقيقته ليس إلا ركام من الأوهام والأساطير والخرافات . فكيف يخجل المسلمون من اقتباس تراثهم الذي هو ميراث الدهر ونور الحياة . . ذلك المنهج الرباني الخالد الذي قدمه الحق تبارك وتعالى للبشرية ليكون عامل نهوضها وتحضرها وتحررها من الوثنيات والأوهام ، وعبادة الفرد ليستطيع أن يقيم حضارة التوحيد الخالص على أنقاض حضارة الوثنية الفرعونية واليونانية والرومانية والفارسية التي قامت على عبودية القيصر والفرعون ، وتعدد الآلهة ، وعلى العبودية التي سحقت الناس حين وضعتهم موضع الأذلال والرقيق .

هذه الحضارة الإسلامية التي لم تلبث في القرن الخامس الهجري ، وهي لما تكمل بعد رسالتها . وقد هبت عليها أعاصير التتار والفرنجة والصليبيين بهدف سحقها وتحطيمها بعد أن قدمت ثمارها إلى الغرب عن طريق الأندلس حيث أنشأت المنهج العلمي التجريبي الذي هو أساس الحضارة الحديثة ، ولما استطاع المسلمون بتجمعهم حول قرآنهم أن يحطموا هذه القوى المغيرة . . لم تتوقف خصومة أعدائهم حتى وجدت منهم ضعفاً في القرن التاسع عشر الميلادي ، فاكتسحت بالغزو جحافل الإستعمار فأزالت خلافتهم ودولتهم الموحدة ومزقتهم ، وغرست إسرائيل في قلب وطنهم - رأس جسر النفوذ الغربي المتحالف مع الصهيونية والشيوعية - جميعاً على إحتواء هذه الأمة التي مد الله لها في العمر ، ومنحها من نعم التفوق البشري حتى بلغ عددها ألف مليون مسلم كما أنعم عليها بالطاقة والخامات ، وكشف لهم عن ذخائر الأرض لتكون قوة لهم على مقاومة العدو ، ولتكون في نفس الوقت حجة عليهم أن إنهزموا أمام القوى الغازية .

ولقد كان حقاً عليهم بعد أن جربوا مناهج الغرب بشقيه ، هذه المناهج والأيديولوجيات التي فشلت في أن تقدم للمسلمين والعرب أشواق النفس أو عطاء

النهوض أن ينبذوها كلية . وأن يتجهوا إلى منهجهم الرباني الأصيل الذي صدر عن القرآن الكريم عطاء البشرية الخالدة ، ونورها المستفيض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . ومن يستطلع أحوال العالم الإسلامي على أبواب القرن الخامس عشر الذي أوشك أن يشرق فجره ، يجد كثيرا من الإيجابيات التي توحي بأن المسلمين على طريقهم إلى بناء الشريعة الإسلامية منهج حياة ونظام مجتمع . . ولكن هناك سلبيات كثيرة ، وهناك قوى كبيرة تعوق هذه النهضة ، وتحول بين المسلمين وبين اتخاذ كتابهم منهج حياة لهم ، وهم يعرفون الآن بأكثر مما كانوا يعرفون قبل جيل أو جيلين ، تلك المخططات الخطيرة التي رسمت الاستعمار لتدميرهم وغزوهم والسيطرة عليهم . وقد كشفوا في السنوات الأخيرة حقائق كثيرة تدل على إبعاد تلك المؤامرة الخطيرة . ومن حقهم أن يأخذوا حذرهم حيث لا طريق لهم اليوم إلا طريق ربهم بعد أن فشلت كل المناهج . وتحطمت كل الأيديولوجيات . وليعلموا أن زعامة النبي ﷺ هي وحدها الزعامة الحقة للمسلم . فقد ثبت فشل كل زعامات الأهواء والدكتاتورية والاستبداد .

إن المثل الكامل للمسلم هو تلك الزعامة النبوية السمحة ، التي تعالت على كل المطامع والأهواء ، وما أنشأت من قادة يتبعون ذلك الطريق ، ويسيرون على ذلك النهج ، ويصنعون بأمتهم وأهلهم العدل والرحمة ، ويردون عنها عادية الخطر والفساد . لقد قدم الإسلام مفهوما للبطولة يقوم على بذل النفس خالصة في سبيل الله ، وفي سبيل حماية المقدسات (احرص على الموت توهب لك الحياة) . ويضحى بكل شيء في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا .

لقد فشلت تجربة الأقليات والقوميات ، ودعوات الديمقراطية والاشتراكية والماركسية في الشرق العربي ، وبات واضحا أن كل نظرية تفصل العرب والمسلمين عن تراثهم ، وتضعهم في نهج جديد منفصل عن تاريخهم وتراثهم وقيمهم وماضيهم هي نظرية باطلة ، ولن تصلح وإن طال بها زيف الدعاوى الكاذبة .

إن العروبة والإسلام متكافئان ، ولم يكن للعرب وجود حقيقي لولا الإسلام الذي صنع منهم أمة . والذي دفعهم إلى الآفاق . ولا ريب أن طريق

اليقظة الإسلامية اليوم أصبح مرجحاً للنصر بعد أن حرر المفاهيم من زيف التغريب والاستشراق والتبشير ، وكشف عن جوهر الإسلام الصحيح منطلقا من نهج القرآن نفسه ، لا من منهج الفلسفات ، ولا من مفاهيم الغرب .

ولقد تبين لقومنا الآن فساد تلك السموم التي ظل الغزو الثقافي يطرحها في أفق الإسلام سنوات بعد سنوات ، ويجد لها من الكاتبين بالعربية من يدعو إليها ويحمل لواءها . ويبقى أمام المسلمين شيء واحد هو : (الإرادة القادرة) على تطبيق المنهج الإسلامي ، وإقامة لواء الدعوة الإسلامية حتى يستطيع المسلمون أن يقدموا كلمة الله الحق إلى البشرية كلها بعد أن يكونوا قد طبقوها على أنفسهم ومجتمعاتهم .

إن أخطر ما يوجه إلى المسلمين اليوم هو احتواؤهم عن طريق الفكر والثقافة ، وعن طريق مناهج التعليم العام ، والجامعات ، وما يلحق بها من مراكز البحث العلمي ، مستهدفين تقييدهم بقيود التبعية للغرب أو للماركسية ، وعلى المسلمين العمل على تحرير الشخصية الإسلامية ، وإبرازها ، وعلى الصحافة الإسلامية الكشف عن معاقل أعداء الأمة الإسلامية داخل العالم الإسلامي كالمؤسسات التبشيرية ، وفي مقدمة ما يجب عمله التخلص من المصطلحات الأجنبية المعبرة عن تصورات ومصالح أجنبية غريبة عن كيان الأمة الإسلامية وعقيدتها ومصالحها . مع تأكيد أهمية الالتزام بمصطلحات نابعة من عقائد الأمة وتاريخها وتراثها . وجوهر فكرها ، وشخصيتها الإسلامية .

ولنكن يقظين إزاء ما تورده دائرة المعارف المسماة بالإسلامية ، وهي من صياغة أعداء الإسلام ، والالتزام بالتفسير الإسلامي .

الدعوة الإسلامية تشق طريقها

ما زال الإسلام يفتح آفاقا جديدة أمام الدعوة إلى الله عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة في مختلف أجزاء الكوكب الأرضي على نحو هو الآن موضوع دهشة المراقبين وعجبهم نظرا لقلة الموارد المالية التي تنفق في هذا السبيل . وبالرغم من كل أعمال المقاومة والحشد المبذول للحيلولة بين الناس وبين الإسلام .

وفي العالم الغربي (أوربا والأمريكتين) بالرغم من ضخامة النفوذ الذي تفرضه الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية ، والانفاق الضخم ، والمحاولات الجديدة في كسب الشباب بفتح أبواب الإغراء بحلبات الرقص ، وتقبل قوانين الإجهاض ، وإقرار الشذوذ الجنسي والعياذ بالله ، ورفع الحظر عن معتنقي الماسونية . فإن ذلك كله يوحي بالكساد الشديد ، والانصراف الشديد ، حتى في مجال تربية أجيال جديدة من قادة الفكر الديني ، فإن النسبة المطروحة توحي بالانصراف الشديد عن هذا المجال .

هذا بينما يكسب الاسلام مزيداً من معتنقيه تحت تأثير قراءة النصوص الإسلامية ، أو الالتقاء بالدعاة المسلمين على ندرتهم في المراكز الإسلامية في بعض العواصم ، بالإضافة إلى تلك الروح البارزة لإنصاف الإسلام ورسوله التي تكشف عنها الكتابات التلقائية التي لا يدرج أصحابها تحت قوائم الاستشراق والتبشير .

وفي مناطق مختلفة من الأمريكتين واستراليا ، بالاضافة إلى أوربا نفسها نجد تجمعات جديدة تمثل أقليات صغيرة مسلمة تحاول أن تقيم مخيما إسلاميا خالصا

وسط هذا الركام الضخم من فساد الحضارة الغربية ، واضطراب المجتمعات الأوربية .

الدعوى الإسلامية تشق طريقها

وتجري المحاولات لاستخلاص تصريحات من قادة المسلمين ترمي إلى القول بأن لا فوارق حقيقية بين الإسلام وبين المسيحية أو الأديان الأخرى بهدف تنشيط همم الذين يزمعون الدخول في الإسلام بوصفه ممثلاً لعقيدة التوحيد الصحيحة اليوم المحررة من الوثنية والتثنية والتعدد .

وفي الولايات المتحدة جاليات من الملونين الذين هم من الأفارقة في الأصل يمثلون تجمعا إسلاميا ، ولكن هناك أعداد كثيرة من الأمريكيين أنفسهم أخذت تدخل في الإسلام حتى يقول مدير إحدى المؤسسات الإسلامية في واشنطن « أنه لا تطلع الشمس يوما إلى على مسلم جديد » وأن هذا يحدث في كثير من بقاع القارة الأمريكية ، وتتزايد هذه الظاهرة حتى تمثل علامة جديدة يصفها الدكتور محمد عبد الرؤوف بقوله :

إنـني أرى أن هناك قوة خفية تعمل على نشر الإسلام في هذه البلاد . وهي قوة الله تبارك وتعالى . وليس عملنا إلا من وراء إرادة الله وتقديره ، حيث لا ينتشر الإسلام بين الأمريكيين السود فحسب ، بل بين العنصر المسيحي (أنجلو ساكسون) وقد وجد طريقه إلى ذوي النفوذ في البلاد .

وعندما تقرأ ما يكتبه أمثال الدكتور موريس بوكاي من مقارنات بين العهد القديم وبين القرآن الكريم من حيث (المصدر) وحيث يكتشف « ربانية » القرآن الكريم و« بشرية العهد القديم » فإلى أي مدى تحدث هذه الآثار دويا ، فإذا أضيف إلى هذا ما تقدمه منظمات عدة في دراسات الكتب المقدسة ، وبالإضافة إلى ما كشفته مخطوطات كهف قمران ، وما تزال تكشفه الحفريات الأثرية معا يؤكد صدق نصوص القرآن الكريم ، وتزييف كثير من تلك المسميات الكاذبة التي تقوم عليها دراسات التاريخ القديم من حيث تجاهل (الحنفية الإبراهيمية) ودورها في بناء ذلك التكوين الروحي الذي عرفته هذه المنطقة ممتدا من إبراهيم عليه السلام في أبنائه ، وفي إسماعيل إلى محمد ﷺ .

﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ ومايتصل بهذه الرسالة من حقائق تتمثل في جمع الإيجابيات التي نراها في الجاهلية ، وفي فساد التفسيرات التي صرفتها اليهودية والمسيحية مما كشف القرآن الكريم زيفها مما غيره أهل الكتاب من وجهة الدين ، ومن إنكار الارتباط بالنبوة الخاتمة ، وما تزال هذه الحقائق تنكشف ، وما تزال قوى التزييف تحول بين الناس وبينها ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ﴾ .

وفي الوقت الذي تتعدد الجاليات الإسلامية في كل مكان في العالم وفي أوربا وفي آسيا لم يترك النفوذ الأجنبي هذا النشاط يزدهر . وعلى هذا الأساس دعم الإنجليز الحركة الأحمدية (القاديانية) في الهند وغذوها بالأموال لإيجاد بلبلة في صفوف الأمة الإسلامية ، وبنى في إنجلترا مسجدا للأحمدية (أو القاديانية) ليكون مركز انطلاق لهم في انجلترا أو أوربا . كما ساعدت انجلترا على طبع كتب الأحمدية المضللة وخصوصا باللغة الإنجليزية . وقد توسعت الأحمدية في قلب أفريقيا ، ولكنها ما تزال مرفوضة لما تخالف من مفهوم السنة الجامعة .

وقد فضح أهدافها وعمالتها للاستعمار ، العلامة المودودي ، والسيد الندوي ، ورابطة العالم الإسلامي وغيرها من الهيئات الإسلامية . وقد توسعت بعد الحرب العالمية الثانية حركات الطلبة المسلمين في عديد من البلدان الأوربية ، وتزاحم الغربيون في كل مكان أمام الأعياد الإسلامية ليحضروا ويشاهدوا شعائر الصلاة الإسلامية من قيام وركوع وسجود . وتقاطروا على سماع خطبة العيد مما لفت أنظارهم ، فسعوا إلى الاتصال بالمراكز الإسلامية ، والحصول عل المؤلفات الشارحة للعقيدة الإسلامية . ولا شك ملأ نفوس هذه الجماعات ، وخاصة شباب المدارس والجامعات ، وشدتهم إلى الإسلام لبساطة عقيدته وسلامة مبادئه وسماحته واقترابه من الفطرة ، وعطائه وتكامله مع أشواق النفس الإنسانية . وحيث يدعو إلى الرحمة والعدل والإخاء والتوحيد فقد شد إليه الزنوج الأمريكيين الذين عانوا من العسف والظلم والاسترقاق على أيدي الأمريكيين البيض .

ويعاني المسلمون معاناة شديدة في مناطق كثيرة من العالم .

وأقسى ما يواجهون ما يلقونه في المناطق الواقعة تحت سيطرة الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية . وهناك ما يلقاه المسلمون في مناطق كثيرة من أفريقيا

إزاء الحملات التبشرية النصرانية حيث تتركز البعثات التبشيرية في نيجيريا والكامرون وجنوب السنغال وتنزانيا وكينيا . وحيث تتدفع القبائل الوثنية إلى الإسلام ، وتدخل القبائل الزنجية في دين الله أفواجا ، وحيث تقف الدعوة الإسلامية بقوتها الذاتية في مواجهة الإمكانيات الضخمة المتاحة لرجال الإرساليات . وحيث الكنائس والأديرة والمعابد ، مقامة في أنحاء كثيرة من البلاد في المدن والقرى .

وقد شهد الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية بين الوثنيين بما يلقونه من ترحيب كبير ، خاصة في المديريات الجنوبية الثلاث : أعالي النيل والاستوائية وبحر الغزال حيث الاتصال بالمواطنين البدائيين ، والضاربين في منابت الأحراش والغابات ومواطن الحشائش والمستنقعات : يقول أحدهم « اقتنعنا بأن العمل في هذا الميدان سهل ميسور ، أن ما يبذله المبشرون المسيحيون من جهود . ولو بذل المسلمون عشر معشاره لأثمرت جهودهم أضعاف ما تثمر جهود المبشرين» . بل إن الإسلام قد اقتحم مناطق جنوب أفريقيا : (جوهانسبرج ، ديربين ، إيست لندن ، كيب تاون) حيث قامت مجتمعات صغيرة من المسلمين ، ولكنها متماسكة ، فهم يجمعون الزكاة ويوزعونها على مستحقيها ، وينشئون المدارس الإسلامية والمساجد ويطبعون الصحف والمجلات الإسلامية ، والمساجد هي مركز نشاط المسلمين الإجتماعي ، وكلما استولت الحكومة على منطقتهم ، رحلوا إلى أرض أخرى . وأقاموا مساجدهم ومساكنهم ، ويتساءل بعض الذين زاروا تلك المناطق « لماذا تتجه جميع بيوت المسلمين في جنوب أفريقيا نحو القبلة » ، رغم الصراع الحقيقي الذي يخوضونه مع جهاز البلدية عند تخطيط البناء ، فالمسلم هنا لا ينام إلا في اتجاه القبلة ، ويقيم في داره ثلاث حنفيات للوضوء ، وغرفة للمصاحف ، ومكان للصلاة . والنساء المسلمات يخرجن محجبات ، ويعمل الجميع في تكامل رائع ، والأطفال يحفظون القرآن الكريم ، ويحسنون تلاوته وتجويده . ويقبل الوثنيون في جنوب أفريقيا على اعتناق الإسلام اقتناعا بأنه الدين الذي أوجب المساواة ، وذوب الفوارق بين الناس ، ولم يعترف بأي امتياز أو فضل أو تفوق مصدره اللون أو العرق أو المال .

وما تزال مناطق إسلامية كثيرة تقاوم أمثال : أرتيريا في مواجهة الحبشة

المسيحية الماركسية . ومسلمي الفيلبين (شعب بانجامور) المسلم ثمانية ملايين نسمة في الجزر الجنوبية الخمسة الكبرى . وهناك اضطهاد المسلمين المتجدد في الهند . وهناك مشاكل مسلمي بورما الذين شردتهم حكومة بورما ومسلمي كمبوديا وفيتنام ولاوس . وهي مثل لما يقاسيه المسلمون الذين يعيشون في الدول الشيوعية . . وهناك مشكلة خمسة ملايين مسلم في تايلاند .

وما يزال المسلمون في قبرص يقاومون في سبيل تثبيت وجودهم في الجزيرة ، وحقهم في البقاء ، حيث لم تكن قبرص في يوم من الأيام أرضا يونانية .

وحيث عمد الاستعمار البريطاني إلى تفريغ الجزيرة من المسلمين ، وجعلهم أقلية فيها . وقد تعرض المسلمون لصنوف بشعة من التعذيب والحرمان .

ومن الآفاق الجديدة التي فتحها الإسلام في سنوات ما قبل بزوغ فجر القرن الخامس عشر الهجري : غزوته السلمية لليابان حيث ديانته الشنتو (عبادة الطبيعة) والبوذية القادمة من كوريا والصين في القرن السادس الميلادي حيث أصبح نصف الشعب الياباني يعتنقها . والمعروف أنه بعد اندحار اليابان في الحرب العالمية الثانية ، ودخول قوات الاحتلال ، أعلن الامبراطور للملأ أنه لم يعد إلهاً ، وإنما هو بشر .

وقد انتهزت الهيئات التبشيرية العالمية الفرصة ، وركزت جهودها على اليابان متطلعة إلى أن تكون « المسيحية » هي عقيدة الشعب الياباني . وفي ظل هذا الفراغ العقائدي وجد اليابانيون في الإسلام استجابة لمطامع نفوسهم وتطلعاتها بين ثلاث حركات تتصارع هي : التبشير المسيحي (حيث توجد خمس جامعات تبشيرية ومدارس ثانوية وابتدائية تضم ٣٠٠ ألف) ودعوة ماركسية شيوعية واشتراكية ، وحركة بوذية . وقد دخل الإسلام إلى اليابان من عدة جهات ، من قازان عاصمة جمهورية التتار الإسلامية ، ومن الصين مقاطعة منشوريا ، ومن أندونيسيا والملايو حيث اتصل أفراد جيش الاحتلال الياباني لأندونيسيا بالشعوب المسلمة هناك .

وما تزال الدعوة الإسلامية في اليابان تشق طريقها مع آمال عريضة ، وهكذا نجد أن الدعوة الإسلامية في نهاية القرن الرابع عشر . ومطالع القرن الخامس عشر توجه عديدا من التحديات .

التـــراث

قال أحد الباحثين (المسلمون من غير التراث كالمحارة فقدت غطاءها الصدفي) وهذا قول صحيح ، فإن المحارة عندما تفقد غطاءها الصدفي ، فإنها تصبح عرضة لأن يدمر وجودها بعد أن يعترضها خصومها ، ولا تجد ذلك الغطاء الذي يحميها من العدوان . لقد كان التراث الإسلامي وما يزال الظهير والنصير للوجود الإسلامي الأصيل .

لقد ذهب تراثنا شرقا وغربا ولم يعد . وفي ثلاث معاقل في روسيا الشيوعية ، وفي الفاتيكان ، وفي الغرب الأوربي ، وفي الكونجرس نجد كنوزا زاخرة مغلقة لم يسمح بعد للباحثين أن يطالعوها . ويتساءل الناس لماذا يحجبون التراث الإسلامي في الغرب عن أهله ؟ :

١ - حتى لا يعرفوا مصادر علم الغرب التي أخذوها ونسبوها إلى أنفسهم .

٢ - حتى لا ينتفعوا بتراثهم في تجديد حياتهم ، ووصل ما انقطع .

٣ - حتى يظهروهم على ما يرونه متشابها ومختلطا ومضطربا ، فهم يستخلصون منه ما يروقهم ويعلنوه في نظريات لهم ينتحلونها ، وبحوث يفخرون بها ويتيهون على الناس ، ثم يعرضون علينا تراثنا ناظرين إليه بعين السخط فيتطفل أبناؤ نا على فتات موائدهم .

وقد وضعوا أيديهم على تركتنا التي هي أثمن تركات البشر ، ونحن الذين

نذهب لنستعير من الأمم ، وقد كان أولى بنا أن نستكشف كنزنا الذي يتميز بأنه نقي نقاءاً كاملاً من الأساطير والخرافات ، وأوهام البشرية ، لأنه يقوم ، ولأول مرة على أصول ربانية من وحي السماء ، لا تخطىء أبداً ، وتمتد علاقاتها مع الفطرة الصافية النقية .

ولعل هذا يكشف وجوه القائلين بأن الفكر الإسلامي جزء من التراث العالمي ، أو أنه رافد من روافده . ذلك لأن التراث البشري قد كان خليطا من أصول من الأديان السماوية الأولى ، مع تفسيرات مختلفة ، ضالة ومنحرفة ، قائمة على الأهواء . أما تراث الفكر الإسلامي فإنه يتميز بأنه يصدر عن فكر رباني ، قام على القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وحرص قادة هذا الفكر على حمايته من الاضطراب والتزييف بوضع قواعد وأصول طبقت بدقة في مجال السنة والتاريخ ، وأنشأت ذلك المنهج الدقيق من البحث العلمي ، ومراجعة النصوص ، ومراجعة الرواة أيضا . حتى أمكن حماية هذا التراث من الأهواء ، فلما جاءت موجة الترجمات من الفكر اليوناني ، والفارسي ، والهندي ، فقد واجه علماء المسلمين ذلك بكل قوة ، وكشفوا عن زيوف الوثنية والمادية ، وحرروا الفكر الإسلامي من أن يصاب باحتواء الفلسفات له ، كما احتوت من قبل الفكر اليهودي والفكر المسيحي ، فأخرجته عن أصول الدين الذي أُنزل على النبيين الكريمين موسى وعيسى ، ولذلك فنحن لا نقبل القول بأن الفكر الإسلامي جزء من الفكر العالمي أو رافد من روافده .

فنحن نعرف أن الفكر العالمي هو ركام هذه الفلسفات المتضاربة التي عجزت حتى الآن عن تلبية احتياجات الأمم والنفوس الانسانية ، بينما يتميز الإسلام بأن فكره قائم على أصول ربانية ، وحافظ خلال أربعة عشر قرنا على النقاء ، والسلامة ، فبقي كما أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ قادراً على العطاء ، وسيظل كذلك ، إذ وعد الحق تبارك وتعالى بحفظه **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾** . ولم تعد كلمة (السلفية) بالعبارة التي تزعج المسلمين ، ولا تعني - مهما فسرها خصوم الفكر الإسلامي بالرجعية أو التخلف - شيئا من ذلك . ذلك أن معنى السلفية واضح صريح : إنها هي العودة إلى المنابع والتماس الأصالة .

وقد دعت جامعة السربون واحداً من رجال الأصالة في بلادنا هو : الدكتور عبد السلام العجيلي ، فوضع النقاط على الحروف ، وكشف زيف المزيفين الذين يهاجمون « السنة الجامعة » ويصفونها بالسلفية استخفافا بها ، وانتقاصا منها . فقد جرت عادة الكتاب الماركسيين إلى الاستخفاف بالتراث الإسلامي تحت اسم « السلفية » وكشفت محاولات كثيرة الهدف الخفي من وراء حرب السلفية وهو القضاء على مفهوم « السنة والجماعة » الذي وضع قواعده وأرسى دعائمه ابن تيمية وابن حزم وابن القيم . بدأ بالإمام الشافعي والإمام ابن حنبل وغيرهم من الأئمة العظام . وقد وقف أولها أمام الأرجانون اليوناني . ووقف الآخر أمام الفلسفة الإغريقية وما حملت من القول بخلق القرآن كمدخل لتحطيم مفهوم السنة الجامعة الذي هو ميراث النبوة الأصيل .

ولقد كان مهاجمو السلفية يتوقون إلى تحطيم هذه الوحدة الجامعة ليفتحوا ثغرة أمام النحل والفرق ومفاهيم الفلسفات الواقعة والباطنية ، وإحياء المجوسية القديمة ، كما كان مهاجموها هم دعاة الإقليميات . والقوميات الوافدة ، والعاملون على القضاء على روح الوحدة الفكرية الإسلامية الجامعة بين العرب والمسلمين

وقد كشف الدكتور العجيلي عن روح السلفية فقال : إنها هي الارتباط بالأصول الإسلامية في اللغة والأسلوب والقيم ، والسيطرة على روح الأصالة في قضايا النفس والفكر .

وإن كان الدكتور العجيلي قد استعمل لفظ (الروح العربية) فلا ريب أنه يقصد مفهوم الإسلام . ذلك أن العرب إذا كانوا يؤمنون بذاتية خاصة ، فإنما هي ذاتية الإسلام ، التي تجعلهم مع المسلمين أمة واحدة لها سمت خاص ، وهم يريدون المحافظة على هذه الروح ، بينما يريد خصومهم طحنها وسحقها .

ولقد حق للمسلمين اليوم أن يؤكدوا هذا المفهوم الأصيل ، وأن يكشفوا هدف دعاة التغريب الذين يحتضنون الدعوات الهدامة ، والنحل والفرق ليفتوا في عضد وحدة الفكر الإسلامية الجامعة تحت لواء « السنة والجماعة » . ومن ثم فإن عليهم أن يبينوا أن لنا مفهوما كاملاً في مختلف مسائل السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية ، ولنا بطولات صنعها الإيمان بالله ، وإن كل حركات التحرر

التي قامت باسم الوطنية أو إجلاء الغاصب ، إنما قامت بمفهوم الجهاد في سبيل الله .

ولا بد أن يكشف المسلمون هذه المؤامرة الضخمة التي تشترك فيها قوى الصهيونية والشيوعية والنفوذ الغربي للقضاء على ذاتيتنا وهويتنا عن طريق سموم مطروحة منها الإقليميات ، والديمقراطية والاشتراكية . والقومية بمفهوم الغرب ، بينما لدى المسلمين مفهوم الإخاء الإنساني الجامع ، وترابط العروبة والإسلام ، ومفهوم الشعوب والقبائل المتعارفة المفتوحة الحدود بالحب والتعامل والثقافة من خلال ألف مليون مسلم ، منهم العرب والفرس والترك والهنود وغيرهم .

ولا ريب أننا مطالبون بالحفاظ على وحدتنا الفكرية تحت لواء السنة الجامعة التي ترعى أصالتنا وطابعنا المميز ، حتى لا ننصهر في الأقوام ، ولا نكون هجناء أو أمعات . ولقد حرص ديننا على دعوتنا إلى المحافظة على ذاتيتنا ، وأن نكون على حذر مما نواجه على مدى العصور من محاولة عدد المسلمين ، أو ما يحاول تدمير مقوماتها . تلك القوى الطامعة في موقعنا الوسط ، وثرواتنا ومقدراتنا . ومن هنا كانت السلفية - كما يقول الدكتور العجيلي - أداة استمرار وجودنا الأصيل ، وهي سلفية تعتمد على المنابع الأصيلة الثابتة لا على الوقائع المتغيرة ، فهي تستعلي بالعنصر أو الجنس أو اللون ، وهي مبرأة من التعصب ، متسامحة مع الأجناس والملل والأقليات ، عادلة مع الأقرباء والبعداء ، مفتوحة على الأمم التي تشترك معنا في العقيدة والثقافة ، ونحن نعرف أن خير ما في الجاهلية من قيم هي من ميراث الحنيفية الإبراهيمية السمحة ، وأن ما هناك من سلبيات هو من ميراث الفكر البشري الوثني المادي .

ولا ريب أن تيار العداء للسلفية ، هذا التيار الذي وصف دعوة التوحيد الخالص قديما بأنها (وهابية) هو الذي وصف دعوة اليقظة والتماس المنابع الأولى بأنها (سلفية) بغية التخلي عن ميراث النبوة وتراث الإسلام الذي تشكل خلال أربعة عشر قرنا بالطعن فيه وانتقاصه وإثارة الشبهات حوله . هذا التيار الذي يستعلي على بعض أقلام التغريبيين واليساريين تحت اسم القديم أو السلفية إنما يقصد الإسلام في الصميم ، وإلا فلماذا لا يرون في الفرعونية والفينيقية والوثنية

السابقة للإسلام تيارا رجعيا ، ويعملون على إحياء تراثها ومسرحياتها وأساطيرها ووثنياتها .

ومن أخطر ما تستهدفه دعوة محاربة السلفية : دعوة إبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني في الكتابة بحجة أن الحرف الذي نقل كلام العرب وأفكارهم على مدى العصور عسير في الألفاظ ، عاجز عن الأداء ، معقد في الاستعمال ، وكذلك اتهام اللغة العربية نفسها بأنها عقبة في سبيل تقدم العرب أو مصدر تخلفهم في العلوم التقنية بصورة خاصة ، وهو ادعاء باطل . فإن الطب يدرس باللغة العربية في جامعة دمشق منذ ستين عاماً .

ويقول عبد السلام العجيلي : « إنه ماذا تنتظر من عدوك غير أن يعمل للإضرار بك . وأن العربي عليه أن يدرك أنه في تكوينه النفسي والعقلي ليس دون غيره ، فلا يذهب به ضعف الثقة بنفسه إلى محاولة التبرؤ منها . أعني التبرؤ من نفسه التي يدخل ماضيه بنسبة كبيرة في تركيبها ، وبصورة خاصة ألا يتخلى عن أصالته الذاتية ، والخطأ هو أن يدفع العرب المعاصرون تخليهم عن شخصيتهم ثمنا لما يأخذونه مما يحتاجون إليه ، إنهم بهذا يضيعون أصالتهم » .

ولقد كان واضحا أن ارتباط المسلمين بالماضي والقديم ، والتاريخ ليس إعلاء للماضي ، وليس ركونا إليه ، وإنما يفهم المسلمون الفارق العميق بين الميراث المتصل بالقرآن ، والنبوة ، وبين التراث المتصل بالسلوك الشخصي الذي هو التاريخ ، وهم لا يخلطون بين المناهج والتطبيق . كذلك فإنهم لا يريدون إعادة الماضي ، ولكن يريدون إقرار منهج الله وتطبيقه على الأساليب التي يستعملها العصر ، وتتقبلها البيئات دون خروج على حدود الله أو تأويلها ، أو التماس الرخص دون العزائم .

فالإعجاب بالماضي إنما هو إعجاب بالأصل والجوهر ، وصالح التطبيق في عهد الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين . والمهديين من بعده ، وليس الإعجاب بالماضي الأصيل من هذا الجوهر ، والاستمداد منه يتناقض مع الحاضر ، فإن الحاضر هو ثمرة الماضي ، ومن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل له . فالماضي

والحاضر والمستقبل إنما هي بمثابة حبات عقد متصل . ومراحل متوالية على طريق واحد . وفي كيان واحد . وإنما يكون التناقض بين أمرين متعارضين . وليس في مفهوم المسلمين أن الإعجاب بالماضي يحمل طابع القداسة . وإنما هو يحمل طابع التقدير للدور الذي جاءت به الرسالة الإلهية الخاتمة ، رسالة الإسلام .

والتغيير الخطير الذي أحدثته في موازين المجتمعات الإنسانية . كذلك فإن المسلمين يعتبرون بسلبيات تاريخهم وتراثهم . ويدرسون وجوه التقصير فيها ، ووجوه النقص ، حتى لا يقعوا مرة أخرى في شباكها ، كذلك فإن الإعجاب لا يقوم على ماديات الحضارة من مسكوكات أثرية ، أو أوان فخارية ، أو أهرامات ، أو مبان ، أو قصور ، ولكن الإعجاب ينصب على القيم على المواقع والبطولات . فنحن نحاكم الماضي إلى العقيدة ، فكل ما جاء بها وسار على هديها ، فنحن نعجب به ، وكل ما خالفها فنحن ننظر فيه بحثا وراء العبرة مقدرين أن الهزائم كلها التي وقعت فيها الأمة الإسلامية إنما جاءت نتيجة تجاوزها أصول منهجها ، وحدود شريعتها وأنها حين تعود إلى الله تعود صفحاتها البيضاء .

وليست (السلفية) إلا هذا الارتباط بالأمة التي حملت لواء (لا إله إلا الله) ونزل فيها القرآن الكريم ، وبعث فيها (محمد ﷺ) والتي وصفها الحق تبارك وتعالى بأنها : خير أمة أخرجت للناس . هذا مصدر الإيمان والإعجاب أملا في أن نكون على الطريق التي رسمها الله لها . **﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾** .

فالتقدير والإعجاب ـ في مفهوم الإسلام ـ للتاريخ والتراث إنما يرجع إلى المضمون والقيم ، وليس إلى الماديات ، أو عدد السنين ، أو استعلاء بالعنصر . هذه الأمة والتي حملت رسالة الله إلى البشرية لترفعها إلى مقام الإنسانية . والتي ما زالت مؤهلة لإذاعة كلمة الله في الأرض ، وإقامة المجتمع الرباني . هذه الأمة التي حملت الخير والهدى والضياء في كلماتها وعقيدتها . ولطالما كانت النظرة الإسلامية إلى الأشياء : نظرة جامعة متكاملة : روحية ومادية معا . وهي إلى النظر في مضامين الأشياء أوثق وأعمق من النظر في غلافها الخارجي .

ولقد كانت النظرة السلفية الإسلامية في مفهوم البطولة مختلفة جد الاختلاف عن نظرة الفكر البشري ، فهي مرتبطة بعمل البطل . وفي النص على تجديده من خلال المصابرة والمرابطة في الثغرة . فكل مسلم على ثغرة وعليه أن يحميها . وحق علينا أن نذكر مرة أخرى كلمة الباحث الإسلامي الكريم : (المسلمون من غير التراث كالمحارة فقدت غطاءها الصدفي) ، فهي عارية معرضة للخطر مستهدفة لأن يقضى عليها .

الاقتصاد

عندما وصل رفاعة الطهطاوي ، وخير الدين التونسي إلى باريس ، واتصلا بالفكر الغربي لأول مرة من رجلين من الشرق أحدهما من مصر ، والآخر من تونس . أكتشفا أن ما يلقياه شيء قريب مما يعلمون من فقه الإسلام وعلومه ، حتى ظنا أنه يمكن نقله واقتباسه بوصفه بضاعة المسلمين قد ردت إليهم . وكان هذا فهماً ساذجاً لحقيقة الاقتباس والنقل الذي تم من الغرب لعلوم المسلمين ومفاهيمهم . ذلك أن الغربيين عندما أخذوا علوم المسلمين قد أخضعوها لأمرين :

أخضعوها لإطار فكرهم المسيحي واليوناني القديم. ثم أخضعوها لأهوائهم، فنزعوا عنها طابع الإسلام سواء من حيث الرحمة، أو من حيث الغيرة على العرض ، أو من الإخاء البشري . فإن الفكر الغربي في هذه المفاهيم الثلاث خضع للفكر اليوناني القديم الذي تجدد تحت إسم قتل الضعفاء على يد نيتشة ، أو الأباحية في العلاقات بين الرجل والمرأة . أو من حيث استعلاء العنصر على الأقوام الأخرى . ففي هذه العناصر الثلاث تجاوز الفكر الغربي مفاهيم الإسلام ، وخضع لمفاهيم الفكر البشري القديم المتجدد إذ ذاك .

ومن هنا فقد كان من قصر النظر إطلاق صيحة الاقتباس من الفكر الغربي في هذه المرحلة . وقد تنبه إلى ذلك من جاء بعدهم بعد أكثر من مائة عام . عندما أعلن الدكتور محمد عبد الله العربي ، وجيل آخر من الشباب المسلم الذي درس القانون في الغرب دراسة أكاديمية : أن الأمر يختلف تماماً . وأن المسلمين لا

يستطيعون الإعتماد على الفكر الغربي في بناء مفاهيمهم المستحدثة في القانون أو الاقتصاد أو السياسة أو العلم أو الحضارة . حيث يقول الدكتور العربي « إن الفكر السياسي الغربي يرى أن الأديان السماوية ليست لها رسالة في أمر الدولة وشئون الحكم » فهذه من شئون الدنيا التي ينفرد البشر بتنظيمها على أساس أن ما لقيصر لقيصر ، وما لله ، لله .

ولكن الإسلام ، وهو خاتم الأديان » وهو البصير بما سوف يفضي إليه تطور الإنسانية ، كان لا بد أن يستكمل هداية الإنسان في جميع شئونها في الجانب الخاص ، والجانب العام في حياة المجتمعات الإنسانية ، ووضع الأصول التي تحت كل مجتمع إنساني أن يسير في نظامها في الجانبين على السواء ، ثم أطلق لكل مجتمع حرية البناء على هذه الأصول والتفصيل والتفريع فيما تبنيه على ضوء تطورات كل زمان .

نقول هذا اليوم ، والمسلمون ينشئون نظامهم السياسي والإجتماعي والاقتصادي مستأنفاً في إطار الإسلام بعد أن خضعوا زمناً طويلاً منذ الاحتلال الأجنبي للأنظمة الغربية الوافدة .

ولقد كان أمام الغرب في أول نهضته معطيات الإسلام كاملة وواضحة ، فقد تلقوها من مصدر إسلامي أصيل هو الأندلس وجامعاته ومعامله . وكان في مقدمة هؤلاء سلفستر الثاني ، وروجر بيكون ، وفرنسيس بيكون . الذين شهدوا جميعاً بأنهم تلاميذ الحضارة الإسلامية . كان أمام الغرب مصادر الإسلام كلها :

العلوم الحديثة في المنهج التجريبي الإسلامي الذي وصل إلى مداه الرفيع في أمر الفلك والكيمياء والطب وعلوم البحار وغيرها . وكان أمامهم مفاهيم الاقتصاد الإسلامي ، وخير معطياته مفهوماً جامعا للمادة والروح داعياً إلى السعي في الأرض في إطار الالتزام الأخلاقي . وكان أمامهم القانون الإسلامي (الشريعة) في خير معطياته .

ولقد نهل الغرب من الموارد الثلاث ، وأفاد منها في بناء حضارته ، وما زال حتى اليوم يطلعنا على الجديد مما اقتبس من علوم المسلمين سواء في نظريات القانون » أو مفاهيم الإجتماع والاقتصاد . ولكنه باعد بين نفسه وبين المفهوم

الأصيل لهذه القيم والأساس العميق الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية ، فإنه لم يقبل في مجال العلوم تحريكها في إطار الرحمة . ولم يقبل في مجال الاقتصاد دفعها في إطار الإخاء البشري . ولم يقبل في مجال القانون جعلها واحدة للبشرية كلها كما غيب عنها أن تكون الوجهة خالصة لبناء المجتمع الرباني . القائم على الرحمة والعدل . وإنما أقامها على أساس الاستعلاء بالعنصر وسيطرة القـوي على الضعيف ، وسحق الضعفاء ، واعتبار الغربيين وحدهم ذوي البشرة البيضاء سادة ، وكل ما حولهم عبيد . فاستولى بذلك على مقدرات الشعوب من الطاقة ومذخور الأرض، ووجهه وجهته في سبيل بناء حضارة استهلاكية قائمة على الخمر، الربا . والأباحية ، والترف ، وبذلك أدخل البشرية كلها في عالم الأزمة الخانقة التي حاولت ذات يوم الخروج من الرأسمالية . فأنشأت الاشتراكية ، وكشفت الاشتراكية بعد أكثر من خمسين عاما عن عجزها في إعطاء العالم سعادته أو طمأنينته . ولقد كان النظام الشيوعي ثمرة فساد النظام الرأسمالي . ولكنه لم يحقق شيئاً ، وكاد النظامان يتفقان في تقديس المادة . وحضر موضوع الاقتصاد في توفير الرفاهية المادية ، وتوفير الحاجات الاستهلاكية ، وتقديس المادة ، والتكالب على امتلاكها بغير غطاء روحي أو أخلاقي .

لقد ضحت الرأسمالية بالمساواة في سبيل تحقيق الحريـة الشخصية ، وأهدرت الشيوعية الحرية الشخصية في سبيل تحقيق المساواة ، ونتج عن ذلك كله الفراغ والضياع ، والميل إلى الانحراف ، والرغبة في العنف ، وعمت الآداب والفنون ، ولكن بروح الإنحلال والجنس والجريمة ، وعم العالم أزمات ستة هي : أزمة الغذاء ، وأزمة الطاقة ، وأزمة التضخم ، وأزمة البطالة ، وأزمة النقد ، وأزمة تلوث البيئة .

وكاد العالم الضعيف النامي أن يسحق نتيجة ذلك التنافس الرهيب بين الرأسمالية والشيوعية على احتوائه لاستغلال موارده الطبيعية ، وفتح أسواق جديدة لتصريف منتجاتها . وهكذا خرجت الحضارة عن طريق الحق ، وتدهورت المجتمعات لأنها تحللت ، فهدمت الأسرة ، وأفسدت العلاقات بين الرجل والمرأة ، وبين الشباب والآباء . وضجت الأمم مطالبة بحاجة البشرية إلى نظام اقتصادي جديد ، قادر على حل الأزمات الطاحنة التي يعاني منها عالم اليوم ، كما

استصرخ علماء الاجتماع والنفس والأخلاق يلتمسون نهجاً جديداً للحياة ، بعد أن عجزت الديمقراطية الليبرالية والاشتراكية الماركسية في تحقيق سعادة الفرد والمجتمع .

والمسلمون اليوم يرون ما آلت إليه حضارة الغرب ، وهم بين براثن الأسد خاضعين لأنظمة واحدة فرضت عليهم في أيام الاستعمار ، ولما لم يتخلصوا منها ، ويرون كيف فشلت التجربة الغربية كلها ، وما زال عليهم أن يحرروا أنفسهم ومجتمعاتهم من التبعية لنظام العيش الغربي وأسلوبه في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية ، وأن يلتمسوا منهجهم الأصيل الذي يحميهم من السقوط في هذه الأزمة التي تعانيها البشرية . لقد سبق الإسلام الغرب في مجال القانون والاقتصاد والعلوم ، وجاء الغرب فأخذ مادة إسلامية صاغها في أطرة الوثنية المادية صنع بها حضارة تواجه اليوم أشد مراحل اضطرابها وفسادها . وما زال الأصل الأصيل في غطاء الإسلام قادراً على أن ينقذ المسلمين من التدمير الذي تواجهه الحضارة الغربية ومجتمعاتها . ويستطيع المسلمون أن ينقذوا أنفسهم بالتماس « سفينة النجاة » .

إن نظام الإسلام هو أصلح الأنظمة لبناء المجتمع الجديد في عالم اليوم . هذا النظام الرباني المصدر الذي يقوم على فهم دقيق لطبيعة الإنسان الجامع بين المادة والروح . هذا النظام الذي يقوم على التوازن بين معطيات الدنيا والتزامات الآخرة . هذا النظام الذي يفصل بين الحلال والحرام ، ولا يلغي المساواة من أجل الحرية ولا يلغي الحرية من أجل المساواة . ولكنه يجمع بين الحرية والمساواة في آن واحد .

ولنقدم الإسلام إلى البشرية اليوم بعد أن نطبقه على أنفسنا حتى نؤدي حق الله تبارك وتعالى في تبليغه للعالمين .

وإذا كان الاقتصاديون العالميون قد أعلنوا حاجة البشرية إلى نظام إقتصادي جديد ، فلماذا لا نقول لهم . هلم إلينا . أن ما تطلبونه موجود عندنا وقد جربته البشرية من قبل خلال ألف سنة كاملة . قبل أن تجيء جحافل الإستعمار إلى عالم الإسلام . وقد وجدت فيه ضياءها وهداها . إن أصواتاً كثيرة ترتفع في الغرب

اليوم تدعو إلى التماس أيدلوجية الإسلام . بعد أن فشلت الأيدلوجيتان الغربية والشرقية ، ولم يعد أمام البشرية إلا منهج واحد . يقول روجيه جارودي في كتابه : (حوار مع الحضارات) أن الحضارة الأوربية التي بنيت على فلسفة فاوست ، والتي جعلت من الإنسان الغربي مجرد آلة للإنتاج والاستهلاك يسير بدون هدف . ولهذا فإن الحضارة الغربية ستقود الإنسان إلى هلاك محتم ، إلا إذا خرج الرجل الأبيض من جهله ومن غروره وغطرسته ، وتفتح على الحضارات العريقة الأخرى . أن عصر النهضة لم يكن كما تصوره الأوربيون قمة الحضارة التي أعطت أرقى القيم الإنسانية . بل إنه بداية أحلك فترة في تاريخ الإنسانية . إذ بدأت معها فترة الإستعمار الاقتصادي والسياسي في العالم . عندما بدأ الرجل الأبيض في نهب الموارد البشرية ، والموارد الأولية من القارات الأخرى لتشييد بنائه الاقتصادي . ثم استمر إلى اليوم في عملية الاستنزاف الاقتصادي ، ثم يصور جارودي الواقع الحاضر فيقول : إن الإنسان الذي أنتجته الحضارة الغربية يسير بلا هدف كالآلة في إنتاجه واستهلاكه ، وهدفه الوحيد هو أن ينتج أكثر فأكثر ويطلق على ذلك النمو الاقتصادي ، وجعل من كمية هذا النمو الاقتصادي المقياس الوحيد الذي يفرق بين دولة متحضرة ودولة متأخرة .

ونقول إن هدف الحضارة في الحقيقة هو الإنسان متكاملاً نفساً وروحاً وجسماً . فأي نظام يراد به تنمية جانب من جوانبه دون الآخر لا محالة فاسد وساقط .

ولقد كشف الإسلام على تكامل بناء الإنسان فردا وعضواً في مجتمع وكشف عن العلاقة الوطيدة بين سائر العلوم . هذه العلوم التي مهما تعددت بسبب التخصص العلمي الحديث ، فإنها ذات موضوع واحد هو : الإنسان وذات هدف واحد هو سعادته .

ولذلك فإنه لا يمكن فصل المجتمع عن الدين ، ولا السياسة عن الأخلاق ، ولا الاقتصاد عن العناصر الأخرى التي يتكامل بها البناء ، وأن محاولة إعطاء كل عنصر حرية النمو والحركة بعيداً عن العناصر الأخرى هو أبرز مقاتل الفكر الغربي في انشطاريته التي حطمت البناء المتكامل الجامع بين الروح والمادة ، والعلم والدين ، والدنيا والآخرة .

ولقد كان من أخطر التحديات التي واجهت الفكر الغربي أنه عجز عن التكامل والنظرة الجامعة ، وانساق وراء الأهواء والمطامع والأباحية ، وفرضت عليه الفلسفة المادية التي دمرت كيانه الأخلاقي والنفسي والروحي ، وصيرته غريباً يحس بالشقاء والأزمة على النحو الذي تصوره الوجودية ، وتدافع إليه ما تفرزه الهيبة والأباحية من أسواء .

ولقد حاول الغرب أن يحطم عالم الإسلام ، وأن يدفعه إلى الانصهار في بوتقته حتى تنهار المجتمعات وتستسلم للقوى الغازية التي صورت أهدافها في بروتوكولات صهيون . ولكن الإسلام استيقظ في اللحظة الأخيرة . وعرف الغرض المبيت له ، ودافع عن ذاتيته ووجوده وكيانه الخاص الذي يتميز به ، ورفض أن ينصهر في العالمية ، أو الأممية . لأن الله تبارك وتعالى خلقه هكذا أمة متميزة تحمل كلمة الله إلى الآفاق . وهو اليوم على طريق الضياء في مطالع القرن الخامس عشر ليحقق وجوده وكيانه ، ثم يقيم الحضارة الإسلامية الجديدة على أساس الرحمة والعدل والإخاء البشري منارا للبشرية ، وانتقالا بها إلى عصر الرشد والإنسانية .

بناء الاجيال

صرح مسئول فرنسي في وزارة الخارجية **١٩٥٢** ـ قال : ليست الشيوعية خطراً على أوربا ، فيما يبدو إلي فهي حلقة لاحقة لحلقات سابقة . وإذا كان هناك خطر فهو خطر سياسي عسكري فقط . ولكنه ليس خطراً حضارياً تتعرض معه مقومات وجودنا الفكري والإنساني للزوال والفناء . إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً عنيفاً هو « الخطر الإسلامي » فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي ، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة ، فهم جديرون بأن يقيموا قواعد عالم جديد دون حاجة إلى الاستغراب . أي دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة في الشخصية الحضارية الغربية .

هذا الإحساس الغربي هو مصدر تلك الحملات الضخمة المكثفة لوضع القيود والأصفاد حول الجماعة الإسلامية . وهذا هو سر عملية الاحتواء والإذابة ، التي تحاولها القوى الغربية بصهر الإسلام فكراً وأمة ـ في البوتقة الأممية والعالمية ، وتقبل الغرب الرأسمالي لمحاولات الشيوعية في الإيغال في عالم الإسلام ، ومؤازرة الشيوعية لمحاولات الصهيونية دون خوف على ضياع نفوذها . فإن هذه المحاولات ستضعف الكيان الإسلامي أيا كان . وتوهنه ، وتجعله أكثر استسلاماً للقوى الغازية . بل ويذهب الباحثون إلى أن هناك اتفاقاً على شيء واحد بين هذه القوى الطامحة في السيطرة على عالم الإسلام . وأن لقاءات زعماء الغرب والشرق اليوم لا تخرج فيما يتعلق بعالم الإسلام عن أسلوب مؤتمر برلين

١٨٤٠ ـ وفرساي ١٩١٩ ـ ومالطا ١٩٤٥ ـ من حيث استمرار وتأكيد سياسة توازن القوى ، والمحافظة على وجود غربي مضاد للبلاد في المنطقة .

يقول الدكتور إبراهيم سلامة : لقد اشترع الغرب نظرية أساسية ما زال يطبقها في منطقتنا منذ حركة محمد علي الذي ما كادت أساطيله تهدد الآستانة نفسها (استامبول حالياً) حتى أسرعت دول الغرب التي كانت تشجعه وعقدت مؤتمر برلين سنة ١٨٤٠ ـ حيث نشأت نظرية توازن القوى في الشرق الأوسط . إلى عدم السماح ، أو عدم تشجيع قيام أي قوة ذاتية منفردة في الشرق الأوسط مهما كانت الظروف والنتائج . وهكذا يمكن فهم وتفسير حالات العداء التي أظهرها الغرب الأوربي ، والشرق الروسي للدعوة الإسلامية ، وحركة الوحدة العربية ، ومن هنا يمكن فهم وتفسير تسارع الدول الكبرى في نهاية الأربعينات إلى تشجيع قيام إسرائيل وإمدادها وحمايتها .

ولا ريب أن رواسب الحروب الصليبية لا تزال حية في أذهان الدول الغربية ، بالرغم من مرور زهاء ثمانية قرون على هزيمة الصليبيين . ولقد كانت أسلحة حلف الأطلنطي تتدفق على فرنسا في حربها مع الجزائر ، وعلى هولندا في حربها مع أندونيسيا وقبل حلف الأطلنطي كانت الأسلحة الغربية تتدفق على إيطاليا مع حربها مع ليبيا ومع أسبانيا في حربها مع الريف المغربي . ثم على إسرائيل في حربها مع العرب .

وتستهدف هذه الخطط الاستعمارية تجنيد كل القوى ضد الإسلام ، ولا سيما الشيوعية ما دام الهدف هو توجيه ضربة جديدة إلى الإسلام . بل إن الباب المسيحي كان قد أصدر توجيهاته إلى الطلاب المسيحيين بالانضمام إلى التكتلات الشيوعية داخل الجماعات . ولقد عمد الفاتيكان ممثل المسيحية خلال حرب ١٩٤٨ بين اليهود والعرب إلى تأييد إسرائيل متهماً العرب بالبربرية ، وتجاهل ما فعله اليهود بالعرب في اللد والرملة . ودير ياسين . ويمكن القول أن النفوذ بين الغربي والشيوعي كانا وراء قيام إسرائيل .

وقد أعلن الغرب دائماً أن الغرب لا يقبلون مزاحمة الإسلام لهم ، وأنهم قد وضعوا قاعدة لم تتخلف : هي أن على المسلمين أن ينتهوا من أوربا بالهجرة أو

بالتنصير من ناحية الأندلس ، ومن ناحية البلقان . وأن الغرب المسيحي قد زرع كياناً صهيونياً يهودياً بهدف التخلص من شروره ، وبهدف وضعه ككلب حراسة في هذه المنطقة لحراسة النفوذ الأجنبي :

ويذكر الباحثون في هذا الصدد ما أوصت به الملكة إيزابيلا التي شاركت في إجلاء العرب عن الأندلس - ما أوصت به الملوك والرؤساء الأسبان الذين سيتعاقبون على الحكم فيها بعد باحتلال شمال أفريقيا وإخضاعها للصليب .

وإذا نظرنا إلى القوى الثلاث المتحركة في أفق الفكر الإسلامي والمؤثرة في المجتمع الإسلامي (الإستعمارية الغربية - الماركسية الشيوعية - الصهيونية التلمودية) لوجدنا أخطارها ماثلة متصلة . وهي بالرغم من صراعها على امتلاك أرض الإسلام أو السيطرة عليها ، فإنها ملتقية على ضرب الذاتية الإسلامية والقضاء عليها .

ولا يزال التحدي الصهيوني ، والتحدي الشيوعي هما التحديان الكبيران في عالم الإسلام ، وفي مواجهة تطبيق الشريعة الإسلامية ، والحكم بكتاب الله باعتبارهما أبرز أيدلوجيتين خطيرتين ، وتمثلهما مؤسسة التبشير ومؤسسة الاستشراق .

يقول أحد الباحثين « ليس هناك أكثر تضليلاً من الأيديولوجية الشيوعية ، التي نقرأها في كتبهم فنحسبها من المثالية بمكان عظيم . بينما هي عملياً أكذوبة الأكاذيب أنها الفردوس الأرضي في كتب الدعاية ، ولكنها الجحيم في واقع الأمر والتطبيق .

لقد حولت الشيوعية مفهوم الله الواحد الخالق الرازق . إلى مفهوم عبادة الأوثان ، وتعددها في أولئك الذين يحقدون على البشرية وعلى قمتهم اليهودي كارل ماركس ، وكما عبد بنو إسرائيل العجل الذهبي . عبد الشيوعيون العجل اليهودي .

ومن هنا نشأ تفسيرهم للتاريخ ، والتصقت التعاليم الشيوعية بالمادة دون غيرها . لأن العقل اليهودي لا يمكن أن يسموا ويرتفع إلى ما فوق المادة التي عبدها وكرس حياته ، وقصر عليها . وعبيد المادة هؤلاء لا يعرفون المعاني الكريمة لأنها

ترتبط بالعقل والذهن ، وهما فوق المادة ، وكما حاول دعاة القومية أن يحرفوا تفسير التاريخ الإسلامي فيجعلوه تاريخاً قومياً خالصاً . فكذلك حاول دعاة الماركسية أن يحرفوا تفسير التاريخ الإسلامي فيجعلوه تاريخاً مادياً خالصاً ، وهم يلتقطون كلمات من هنا وهناك من عبد الله نديم . أو جمال الدين . أو محمد عبده . أو رفاعة الطهطاوي . أو الكواكبي ليلفقون منها أكاذيبهم . وكذلك كان شأن دعاة الديمقراطية الغربية حين وصفوا الإسلام بأنه ديمقراطي . ولم يكن الإسلام في يوم من الأيام ديمقراطياً أو ماركسياً أو قومياً . وإنما كان الإسلام بذاتيته الجامعة الكاملة المتفردة المنهج والهدف عن كل الأيديولوجيات ، والنحل المستمدة وجودها الحق من منهج الله تبارك وتعالى المستعلي على مناهج البشر والمادة ، وعلى الوثنيات والتحريفات .

لقد ارتفعت الأصوات الآن في الغرب والشرق على السواء تكشف عن فساد المجتمعات التي احتوتها الصهيونية العالمية بمفاهيمها فأخرجتها من روح المسيحية الحقيقية حتى يقول أحدهم « لقد وضعنا كل آمالنا في الغرب على نظريات الإصلاح السياسي والإجتماعي ، واكتشفنا بعد ذلك أننا حرمنا أعز ما نملك وهو حياتنا الروحية . وفي الشرق الشيوعي تم تدمير هذه الروح والقضاء عليها تماماً . أما في الغرب فإن المصالح التجارية تميل إلى حتفها ، أن إنقسام العالم إلى شرق وغرب أقل خطورة ورهبة من هذا المرض الذي يسود العالم شرقاً وغرباً ، وهو أزمة روح الإنسان .

ومع أن عالم الغرب بشقيه ومعه الصهيونية العالمية تحاول إحتواء عالم الإسلام ، فإنها تعيش مرحلة الإنهيار والتحلل ، وتعجز عن أن تقدم للشعوب منهجاً يحقق مطامح النفس والروح على السواء ، ويجري الغرب محاولات لتزييف مفاهيم الإسلام ، لأنها تخشى أن يقتنع بها الإنسان الغربي ، ويعتنقها بعد أن فشلت كل الأيديولوجيات المتنابذة .

ومع ذلك فإن الإسلام هو رسالة السماحة والرحمة والإخاء البشري . ولن يجد العالم في ظله إلا الأمن : الأمن النفسي الفردي ، والأمن الجماعي الذي يشمل الإنسانية كلها . فقد كانت تلك رسالته منذ بزوغ فجره وفي كل مكان ذهب إليه ، وكل ما تحاول الصهيونية تخويف عالم الغرب به عن الإسلام باطل

ومكذوب . فالإسلام عطاء متجدد من الخير لا يفرض على أحد اعتناقه ، ولا يقيم مناهج الإستعمار أو التسلط أو التدمير . فتلك ليست سمة أديان السماء ، ولا دعوة الله الحق . وإنما هي مفاهيم التلمودية والوثنية الراغبة في تدمير المجتمعات قبل السيطرة عليها . ولقد قدمت الإيديولوجيات للمسلمين مفاهيم براقة خادعة حجبت عنهم حقيقة عقيدتهم ، وجوهر منهجهم الأصيل ، ولكنه كان لا بد أن يمضي وقت قبل أن يكتشف المسلمون فساد الأيديولوجيات وعجزها عن العطاء ، واضطرابها في البيئات التي نبتت فيها ، وتبين بما لا يدع مجالا للشك أن التعاليم الإسلامية تنطوي على ما هو أعظم من الاشتراكية ، وأعمق من الديمقراطية ، وأوسع من القومية ، وبان الطريق واضح أمام المسلمين ، أن منهجهم هو الطريق الوحيد للنهضة ، وبناء الحضارة الإسلامية الجديدة التي تتطلع إليها البشرية . كذلك فقد كشف المسلمون زيف المناهج الوافدة ، كشفوا زيف الاقتصاد بمفاهيمه الغربية والماركسية الربوية وكشفوا زيف القانون الوضعي الذي لا يحمي المجتمع من الجريمة والفساد ، وكشفوا زيف التعليم العلماني الذي لا يرد شبابنا عن الهزيمة والإنحلال ، وآن لهم أن يستبدلوا بهذه المناهج المفروضة عليهم مناهج مستمدة من الإسلام والقرآن الكريم . كذلك فقد حق على المسلمين أن يكتشفوا تلك المؤامرات التي تدبر لهم وتريد احتواءهم مؤامرة تحديد النسل ، وإشاعة أعمال الإجهاض والتعقيم بينهم . بل أن هناك ما هو أخطر من ذلك . فقد أشارت الصحف إلى أن الغرب يستعمل شعوب العالم الثالث بمثابة حيوانات تجارب لتجربة الأدوية الجديدة عليهم قبل أن يستعملها الأوربيون .

وعلى المسلمين بناء أجيالهم الجديدة على روح الصمود أمام مغريات العصر التي تستهدف تدمير كيانهم النفسي والاجتماعي ، فيعجزوا عن مقاومة الغزو والتدمير الذي يراد بهم حتى لا يمتلكوا زمام الحضارة والعلم ، وليؤخروا إنهيار الحضارة الغربية .

ومن هنا كانت صيحة إطلاق الفنون التي تستهدف الأباحية والجريمة والجنس من أشد الدعوات خطراً ، لأنها تحطم الضوابط الأخلاقية ، والالتزام الإنساني لحماية المجتمعات والحيلولة دون سقوطها في الاحتواء الصهيوني التلمودي ، أو الأممية الشيوعية ، وعلى المسلمين أن يكونوا على إحساس واع

بالنوافذ والأبواب الخارجية ، وما يهب عليهم منها من رياح وتيارات ، وأن يكونوا الحراس الوعاة اليقظين المرابطين في كل الثغور ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾ وأن لا يقعوا في براثن تلك الدعوات التي تدعوهم إلى هدم الذاتية أو إمحاء المعالم التي تميز شخصيتهم عقائدياً وإجتماعياً وخلقياً باسم التقدم والعصرية ، والتفتح . . فإن أعظم ما يجب أن يحرص عليه المسلم هو أن لا ينصهر في الأممية ، أو يفقد أصالته أو هويته أو ذاتيته الخاصة التي تجعله في الناس علماً على التوحيد الخالص ﴿**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة**﴾ .

ازمة الحضارة المعاصرة

تجري في السنوات الأخيرة محاولة لفرض مفهوم للحضارة يدعى إليه المسلمون والعرب عن طريق ندوات عالمية تعقد هنا وهناك . يختلف عن مفهوم المسلمين الأصيل للحضارة وعلاقتها بالعلم وبالحرية وبالفن . وقد حمل لواء الدعوة إلى هذا المفهوم مجموعة من عرفوا بالتبعية لهذه النظرية من الفكر العربي ، أو تلك جرياً بين الماركسية والوجودية والمادية الليبرالية . والبرجماتزمية وغيرها من مذاهب ، وهم رجال عرفوا بإغضائهم عن مفهوم الإسلام تجاهلاً أو خصومة ، فضلاً عن الولاء الثقافي بعد الانتماء الفكري .

وأبرز وجوه التعارض بين هذا المفهوم الذي ندعي إليه ، وبين مفهومنا الأصيل الذي نؤمن به أن وجهة النظر الوافدة تستمد منطلقها من نظرة مادية خالصة ، لا يعرفها الفكر الإسلامي الجامع بين الروح والمادة والعقل والقلب في إطار مفهوم جامع ، ومنظور متكامل هو في ذاته دين ومنهج حياة ، ونظام مجتمع .

وإذا كانت هذه النظرة تستمد منطلقها من الفكر المادي فتغفل الجانب النفسي والروحي والمعنوي جميعاً . فإنها تستهدف غاية من أخبث الغايات التي يتطلع إليها أولئك الراصدون وراء النظريات والمذاهب من أجل أهداف لم تعد تخفي على أحد ، وهي إحتواء العالم الإسلامي . والسيطرة عليه فكرياً . وتدميره إجتماعياً .

والسؤال الذي يتردد : لماذا لا نترك التطور الإجتماعي في العالم الإسلامي يسير في طريقه الطبيعي إنتقالاً من البداوة إلى الحضارة ، ومن الريف إلى المدنية ،

وما وجه العجلة في البحث عن الطرق التي تؤدي إلى الإسراع الشديد لنقل المجتمع الإسلامي إلى الحضارة العصرية مخالفين في ذلك أدق دقائق نظريات العلم ، وهي التحول الطبيعي للأشياء في مراحل متعددة تستوفي كل مرحلة منها مداها ، وتنتقل إلى الأخرى ؟ .

إن هذه المحاولة في الدعوة العاجلة إلى الإسراع نحو التحضير والقضاء على البداوة إنما هو بمثابة عملية إجهاض خطير ، يراد منها القضاء على مقومات هذه الأمة وقيمها وأخلاقها ومثلها الأعلى . فليست الدعوة التي يدعوها هؤلاء المؤتمرون هي بمثابة وضع الوسائط إلى نقل الأمة الإسلامية إلى الحضارة نقلاً صحيحاً . وذلك عن طريق الانفتاح العلمي من الغرب على العالم الإسلامي ، بتيسير وسائل نقل العلم والتكنولوجيا ، وأساليب التقدم في مجالات الزراعة والصناعة ، والكشف والبحث في أعماق المحيطات ، وتفجير الصخور ، وإستخراج الثروات المدفونة . وإنما تجيء الدعوة بطريق آخر : هي الدعوة إلى تحرير هذا المجتمع من كل قيوده الأخلاقية والدينية والأدبية . وما تعارف عليه من قيم وعقائد وعادات . بوصف هذه كلها بأنها من القديم البالي المعوق عن التقدم الحائل دون النهضة . ولقد قيل هذا للعرب بعد النكسة ، وتبين كذبه وضلاله . ثم ها هو يقال لهم بصورة أخرى بعد انتصار العاشر من رمضان .

أن الغرب ضنين بأسرار العلم وفتوحاته ، ولكنه مسرف في العطاء في مجالات الأضواء الكاشفة ، والترف والمتع الزائفة ، وفتح الطريق أمام الفنون المنحرفة والتحلل الخلقي ، والملابس والأزياء والمودات والعطور وتصنيف الشعر والأغاني والمراقص . هذه التي يصدرها إلينا في غير ما حساب .

ومن هنا نفهم سر الدعوة إلى الإسراع في تحضير العالم الإسلامي ، ونقله نقلة خاطفة إلى الحضارة الحديثة التي تمر اليوم في أسوأ مراحلها ، وتوجه أخطر أزماتها . ويجد أهلها وشبابهم عشرات التحديات من الانحراف والتمزق والتحطم النفسي والتدمير العقلي . ثم نطالب نحن بأن نسرع لنأخذ حظنا من ذلك كله . فإذا ما توقفنا قليلاً نبحث ونفكر فيما نحتار ، وما ندع ، وننظر فيما يتفق مع قيمنا ومقوماتنا . وما لا يتفق . وصمنا بأننا متخلفون ، وأننا في أزمة تطور حضاري .

ولقد كان حقاً لنا أن نقول لهؤلاء المؤتمرين أن كلمة الحضارة لها في الفكر

الإسلامي الذي نعيش في إطاره منذ أربعة عشر قرناً . والذي واجه عشرات من الأزمات والعواصف ـ لها معنى مختلف تمام الأختلاف عن المعنى الغربي الوافد الذي يراد فرضه اليوم على المسلمين والعرب . وهذا المفهوم يتصل أيضاً بمعنى التقدم والعصرية والتحديث ، وكلها كلمات في أصلها الأصيل لا تتعارض مع الإسلام إلا في الفرق بين النظرة الكلية الإسلامية والنظرة الجزئية الغربية . فنحن نفهم الحضارة بمعناها الجامع بين تحضير المجتمعات وتحضير النفس الإنسانية ، ولا نضحي في سبيل التقدم المادي بالنفس الإنسانية لتصبح مدمرة ممزقة تعيش في كهوف الخوف والشك والتشاؤم على النحو الذي نراه في الغرب ، وأمامنا التجربة كاملة ، وأمامنا الوثائق والنصوص مما حدث ويحدث كل يوم في مجتمعات الغرب المسرعة إلى أعلى درجات التحضير .

وقد كان خليقاً بهؤلاء الرواد أن كانوا صادقين في النصح لأممهم ـ والرائد لا يكذب أهله إلا إذا كان من غير أهله ـ كان خليقاً بهم أن يدرسوا تجربة الغرب وينظروا إلى مجتمعنا في ضوئها . فأما هم يريدون أن يصل الإنسان في مجتمعنا إلى مثل هذا التمزق حتى تفقد هذه الأمة آخر مقوماتها فهم يدمرون المجتمعات الإنسانية قبل أن يسيطروا عليها . وإما أنهم يعلمون حقاً مدى أبعاد هذه التجربة التي قدمتها مدرسة العلوم الإجتماعية . والتحليل النفسي ، والماركسية والوجودية ، والتفسير المادي للتاريخ . وأنهم يريدون أن يقطعوا آخر خيط يربطنا بالفكر الإسلامي الذي هو في الجانب الآخر تماماً من ذلك كله . والمعترض دائماً ، والقائم بالحق في إطار التوحيد ليبني قاعدة الأمة الربانية التي تقاوم وتدفع أولاً ، ثم تدعو إلى الله على بصيرة .

نحن نعرف أن الحضارة الحديثة التي ندعي إليها هي علم وسلوك . أما العلم فهو ما قدمته المعامل والأبحاث التجريبية في مجال التقدم . فذلك نأخذه دون تردد . لأنه من المعارف العالمية . أما فيما يتعلق بنظريات الإجتماع والأخلاق والنفس والتربية . فذلك لنا معه وقفة . هو أن ننظر فيه في ضوء ما عندنا في ضوء : (النظام الإسلامي) الذي نحن مرتبطون به كمسلمين . والذي رسمه القرآن الكريم ، ونفذه محمد ﷺ وأقام عليه شرعة المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إن الدعوة إلى الحضارة لا تستهدف إعطاء العلم للمسلمين ، ولكنها تستهدف تقديم (أسلوب العيش) الغربي ممثلاً في الأخلاق ، واللباس والزينة ، والمعاملة والعلاقات الإجتماعية بين الأسرة والأمة ، وبين الأبوة والبنوة ، وبين الرجل والمرأة في ضوء هتافات صارخة للحرية ، وكسر القيود والأنانية والنفعية والتحليل . وهذا الأسلوب من العيش الذي لا حاجة لنا به . هو هدف المؤتمرين ، لكي نصبح متحضرين عندما نقطع آخر علاقاتنا بالقيم والتقاليد والضوابط الإسلامية التي توصف بأنها بالية وقديمة وصحراوية وبدوية وهكذا .

إن مطلب أصحاب ندوة أزمة التطور الحضاري هي لتحرر من دعم روابط الأسرة والمحبة والأخوة ، ورعاية الفقراء والضعفاء ، وتقبل المذهب الذي دعا إليه نيتشة بقتل الضعفاء ، والمذهب الذي يقوم عليه البرجماتية من إنكار أبوة الآباء والعجائز والضعفاء ، وانفصال الأبناء ، ومن الدعوة التي دعاها دور كايم إلى إنكار فطرية الأسرة ، وعدم ضرورتها . وأن يكون الأبناء للملاجيء والمؤسسات .

كذلك فهي تدعونا إلى فهم الأخلاق على أنها نسبية ومرتبطة بالمجمعات . فنحن إذا أردنا الخروج من البداوة علينا أن نخرج من أخلاقها ، إلى أخلاق مجتمعات الحضارة والعمل . تلك التي لا ترى قوامة للرجل على المرأة ، ولا ترى وصاية للأب على الإبن ، والتي ترى فيها المرأة نفسها رجلاً لأنها تكسب ، فلا يكون للرجل عليها نفوذا ما . وتلك التي ترى أن الأب هو الشخصية الكريهة في الأسرة ، والتي تحرر الأبناء من كل قيد وضابط ، وانتفاع بتجربة سابقة وهي التي تدعو المجتمعات والناس إلى التحرر من كل القيود والقيم والمحرمات مع السخرية بها جميعاً اندفاعاً إلى التحلل والإباحة ، وجريا وراء الترف والرفاهية بما يتصل بذلك كله من مسرح وأضواء ورقص ومهراجانات صاخبة وعربدة . هذه هي الحضارة في مفهوم أصحاب ندوة أزمة التطور الحضاري . أن الأزمة قائمة ، لأننا لا زلنا لم نكسر قيود الدين والأخلاق والقيم التي تحول بيننا وبين هذه الحرية .

وليس كذلك مفهومنا للحضارة ، ولن يكون هذا مصيرنا أبداً . فنحن بالرغم مما وقع فيه البعض من انحرافات نحو هذا الاتجاه ، فما زال المجتمع الإسلامي في ضميره وأحشائه وقواه الأساسية سلبياً وقائماً على المفهوم الأصيل :

مفهوم الخلق والفضيلة والخير والعفة والغيرة والإيمان بالبكارة والزواج الشرعي، ولن تهدم هذه القاعدة أبداً.

وكل المحاولات لهدم هذه القاعدة هي: محاولات فاشلة. فلن تضحي هـذه الأمة الإسلامية في سبيل زخرف الحضارة بالقيم والمقومات، وسوف لا يزعجها أبداً أن توصف بأنها ريفية أو بدوية. فمن الريف والبدو خرجت كل القوى الحية النابضة التي غيرت وجه التاريخ، وما قامت دعوات الإصلاح والبناء وتحرير الأمم من الاحتلال والغزو إلا من تلك الإطارات الريفية البدوية الصارمة التي لم تدمرها مفاتن الحضارة، ولم تنحل في قلوبها وأجسامها قوى الصمود.

إن هذه الدعوة إلى الحضارة إنما ـ تستهدف القضاء على قوى الصمود التي علمنا إياها الإسلام، والتي ما تزال باقية في أعماق الأمة وفي أحشائها بعيداً عن بعض المدن التي جرفتها عوامل الترف والرفاهية.

ولقد عاب أحد كبار الباحثين على الجزائريين والمغاربة في وقت سابق مقاومتهم للاستعمار ووصفه بأنه مقاومة للتحضر الذي تريد الأمم الغربية أن تدخله إلى العالم الإسلامي. ولقد دعانا هذا الباحث إلى أن الطريق الوحيد أمام المسلمين هو قبول الحضارة الغربية حلوها ومرها، وخيرها وشرها. وما يحمد منها وما يعاب. وتوالت دعوات أمثاله، وتكررت، وسقطت جميعها. لأن الأمة في صميم إيمانها وضميرها وعقيدتها لن تقبل من الحضارة الغربية إلا الوسائط التي تحسن بها الحياة الإجتماعية. وإلّا قوى العلم والتكنولوجيا.

أما أسلوب العيش الغربي الذي ندعي إليه منذ قديم، وتتجدد الدعوة إليه اليوم، فلن نقبله، وستظل قيمنا حاجزاً عازلاً. ستظل عقيدتنا حائطاً مرتفعاً يحول بينها وبين السقوط في هوة التحلل الذي تمر به الحضارة الغربية اليوم.

ستظل الأسرة في المجتمع الإسلامي قيمة أساسية. وستظل العلاقة بين الآباء والأبناء قائمة على الحب والتوجيه الصادق، وستظل الأم مصدر الحنان للطفل مهما تخلفت مئات الأمهات. وستظل الأصالة رائد هذا المجتمع الإسلامي ما دام القرآن يتلي ويجدد دعوته، ويذكرنا بذلك الارتباط الوثيق، والعهد الأكيد في بناء المجتمع الرباني المخالف لمجتمعات البشرية، المعارض لأهواء أعداء الإنسانية وأتباعهم.

القانون الوضعي والشريعة الاسلامية

لا تطلبوا مستقبلكم في تقليد النظامات الأوربية فاطرحوها وامعنوا في مشهد ما نحن فيه من الفوضى الخداعة ، واطلبوا من دينكم مفتاح مستقبلكم .

من أكبر المفارقات الخطيرة التي أحدثها النفوذ الأجنبي في العالم الإسلامي هي محاولة ضرب الشريعة الإسلامية واتهامها وإثارة الشبهات حولها . وذلك بعد حجبها عن المجتمعات الإسلامية لأول مرة منذ أربعة عشر قرناً ، ووصفها بأنها شريعة صحراوية أو مؤقتة ، أو استنفذت أغراضها .

كان هذا يحدث في البلاد العربية والإسلامية عن طريق رجال الاستعمار والتبشير وأتباعهم من تلاميذ التعريب في نفس الوقت الذي تكشف فيه الأبحاث العلمية الجادة في الغرب عن صفحات باهرة من عظمة هذه الشريعة وجلالها حتى ترتفع عقيدة أعلام القانون الأجنبي في فرنسا وألمانيا وغيرها بتقدير هذه الشريعة وتكريمها . وبالتخلي عن كثير من الدعاوي بأن الفقه الغربي استطاع استخراج قوانين جديدة . وذلك عندما كشف الباحثون المسلمون أن مصادر هذه القوانين هو الفقه الإسلامي نفسه .

ولقد كان من العجيب أن يجتمع مؤتمر القانون الدولي في جنيف ليقرر أن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة حية ليست مأخوذة من تشريعات رومانية وغيرها . ثم يجتمع في نفس المكان ، وعلى مدى زمن يسير رجال الاستعمار ليلزموا إحدى البلاد الإسلامية العربية بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية أن تلتزم بالقوانين الوضعية ، وأن لا تطبق الشريعة الإسلامية .

هذه مرحلة تاريخية يجب أن يراجعها المثقف المسلم ليرى كيف كان الاستعمار والنفوذ الأجنبي حريصاً لتثبيت نفوذهما في حجب الشريعة الإسلامية عن التطبيق في بلادها بعد أربعة عشر قرناً فقط ، وإنما لاحتواء المجتمع الإسلامي ، و إخراجه من هذا التراث الضخم الذي وقف أكثر من سبعين عالماً من علماء الفقه الغربي على مدى أكثر من ثمانين عاما . ومن خلال أكثر من عشرين مؤتمراً بتحية الشريعة الإسلامية وتقدير عطائها ولوم المسلمين على تجاهلها ، وقبول القوانين الوضعيـة وإن كانت هذه المحاولة قد تقلصت كثيراً . إلا أن العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ما زالت تواجه عقبات ضخمة . غير أن الشريعة الإسلامية لأنها كلمة الله الحق . فقد وجدت دائماً حتى من غير أهلها من اعترف بها وأشاد بها .

وإذا ذهبنا نبحث عما كشفت الأبحاث القانونية الجديدة من جوانب الشريعة الإسلامية وذخائرها وكنوزها لوجدنا الكثير من المادة الخصبة لقوانينها . بل إن القانون الروماني الحديث إنما أخذ من الفقه الإسلامي مما نقله علماء القانون من أسبانيا ، وما نقله علماء الحملة الفرنسية من فقه الإمام مالك . وقد ظل الغرب لا يعترف بهذه الحقيقة أمداً طويلاً ، ولكن بعض المنصفين في السنوات الأخيـرة قـد أشـادوا إلى أنـهم استمدوا قانون حرمة المساكن من نصوص الفقه الإسلامي استمداداً من آية القرآن الكريم **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم﴾** .

قال المسيو فرنان داجين : يكاد يكون الاعتقاد السائد في فرنسا أن احترام المسكن لا يشغل في تقنين العالم الإسلامي إلا مكاناً حرجاً . وقد ثبت أن الشريعة الإسلامية تحرم مثل هذا الانتهاك تحريماً مطلقاً . ولقد كشف عمر لطفي في دراسة له قدمها إلى جامعة باريس : أن القرآن الكريم حرم على كل شخص أن يدخل بيت الآخر بغير رضاه إلا في أربع حالات :

(١) إذا كان مرخصاً له الدخول فيه عادة .
(٢) إذا دعي إليه فإن الدعوة تساوي الإذن بالدخول .
(٣) إذا دعي في حالة حريق أو فيضان أو ارتكاب جناية .
(٤) إذا كان البيت مفتوحاً للأفراد كالحانوت والحمام ، وكل من ينتهك

حرمة مسكن استحق التعذير ، والتعذير هو عقاب لكل جريمة ليس لها حد . حده الأول التوبيخ ، والأقصى القتل ، حسب جسامة الجريمة ، وحال المحرم ، ومع ذلك فإن تحريم دخول المسكن من غير استئذان ليس قاصراً على الأفراد . بل يتناول السلطة الحاكمة .

كذلك ظن الغربيون أو حاولوا القول بأن نظريات أخرى هي من صنع عقولهم . ثم تبين أنها مأخوذة من الفقه الإسلامي . فإن نظرية التعسف في استعمال الحقوق التي يفخر بها القانون الألماني قد ثبت أنها مأخوذة من الإمام الشاطبي الذي أثبت بعد تحليل وتفصيل دقيقين أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعاً ، إذا لم يقصد منه فاعله إلا الإضرار بالغير . وفي هذا الموضوع قدم الدكتور محمد فتحي أطروحة دكتوراه في فرنسا . (أبان الاحتلال البريطاني لمصر) عن مذهب الاعتساف في استعمال الحق . وقد علق العلامة : كيهلر العالم القانوني على هذه الرسالة فقال : لقد كان العلماء الألمان يتيهون عجباً على غيرهم في ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها في القانون المدني ١٧٨٧م . أما قد ظهر بحث الدكتور فتحي وأفاض في شرح هذا المذهب عند رجال التشريع الإسلامي ، وبان لنا أن رجال الفقه الإسلامي تكلموا طويلاً ابتداء من القرن الثامن الميلادي ، فإنه يجدر بالعلم القانوني الألماني أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية .

كذلك فقد أعلن منذ وقت بعيد أن نظرية الظروف الطارئة ، ونظرية تحمل التبعة ، ومسئولية عدم التحيز وكلها نظريات قانونية حديثة لها أساس كبير من الشريعة الإسلامية .

وقد قدم عمر لطفي بحثاً أثبت فيه أن قوانين الدعوة الجنائية وحرية المنازل ، وحق المرأة ، وحق الدفاع كلها ذات مصدر أساسي من الشريعة الإسلامية .

وقد كشف ذلك في مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤ ـ وقد أدهش ذلك علماء القانون العالميين حتى قال العلامة : شال ميرمر : اسمحوا لي أن أنصح لجميع المسلمين في شخصكم أن لا يطلبوا مستقبلهم في تقليد النظامات الأوربية والمسيحية ،

فاطرحوا هذه النظامات ، وامعنوا النظر في مشهد ما نحن فيه (نحن الأوربيين) من الفوضى الخداعة ، واطلبوا من دينكم الذي هو أسمح دين وأكثر مساواة مفتاح مستقبلكم ، ولا تفضلوا أن تستعيروا منا إلا الاكتشافات العلمية الخاصة بإنماء سعادتكم المحلية .

ومنذ ذلك الوقت بدأ علماء القانون الغربيون يصدعون بهذه الحقيقة ، حقيقة عظمة الشريعة الإسلامية في نفس الوقت الذي كانت كلمات كرومر في امتهان الفقه الإسلامي يتداولها كتاب أمثال : محمود عزمي - وطه حسين - وعلي الرازق وغيرهم في إنكار فضل الإسلام دينهم الذي ولدوا عليه وعرفوه وعاشوا فيه . ولما استطار أمر الشريعة الإسلامية في الغرب ، وأخذ المسلمون يطالبون بالعودة إليها ، وتطبيقها . وبدأت الدساتير العربية تنص على ذلك . قامت قوى النفوذ الأجنبي بمحاولة خطيرة هي « صهر الشريعة الإسلامية داخل إطار القانون الغربي » . وقد حمل لواء هذه الدعوة الدكتور عبد الرازق السنهوري ، وجرى في هذا المجرى مجموعة من الغربيين لاحتواء دعوة الأصالة في عودة المجتمع الإسلامي العربي إلى تطبيق الشريعة الإسلاميةوتمثلت هذه الدعوة في القول بأن الشريعة ثابتة في العقائد ، متغيرة في المعاملات ، واتخذوا من بعض النصوص التي وردت في فترة ما من الفترات دفاعاً عن مقدرة الشريعة على التجاوب مع الأحداث والعصور على استغلال الشريعة الإسلامية لتبرير أوضاع المجتمعات الفاسدة أو تقبل أوضاع الحضارة الغربية ، وخاصة في مجال الربا والفساد الإجتماعي ، وخاصة في العلاقات الإجتماعية بين الرجل والمرأة والأسرة بهدف كسر الضوابط والحدود التي وضعها الإسلام لحماية الأعراض والأنسال . ثم جاء القول بأن الشريعة الإسلامية يمكن أن تنصهر في الفقه العالمي . والقانون الغربي ، وذلك بالدعوة إلى ما يسمونه تطوير الشريعة بجعلها ملائمة للأوضاع القائمة وأنماطها المعقولة من الغرب . وقد غاب عن هؤلاء استحالة خضوع الشريعة الإسلامية الربانية المنزلية من السماء بالقوانين البشرية التي هي جماع أهواء البشر ، والذي كان لليهودية العالمية دخل كبير من أجل إقامة امبراطورية الربا ، ثم جاء خطر جديد ثالث هو محاولة تطعيم القوانين الوضعية القائمة الآن ، والمطبقة في البلاد الإسلامية بالشريعة . وفي ذلك ما فيه من خطر بقاء الأهداف والغايات البشرية وما في ذلك من خطر الحيلولة دون قيام المجتمع الإسلامي

الأصيل الذي يستمد مقومات وجوده من الشريعة أصلاً ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾ .

ولقد كان من أربز ما دعت إليه حركة اليقظة الإسلامية : العودة إلى الشريعة . وقد كونت في خلال سنوات طويلة رأيا عاما قويا استطاع أن يحقق خطوات في مجال إقرار مبدأ الشريعة مصدراً للقانون . وقد كان معلوما بالطبيعة تلك الفوارق الواضحة بين الشريعة والقانون الوضعي . وأثر ذلك في بناء المجتمع الإسلامي وحمايته من الأخطار التي تهدده . بل لقد أعلن غير واحد من المسئولين في البلاد العربية أن تطبيق الشريعة الإسلامية هو الوسيلة الوحيدة لتقويم ما في المجتمع من اعوجاج ، وأنه من اللازم التعجيل بإصدار قوانين الحدود ، وخاصة في جرائم السرقة والزنا . وهناك ضرورة عاجلة لتقنيين الأنظمة الاقتصادية ، وخاصة فيما يتعلق بإلغاء نظام الربا ، وإقامة المصارف الإسلامية ذات المفهوم الأصيل .

وقد بات واضحا أن للشريعة الإسلامية ذاتية أساسية تختلف عن القانون الوضعي . وقد كشف المرحوم الأستاذ عبد القادر عودة عن مدى عمق الفوارق بين الشريعة والقانون في كتاب ضخم في ثمانمائة صفحة من القطع الكبير من حيث أنها تخاطب الحاكم والمحكوم على قدم المساواة . فالمسلم في الشريعة الإسلامية مكلف بأن يرعى المصلحة العامة . ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ والخطاب الإلهي الموجه للمؤمنين خطاب واحد ، والحاكم والمحكوم أمام الخطاب الواحد على قدم المساواة على حد تعبير الدكتور مصطفى كمال وصفي . فالخطاب من الله ، والإلزام رباني للجميع ، والطاعة فيه لله تعالى ، وأن الدولة الإسلامية وليدة الشريعة ، وأن الثبات والشمول هما الصفتان البارزتان في مشروعية الإسلام ، وهي مشروعة ثابتة وشاملة وأصيلة ، وغير قابلة للتلاعب ولا للأهواء السياسية وهي مشروعية مبنية على المثل العليا ، وغاية ما يقال أن الشريعة الإسلامية تتميز بالجمع بين المصالح المادية ، والحاجات الروحية ، والجمع بين المصلحتين العامة والخاصة ، والجمع بين الثبات والتطور .

بعد ان عجزت الايديولوجيات

لم يعد هناك شك في تقدير الباحثين المنصفين أن « الإسلام » هو الذي أطلع فجر العصر الحديث ، وأنه هو الذي قدم للبشرية مفهوم الحضارة الأصيل : تحريرا للعقل الإنساني من الوثنية ، وتحريرا للإنسان من عبودية الإنسان ، وأنه وضع مفهومه الرباني في نموذج تطبيقي رائع . قدم به إلى لبشرية هذه « الأمة الوسطى » التي حملت لواء التوحيد ، وأنشأت مجتمع الرحمة والعدل والإخاء البشري ، وقدمت للدنيا : « المنهج العلمي التجريبي » فكانت بذلك فيصلا عميقا بينها وبين الحضارات : الفرعونية ـ والهندية ـ والفارسية ـ واليونانية ـ والرومانية . التي كانت تحمل طوابع العبودية والوثنية معا .

تمثلت حضارة الإسلام في قيم أساسية أربع :

أولا : تمدين الإنسانية وتحريرها من العبودية .

ثانيا : الدعوة إلى التوحيد الخالص وتحرير البشرية من الوثنية « والتعدد والإله الخاص .

ثالثا : المسئولية الفردية والبعث والجزاء .

رابعا : أخلاقية المجتمع وتكامل الفرد والجماعة دون أن يفقد الفرد ذاتيته .

ثم جاءت الحضارة الغربية استمداداً من حضارة الإسلام « وبعدها بأكثر من سبعة قرون ملتمسة نفس الأسس العلمية والحضارية ، وإن غايرت مفهوم

الإسلام للعلم والمجتمع . فقبلت المنهج العلمي التجريبي الإسلامي ، ولكنها انحرفت به إلى الاستعلاء والعنصرية ، والاستعمار وإذلال الشعوب ، وفي مقدمتها : تلك الأمة التي قدمت لها وللإنسانية هذا المنهج التجريبي .

ولقد استطاعت الحضارة الغربية أن تكتسح العالم كله ، وأن تفرض وجودها على المجتمعات الإسلامية ، ولكنها لم تستطع القضاء على الحضارة الإسلامية التي توقفت ثمة عن العطاء . ودار صراع واسع عريض بين المجتمعات الإسلامية وبين حضارة الغرب التي كانت تستهدف انتزاع المسلمين من منهجهم الأصيل ، ومدخلهم القرآني ، وأسلوب عيشهم الإسلامي ، وخضع المسلمون تحت ضغط ظروف التأخر والتخلف إلى قبول الاقتباس من الحضارة الغربية ، وترددوا طويلا بين قبول الوسائل المادية أو المعطيات الثقافية . غير أن الموقف كان حاسماً منذ اليوم الأول بأن الاقتباس المادي جائز ، لأن المسلمين هم الذين وضعوا الأسس الأولى لهذه الحضارة ، ولكن حركة اليقظة كانت قادرة على أن تكشف وجه الحق في قضية الاقتباس ، ومفهوم التقدم ، ذلك أن الغربيين لم يقبلوا القيم الأساسية حين نقلوا علوم المسلمين ، ولكنهم صهروا هذه العلوم في منهجهم العقائدي والثقافي .

ومن هنا فإن ما يقدم للمسلمين اليوم: ليس هو ما قدمه المسلمون من قبل . وأن على المسلمين أن لا يأخذوا الأمور من نهاياتها ، وأن يكون موقف المسلمين من اقتباس الحضارة الغربية قائما على أساس واضح هو : اقتباس الأساليب والتنظيمات ، وليس اقتباس الأيديولوجيات والمناهج. ويحدد البعض القول بأن الحضارات تتلاقى وتتلاقح،وهو قول ساذج ومضلل . ذلك أن الحضارة الإسلامية : « حضارة التوحيد » لا تستطيع أن تلتقي بالحضارة الوثنية الغربيه ، وهو من الاستحالة بمكان ، ذلك أنه لا يمكن أن تلتقي الحضارات إلا إذا كانت من نبع واحد . وبين الحضارة الإسلامية وحضارة الغرب بون شاسع وأبعاد عميقة من الأساس الفكري . ولذلك فإنه من المستحيل أن تلتقي الحضارتان في حضارة واحدة ، أو أن يقتبس المسلمون الحضارة الغربية في مرحلة انهيارها أو يتخلوا عن أسلوب العيش الإسلامي ومنهج الفكر والعقيدة والروح الأساسي . وإذا كانت « المسيحية » لا تستطيع إنقاذ الحضارة ، وكذلك لم يستطع العلم ولا الماركسية ،

فإن الإسلام يستطيع أن ينقذ الإنسانية حين يقدم حضارته الإسلامية الأصيلة التي توقفت عن العطاء ثمة، وباتت اليوم مؤهلة لتتقدم إلى البشرية بوصفها الأداة الوحيدة لإنقاذها.

ولقد بات معروفا أن الحضارة الغربية المعاصرة لم تعد تملك إمكان حل أزمتها الخانقة بعد أن عقمت التربة، وفسد الهواء، فهي تقفز من حل إلى حل، ومن منهج إلى منهج، في محاولة الخروج من الأزمة دون جدوى، منذ أن تركت الدين. بعد أن عجزت التفسيرات اللاهوتية أن تقدم لها ما تتطلع إليه من عطاء النفس والروح، مرتبطا بمنجزات العلم، لم يكن هو الدين الذي يواجه الحضارة، ويعارض العلم. ولكنها كانت تفسيرات الدين مختلطة بسموم الفكر البشري. والوثنية الهيلينية والمادية التلمودية. ففشلت الفردية لأنها استعلت وفشلت الجماعية لأنها سحقت الفرد، وفشلت الرابطة القومية لأنها أصبحت عدوانية لمن جاورها، وفشلت الرابطة العالمية لأنها كانت غير إنسانية. وهكذا اضطربت كل القيم والمقاييس، فإلى أين يتحرك التطور بالحضارة، وإلى أي مدى، وأين وجهة الحضارة، وأي هدف، وأين غاية العلم. وإلى أي حد؟ لا بد من وجود الأثاث الثابت، حيث تبدأ منه الحركة وتنتهي - ونقطة البدء والنهاية بعد الحركة الواسعة يجب أن تعود إلى أصل أصيل. هذا الأصل الأصيل هو من عند الله، وليس من صنع الإنسان.

لقد أمن المسلمون بأن أخلاقية الحضارة وإنسانيتها هي قانون بقائها واستمرارها، وكلمة السر التي تسقط إذا انسحبت منها. ولقد جاوزت الحضارة الغربية ضوابطها إلى معارضة قوانين الحياة بالإسراف في تدمير الإنسان، ودفعه إلى شهواته وأهوائه. إنها حضارة وليدة عن حضارة الإسلام، ولكنها انحرفت مرة ثم مرة أخرى. وما تزال أصول الحضارة الإسلامية قائمة، وما تزال الحضارة الوليدة المنحرفة تصيبها قارعة حتى تسقط وتبقى حضارة الإسلام ما دامت تسير على سنن الله تبارك وتعالى. وتلتمس الطريق المستقيم.

لقد صاغ المسلمون حياتهم وحضارتهم في ظل الإسلام منذ نزوله، وجددوا الحياة مرة ومرة خلال تاريخهم المتصل، وهم قادرون على صياغة التاريخ في الغد القريب والبعيد. لقد بدأت الحضارة الإسلامية من منطلق المجتمع الإسلامي

واستصفت تراث الحضارات وصهرته في بوتقة التوحيد .

لقد سقطت الحضارة الرومانية بسقوط روما ٤٤٠م ، وبدأت الحضارة الإسلامية بعد ذلك بقرنين ، وامتدت حتى وصلت إلى قلب أوربا في القرن السابع الميلادي .

أما الحضارة الغربية فإنها بدأت على أصح الأقوال في القرن الخامس عشر الميلادي بحركة « الرينسانس » بعد فاصل زمني امتد ألف عام بعد سقوط الحضارة الرومانية لم يعرف العالم خلالها إلا عطاء الحضارة الإسلامية ، وأن سنوات ما يسمى عصور الظلام في أوربا كانت عصر النهضة والضياء الإسلامي الذي انتشر ما بين الصين شرقا ، وبين نهر اللوار غرباً .

لقد سبقت الحضارة الإسلامية حضارات وثنية عبودية : كان آخرها الفرعونية والفارسية والرومانية ، وقد سقطت هذه الحضارات وتوارت إلى الأبد وسقطت مجتمعاتها كما سقط فكرها ولغاتها وكيانها كله .

وبدأت الحضارة الغربية في القرن الخامس عشر « التاسع الهجري » وليدة الفكر الإسلامي ، ومن منطلق المنهج العلمي التجريبي الإسلامي الذي نقله المسلمون إلى الأندلس قبل غروب شمس الدولة الإسلامية فيها بقرنين أو ثلاثة .
وقد تمثلت حضارة الإسلام في قيم أساسية خمس :

أولا : تمدين الإنسانية وتحريرها من العبودية .

ثانيا : الدعوة إلى التوحيد الخالص وتحرير البشرية من الوثنية والتعدد والإله الخالص .

ثالثا : المسئولية الفردية والبعث والجزاء .

رابعا : أخلاقية المجتمع وتكامل الفرد والجماعة دون أن يفقد الفرد ذاتيته .

خامسا : التفرقة بين الألوهية والنبوة ، وبين النبوة والبطولة .

وحين سيطر الاستعمار على العالم الإسلامي الذي كان قد دخل مرحلة التخلف حاولت القوى الأجنبية عن طريق الاستشراق والتبشير والغزو الفكري ،

ثم عن طريق الماركسية والصهيونية إفساد صورة الحياة الإسلامية وتشويهها حتى تعجز عن أن تجد القبول في الغرب ، ولكن الحق لم يلبث أن استعلن ذلك ، لأن حضارة الإسلام كانت وستظل بشهادة المنصفين الغربيين أنفسهم مصدرا عظيما من مصادر الخير والرحمة .

ولقد كشفت هذه الأرقام رغما عنها هذه الحقائق . ولقد جاء هذا الاعتراف بعطاء الحضارة الإسلامية في مرحلة دقيقة . تلك هي مرحلة توقفها عن العطاء ، وكان ذلك مصدرا للتساؤ ل : هل هي قادرة على إنقاذ الحضارة الغربية ، وذلك بإعطائها ما ينقصها ، كما حاول أن يقول بذلك المؤرخ توينبي وغيره . ولكن الواقع كان يؤكد أن للحضارة الإسلامية طابعها المتميز الفريد ، وهي به قادرة على إنقاذ البشرية نفسها ، وليس إنقاذ الحضارة الغربية التي دخلت مرحلة المحاق .

إن أخطر الحقائق التي يجب أن يفهمها المسلمون ويضعون أمامهم نبراسا لا يغفلون عنها أبداً : تلك هي أنهم (الأمة الوسطى) أقامها الله في هذه المنطقة الخطيرة بين القارات ، وعلى مفارق الطرق بين الشرق والغرب ، وفي مواجهة مطامع الدول وأهواء النفوذ . وفي هذا الجزء الغني الحافل بثرواته وخبراته من العالم . والذي هو منذ فجر البشرية مطمع الغزاة ، ومن حوله تحاك مؤامرات الصراع والسيطرة ، ومن هنا فلا بد أن يعرف المسلمون مكانهم الخطير وموقفهم الدقيق . ويفهمون مدى مايضع هذا على عاتقهم من مسئولية ، ويفرض عليهم من يقظة ، ويلزمهم بأن يكونوا قادرين على حماية بلادهم ، والسيادة على أرضهم ، والتحكم في مصادرهم ومواردهم . ولا ريب يفرض ذلك عليهم استعداداً قائماً ، وشحنا للثغور دائماً ، وحشداً لا يتوقف ولا ينفرط . فهم في رباط إلى يوم القيامة ، حسبما حدث عن ذلك رسول الله ﷺ ، وأن نظرة سريعة إلى التاريخ لتكشف في وضوح أنهم عاشوا تاريخهم كله في رباط ومقاومة وإعداد لمواجهة عدد لا يغفل عن حصارهم إذا ما غفلوا .

ومن هنا فإن أسباب نصرهم تتركز في التماسهم قيمهم الأساسية ، ومفهومهم الأصيل لحضارة التوحيد والرحمة والإخاء البشري . ولا بد أن يكون التقدم الحضاري جامعا بين التقدم الخلقي ، والتقدم المادي . أما التنازل عن الأخلاق فإنه هو مصدر الأزمات التي دمرت كل حضارة لا بد أن تسير الحضارة

الإسلامية بوجهة الله ، وعلى طريق الحق ، وإلا فإنها لن تستطيع أن تحقق وجودها . وكل حضارة لا تلمس هذا الوجه فهي زائلة . ولذلك فإن الإسلام يقف من الحضارة موقف المعارضة من الوجهة المادية ، وفي إسرافها في الترف ، وفي إنكارها للصانع الأكبر جلت قدرته .

إن وقوف الإسلام بحدوده وضوابطه في وجه الحضارة لا ينقص عطاءها المادي ، ولا تقدمها ، وإنما ينقص من الأخطار التي تحيط بها . ومن الوجهة الضالة الإباحية المادية المسرفة ، والإسلام يقطع في هذا الأمر بالرأي ، فلا سبيل إلى قبول التقدم الحضاري المادي الصرف ، ولا سبيل إلى التنازل عن الضوابط الأخلاقية والاجتماعية ، ولا يضير الإنسانية أبداً أن يتوقف هذا الجانب الحضاري الإثم ، وأن يعترف العالم بمن بيده مقاليد القوانين والسنن ، وصانعها ومعلم الإنسان إياها ، والقادر على تغييرها وخرقها .

ولا ريب أن المسلمين اليوم وهم يقفون على مفترق الطرق يلتمسون العلم والتكنولوجيا ومعطيات الحضارة ، ويستشرفون هذه المرحلة الجديدة من حياتهم ، فإنهم في حاجة إلى أن يعبروا عن هذا الإيمان بأسبقية الإيمان بالله والأخلاق على كل عطاء حضاري مادي ، وليعلموا أن نقل مستحدثات العلم والتقدم ، إنما هو ليكون امتدادا خاصا يهم يصهرونها داخل إطار فكرهم وقيمهم . وبذلك يصنعون الحضارة القادمة : حضارة القرن الخامس عشر الهجري .

ارنولد توينبي وحضارة الإسلام

يعترف « أرنولد توينبي » بفساد الحضارة الغربية ، وأن عوامل انهيارها قد أصبحت واضحة للعيان ، ولكنه لا يريد أن يسلم بالبديل الطبيعي الذي يجب أن يوجد ، وهو القوم الذين يحملون كلمات الله ويقيمون المجتمع الرباني ويطبقون سنن الله في الحضارات والمجتمعات بأن يكونوا مؤمنين بمسئولية استخلاف الله لهم في الأرض بالحق ، متمسكين بالالتزام الأخلاقي . ولذلك فهو يهرب من النتائج ، ويحاول أن يصل إلى « شيء » يجعله بديلا للعقائد السائدة ، وهو بما يسميه الدين العالمي « المسيحية والإسلام والبوذية » .

ولا ريب أن هذه المحاولة ساذجة إلى أبعد حدود السذاجة . . ولم يكن من المتوقع أن تكون نتاج هذه العقلية التي سادت دراسة التاريخ العالمي على النحو الذي كتبه في موسوعته . ولكن هوى النفس يخضع الفكر ويذله ، ويكشف محاولة الحيدة عن الحق . فأرنولد توينبي : الذي عجز تحت تأثير تعصبه لدينه ، وللحضارة الغربية التي يراها نتاجا مسيحيا خالصاً ، أن ينصف الإسلام ، وأن يفرد له بحثا خاصا . وشاء له هواه أن يجعله شطيرة مما أسماه الحضارة السريانية القديمة . هو أرنولد توينبي الذي عجز - حين أراد استكشاف مستقبل البشرية - أن يعلن في وضوح أن الإسلام هو الوارث الحقيقي لهذه الحضارات البشرية ، وخاصة الحضارة الغربية بعد أن خرجت عن عقيدتها ، وأصبحت حضارة وثنية إباحية مادية قد احتواها الفكر التلمودي ، وصهرها في بوتقة إمبراطورية الربا .

الإسلام منهج حياة

ولقد كان « برنارد شو » أصدق رأيا ، وأسلم طوية حين أعلن ذلك الرأي الواضح الصريح من أن الغرب لن يجد أمامه خلال مائة سنة مفرا من أن يعتنق الإسلام . إن لم يعتنقه دينا ، فسيعتنقه نظاما للحياة ومنهجا لمجتمع .

إن أرنولد توينبي يريد أن يحمي الحضارة الغربية ، وهي في مرحلة الانهيار بأن يجعلها تقترض من الإسلام خاصيتين هما : الإخاء البشري ، والعزوف عن آفة الخمر . ونأسف لأن توينبي يظن أن الحضارات تقترض ، وأن الإسلام يمكن أن يكون مشطورا إلى قسمين : قسم يأخذه الغرب ، وقسم يتركه .

والواقع أن الغرب لن يستطيع - حتى ولو اقتبس من الإسلام هاتين الخاصيتين - أن ينقذ نفسه . فإن الأمر قد أصبح الآن في نطاق مرحلة اللاعودة ، وأن الخطر الذي تتعرض له الحضارة الغربية لا ينفعه شيء ما . ويكفي الغرب والحضارة الغربية أنها حجبت الإسلام عن أجزاء كثيرة من العالم ، وحالت دون انتشاره ، وأوقفت نموه . وحالت أيضا دون أن يدخل أوربا نفسها فكرا غضا طريا ، فسدت الأبواب دونه بتلك الدراسات المسمومة التي صورته فيها ، وصورت نبيه وكتابه بذلك اللون الأسود المظلم .

إن توينبي يود أن يستبقي الحضارة الغربية المسيحية ، ولو بالاستدانة بالاقتراض من الإسلام ، ثم هو يريد أن يضم إلى المسيحية والاسلام ديناً بشرياً أرضيا هو البوذية التي لا تؤمن بالله ، ما أهون هذا التصوير وما أشقاه ، إن هذا التلفيق لا ينفع . والإسلام لا يقبل أن يكون شطيرة .

الإسلام له ذاتيته الخاصة

إن الإسلام له ذاتيته الخاصة . ولقد جربت البشرية عشرات المناهج ، وعرفت عشرات النحل . وقد نقلوا إلى أوربا في العصور الأخيرة البوذيـة والبهائية . فماذا أجدت . وماذا استطاعت أن تقدم للنفس البشرية الممزقة الملتاعة ، التي هزمتها المادية ، ومزقها التمييز العنصري ، وإدمان المحذرات . والفراغ الروحي ، وعدوى القومية التي أفشاها في عصر محوج إلى الأخوة

الإنسانية ، ثم نهب الثروات . كل هذا يعترف به أرنولد توينبي في كتابه (الإسلام والغرب والمستقبل) ولكنه مع الأسف لا يستطيع أن يقرر في وضوح أن المسيحية التي عرفتها أوربا منذ ١٥٠٠ سنة لم تستطع أن تعطيها مطامحها الروحية ، وأن فكرة الخطيئة قد حطمت مقومات النفس البشرية تحطيما ، يعرف هذا أرنولد توينبي ، ويعرف الأثرين الخطيرين اللذين حرفا المسيحية التي جاء بها نبي الله المسيح ، وهما الفلسفة اليونانية والفكر اليهودي التلمودي الذي أخرجها من أصولها ، وحرف مفاهيمها بوصفها دينا منزلا لبني إسرائيل ، وليس دينا عالميا للبشرية كلها ، كما عمل على ذلك القديس بولس ، فأوجد تلك الأزمة الخطيرة التي ما زالت البشرية تعاني منها .

إن هؤلاء المقلدين أمثال محمد علي ، وأتاتورك ، وكل الزعماء الذين اختاروا منهج الغرب لن يحققوا شيئا ، ولن يكتب لهم التاريخ إلا صفحات قليلة . أما أولئك الذين جاهدوا في سبيل تحرير أوطانهم وأمتهم وعقيدتهم مهما كانت ضربات النفوذ الغربي لهم قاتلة فإنهم سيخلدون .

لقد كانت فكرة أرنولد توينبي خاطئة من أساسها : فكرة أن يتقبل المسلمون الحضارة الغربية كاملة (الآلة وأسلوب العيش الغربي) بعد أن حاول في مراوغة مضللة أن يثبت ضرورة الجمع بينهما . وقد تبين فساد نظريته . بل لقد أسقط الشرق الإسلامي كل من قال بهذه النظرية مثل : أحمد أغايف في تركيا ، وطه حسين في مصر . كذلك فقد كان مخطئا حين ظن أن أمثال أتاتورك ومن سار على منهجه من حكام المسلمين ، والعرب هم المنقذون . وها نحن نرى كيف انكشف فساد هذه النظرية ، وكيف وقفت تركيا الإسلامية من هذه المحاولة الخطيرة . وكيف يقف المسلمون والعرب من كل تابع للنفوذ الأجنبي سواء أكان غربيا أم ماركسيا . لقد أنبتت حركة اليقظة الإسلامية أجيالا جديدة ليست مقلدة للتراث ، ولا تابعة للفكر الوافد ، وإنما هي نوع ثالث أكثر استنارة يؤمن بالمنابع الأصيلة أساسا للعمل ، ولا ترى بأسا من الاستفادة من معطيات العصر في مجال العلوم وأسباب الحياة ، ولكنها لا تضحي مطلقا بأسلوب العيش الإسلامي ، ولا تنصهر في بوتقة الفكر الغربي ، أو المجتمعات الغربية ، التي تمر الآن بمرحلة الانهيار والتحطم . كذلك فقد كان توينبي مخطئا حين ظن أن البهائية والبابية هي

دعوة إلى توحيد الأديان ، ولا ريب أن وحدة الأديان السماوية شيء يختلف عن تعطيل الجهاد ، وعن زيف الفكر البشري الذي ثبت ولاؤه للماسونية وللصهيونية العالمية والنفوذ الأجنبي .

إن أخطر ما يردده أرنولد توينبي هو تنويم الخلافة والجهاد والترويج للحركات التغريبية ، وخاصة الدعوة القومية لتحل محل الوحدة الإسلامية . إنه يخشى من يقظة الخلافة ، وانبعاث التاريخ البطولي للإسلام كما حدث في أيام الصدر الأول ، وأيام نور الدين ، وصلاح الدين . ولا ريب أن هذه الأيام سوف تعود وبأشد قوة .

الروابط الروحية

وخير من هذا ما يقوله : شبنجلر حين يقول : « إن الحضارة التي هي من تراث الأجداد لا يمكن أن يستعاد بنيانها بغير المبادىء التي قامت من أجلها ، وبغير الأسس التي شيدت عليها صروحها في دمشق وبغداد والقاهرة . وفي القيروان والأندلس والقدس ، في كل قطر أشرقت شمسها بشعاراتها وشريعتها ومبادئها وأخلاقها وعلومها وروحها وآدابها وصناعاتها » .

« إن فكرة الأمة عند العرب تقوم على أساس الروابط الروحية المجردة . ولذلك فالشعوب العربية في وحدتها تريد من زعيمها أن يتمتع بصفات النبي ومؤهلاته . إذا أردت أن تستفز العربي فعليك أن تتوجه إلى وجدانه لا إلى معدته ، ولذا تلعب النخوة والمروءة والبطولة أدواراً هامة في السلوك الأخلاقي للفرد العربي كما أن للإيمان لا العقل المركز الأول » .

ويستنتج شبنجلر الأدلة على معرفة سر الحمية التي دفعت بالحضارة الإسلامية عندما انطلقت من قيودها لتلقي بظلالها على جميع البلدان التي تنتمي إليها من خطاب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص :

« آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى مكيدة في الحرب ، وآمركم أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم . فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . . واسألوا الله العون على عدوكم » .

ويرى « شبنجلر » أن الأخلاق العربية الإسلامية تؤمن بأن الغاية الشريفة لا يجوز أبداً أن نسلك إليها بوسائل غير شريفة . الأخلاق التي تغلب الحق على المصلحة ، والوجدان على العقل ، والعدل على الظلم ، والروية على الاندفاع ، والعطف على الفتك : الأخلاق العربية كقوة إنسانية تسمو وتتسامى فوق كل مذهب فلسفي أو سياسي .

الإسلام حضارة وحياة

هذه هي حضارة الإسلام التي مهما تجاهلها أمثال « توينبي » فهي قادرة على أن تحقق وجودها في القرن الخامس عشر الهجري الذي يطرق الأبواب . وسيكون الإسلام قادراً على أن يقدم للبشرية ذلك النموذج الصالح الذي تجد فيه النفس الإنسانية هداها ونورها وضياءها . لقد وهنت الأيديولوجيات الغربية اليوم من ديمقراطية ليبرالية إلى ماركسية اشتراكية . وأعلن العالم كله عجزها عن العطاء ، وعدم قدرتها في أن تقدم مطامح الفطرة والخلق والإخاء البشري الصحيح ، ولذلك فإن العالم يترقب ، وسوف لا ينتظر طويلا .

الصهيونية الماركسية

يمكننا أن نقول بدون تردد أن الموجة التغريبية في هذا العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري : هي موجة « صهيونية ماركسية » فقد تكشفت في السنوات الأخيرة تلك العلاقة العضوية بين الصهيونية والماركسية ، وكيف تقاسمتا مجال الفكر العالمي كله ، فأعطيت الماركسية ذلك القطاع الذي يفسر الحياة والمجتمعات والتاريخ تفسيرا اقتصاديا وماديا وتخفت الصهيونية وراء مذاهب العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق والأنتروبولوجيا ومقارات الأديان ، ونظراً لارتفاع مد النفوذ الماركسي في الستينات مع آثار الفكر التلمودي المسيطر في مجال الفكر الغربي الليبرالي فقد كان له أبعد الأثر في طرح تلك الشبهات التي ما تزال تحتاج إلى الكشف عن وجه الحق فيها والتعرف على زيوفها ، وما ألقت من ظلال بعيدة المدى على مفهوم الإسلام الصريح الواضح في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والتربية . لقد كان من أكبر التحديات أن فتحت لهذا الفكر الوافد الزائف مجالات واسعة للنشر استطاعت به أن تصل إلى الطبقات العامة ، وأن تثير الزيغ في مجال العقيدة نفسها نتيجة ذلك « الفراغ » الذي عجزت المناهج التعليمية والتربوية في أجزاء كثيرة من البلاد العربية ، والعالم الإسلامي أن تغطيه بمفاهيم الأصالة الإسلامية مصوغة في أسلوب العصر . وبذلك تركت هذه الثغرة مفتوحة لكي تسيطر منها على العقول والقلوب . تلك المفاهيم الزائفة والنظريات الفاسدة المطروحة التي تحمل بريقا يشبه بريق العلم ، وتحمل في نفس الوقت الظن ، وما تهوى الأنفس من محاولات لكسر الضوابط وهدم حدود الله ، وتعمل على تغذية

الرغبات بالإثارة والتحلل مخالفة في ذلك أسلوب الإسلام في مواجهة هذه الرغبات النفسية بالتبرير والإعلاء .

لم يتوقف الغزو الثقافي عن هدف واحد في سبيل غايته التي ترمي إلى « احتواء » هذه الأمة و« صهرها » في بوتقة العالمية والأممية ، ولكنه عمل في مختلف الميادين . ولقد كانت محاولات الاستعمار الغربي في المرحلة السابقة لمرحلة الماركسية الصهيونية قد مهدت الطريق للتحديات الخطيرة في هذه المرحلة الراهنة . فقد استطاعت برامج الإرساليات في مجال التعليم التي نقلت إلى المناهج الوطنية في أغلب البلاد الإسلامية قد حالت بين الأجيال الشابة المسلمة ، والأصالة في الفكر والتماسك في الخلق ، وكان فساد مناهج الثقافة والصحافة . وتوالي الانحرافات في المجتمع قد مهد كثيرا للطور الماركسي الصهيوني الذي قام على أساس أن المسرح بديل عن المعبد ، وأن الدين أفيون الشعوب وأن العلم إله بعيد ، وأن الإنسان حيوان . كل هذه المفاهيم التي طرحتها الفلسفة الصهيونية الماركسية كانت بعيدة الخطر في هذه المرحلة التي يمر بها العالم الإسلامي اليوم . وكذلك نجد أن ما قدمه جرجي زيدان وطه حسين وسلامة موسى وعلي عبد الرزاق ومحمود عزمي ، كان مقدمة للتوسعات التي جاءت من بعد . فقد حرص طه حسين على أن يمهد للتفسير المادي للتاريخ ، ووضع الصحابة الأعلام في موقع الساسة وصراعهم ، وخلط سيرة الرسول ﷺ بالأساطير . وتوسع فيها ، وحذا حذوه كتاب كثيرون من أمثال : عبد الرحمن الشرقاوي ، وأحمد عباس صالح وغيرهم . وكذلك الأمر في مسألة اللغة ، كما تعرض لها سلامة موسى ، أو مسألة الإسلام دين ودولة كما تعرض له علي عبد الرزاق ، أو مسألة مفهوم القوميات ، كما تعرض له محمود عزمي .

كانت المحاولة التغريبية تهدف إلى إثارة الشبهة حول التكامل بين الدين والدولة . والدين والمجتمع . والدين والعلم ، وتطرح أسلوبا للمجتمعات الإسلامية يستهدف خضوعها للقانون الوضعي . ولكن المحاولة اليوم تقطع مرحلة أشد عنفا حينما نجد الدعوة إلى احتواء الشريعة داخل القانون الوضعي ، ومحاولة اتخاذ الشريعة الإسلامية وسيلة لتبرير واقع المجتمعات الفاسدة . وذلك عن طريق إثارة شبهات حول الثابت والمتغير ، وحول التطور ، وحول ما يدعي من قدرة الإسلام

على التجاوب مع أوضاع المجتمعات . وقد نشأت في السنوات الأخيرة « جماعة » تتخصص في تقنين هذه السموم ، وتستند هذه الجماعة على تلك الثغرة الباطلة التي زيفها الشيخ علي عبد الرزاق حين ادعى بأن الإسلام دين روحي ، وأنكر أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، فخرق بذلك خرقا اهتبله الاستشراق ، ودعاة الغزو الثقافي ، ونشأت له مدرسة في مرحلة الفلسفة الصهيونية الماركسية .

كذلك فقد علت تلك الأصوات التي تحاول أن تبرر وجود الربا في المجتمعات الإسلامية تفريقا بين ربا الفضل وربا النسيئة ، في محاولة لفرض وجود امبراطورية الربا اليهودية العالمية .

وهكذا استطاعت الموجة اليهودية الماركسية الانتفاع بالركائز التي أقامها الاستعمار الغربي كما انتفعت بالدعوات العنصرية والقومية والإقليمية والوطنية والعالمية في تمزيق وحدة الجماعة الإسلامية ، ونقلها من قاعدة الأصالة القائمة على الفكر والعقيدة إلى قاعدة زائفة هي قاعدة العنصر والدم وصراعها القاتل . كذلك برزت تلك الجماعات التي تتحدث عن الماركسية والاشتراكية والفرويدية والوجودية والوضعية المنطقية ومدرسة العلوم الاجتماعية اتباعا لمدارس وتيارات وافدة بهدف تمزيق أديم الفكر الإسلامي ، وإثارة الشبهات في أفقه .

وكلها تفتح الأبواب أمام الوثنية والتعدد والإباحية والإلحاد تحت اسم العصرية والحداثة والتقدم ، وكانت في المرحلة الماضية تجري تحت اسم التجديد ، وتحولت مفاهيم الماسونية والتلمودية الصهيونية إلى نظريات ذات طابع علمي خادع يستهدف تدمير القيم الأخلاقية ، وتفكيك المجتمعات ، وهدم الأسرة ، وإشاعة الجنس والشهوات والقضاء على الروابطة بين الأجيال ، وإضعاف ترابط الآباء والأبناء والرجال والنساء . وطرحت في الأسواق مئات الكتب الرخيصة عن الجنس والمرأة ، فضلا عن الصور العارية ، والقصص المكشوفة مترجمة ومؤلفة . ولم يتوقف الأمر عند ما طرحه الفكر الغربي من سموم ، وإنما جرى العمل على بعث تراث الفكر البشري القديم ممثلا في ألف ليلة ، والأغاني وشعر بشار وأبي نواس ، وإحياء حركات الزنج والقرامطة والمجوسية ، وصراعها مع الإسلام .

وجاءت مرحلة ضرب الإسلام من الداخل، فشجع الغزو الفكري كل

المحاولات المضللة التي تدعي أنها إسلامية . وذلك للعمل في هدم الإسلام أمثال القاديانية والبهائية ، وأعانها بكل أسباب العون ماديا وأدبيا ، لأنها تحمل في تضاعيف دعوتها هدم فريضة أساسية من فرائض الإسلام ، وهي الجهاد والتشكيك في عالمية الإسلام ، وفي ختامه للرسالات والأديان . وقد عقدت الجماعات البهائية العالمية مؤتمرها العام في إسرائيل تأكيدا لهذا المعنى .

وكانت أخطر دعوات الفلسفة الصهيونية الماركسية : تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على المجتمع الإنساني وإعلاء شأن العقل والعلم وازدراء مفهوم الدين والروح والمعنويات ، وإعلاء شأن الأهواء والغرائز والشهوات ودفع البشرية إلى اتخاذها أسلوبا في الحياة ، وإذاعة سفاسف الفكر البشري كالأساطير والخرافات والسحر تحت اسم الفلكلور وضرب التراث الأصيل للأمم والشعوب ، وهو التراث الذي جاءت به الأديان والكتب المنزلة .

ومن أخطر ما طرحته دعوات الفلسفة الصهيونية الماركسية النظرية المادية في الإنسانيات والتاريخ ، ونظرية التطور المطلق التي تستمد مفهومها من الفكر التلمودي القديم ، وتحاول أن تفرض على المجتمعات حتميات تنكر المسئولية الفردية للإنسان والجزاء الأخروي وتصور الإنسان على أنه شاهد تاريخ ليست له إرادة التغيير والفعل .

وبالرغم من أن العلم التجريبي قد أعلن أنه لا يعدو في تجربته دراسة ظواهر الأشياء ، وأنه يعجز عن البحث في كنه الحياة ، فإن الفلسفة المادية تحاول أن تدفع البشرية إلى اعتناق مفاهيم المادية لتفسير الحياة والمجتمعات والنفس الإنسانية . وقد استعملت هذه النزعة في دراسات مدرسة العلوم الاجتماعية الغربية « دور كايم ، وليفي بريل » بالإضافة إلى تفسير الحياة والمجتمعات والإنسان تفسيرا جنسيا « فرويد » وتفسير الحياة والمجتمعات والإنسان تفسيرا يتصل بالبطن ولقمة العيش « ماركس » فإن اليهود الأربعة يستهدفون محاصرة الفكر البشري كله ، وطرح فلسفة كاملة له تعمل عملها في المجتمعات الرأسمالية لتخطو نفس الخطوات التي تستطيع أن تحققها الماركسية في المجتمعات الشيوعية بحيث تصبح البشرية كلها مهيأة للاحتواء اليهودي التلمودي الصهيوني الذي يخطط منذ عام ١٨٩٧ عن طريق بروتوكولات صهيون للسيطرة العالمية بعد مائة

عام . وأن الخطوات المتوالية تكشف عن أن الماركسية والصهيونية ستستطيعان بعد سنوات قليلة من إعلان تكاملها في خطة احتواء العالم ، والسيطرة على البشرية ، وأن الخطر الوحيد الذي يواجه هذه المحاولات الآثمة والمؤامرة الخطيرة هو الإسلام وعالمه الذي يقف صخرة توهى ناطحها بقيمه الأساسية ، وذاتيته التي تعجز كل هذه القوى عن احتوائها أو السيطرة عليها . وأن الصورة الجزئية التي نجدها في الصراع العربي الإسرائيلي أو الإسلامي الصهيوني إنما هي جانب من الصورة الكاملة التي تخفيها حكومة الأحبار الثلاثمائة العالمية .

وهكذا نجد أن المؤامرة واحدة في مصدرها وأساسها . وإن اختلفت على جبهات الوجوديين والفرويديين والماديين والبهائيين والماركسيين . وأن كثيرا من العاملين في حقل المؤامرة يعرفون أبعاد هذا المخطط ، وأن كتاباتهم لتشف عن هذه الروح ، وأن العمل في مجال الأدب والقصة والمسرح والسينما والصحافة يحاول أن يستوعب هذا المخطط وأن يحول مفاهيم الفلسفة الماسونية المستمدة من المخطط التلمودي إلى فكر وقضايا ومسائل تطرح ، ونظريات تعرض في مختلف المجالات .

ولذلك فإن المسلمين مدعوون في هذه المرحلة الخطيرة التي يدخلون بها القرن الخامس عشر الهجري أن يحدثوا تغييرا كبيرا يعودون به إلى الأصالة الإسلامية والتماس المنابع الإسلامية .

تحرير البشرية من الفكر الوثني

لا ريب أن الحلول الوافدة قد جنت على أمتنا ، ولم يكن ذلك عن قصور في تراث فكرنا الإسلامي الأصيل الحافل بالقيم ، الزاخر بالمعطيات ، وإنما عن عجز في الاستيعاب ، وتحت ضغط القوى التي حبست المسلمين في إطار فكرهم الوافد المادي . إن هذا العمل أشبه ما يكون بقتل الأمم بغير إطلاق الرصاص . هذه الدعوات إلى الوطنية والقومية والليبرالية والديمقراطية والماركسية والاشتراكية ، إنما استهدفت إخراج المسلمين من النظرة الربانية الجامعة التي أقام شرعتها الإسلام على أساس العدل والرحمة والإخاء البشري ، وكانت الصهيونية التلمودية وأتباعها من رجال الإرساليات أدواتها . حيث خرجت هذا الجيل من المفكرين الذين انحرفوا إلى التبعية للأيديولوجيات الغربية وكرهوا قومهم وأمتهم وقيمها الأساسية ، وأثاروا تلك السموم في فكر الأمة ، ولقد استيقظ المسلمون إلى فهم هذه الحقيقة ، ولكن بعد أن استطاعت هذه القوى أن تقتل فهم روح القوة والعزيمة والمقاومة .

وأمامنا في ذلك وقائع كثيرة . فقد أثبتت الوثائق كما جاء في كتاب الأميرال كي أن الحروب الصليبية لم تكن حروبا مسيحية ، وإنما كانت تدبيرا يهوديا لوضع العالمين المسيحي والإسلامي في حرب عامة مدمرة دامت أكثر من قرنين للوصول إلى فلسطين ، فهذه نقطة جديرة بالبحث عنها وتحريرها على طريق الأصالة .

ذلك أنه من أكبر آفات الأمم الإسلامية المعاصرة أنها لا تفكر في أعدائها ، كما يفكر أعداؤها فيها ، ولا تحاول أن تعرف ما يدور في تفكير هؤلاء الأعداء

بالنسبة لها . وهذا مما أشار إليه القرآن الكريم في قوله ﴿ **ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا** ﴾ .

نحن نعرف أن الصهيونية هي التي حطمت حضارة الغرب بعد أن حولتها عن طريقها الأول ، وما تزال زوابع الفكر البشري القديم تتجدد على يديها ، وتنتشر في ميادين الاقتصاد والاجتماع ، فهي التي عملت على إحلال المفاهيم المادية في الفكر الغربي ، وإنكار الروحية ، والأخلاق والمثالية والمعنويات .

ولكن حيوية الفكر الإسلامي ما فتئت قادرة على مقاومة خمائر الفكر البشري في معترك الحياة والتصور ، ولما كانت هذه الخمائر متهافتة ، لأنها باطلة ، فإنها سرعان ما تتساقط إذا واجهت الضياء والنور . ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾ .

لقد جاء الإسلام للبشرية بالفطرة والدين الحق والعلم الصحيح دفعا لها إلى الخروج من طفولتها إلى رشد الإنسانية . ولقد جاء فشل الأيديولوجيات الوافدة في ديار الإسلام بنتيجة طبيعية لتعارض مفاهيمها مع الفطرة والدين الحق والعلم الصحيح ، ومع طبيعة المجتمع الإسلامي الذي قام على مقومات الإسلام .

ولقد كانت أكبر دعاوى النقد البشري تلك القسوة والغلظة في مواجهة الإنسان للإنسان . يتمثل ذلك في مفاهيم نيتشه ، وماركس وسارتر . بينما يحرص القرآن على أن يستثير مشارع الخير في النفس الإنسانية ودواعي الرحمة والإخاء البشري ، فلا يقسوا قلبه أو يحيد طبعه عن طريق الحق .

لقد عمد الإسلام أول ما عمد إلى نفسية الإنسان فحررها من قيد التعبد لغير الله ، ودعا الإنسان أن يتجه بروحه وبكل قواه وجوارحه إلى الله وحده يستمد منه العون والتأييد . ذلك أن طريق الله هو الخط المستقيم المنتظم . هذا هو صنع نفسية المسلم بذلك الأسلوب الفريد ، فاستطاع أن يتغلب على نزوات الشر في أعماقه ، وهذا هو الذي مكن المسلمين من الوصول إلى قمة السمو الإنساني ، المتحرر من قيود النفس ، ومن سيطرة الناس ، وأقوى من ضغوط البيئة وتحديات

الأوضاع الفاسدة في المجتمعات . لقد تحرر المسلم من سلطان العرف والبيئة بفضل الإسلام ، وانتقل من الأنانية إلى الغيرية ، ومن الفردية إلى الجماعية . ذلك أن الإسلام علمها أن النفس قادرة على الارتقاء إذا انتصرت على أسباب الضعف وأوهام القصور .

لقد كانت ولا تزال النظرة الإسلامية إنسانية جامعة ، وعندما تكون النظرة وطنية إقليمية تكون ناقصة وعاجزة . وعندما تكون قومية تكون غير قادرة على معرفة أبعاد الحقيقة الإنسانية، واستطلاع أبعاد الأمور ،وعندما تكون أدبية صرفة تكون عاطفية ، وعندما تكون علمية صرفة تكون عاجزة عن فهم حقيقة الوجدان والمعنويات .

فالإنسان عقل وقلب وتفكير وعاطفة ، وإلغاء أحدهما خروج على الفكرة ، وعكس لطبيعة الأشياء ، فالنظرة الإسلامية تقوم على اقتناع العقل وتصديق الفكر ، وتتمثل في غذاء القلب وطمأنينة الروح .

والإنسان يجمع بين الحس والفهم والعقل : فالحس يتم عن طريق المؤثرات الخارجية ، والفهم يتم عن طريق التجربة والعقل يشكل المعلومات . ومن هنا فإن الإسلام بمفاهيمه هذه يعمل على إنقاذ البشرية من وثنيتها وماديتها ، فهو كما وصفه الباحثون الغربيون المنصفون بأنه نقطة الوسط بين تفريط مادية الغرب وإفراط نرفانات الشرق ، إذ نسيت الأمم المتحضرة أنها لن تحلق إلا بجناحين هما المادة والروح . إن الإسلام يجتمع مع الأديان في الإسم ، ويختلف من حيث هو مفهوم جامع مرتفع فوق العبقريات والألوان والأنواع ، وهو دعوة الله تبارك وتعالى إلى إقامة المجتمع الرباني في الأرض .

ومن هنا فإن الأخذ من الغير مقيد بشرط المحافظة على أصالتنا ، ولقد كان على المسلمين أن يخوضوا حربا مدمرة مريرة في سبيل حماية ذاتيتهم وكيانهم الخاص ، من أن ينماع أو ينصهر في بوتقة الأممية .

إن مهمة المفكر المسلم اليوم هي تحرير البشرية من الفكر الوثني والمادي والإباحي الذي يتمثل تطبيقا في المجتمعات الغربية والشرقية التقليدية . هذه هي المهمة التي أخذها على عاتقه الجيل القرآني الأول .

إن علينا أن نقف في وجه هذه الموجة المادية التي تنكر الإيمان بالله الخالق ، وتحبس نظر الناس وتفكيرهم على مسائل العيش المادي ، وترفض التفسير الديني للكون والحياة ، وتعتنق التفسير المادي للتاريخ ، وتحمل الإنسان على أن يقنع عند حاجات الجسد وحدها كأي حيوان دون التطلع إلى أفق أوسع ، هو أفق الاعتقاد والفكر ، وأن يجهل المهمة الأساسية للإنسان في هذا الكون ، والأمانة المعقودة عليه ، ومسئوليته الفردية ، والتزامه الأخلاقي .

إن الفكر الغربي المقدم الآن للمسلمين زائف كله .

إن ماركس يفسر المجتمعات والحضارات والتاريخ عن طريق الطعام .

وفرويد يفسر المجتمعات والحضارات عن طريق الجنس .

ودور كايم يعارض الفطرة ، وينكر الأسرة .

والرأسمالية قامت في أحضان اليهود الذين قاموا بتمويل الثورة الصناعية ، وقام على أثرها المجتمع الأوربي الصناعي المادي على غير أساس من دين أو خلق أو روح ، وجاءت الماركسية انقسام في الحركة الرأسمالية .

ولقد مكن اليهود لهذه النظريات الزائفة ، وجعلوها موادا تدرس في جامعات العالم ، لا على أنها نظريات ، بل على أنها حقائق . ولقد كانت نظرية فريزر في علم مقارنات الأديان يهودية المصدر ، وانخدع بها كثيرون . ويرى فريزر أن الدين قد تطور من عبادة الأب إلى عبادة الطوطم إلى عبادة قوى الطبيعة إلى عبادة الأفلاك إلى عبادة الأصنام ، ثم وصل إلى عبادة الله الواحد .

ومعنى هذا أن الدين من صنع البشر ، لا هو منزل من عند الله ، ولا هو فطرة في القلب . ومن ذلك قولهم أن البشرية كانت وثنية ومعددة ولم تعرف التوحيد إلا باليهودية . وهذا باطل ، فإن البشرية كانت موحدة منذ عهد آدم .

وأخطر من هذا كله قضية المرأة وما يسمى تحرير المرأة ، ومساواة المرأة والرجل ، وأبعد من هذا كله تلك الفوارق العميقة بين الفكر الإسلامي ، والفكر البشري ، وبين تراث الإسلام ، وتراث الأمم الأخرى ، ومن أهم تلك العوامل :

أولا : الرحمة في مواجهة القتل والعداء والانتقام ، وصورة صلاح الدين واضحة في معاملته للصليبيين .

ثانيا : الشرف في مواجهة الفساد . وقد كانت الأمم تمارس الدعارة تقربا لعشتروت . فقد ظلوا عبدة أوثان بعد موسى . حتى وقعوا أسرى في قبضة ملك بابل .

ثالثا : الإخاء في مواجهة العنصرية ، وبعد فإن الأمة الإسلامية حريصة على بناء شخصيتها على أساس تراث الأمة وهو أساس أي نظام تربوي أصيل . فالأصالة هي أول قاعدة يقوم عليها بناء الأمة الاسلامية .

البشرية ومنهج الله

ثلاث نظريات مطروحة في أفق الفكر البشري المعاصر ، وتقوم عليها الحضارة الغربية ، ويتبعها المجتمع المعاصر . . . هي في أصلها مستمدة من الفكر البشري والوثني القديم . تلك هي نظرية الاشتراكية في الاقتصاد ، ونظرية الديمقراطية في السياسة ، ونظرية الوجودية في الاجتماع .

فليس ما يطرح الآن جديدا ، ولا هو محاولة جديدة ترمي إلى تقديم أساليب جديدة من العمل السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وإنما هي ابتعاث لهذا الفكر القديم الزائف الذي طالما عرض في المجتمعات ، وثبت فشله وعجزه عن العطاء ، وهو لا يزيد عن معارضة معاندة متصلة للمنهج الرباني الذي قدم للبشرية على مدى تاريخها كله أسلوب أشد رحمة وعدلاً وسلاماً وإخاءاً عن طريق رسالات الأنبياء التي توالت ولم تتوقف ، والتي عملت قوى الشر في معارضتها وتزييفها وتحريفها . بهدف تغلب الظن وأهواء النفس ، وتحطيم الحدود والضوابط التي أقامها دين الله الحق للعدل . وفي محاولة لتأخير قيام المجتمع الرباني الأصيل ، الذي تترقبه النفوس الصادقة وتشتاق إليه ، وتتطلع إليه .

بل إن هذه القوى لا تكتفي بأن تزيف رسالة الله الحق ، بل تعمل على حجب رسالة الإسلام التي هي الضوء الوحيد الباقي من رسالات السماء ، وتعمل على إثارة الشبهات حولها وتزييفها ، وطرح هذه السموم في مجتمعها الموحد الذي ليس في حاجة إلى - أسلوب العيش - جديد كما تحتاجه الأمم والشعوب التي كان لتحريف رسالة الدين فيها سبيلا إلى حاجتها لأيديولوجيات بشرية .

لفت نظري إلى هذا المعنى الدكتور حسن الشرقاوي : في عرضه للمطروحات الجديدة في السياسة والاقتصاد والاجتماع مما كان قديما يسمى جمهورية أفلاطون ، سواء بالإضافة أو الحذف ، وسواء بالاستعارة أو بالتطوير ، أو بالقلب والإبدال . ذلك أن الفكر الغربي الذي استمد جوهر حضارته من خلال المنهج التجريبي الإسلامي ، وكان عليه أن يمضي في طريق الأصالة ، لولا أن عوامل كثيرة دفعت الفكر الغربي إلى الردة إلى الفكر اليوناني والروماني والوثني القديم الذي جاءت المسيحية نفسها محررة إياه منها . ولكن الغرب ارتحل في هذا الاتجاه .

ومع أن الفكر البشري الوثني المادي القديم سواء أكان شرقيا أم غربيا ، فقد كان معارضا معارضة أساسية للتوحيد والأصالة والفطرة ، ولكن الغرب عمد إلى إحياء أفلاطون وأرسطو بالرغم من تعارضهما . . وبالرغم من أن أفلاطون أتيحت له الفرصة مرتين لتطبيق جمهوريته ، وفشل في كلتا التجربتين . فإن العقل الغربي لم يستطع التحرر من الضلال .

ولقد حاول أفلاطون أن يقيم مدينة فاضلة متحررا من مفهوم الدين الحق ، ومعتمدا على ما جمعه من أهواء البشرية حين أقام مجتمعا عبوديا ، يكون فيه السادة هم الحكام ، ويكون فيه الناس جميعا عبيداً . . لقد أعلى طبقة معينة ـ كان هو فيها أصلاً ـ وعجز عن أن يجعل للفقراء والضعفاء شيئا . بل إنه أيد استبعاد العبيد ، وجعله مشروعا ، بينما كانت أديان السماء تدعو إلى غير ذلك . تدعو إلى تحرير الإنسان من عبودية الإنسان ، وتقضي على سلطان المتكبرين والمتجهرين ، والفراعنة والقياصرة . . ولما كان هذا هو الحق وهو الفطرة ، فإن دعوة أفلاطون ما كان لها أن تنتصر ، وكان لا بد لها أن تفشل وتنهار .

كذلك فإن أرسطو افترض ثبات الأوضاع كلها : فكان ذلك خطأه حين غفل عن عنصر الحركة ، ثم جاء الفكر الغربي الحديث فقلب الأوضاع . جاء ـ هيجل ـ فاعتبر أن الأوضاع كلها متحركة ، وأنه ليس هناك شيء ثابت ، وجاء ـ سبنسر ـ فأعلن عن تطور كل القيم والأوضاع . . ثم جاء من قال بأن الأمور كلها نسبية ، وأنه ليس هناك مقررات ثابتة .

وقد استغل خصوم الإنسانية هذه الاحتمالات والفروض ، فحولوها إلى الإجتماع فقالوا : أن ليس هناك شيء ثابت .

فالدين ليس ثابتاً ، ولكنه متطور ، وقالوا إنه ليس هناك شيء ثابت . . فالأخلاق ليست ثابتة . وكان ذلك كله معارضاً للفكر الإسلامي الأصيل الذي يقيم إطاراً ثابتا للبشرية . . ثم تجري الحركة من داخله . وأن الأخلاق هي جزء من الدين لها ثباتها . وليس لها أن تتغير بتغير البيئات أو الأزمان . . أما الدين الحق المنزل ، فإنه لا يتطور ، لأن آفاقه واسعة ومرنة ، وقابلة لاستقبال كل المتغيرات . أما الذي يتطور ويتغير فإنما تلك هي الأيديولوجيات البشرية .

كل هذا الاضطراب الذي وقع فيه الفكر الغربي يرجع إلى انفصال هذا الفكر عن المسيحية الغربية ، التي لم تكن في الحقيقة دينا عالميا ، وإنما كانت دينا مكملا لرسالة موسى عليه السلام ، ولذلك فلم تكن لها ـ شريعة خاصة ـ ومن هنا كانت محاولتها لإقامة شريعة بشرية . .

ثم جاء ماركس فقلب نظرية أفلاطون . وأعلن خطأ أفلاطون في اعتماده في مدينته على طبقة المفكرين . الأمر الذي كتب على مدينته الفشل في التطبيق ، كما يقول الدكتور الشرقاوي ، ولذلك استبدل ماركس بطبقة الفلاسفة طبقة العامة ، وجعلها الطبقة الحاكمة ، وبذلك جعل القاع هو القمة ، وجعل العامة الذين كانوا في وضع العبودية الكاملة هم السادة .

وقد طبقت هذه النظرية في مجتمع كما طبقت نظرية أفلاطون ، فلم تحقق السعادة للإنسان ، لأن كليهما كان معارضاً لطبيعة الأمور وللفطرة ، لقد هبطت الشيوعية بالإنسان إلى الدرك الأسفل ، وجعلته عبدا للمادة بعد أن كان سيدا . . كما أفقدته فكره وعقله ودينه جميعا ، وهكذا يكشف الفكر البشري عن تخبطه واضطرابه في كل محاولاته ، وأنه لا يستطيع أن يقدم الأسلوب الأصيل .

يقول الدكتور الشرقاوي : لقد تعصب أفلاطون لطبقة الفلاسفة ، فظلم كلا من الطقتين الجند والعامة ، بل جعل العامة كالبهائم سواء بسواء ، وعاملهم معاملة الحيوان ، فلا أسرة ولا أبوة ولا نبوة . . والموت والتعقيم والنفي للمريض ، والمشوه والمعتوه .

وقد حاول أفلاطون أن يطبق نظريته السياسية في مجتمع أثينا مرتين في خلال خمس وعشرين سنة ، بيد أنه رغم موافقة أحد الملوك على تنفيذ فكرته فقد فشل في تطبيقها عمليا فشلا ذريعا . وفي المحاولة الأخيرة نفي وأسر ، ولولا أن رآه أحد أصدقائه وعرفه وأعتقه لظل مسترقا ، بقية حياته . وهكذا يظهر عجز الإنسان دائما ، وانحرافه عن سواء السبيل ، عندما يضع نفسه مكان المشرع محاولا أن يشرع فكرا جديدا أو نظاما لم يأت به الله تبارك وتعالى .

وكذلك كانت تجربة ماركس ، فقد طبقتها تلميذه ـ لينين ـ وبعد ستين عاما من تطبيقها تجدنا اليوم إزاء تجربة خطيرة فاسدة ، لم تحقق إلا سحق الملايين من البشر ، وما تزال روسيا تحتاج إلى قمح أمريكا وما تزال غير قادرة على أن تقدم للبشرية إلا ذلك النظام المشوه المضطرب الذي فشل في كل مكان ذهب إليه .

إن إعجاب الفيلسوف الغربي ـ جوته ـ بالنبي محمد ﷺ : إعجابه بالقرآن وما يزال أمرا واضحا تحدث عنه الكثيرون ، وما زال كتابه ـ الديوان الشرقي ـ حافلا بتلك الصور الرائعة ، حيث تجد الديوان طافحا بصور مجسدة عن حياة الإسلام والمسلمين . . بأقوال وأوصاف ونماذج من سور القرآن الكريم والشعر الإسلامي .

ويرد الباحثون ذلك إلى آثار الحروب الصليبية التي فتحت أذهان الغرب وأقطاره على معرفة نيرة سمحة إزاء الإسلام والنبي ﷺ ، وسماحة الإسلام ومعالم الحضارة الإسلامية . وقد تأثر الغرب أبلغ التأثر بروايات العائدين من بقايا الحروب الصليبية حين كانوا يتحدثون عن صلاح الدين الأيوبي ومعاملته الكريمة لاهليهم . وما نقلوه من تراث فكري ، ومن معارف واسعة ، ومفاهيم تطابق الفطرة ، وتحرر النفس من الوثنية ، وتعيد للإنسان مفهوم الإيمان بالله والتحرر من أصار العبودية الامبراطورية .

وقد ترجم معاني القرآن لأول مرة إلى اللاتينية ١٦٩٨ ـ وإلى الإنجليزية ١٧٣٤ ـ ثم توالت الترجمات إلى الألمانية والفرنسية والهولندية .

وكان جورج سيل المترجم الأول قد نوه بكثير من فضائل الإسلام ، ونشأ جوته في هذا الجو ، وطالع الآثار وتأثر بها ١٨٣٢ .

ويقول الباحثون : إن عوامل ثلاث استرعت انتباه جوته واهتمامه من خلال دراسته للإسلام - أولها - شخصية النبي محمد ﷺ . وثانيها : تعاليم القرآن الذي أوضح للمسلمين ضرورة وحدتهم الفكرية والروحية ومناهج سلوكهم في حياتهم اليومية . وثالثها : هذه العوامل وصف القرآن للظواهر الطبيعية التي ألهمت شاعرا نابغا مثل جوته .

ومن هنا قال جوته عن القرآن : إن هذا الكتاب سيبقى بتأثيره الرفيع إلى مدى عصور أبدية . فقد ألف بصورة عملية تلائم حاجات أمة يستند مجدها على تقاليد عريقة . . وعادات أصيلة . ويقول : ومما يلاحظ بشكل جلي كيف بدأ المسلمون تربية أنفسهم حسب تعاليمهم ، وفي بادىء الأمر رسخوا في شبابهم أساساً للدين بواسطة الاعتقاد بأن ما من شيء يجابه الإنسان إلا ما قدر عليه من قبل ألوهية تتحكم في كل شيء ؛ فهم بهذا على مدى حياتهم مسلمون مطمئنون وليسوا بحاجة إلى أكثر من ذلك تقريبا .

عطاء الإسلام للقانون الدولي

أمران هامان يستلفتان النظر في مطالع القرن الخامس عشر الهجري هما : تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتوجيه العلم والتكنولوجيا في البلاد العربية والإسلامية إلى مصادرها الحقيقية - أي الإسلامية - وليس هناك ريب من أولية الإسلام في أمر القانون الدولي . وليس من شك في مقدرة الشريعة الإسلامية على العطاء للبشرية جميعاً إذا صلحت النيات . .

ولا ريب أن البشرية لن تجد أمامها إلا هذا الطريق آخر الأمر . . وقد أشار إلى ذلك - أرنولد توينبي - حين قال : - إن بعض المبادىء الإسلامية يمكن أن يكون لها في المستقبل القريب أثرها البالغ إذا ما أتيح لها أن تعمل عملها في الحياة الإجتماعية . . ذلك أن هناك مصدران للخطر تواجهها الحضارة الغربية هما : الشعور بالعنصرية وآفة الخمر . . وأن الروح الإسلامية في مكافحتها لكل من هاتين الآفتين تستطيع أن تسدي خدمات إجتماعية وأخلاقية جليلة . . ذلك انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين تعتبر من أعظم المنجزات الأخلاقية في الإسلام وفي العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية . ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة بل حالة شاذة . فإن من سيئات العصر الحاضر أن يكون هذا الشعور بارزاً وبارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التي استطاعت أن تقتطع لنفسها - ولو مؤقتاً - حصة الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية . ففي العصور الأربعة الأخيرة . .

أما في مجال القانون الدولي ، فإن هناك اعترافاً واضحاً . بأن الأمم لم تعرفه قبل الإسلام .

الإسلام والقانون الدولي والمقارن

والدكتور محمد حميد الله الحيدر أبادي الذي درس موضوع القانون الدولي ودور الإسلام فيه . . ونال فيه درجة الدكتوراه من جامعة بون . . وله كتاب قيم باللغة الانجليزية أسماه (سيرة الدولة الإسلامية في المجال الدولي) . يقول : لم يكن هناك قانون دولي في أوربا قبل عام ١٨٥٦ م ـ ومن المسلّم به أن ما كان هناك قبل ذلك ليس إلا مجرد قانون للأمم المسيحية . . ففي عام ١٨٥٦ حدث ـ للمرة الأولى ـ أن اعتبرت دولة غير مسيحية هي ـ تركيا ـ أهلاً للانتفاع من القانون الأوربي للأمم . . وكانت هذه هي البداية الحقيقية لتحويل القانون العام للأمم المسيحية إلى قانون دولي عام .

ولا يعني هذا أن القانون الدولي بمضمونه الحديث قد ولد في ذلك الزمان والمكان . وإنما تحقق وجوده من قبل في بقعة أخرى . . إن الإسلام قد اعترف لكل الدول ـ بصرف النظر عن الدين والجنس ـ بنفس الحقوق والالتزامات . . فعلى خلاف أية أمة قديمة لم يعلن المسلمون قانونهم للأمم من أجل تجديد سياسة الدولة الإسلامية وحدها ولا على أساس إسقاط الدول غير الإسلامية من الاعتبار . . هذا طرف من حديث الإسلام والقانون الدولي . . وهناك حديث الإسلام والقانون المقارن . . ففي المؤتمر الدولي للقانون المقارن الذي عقد في جامعة باريس ـ يوليو ١٩٥١ ـ أعلن الدكتور ميو القرار التاريخي الآتي :

ـ لقد تبين للمؤتمر بوضوح وجلاء ما للقانون الإسلامي من قيمة لا تقبل الجدال . . كما وضح أن تعدد المدارس ، والمذاهب داخل هذا النظام القانوني الكبير إنما يدل على ثروة من النظريات القانونية ، والفن البديع . وكل هذا يمكن هذا القانون من تلبية جميع حاجيات الحياة العصرية .

الإسلام والمنهج التجريبي

ويعترف العلامة : درابر في كتابه : (المنازعة بين الدين والعلم) أن تفوق العرب في العلم كان ناشئاً من الأسلوب الذي توخوه في مباحثهم أن قرروا أن

الأسلوب العقلي المحصن لا يؤدي إلى التقدم . . وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها . . ومن هنا كان شعارهم في بحوثهم الأسلوب التجريبي والدستور العملي ، ويلاحظ المطالع لكتبهم العديدة في الميكانيكا . وعلم توازن السوائل ، ونظريات الضوء أنهم اهتدوا إلى حلول مسائلهم عن طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . وهذا هو الذي جعل العرب أول الواضعين لعلم الكيمياء أو المستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد . والإسالة والتصفية . . وهذا هو الذي بعثهم لاستخدام الميزان في العلوم الكيماوية . وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته . وهو الذي هداهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية مثل التي كانت في بغداد وقرطبة وسمرقند . . وهو الذي أوجد لهم ذلك الترقي الباهر في الهندسة ، وحساب المثلثات . . وهو الذي هم بهم لاكتشاف علم الجبر الاستدلالي .

وإذا كان المسلمون هم بناة المنهج التجريبي . فإن عليهم اليوم أن يكملوا المسيرة ، ويضعوه في نطاق الإسلام . .

العلامة ابن خلدون

احتفل بالعلامة ابن خلدون في الجزائر وفي تونس وفي المغرب على فترات متوالية ـ تقديراً لهذا المؤرخ العظيم الذي عاش في هذه المناطق جميعاً ، وتأثر بها حتى إقيل عنه أنه درس للجزائريين في جامع القصبة في بجاية . . وكتب المقدمة في الجزائر . . وخلا للروية والتفكير في بسكرة . . وعكف على كتابة المقدمة في قلعة بني سلامة قرب تيهرت مدة أربع أعوام . . وبالرغم من الحملة التي حملها عليه الدكتور طه حسين في أطروحته أمام جامعة السربون في العشرينات تحت تأثير خضوعه للفكر اليهودي الذي كان مسيطراً على الجامعات وعلى القادمين من الشرق ـ وخاصة دور كايم اليهودي الذي كان يعتبر نفسه مؤسس علم الاجتماع الحديث ـ بالرغم من ذلك ـ فقد أنصف الرجل عشرات من الباحثين الغربيين واعترفوا بفضله على زيادة العلوم الثلاث .

علم الإجتماع ـ وعلم الاقتصاد ـ وعلم التاريخ .

يقول الأستاذ مولود قاسم : العلم الذي أنشأ ابن خلدون هو علم

الاجتماع مثل : أوغست كونت ـ ومدرسة دور كايم ـ ومن سبقها وعاصرها ولحقها . وأنه فعل ذلك أحسن منهم جميعاً . بل هو أول منشيء علم الاجتماع بحق . وأن علم الإجتماع لم يزد شيئاً على ما قرره ابن خلدون . كما يرى الباحثون ، ومنهم علي عبد الواحد وافي . ومثل علم الأجناس (الأنثولوجيا) أو علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) . وقد أشار الباحثون مجدداً أنه مهد لإنشاء علم الإيديولوجيات أو المذهبيات السياسية (البوليتولوجيا) وقبل إنشاء جغرافية المدن والبوادي .

وقد تعددت الأبحاث عن هذا العلامة العملاق ، فأشار الباحثون إلى من تأثروا به وبمقدمته أمثال : المقريزي والسخاوي وابن الأزرق .

لقد تأثر به شمس الدين المقريزي في كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) . قال محمد عبد الله عنان أنه تأثر بمنهج المقدمة تأثراً شديداً واضحاً . وكان قد درس في شبابه على ابن خلدون . ويستعمل ألفاظ شيخه وعباراته من أحوال الوجود وطبيعة العمران ، وفي رأي المقريزي أن أسباب الخراب والمحن ترجع أولاً إلى توليه الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة واستيلاء الظلمة والجهال عليها .

كذلك تأثر العلامة شمس الدين السخاوي بابن خلدون في كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ) حيث تأثر بفكرة ابن خلدون الفلسفية في شرح التاريخ وفهمه . .

هذا في المشرق . . أما في المغرب فقد كان في مقدمة المتأثرين به ابن الأزرق الأصبحي . تأثر بالمقدمة في نظريات الملك والرئاسة ، وتكوين الدول . وفي كتابه (الإبريز المسبول وبدائع السلك في طبائع الملك) تأثراً واضحاً . فقد فحص نظريات المقدمة وعلق عليها ، وأضاف إليها زيادات كثيرة .

هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى . فقد سبق ابن خلدون في دراسات السياسة ، والملك كثير منهم : الماوردي في الأحكام السلطانية . . والطرطوشى في سراج الملوك . . غير أن ميزة ابن خلدون عليها أنه درس الموضوعات من جوانبها السياسية والعلمية . وقد اقتصرت الأبحاث قبله على الدراسات الشرعية .

انكشف فساد النظريات الوافدة

لماذا تسبح البشرية ضد التيار ، ولماذا تخفي وجهها في الرمال حتى لا ترى النور ، ولماذا تمضي في الدروب الضيقة المظلمة ، وأمامها الطريق الواضح ، لماذا تخشى طبها وشفائها . لماذا تخاف الأصالة . لماذا لا تعود إلى الفطرة . وقد أصبح الأمر أمامها واضحاً . وأصبح الحق ظاهراً . ولماذا لا تسلم وجهها إلى الله تبارك وتعالى . وقد تكشفت أمامها الحقائق ، وبانت الحجج وانهارت الأضاليل وتساقطت الأوثان ، ولم يعد هناك حجة للناس على انحرافهم وجنوحهم إلى الباطل .

إن كل المسممات الضالة التي صنعها الفكر الوثني المادي التلمودي خلال السنوات الطويلة بالخروج عن الفطرة ، ومعارضة الأصالة قد تهاوت وسقطت . وكل النظريات الباطلة قد تحطمت وإنهارت .

إن نظرية دارون التي كانت منطلقاً للفكر المادي قد تكشف زيفها ، وأثبت العلم وكشفت الأرض عن الجماجم والعظام التي دحضت نظرية الصلة بين الإنسان والقرد . بل لقد عبرت هذه الجماجم عن استقلالية كل عنصر منذ خلقه الله جل وعلا . وأن الإنسان منذ مشى على الأرض كانت قامته مثلما هي اليوم قائمة مسنونة . وبذلك تساقطت كل ما رتبته هذه النظرية الضالة ، وتبين فساد نظرية التطور الدائم كما تبين فساد نظرية الثبات الدائم . وعرف العلم أن هناك ثوابت ، وأن هناك متغيرات . . وكان الإسلام قد سبق . فأعلن ذلك منذ خمسة عشر قرناً . وحمل القرآن مفاهيم عن أول الخلق والحياة على وجه الأرض كشفت

الأبحاث العلمية صدقها . فلماذا ما زالت البشرية منساقة وراء الأكاذيب عاجزة عن قبول الحق . لقد كشف الدكتور بوكاي هذه الحقائق في وجه الغرب كله . وما يزال الغرب سادرا في ضلاله .

لقد كشفت الأبحاث سلامة الشريعة الإسلامية وكمالها ، وتبين للغربيين من كنوزها ما أذهلهم ، وجعلهم يعترفون بأصالة هذه الشريعة . بل أنهم نقلوا منها الكثير وطبقوه واعترفوا بفضل الإسلام ، ولكنهم ما زالوا بالرغم من هذا يحولون بين المسلمين وبين شريعتهم ، وبين هذا التشريع الإلهي ، الذي لا تستطيع ضربه أو إفساده تغيرات الزمن أو البيئات .

لقد تبين للغربيين بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يصح للإنسان أن يشرع لنفسه ولمجتمعه ، وأنه لا بد من جهة أعلى هي التي تشرع له ، وأنه حين يخضع الإنسان لقانون بشري ، فإنما يكون قد خضع للأهواء ولـلظن ، وهو ما يؤدي إلى تدمير المجتمعات وهم يرون دمارها . ومع أنهم يكتشفون هذه الحقيقة فإنهم ما زالوا سادرين وراء مناهج وأيديولوجيات لم تستطع أن تحقق لهم مطامح الروح ، ولا سعادة المجتمع ،هذه الإيديولوجيات التي يتراوحون فيها ، يميناً وشمالاً ، بين الديمقراطية والاشتراكية ، بين الفردية والجماعة . وقد تبين لهم فساد هذه الأيديولوجيات وعجزها عن الاستجابة الحقيقية . وكيف أن النقص لا يلبث أن يعتورها مع تغير الزمن والبيئات فيعالجونها بالحذف والإضافة . ومع ذلك فهم لا يستطيعون أن يصلوا عن طريقها إلى الاستقرار . لقد فشلت المناهج الاقتصادية المعاصرة . والعالم كله يطالب الآن بمنهج اقتصادي جديد يجد الناس فيه السعادة والرحمة والمساواة ، ويخلصهم من ارستقراطية الرأسمالية وديكتاتورية الماركسية . . وأمامهم الإسلام يستطيع أن يعطيهم ذلك ، فلماذا لا يجربونه . لقد فشلت الديمقراطية والاشتراكية في مجال السياسة ، وفشلت الرأسمالية والجماعية في مجال الاقتصاد .

وفي مجال الاجتماع تبين لهم فساد نظريات فرويد ، ودوركايم . وفريزر . وقد تبين لهم فساد الأسرة وحوادث الإجهاض ، وامتهان كل القيم ، وحركات الوجودية والهيبية والعرى الجماعي عن فساد هذا الانحدار . نحو الجنس ولكنهم ما زالوا سادرين في غيهم . لقد كشفت الأبحاث العلمية عن فساد نظرية فرويد

في الجنس من أساسها ، وتبين أنه ليس الجنس وحده مصدر التصرفات البشرية ، وأن هناك عوامل أخرى ، ولكن البشرية ما زالت تغذي بالوهم حتى يظل هذا الضلال متمكناً منها . كما كشفت الأبحاث عن أن الاقتصاد ليس هو العامل الوحيد ولا العامل الأول في تفسير التاريخ والمجتمعات . ولكن هذه النظريات ما زالت حية تدرس في الجامعات .

ولقد عمد الفكر الغربي إلى إنكار الله تبارك وتعالى ، وإنكار النبوة والبعث والجزاء ، ومسئولية الفرد في الحياة ، والتزامه الخلقي ، وعمد إلى تصوير الحياة بصورة مادية خالصة . وتجاهل جوانب الروح والمعنويات والغيبيات ، وعالم ما وراء المادة ، وقد تبين له فساد ذلك كله ، وجاء تفجير الذرة محطماً لكل هذه النظريات المادية التي تخالف الآن ما يقرره العلم التجريبي الذي أخذ يؤمن بعالم الغيب ويؤمن بوجود الله تبارك وتعالى الخالق القادر القائم وراء هذا الكون كله يديره لحظة بعد لحظة . ويعرف علماء الفلسفة المادية هذه الحقائق العلمية التجريبية ، ولكنهم سادرون في غيهم يضلون الناس ، ويسخرون من الأصالة والفطرة .

لقد كشف العلم منذ وقت طويل عن عجزه عن فهم حقيقة الوجود . وأعلن أن مهمته قاصرة على التعرف على ظواهر الأشياء ، وأعلنت الفلسفة المادية نكرانها لعالم ما وراء المادة ، ودخلت البشرية في حيرة شديدة لا مخرج منها إلا بالإيمان بالله الواحد الأحد . ذلك هو منطلق الفطرة الذي يهدي إلى مسئولية الفرد في بناء المجتمع الرباني على هدى من الالتزام الأخلاقي .

ونلتفت الآن إلى قومنا المسلمين : وقد طرحت هذه النظريات كلها في أفق فكرهم . هل يسيرون وراء ضلال الغرب وهواه ، وهل يقبلون الحضارة الغربية وهي في مرحلة الانهيار ، وهل يقبلون بتلك الأيديولوجيات المتصارعة المتهالكة . إن هناك قوى ضالة مضلة ما تزال توقد النار لتغري الناس بهذه الأهواء المضلة ، ودفع الناس إلى أتون الشهوات الصاخبة .

إننا نرى أقلام مسمومة تحاول أن تحطم كل القيم ، وأن تزيف حضارة الإسلام ، وتثير الشبهات حول القرآن الكريم والسنة ، والسيرة وتاريخ الإسلام ، وتروج مفاهيم زائفة وأفكار باطنية ، وهي تحيي من التاريخ تلك

الشخصيات الشاذة الغريبة الضالة ، والمنحرفة أمثال : الحلاج ، والسهروردي ، وأبو نواس ، وبشار . وهناك من تخصص في تشويه الشريعة الإسلامية ، والادعاء بأنها موقوتة أو من يحاول مهاجمة اللغة العربية ، ويدعو إلى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية ، ويقوم الاستشراق والتبشير الغربي بدور ضخم في هذا السبيل من خلال مخططات متجددة متغيرة تستهدف إخضاع ثقافة الإسلام وفكره لثقافة العرب تحت إسم « التقارب » و« الحوار » . ولا ريب أن هذا ليس تقارباً حراً ، ولا هو حوار أصيل ، وله من وراء ذلك هدف بعيد ، هو تجريد الإسلام من ذاتيته الخاصة ، وميزته المفردة . وذلك في محاولة لتضليل الراغبين في التماس الإسلام كمنهج حياة بعد أن عجزت الأيديولوجيات الغربية .

الواقع أن العالم كله يتطلع اليوم إلى فجر جديد ، وإلى منهج جديد . وأن الإسلام هو وحده القادر على العطاء بعد أن جرب الغرب كل الأيديولوجيات . بل أنه قد ذهب في ذلك إلى أبعد مدى حين وصل إلى الترفانا والبوذية . والهندوكية ، ولم يجد عندها جميعاً ما يعطيه أمان الروح وأشواق النفس ، وبقى عليه أن يجرب الإسلام ، وهم اليوم على الطريق إلى الحق ، ولكن هناك قوى خبيثة تحاول أن تردهم وتصدهم ، وتحجب عنهم هذا الضياء . هؤلاء هم دعاة الامبراطورية الربوية الوثنية الذين ينشرون الآن الفكر الوثني القديم من السحر والخرافة ، ويحاولون إفساد علوم مقارنات الأديان والأنتروبولوجيا ، واحتواء المسيحية ، ودفع البشرية إلى أتون الحرب أو الجنس أو الجري وراء لقمة العيش ، وإشعال نيران الصراع الطبقي والتمزق النفسي .

﴿يريد الله أن يهديكم سنن الذين من قبلكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ .

أنهم يعمقون الآن في الغرب الاتجاه إلى عبادة الغريزة والقوة . بدلاً من إحلال الفطرة ، وتكامل النفس والعقل ، وتكامل المادة والروح . أنهم يجدون الوثنية المادية القديمة ، ويحيون الفكر البشري في صور جديدة براقة . في نفس الوقت الذي يكتشف فيه العلماء فساد هذه المناهج وزيفها .

ومع ذلك فإن تلك هي حربهم الأخيرة ، وسيهزمون فيها هزيمة نكراء . فالإسلام هو كلمة الله إلى البشرية وإلى العالمين ، وهو الغالب مهما طال هذا

الصراع . وقد لقي من أعدائه ما لو لقيِ عشرة . أي دين آخر لاختفى من الوجود . وقد بقي على مدى الزمن صرحاً قوياً . والعالم الآن يزخر بما يزيد على ألف مليون مسلم ، رغم كل ما تعرض له المسلمون ، وسيـزدادون بفضل الله على مدى الأيام . لقد تبين للبشرية ـ وستزداد البشرية يقينا ـ فساد كل النظريات والأيديولوجيات التي وضعها البشر ، وأنه لا سبيل إلى الإنقاذ من المصير المظلم المحتوم إلى الاتجاه إلى رب العالمين ، والأمتثال لحكمه في كل شئون الحياة ، وسيعلم الذين ظلموا من التلموديين والوثنيين والماديين أي منقلب ينقلبون .

التحرر من التبعية للفكر الوافد

ما يزال المسلمون في هذا العصر وتحدياته في حاجة إلى معرفة أبعاد القضية الكبرى التي تمتلك عليهم اليوم فكرهم . وينقسمون إزاءها تحت تأثير الخدعة التي جرت على أقلام أتباع الاستشراق والتغريب . وهي اصطناع أسلوب الغرب في مواجهة التفوق عليه ، والتحرر من نفوذه ، وهي خدعة ضخمة ، كشفت الأحداث خلال أكثر من قرن كامل عن فسادها ، فقد استهدف النفوذ الأجنبي بها احتواء المسلمين في دائرة مغلقة هي دائرة فكره ، والتبعية له ، والانحباس بها دون امتلاك إرادة فكرهم المشرق ، والمنطلق الذي يحمل لواء النظرة الجامعة ، وتكامل عناصر المادة والروح . والذي يحمل شارة العزة والكرامة ، والعبودية لله تبارك وتعالى وحده من دون الأمم أو الحضارات أو الأيديولوجيات . والمذاهب الوافدة . بل إنه لمن العجب أن نجد مسئولا يحمل مسئولية النيابة عن العرب في منظمة دولية كبرى . يقول هذا القول ، ويردد تلك الفكرة الباطلة المسمومة حين يقول : « أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل استيراد الحضارة الحديثة دون استيراد قيمها معها . فنحن فيما يرى هذا التغريبي لا يستطيع إستيراد المنتجات التكنولوجية للعالم الحديث دون تبني نفس القيم التي كانت خلف الحضارة التكنولوجية . فالحضارة كل متكامل لا يتجزأ » ونقول لو أن رجلاً مثل : فرنسيس بيكون ، أو جلبرت سلفتر الثاني . قال لقومه في مطالع عصر النهضة الأوربية . هذا القول لجعلوه أضحوكة الدهر . ولكن من قومنا من يقول هذا ، ويردده دون أن يشعر بأنه يخدع أمته خداعاً شديداً . ذلك أن مفهوم الحضارة المادية بمعنى

المادية ، ليست إلا تجارب علمية في مجال الطبيعة والكيمياء والعلوم التجريبية لا تفرض في حاملها ، أو القائم بها أن يكون مؤمناً بمفاهيم الخطيئة والمادية والعلمانية ، أو يكون مؤمنا بأن يجعل هذا التقدم العلمي كله في سبيل تدمير البشرية بالقنبلة الهيدروجينية ، أو نشر أساليب الإباحة والفساد والانحراف تحت إسم الفن ، أو المسرح ، وإفساد المجتمعات ، وهدم الأسرة ، ودفع الشباب إلى الانحراف تحت اسم الوجودية ، أو الهيبية . أن هناك فاصلاً عميقاً بين التجربة العلمية التي يطمع المسلمون في الحصول عليها ، وبين أسلوب العيش الغربي الذي يطبق هذه المعطيات الحديثة . ولقد كانت معطيات المنهج العلمي التجريبي الذي بدأه المسلمون تنطلق من خلال مفاهيم الرحمة والعدل والإخاء الإنساني ، فاستطاع الغربيون أن ينقلوا المقايسات المادية إلى إطار فكرهم دون أن يأخذوا نفس القيم الإسلامية التي كانت تقوم عليها . وقد كان ذلك سببا هاما من أسباب انحراف الحضارة وفسادها وظهور أزمة الإنسان الغربي المعاصر .

لقد ردد هذه المفاهيم كثير من دعاة التغريب ، وكانوا في ذلك خادعين مضلين ، ولم يعد مثل هذا القول يخدع أحداً ، فقد نكشف الأهداف الخطيرة القائمة وراء دعوة المسلمين إلى أسلوب العيش الغربي بفساده وانحرافه ، وخمره وإباحيته وإن كان المسلمون قد جروا من الشوط ثمة ، فإنهم يعرفون الآن أن هذه التبعية هي التي اجتاحت وجودهم وادخلتهم في الأزمة الخطيرة التي يعانونها ، وهم يواجهون أهواء البشرية كلها ممثلة في النفوذ الأجنبي ، والصهيونية والماركسية جميعاً .

لقد كان المفكر والشاعر المسلم محمد إقبال في الثلاثينيات من هذا القرن قد حذر قومه من هذه الأخطار حين قال لهم : على المسلم المعاصر أن يحذر الوقوع في الخطر الذي يمكن فيما ينطوي عليه الفكر الأوربي الجديد من إلحاد وخصوصاً أن أساليب الخداع فيه كثيرة . فقد انخدع به كثيرون من المسلمين كما انخدع بالفعل به بعض الدعاة في الهند ، فعلينا أن نعيد النظر في تفكيرنا الإسلامي من جانب ، ونمحص هذا الفكر الجديد بروح مستقلة يقظة من جانب آخر . إن أخف الأضرار التي أعقبت فلسفة الغرب المادية هي ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه ، والذي أدركه هكسلي ، وأعلن سخطه عليه .

وللإشتراكية الحديثة الملحدة ، ولها كل هؤلاء الدعاة المتحمسين المضللين . لقد استمدت أساسها الفلسفي من المتطرفين من أصحاب مذهب هيجل . فقد أعلنت العصيان على ذات المصدر الذي كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف ، فهي إذن ليست بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية . وعلى المسلم أن يقدر وأن يعيد بناء حياته الإجتماعية في ضوء الميادين القاطعة في الإسلام ، كمبدأ التوحيد ، وختم الرسالة ،وأن يستنبط من أهداف الإسلام التي لم تنكشف إلى الآن إلا تكشفاً جزئياً . تلك الديمقراطية التي هي الحكاية الأخيرة للإسلام ومقصده .

إن المسلم القوي الذي أنشأته الصحراء وأحكمته رياحها الهوجاء ، أضعفته رياح العجم ، فصار منها كالنادي تحولا ونواحا . وأن الذي كان تكبيره يذيب الأحجار انقلب وجلا من صفر الأطيا ،والذي هز عزمه شم الجبال غل يديه ورجليه بأوهام الاتكال ، والذي كان ضربه في رقاب الأعداء صار يضرب صدره في اللأواء، والذي نقشت قدمه على الأرض ثورة كسرت رجلاه عكوفاً في الخلوة ، والذي كان يمضي على الدهر حكمه ، وتقف الملوك على بابه رضىً من السعي والقناعة ، وذلة الاستخذاء والخشوع .

ويقول إقبال : إن أوروبا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقي لأخلاق الإنسان . أما المسلم فإن له هذه الآراء النهائية القائمة على أساس من « تنزيل » يتحدث إلى الناس من أعماق الحياة والوجود ، وما تعني به هذه الآراء من أمور خاصة في الظاهر يترك أثره في أعماق النفوس الأساسي الروحي للحياة عند المسلم بإيمان يستطيع المسلم أن يسترخص الحياة في سبيله .

وقد تعددت كتابات الكاشفين عن فساد التبعية ، وعن فساد الصنم المعبود الذي هوى . يقول أحدهم : إن المجتمع البشري اليوم قد سئم ويئس من منبع أوربا الذي فقد زمنه ، ولم يستطع خلال هذه النهضة الهائلة الطويلة أن يضيف إلى رصيد الإنسان إلا الحديد والنار والبارود والدخان والقنابل المدمرة والغازات السامة ، والآلات المبيدة . إن الفراغ الذي حدث في قيادة الإنسانية اليوم فراغ رهيب ، ولكنه فراغ لا يستطيع أحداً أن يملأه إلا العالم الإسلامي ، ونقول : بل دعوة التوحيد الخالص التي حملها الإسلام ، وما زال محجوباً من المسلمين .

ويقول باحث آخر : إن أولئك الرجال الذين اعتنقوا الأفكار الغربية

(قومية ، وليبرالية ، واشتراكية ، ظناً منهم أنها تحرر النفس . أو توحد الأمة ، أو تعيد للمسلمين والعرب كيانهم . هم مخدوعون ، وعليهم أن يعودوا إلى مفهوم الإسلام بعد أن أصبحت تلك الشعارات والأفكار هباءاً منثوراً . والألفاظ بلا مضمون ، ولا تؤدي إلا إلى سراب خادع وهم بالتأكيد ما لجأوا إلى ذلك إلا هرباً من الإسلام وخطره على النفوذ الأجنبي ، والشيوعية والصهيونية التي ينتمي إليها زعماء تلك التيارات والاتجاهات ومؤسسوها . ا . هـ .

وهكذا نجد أن الطريق قد وضح . وأن الرؤيا أصبحت قادرة على استيعاب الأبعاد والغايات الخطيرة التي تستكن وراء التغريب وإخراج المسلمين من ذاتيتهم وهويتهم وقيمهم الأساسية .

يقول كلودم هانواي (مصمم العقل الأليكتروني - لانجي فيلد) . أن خالق هذا الكون لا يمكن أن يكون مادياً ، وإني أعتقد أن الله لطيف غير مادي ، وإنني أسلم بوجود اللاماديات لأنني بوصفي من علماء الفيزياء . أشعر بالحاجة إلى وجود سبب أول غير مادي . إن فلسفتي تسمح بوجود غير المادي ، لأنه بحكم تعريفه لا يمكن إدراكه بالحواس الطبيعية ، فمن الحماقة إذن أن أنكر وجوده ، وفوق ذلك فإن الفيزياء الحديثة قد علمتني أن الطبيعة أعجز عن أن تنظم نفسها أو تسيطر على نفسها . وقد أدرك إسحاق نيوتن : أن نظام هذا الكون يتجه نحو الانحلال ، وأنه يقترب من مرحلة تتساوى فيها درجة حرارة سائر مكنوناته ، ووصل من ذلك إلى أنه لا بد أن يكون لهذا الكون بداية كما أنه لا بد أن يكون وضع تبعاً لتصميم معين ونظام مرسوم .

آمنت بالله وأنا أهدي هذا إلى أساطين الفكر المادي ، والذي يدعون في بلادنا العربية أنهم فلاسفة . هذا قول عالم التجربة العلمية يقذى عيونكم ، ويكشف فساد ما ترتبونه على مفاهيم باطلة انقرضت وزالت . ألا وإن وراء الفلسفة المادية هدفاً مبيتاً . وليس وراءه رغبة في الوصول إلى الحقيقة .

محاكمة التراث والفكر الوافد في ضوء القرآن

ما يزال كتاب التغريب يواجهون صيحة التماس الأصالة والعودة إلى المنابع والتحرر من الدوائر المغلقة الوافدة التي وضعتنا فيها حركة التغريب والغزو الثقافي خلال سنوات طويلة . ما يزالون يستغلونها بقدر كبير من التشاؤم في معارضة طريق الله الحق ، وفشل كل ما قاموا به من مؤامرات . وما نصبوه من أفخاخ ، وما قدموه من سموم . فترى رجلاً مثل الدكتور زكي نجيب محمود يدين بالفكر المادي ، ويحاول أن يبتعث من التراث القديم كل ما يتصل بالفكر الشعوبي . والباطني . والفلسفي المادي ، ويعلن أنه هو الثمار المرجوه ، ويتجاهل الصفحات الناصعة ، والمضيئة الحقيقية التي قدمها التراث الإسلامي في مجالات الفقه والتشريع والتربية والاقتصاد والاجتماع ، فهو يتوقف عند أولئك المنحرفون من أمثال : أصحاب دعاوي المعتزلة والفلسفة والقرامطة وإخوان الصفا . وهذه الدعوى ليست إلا امتداداً لما أثاره طه حسين وجماعة المجددين في المرحلة السابقة من إحياء أبي نواس . وبشار ، وأبي العلاء . وابن عربي ، والحلاج ، والسهروردي . كل هذا الفكر المسموم الوافد الذي أثارته ترجمة الفلسفات اليونانية والغنوصية في القرن الثالث الهجري . يعاودون اليوم ابتعاثه تحت دعاوي كثيرة ضالة وفاسدة ، ويتجاهلون أن هذه الدعاوي قد سقطت جميعها . وأن الفكر الإسلامي بأصالته وعقيدته الموحدة وامتداده من القرآن الكريم قد حطم كل هذه النحل الضالة وانتصر عليها بإعلان مفهوم السنة الجامعة . ولما كانت حركة اليقظة الإسلامية منذ ظهور الإمام محمد بن عبد الوهاب . والمصلحون المسلمون ، وهم يدعون إلى

العودة إلى المنابع قد استطاعت أن تحقق خطوات واسعة على الطريق الصحيح ، وأن هذه المفاهيم ذات الأصالة قد استطاعت أن تواجه شبهات حركة التغريب والغزو الثقافي في قوة ، وأن تحطم تلك السموم التي أثارها الاستشراق والتبشير في وجه تاريخ الإسلام واللغة العربية وسيرة الرسول والسنة والقرآن الكريم نفسه ، وأن تدفعها دفعاً قوياً وتعريها ، وتكشف زيفها وأهوائها وتعصبها ، فضلاً عن كشف أولئك التغريبيون . فإن حق هؤلاء الخصوم ما يزال يدفعهم إلى تصريحات تتنافى تماماً مع ادعائهم الكاذب بأنهم يلتمسون المنهج العلمي في البحث . وما بالك برجل يعلن أنه ليس عندنا ثقافة خاصة ، أو فكرا فلسفيا . وأن الأمة العربية لا فلسفة خاصة بها . وأنها تستعير الثقافة والفكر الغربي في كل شيء . ومن يصدق مثل هذا القول ويلغي عقله ، ويلغي ذلك التاريخ العريض الذي طبقه المسلمون في حياتهم ومجتمعاتهم . وقدموا به المثل الأعلى الذي يستمد من القرآن الكريم ، والذي يمثل المجتمع الرباني في الأرض خلال أربعة عشر قرنا على جبهة عريضة من الصين إلى نهر اللوار في فرنسا . هذا المنهج الذي أخذت منه الحضارة الغربية في العصر الحديث كثيراً من معطياته في مجال القانون والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية ، وما زال يعترف بذلك رجال منصفون ، وكيف يمكن أن يطالب المسلمون اليوم ، وبعد أن فشلت الحضارة الغربية بمنهجها وفلسفتها وتطبيقها من أن تقدم للنفس البشرية طموحها وأشواقها . وقد دخلت مرحلة الأزمة العزفة والإضراب الشديد من حيث تحطم المجتمع ، واضطراب الأمن النفسي حيث ذلك التخبط الذي تواجه هذه الحضارة ، ولا تدري له علاجاً ، لأنها تعتمد فيه على عنصر واحد هو العنصر المادي ، وتتجاهل ذلك العنصر الآخر الذي يتشكل منه التركيب البشري والإنساني ، وهو جانب الروح والمعنويات والأخلاق والدين ، وكيف يمكن للمسلمين الذي أعطاهم الإسلام منهجاً كاملاً صادقاً مستجيباً للفطرة ، موافقاً للعلم ، متوازياً ومتكاملاً مع طبائع الأشياء ، ويلتقي فيه الوجود في الطبيعة والإنسان . كيف يمكن للمسلمين الذين يملكون هذا المنهج أن يطلب إليهم أن يتجاوزوه ، لينصهروا في منهج ضال منحرف ، هو في ذاته جزئي وناقص وغير مطابق للفطرة والعلم ، أو طبائع الأشياء . وكيف يقبلون هذا المنهج وقد رفضه أهله ، وأعلنوا أنه فشل فشلاً ذريعاً في تحقيق أي

لون من ألوان السعادة لهم سواء على طريق منهج الغرب الديمقراطي ، أو الشرق الماركسي .

وقد رفض كثيرون من المفكرين هذه الدعوى الباطلة . دعوى الإيمان الوثني بالحضارة الغربية بشقيها على قول : سيوجستين : « إن فلسفة الغرب المادية تعتبر أن الإنسان خلق للسعادة ، وبالتالي فإن كل شيء يجب أن يكون لمصلحة الفرد ، ولكن الإنسان كما خلق للحياة ، فقد خلق أيضاً للموت ، وبالتالي فلا بد له من الإيمان بالله وبالقيم الروحية والمعنوية ، وبأن رسالة الإنسان هي الارتقاء إلى قيم أعلى ، وليس مجرد اقتناء أكثر » .

« إن الأسباب المؤدية إلى انفجار عالمنا تبدو واضحة للعيان وهي انقسامه إلى قوتين عظيمتين تملك كل منهما قوة كافية لتدمير العالم . إن عالمنا تقتسمه شروخ أكثر عمقاً ، وأكبر عدداً مما يبدو » .

إن هناك وهم سائد بأن القوتان العظيمتان سوف تتقاربان بحكم التقدم الصناعي والتطور العلمي في حين أنني أرى العكس أن عيوب الغرب نواقصه : فقدان الشجاعة ، وانعدام روح التضحية ، وكراهية الموت . يرجع انهيار الغرب إلى الترف المادي أنه أخذ يهجر الدين ويتمرد على القيم الروحية ، ويحط من شأنها ، ويجعل القيم المادية أساس حياته ، ومحور أفكاره وبرهان تقدمه ، يتجه إلى المادية والإلحاد عن طريق الأنغماس في المصلحة والمادة ، وحب الاقتناء والاستهلاك . حضارة شأنها البحث عن اللذة والاستمتاع .والمزيد من الرخاء لا يمكن إلا أن تكون حضارة شائخة خائفة تهاب الموت وتكره التضحية ، فهي تتنازل أمام خصومها خطوة بعد خطوة طلباً للسلام .

إن الخطأ هو في القول بأن الإنسان هو الغاية ، وسعادته هي الهدف . ذلك أن الإنسان مخلوق ناقص فيه مزايا وصفات ولكن فيه غرائز وله أطماع ومليء بالعيوب ، فلو أعفيناه من أي سلطة روحية أعلى ستتحول الدنيا إلى غابة يحميها القانون . هذا ما يقوله أهل الغرب عن حضارتهم ، فكيف يطلب منا مثل الدكتور زكي نجيب محمود أن نعتنق هذه الحضارة . والعالم يتطلع اليوم في شوق إلى تجربة جديدة تأتي من قبل أصحاب الدين الحق ، تحرر الإنسان من ربقة

الوثنية والمادية والإلحاد وكيف يطلب إلى المسلمين اللحاق بالقطار المحطم أو المركب الغارقة .

إن كل دعاة التغريب والغزو الثقافي يتشبثون بالواقع الفاسد في المجتمعات الإسلامية الذي جاء نتيجة ما فرضه النفوذ الغربي خلال مائة سنة من أساليب ومفاهيم وتغييرات فرضت على المسلمين بقوة هذا النفوذ ، ولم يقبلوا بها قبولاً حقيقياً ، فكيف يطلب منهم اليوم ، وهم يلتمسون العودة إلى منهج الله ، وإلى شريعة الله وإلى الأصالة أن يقيموا حياتهم على أساس الواقع المضطرب من انحراف ، سواء في مجال تحكيم القانون الوضعي ، أو منهج التربية العلمانية ، أو تقبل أوضاع التحلل الاجتماعي ،والانحراف في مجال الأسرة ، والمرأة ، والتعامل نتيجة ذلك البحث الخطير الذي تفرضه القصة المكشوفة ، والمسرحية المنحرفة ، والأغنية الهازلة ، وما تطرحه هذه الأساليب التي يسمونها « ثقافة » من فساد وسموم .

ويعيب الدكتور زكي نجيب محمود التماس الأصالة والعودة إلى المنابع فيقول : « المنهج السائد هو منهج مبني على مقدمات تأخذها من كتب الاسبقين أو من أقوال الآخرين . ومثل هذا المنهج يجعلنا سجناء في أقوال سابقة » .

هذا الكلام هو الذي ما زال يردده دعاة التغريب لا يكفون عنه مهما قيل لهم إنه باطل ، وما زال أمثال الدكتور زكي نجيب محمود ينقله إلى كثير من البلاد العربية . ويواجه بالإجابة عليه من أن كتب الأسبقين وأقوال الاخرين هي في الحقيقة ليست في أصلها الأصيل إلا القرآن الكريم والسنة المطهرة . أما سوى ذلك فليس له التزام أمام المسلمين إلا بمقدار ما هو أضواء على الكتاب والسنة ، وتفسير له ، وتوضيح وتطبيق ، وما تزال البشرية في حاجة إلى العطاء الذي يصلها من مصدر أعلى ، ولن تستطيع أن تقنن لنفسها . ذلك لأنها إذا فعلت وقعت تحت سلطان الهوى والظن ، وعجزت عن أن تحيط بأبعاد متغيرات الزمان والمكان . ومن ثم يسقط فكرها وتسقط نظرتها بعد قليل ، لأنها لا تقدر على مواجهة الأحداث .

أما الإسلام فإنه يقدم العطاء الأصيل المتصل بالنفس البشرية ، والقادر بأبعاده الواسعة ، وضوابطه المحكمة ، أن يستقبل متغيرات العصور . فهذا الذي

يسخر به الدكتور زكي نجيب محمود هو ما كان يصفه الدكتور طه حسين من قبل بالقديم ، ليس إلا ميراث الرسالة الربانية الخاتمة القادرة على العطاء المفتوحة الآفاق . فكيف توصف بأنها « سجن » أن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يقال بالنسبة للتراث الغربي ، فكيف يصلح أن يقال بالنسبة للإسلام ، الذي جاء بمعطيات الحرية والعدل والكرامة ، وتحرير النفس الإنسانية من الوثنية وتحرير الإنسان من العبودية التي عرفتها حضارات الرومان والفرس والفراعنة .

ويقول الدكتور زكي نجيب محمود أنه : إما مجتمع جديد أو الكارثة ، ونحن معه في هذا . ولكنه المجتمع الجديد الذي يتطلع إليه المسلمون ، هو مجتمع التوحيد والرحمة والإخاء البشري الذي جاء به الإسلام ورسخته حضارته التي توقفت عن العطاء ، منذ أن غلب عليها النفوذ الأجنبي . ويعيد الدكتور زكي نجيب محمود القول : عن ما يسميه المزاوجة بين ما ينتقيه من التراث ، وبين ما ينتقيه من الفكر الغربي ، وتلك أحدوثة دحضها كثير من الكتاب الذين عرضوا لدعواه ، والذين ما زالوا يذكرون كتابه عن خرافة الميتافيزيقيا (أي الغيب) ومحاولته الجديدة في التقرب إلى القارىء العربي بدعوى إعجابه بالتراث حتى يتمكن من طرح سمومه التي تسخر من كل القيم الأساسية للفكر الإسلامي ، والتي تبعث من الحفر القديمة ذلك الفكر الباطني والوثني والمجوس تحت إسم حرية الفكر ونحن نؤمن بأن لنا قاعدتنا الأساسية وهي (القرآن الكريم والسنة) نحتكم إليها في النظر إلى التراث ، وإلى ما يقدم من الفكر الغربي مؤمنين أساساً أن لدينا منهجاً كاملاً صالحاً لبناء المجتمع الإسلامي الجديد .

ثلاثة كتب يجب الحذر منها

لقد حملت لواء الترجمة إلى اللغة العربية أيدي وقوى لم تستهدف صالح هذه الأمة ، ولكنها استهدفت إذاعة السموم ونشر المفتريات والأكاذيب . هذه الكتب التي كتبها مستشرقون غربيون من خصوم الإسلام ، وانتشرت بين أيدي المسلمين يجب الحذر منها ، والنظر إليها على أنها وجهة نظر خصم أو عدو ، أو صاحب فكر ، ومعتقد معارض أو مضاد لفكرنا . ولذلك يجب التحرز مما يقول ، فهو إما أنه يعجز عن فهم الإسلام وعقيدته وفكره لاختلاف المنابع ، أو أنه يعرف وينكر . أو أنه يخضع لظروف السياسة والصراع الدولي ، فيهدف إلى استصغار الوجهة الإسلامية وإثارة الشبهات حولها . هذه الكتب نحن مطالبون بالتعرف إليها والرد عليها ، والكشف عن إنحرافها عن المفهوم العلمي في البحث . وقد نوهنا كثيراً باليقظة والحذر إزاء ما يسمونه بـ(دائرة المعارف الإسلامية) التي يقوم على نشرها وكتابتها يهود هم خصوم للإسلام ، وما يتصل بها من دوائر معارف وخاصة (المنجد) وكنا نوهنا بالحذر منهما .

وفي السنوات الاخيرة صدر كتاب : تاريخ الحضارات العام في أجزائه الستة ، وترجم إلى اللغة العربية ، وخاصة الجزء الثالث الموسوم بإسم (القرون الوسطى ، والحضارة العربية) وقد تبين أن المؤلف كلود كاهين قد جرى على أسلوب المستشرقين في التعصب والتحامل على الإسلام وحضاراته . ولعل أخطر ما ذهب إليه المؤلف في هذا الصدد أنه اعتبر أن الألف سنة التي أشرق فيها الإسلام على العالم ، وهي نفسها فترة القرون المظلمة في أوربا . هذه الألف سنة

يقترح المؤلف حذفها من تاريخ العالم ، ناسياً أنها هي السنوات التي قدمت للبشرية الضياء والنور والهدى بعد أن ساد العالم الظلام الكامل . وأن الإسلام خلال القرون الوسطى المظلمة كان مشرقاً على مختلف أجزاء العالم الأخرى ، حيث قدم للإنسانية الرحمة والعدل والشورى والإخاء البشري بين جميع بني الإنسان على اختلاف عناصرهم وطبقاتهم ودياناتهم ، وهو الذي حطم عبودية الرومان والفرس والفراعنة ، وحطم الطواغيت ، وأطفأ بيوت النيران ، وأقام حرية الإنسان ، وحرره من الوثنية والأباحية والمادية ، بعد أن دمرت الامبراطوريات الوثنية كل قيم الأخلاق . وأن الإسلام خلال هذه الألف العام قد نشر ضياءه على العالم كله من حدود الصين إلى نهر اللوار في فرنسا . فحرر هذه الأمم كلها من الوثنية والعبودية جميعها . وقد رحبت به الشعوب المستضعفة ، ورأت فيه رحمة ونوراً وخلاصاً من حكامها الظالمين الذين استعبدوها .

وهكذا نجد أن مفكري الغرب بالرغم من دعواهم العريضة بأنهم أصحاب المنهج العلمي يخضعون لأهوائهم إلى هذا الحد الممقوت الذي يدفعهم إلى أن يتجاهلوا ألف سنة كاملة من تاريخ البشرية هي أنضر صفحاتها وأروع عصورها ، وهي الضياء الذي قدمه خاتم الأديان إلى البشرية كلها . والذي أعطى الغرب وأوربا تلك الأصول الأولى التي أقامت عليها هذه الحضارة العالمية . ذلك هو المنهج العلمي التجريبي . وهذا يعطينا الحذر والحيطة في قراءة مثل هذه الكتب ، ويأخذ باللائمة أولئك الذين ترجموا هذا في بلادنا دون أن يردوا عليه أو يصححوه من حيث يجد القارىء المسلم مجلدات ضخمة مطبوعة طباعة فاخرة ، فيظن أنها تحمل الحقائق ، ولا يستطيع أن يستكشف ما فيها من أهواء ولؤم ومكر مخلوط بتلك الكلمات البراقة الخادعة .

وقد علق الأستاذ محي الدين صبحي على هذا النهج من التأليف . فقال إنهم لا يستطيعون التفرقة بين العصور الوسطى المظلمة في أوربا والعصور المضيئة في عالم الإسلام ، وأنهم لا يستطيعون معرفة مصدر وحدة الحضارات الفرعونية ، الآشورية ، والبابلية ، والفينيقية ، والأرامية التي تشترك مع الحضارة الإسلامية في أصل واحد ، ولا ما يسمى بالهجرات السامية التي خرجت من اليمن وجنوب الجزيرة العربية ، لأنها لا تعرف النقطة الأولى وهي : (الحنيفية الإبراهيمية)

ونقول : ولأنهم لا يعرفون حقيقة الأثر الذي أحدثه الإسلام في أنه علامة على دخول البشرية عصر الرشد من ناحية ولأنها كانت علامة اليقظة في عالم الغرب نفسه ، وتحرير الإنسان من الوثنية ، وتحرير البشرية من عبودية الكهان والملوك والأكاسرة . ومن أخطاء هذه الدراسة أن كاتبها يرى أن سقوط بغداد عام ١٢٥٨ (٦٥٦هـ) هو نهاية الحكم العربي ، وينسى أن الامبراطورية الإسلامية بين الصين وفرنسا استمرت من ٦٣٤ إلى ١٤٥٣ ـ ومن فتح سوريا على يد العرب المسلمين ، وسقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين الذين لم تسقط دولتهم إلا عام ١٩١٨ (وأن غرناطة الإسلامية في الأندلس لم تسقط في يد الكاثوليك إلا عام ١٩٤٢) وتجد الامبراطورية العثمانية خصومة شديدة من مؤرخي الغرب . فقد أفزعتهم أكثر من أربعمائة عام ، ووصلت في نفوذها إلى أسوار فينا مرتين ، وأنهم حين يحملون عليها يتجاهلون مراحل القوة ، وصور العظمة خلال تاريخها الطويل ، ولا يتحدثون إلا على مراحل الضعف الأخيرة التي تصاب بها كل الأمم وكل الحضارات . أنهم لا يذكرون من الامبراطورية العثمانية سوى الرجل المريض ، والانكشارية ، ومذابح الأرمن واليونان مع أن الانحطاط لم يحدث إلا بعد انقضاء خمسمائة عام على قيام دولتهم .

كذلك يحاول (كولد كوهين) أن يتحدث عن الطوائف والأقليات العرقية ، وينسي شهادة العشرات من زملائه الغربيين بنزاهة الحكم الإسلامي في معاملة أهل الكتاب ، وحماية بيعهم وكنائسهم ، وتحرير إرادتهم . ولا ريب يفخر المسلمون استمداداً من الإسلام بتسامحهم الذي أتاح لمختلف الطوائف (النساطرة ، الصائبة ، اليهود ، النصاري ، الارمن ، الفرس ، الهنود ، البربر) أن تزدهر في كنفهم حيث لم يكن يرى أن نشاط هذه الأقليات شيئاً خارجاً عن مجرى الحياة الإسلامية . وقد شهد بسماحة العرب والمسلمين مع الأقليات والطوائف وأهل الكتاب : جوستاف لوبون ، وتوينبي ، وتوماس أرنولد وغيرهم .

٢ ـ ومن الكتب التي استهدفت إثارة الشبهات : كتاب المصريون المحدثون للمستشرق (ادوار لين) حيث جمع كل التقاليد والعادات المنحرفة في المجتمع المصري ، وحاول أن يصورها على أنها مفاهيم الإسلام في الإجتماع . مع أن في

هذه المرحلة كان المجتمع قد بعد كثيراً عن الصورة المثلى والحقيقة للإسلام ، وهي محاولة تشبه محاولة الادعاء بأن كتاب (ألف ليلة وليلة) يمثل صورة المجتمع الإسلامي . مع أنه جمع صور ساذجة وكاذبة وملفقة .

٣ - ومن هذه الكتب كتاب (السيادة العربية) لفان فلوتن : - الذي يتبنى قضية مغلوطة ومحاولة فرض مفهوم كاذب بأن العرب كانوا في صراع مع الأعاجم ، وإقحام الفتح الإسلامي في خدمة هذه الدعوة وإظهاره في صورة السلم الذي ارتقى منه العرب إلى مركز السيادة والسيطرة على الأجانب . هذه القضية التي أثارها ثلاثة من المستشرقين المتعصبين : جولد زيهر . وفون كريمر . وفان فلوتن .

وفي قضية الموالي حق قليل ، وفيها تجاور كبير . يقول الأستاذ محمد سعيد البوطي : أن صفة الموالي في نظر العرب لم يكن مصدرها عرق ولا لسان . وإنما هي الدلالة على الضعف المستلزم في غالب الأحيان للمتابعة والاحتماء ، أو هي صفة الرق والعبودية . إن كان مصدر الولاء ذلك . ولا علاقة للولاء بالعجم ، وأن الموالي كان فيهم العرب قالأقحاح وفيهم الفرس والروم والترك أيضاً . ويقول : إن عامة الموالي في نهاية العصر كانوا خليطاً من الأعاجم احتلوا مساحة واسعة من صفحات التاريخ بسبب ما لعبوه من أدوار سياسية لفتت إليهم الأنظار . وكان هذا السر بمثابة تكأة عول عليها كثير من المؤرخين المغرضين فيما استهدفوا إليه من محاولة إيجاد هوة عظيمة في قلب الوحدة الإسلامية تفصل بين شطريها العربي والعجمي ، وكان هذا هو الذي حملهم على أن يتلقفوا كل أثر عربي يحط من شأن الموالي ليستشهدوا به على أن هناك صراعاً كبيراً كان قائماً بين العرب والأعاجم ، وعلى أن الفتح الإسلامي لم يكن إلا وسيلة للانتصار على الأعاجم وانتزاع سيادتهم . والواقع أن شيء من ذلك لم يؤثر إلا عند بعض أعراب البادية الحفاة على حد تعبير (المبرد) في (الكامل) .

٤ - يضاف إلى هذا ذلك الركام الضخم المتجدد اليوم حول الزنج والقرامطة والادعاء بأن حركتهما حركة عدل إجتماعي بتوجيه من قوى الاستشراق والغزو الفكري . والشيوعية والصهيونية من أجل تسميم آبار التاريخ الإسلامي ،

والادعاء بأنها ثورة العبيد ، وأنها تمثل انتفاضة عدل . وقد ردد هذا القول اليهودي الماركسي جارودي في محاضرة له حاول أن ينسب هذا الباطل للإسلام ، كما حاول ذلك من قبل طه حسين . والواقع أن وراء الحركتين تلك القوى الباطنية والمجوسية التي كانت تحاول أن تنقض على النظام الإسلامي ، والدولة الإسلامية ، وأن أصحاب التجربة المضللة . وقد اتيحت لهما فرصة السلطان قد أثبتا عجزهما العام عن تمثيل أي معنى من معاني العدل الإسلامي ، وباءت التجربة بالخسران .

الاستشراق : ينفث سمومه

كتاب جديد يهاجم الإسلام صدر عن جامعة كمبرج البريطانية تحت إسم الهاجرية ، وتكوين العالم الإسلامي بقلم (باتريشيا كرون) وميكل كول الباحثان في درسات التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط .

Hagariem= The making of the Islamic world.

والكتاب شأنه كل الكتب الاستشراقية التي تحمل الشبهات والسموم عن الإسلام ، والرسول والتاريخ الإسلامي . يحاول الكتاب أن يصور الإسلام بأنه دين وضعي أسست قواعده في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان . أما ما كان قبل ذلك فقد كان شيئاً إسمه (الهاجرية) .

والهاجرية هي عبارة عن كلام كتبه الأسقف ذيبوس يقول فيه أن النبي محمد يبشر بدين يعد استكمالاً للديانة الهاجرية وأن هذا الإسم ينسب إلى السيدة « هاجر » زوجة سيدنا إبراهيم وأم سيدنا إسماعيل . ويصل التمويه بالكاتبين إلى حد التضليل والتشكيك في حدوث الهجرة النبوية ، ويقولون إن إسم (هاجر) هذا تم تحريره بعد ذلك في القرن الثامن الميلادي ليعطي معنى « الهجرة من مكة إلى المدينة » وهي واقعة يشكك فيها الباحثان ويحاولان الادعاء بأن هذه الهجرة لم تحدث قط . ويعتقد الباحثان في هذه الدعاوي الزائفة على مراجع ضالة أمثال جولدسيهر ، وإيلي حضروني ، وبرنارد لويس ، ونداف سفران ، وفون جرونباوم . ومع الأسف أن هؤلاء المستشرقين جميعاً من اليهود ، ويدعي المؤلفان أنهما اعتمدا على مصادر غير المصادر الإسلامية التي يعرفها الباحثون جميعاً . هذه

المصادر المدعاة على حد قولهم مصادر قبطية ، وأرمنية ، وسريانية . مجهولة بدعوى أن هذه المصادر أهملها المؤرخون ، وليس أدل على ضلال هذه الوجهة وكذبها أن هذه المصادر لو كانت لها قيمة تذكر لما جهلها الباحثون خلال هذه الأجيال المتتابعة .

وعن طريق هذه المصادر الزائفة يقدم الباحثان هذه الأضاليل التي لا يقبلها عقل ، والتي تصمهم بالسخرية والاحتقار . وتنسبهم إلى التعصب المقيت ، وتكشف عن أن حركة الاستشراق ما تزال تتخبط في الأهواء والغابات المضلة ، وأنها ما زالت غير قادرة على أن تحرر نفسها من التبعية للاستعمار الغربي ، وللكنيسة وللصهيونية ، وللشيوعية على مدى ذلك الزمن الطويل ، وأن ما يقوله بعض المعتدلين من أمثال : جاك بيرك وغيره من أن الاستشراق يؤدي إلى المنهج العلمي كلام باطل . فإن الأهواء الحاقدة على الإسلام والعرب خاصة في هذه المرحلة من التاريخ . ما زالت تزداد قوة حيث نرى كل يوم أسلوبا جديداً من الزيف والتضليل ، وخاصة بعد أن سقطت منظمة اليونسكو في هذا التيار بما كتبت عن الإسلام في فترة قريبة ، وبما لا تزال دائرة المعارف الإسلامية التي يعاد طبعها في البلاد العربية ـ تحمله من سموم ، وخاصة فيما يتعلق بمادة : إبراهيم وإسماعيل وحنيف وفلسطين والقدس . وغيرها مما يدل على مدى سيطرة الاستشراق الإسرائيلي على هذه المؤلفات وما كتبه جولد زيهر في كتابه عن العقيدة والشريعة في الإسلام ، وما كتبه برنارد لويس من هجوم على قيم الإسلام في الأخلاق . والإخاء الإسلامي كما اعتنقها العرب ويتورع أصحاب كتاب الهاجرية من القول بأن كلمة (حنيف) كانت تعني كلمة (وثني) وهذا محض افتراء . فإن كلمة حنيف لغوياً تعني الحائد عن الوثنية والمتعبد لله وحده ، وهي تعني الفطرة .

يقول الأستاذ كرم شلبي أول من كشف أمر هذا الكتاب : إن القصة هي قصة حرب صليبية جديدة موجهة ضد الإسلام والمسلمين ، لها أبعادها الدينية والسياسية ، وأنها لا تستخدم الكتب والبحوث العلمية وحدها . بل تستعمل مختلف الأدوات والوسائل . ويقول : إن مثل هذا الادعاء بأن الهاجرية دين . إنما هو حلقة من سلسلة التآمر ضد الإسلام والمسلمين بدأها الدكتور طه حسين عام ١٩٢٩ حين أعلن تكذيبه لوجود إبراهيم وإسماعيل جريا على ما تحاول الصهيونية

القول به ، وخدمة لهذه الغايات البعيدة ، وإن كانت الحفريات الأثرية ما لبثت أن كذبت طه حسين حين انجلت عن آثار كثيرة تؤكد وجود إبراهيم وإسماعيل في هذه المناطق ، فضلاً عن الدليل الأكيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم .

أما إدعاء مؤلفا كتاب الهاجرية من أن القرآن لم يعلم إلا في عهد عبد الملك بن مروان ، فهو ادعاء زائف لا يحتاج إلى رد .

كذلك فإنه لا توجد علاقة ما بين (هاجر) وبين الهجرة ، والهجرة إلى المدينة من مكة حقيقة تاريخية لا يمكن لأحد إنكارها أو الشك في حدوثها ، وأنه لا صلة في اللغة مطلقاً بين هاجر وهجرة . لأن كلمة (هاجر)هي في علم اللغة إسم علم لشخصية نجلها ونحترمها . هي شخصية السيدة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم وأم سيدنا إسماعيل . بينما كلمة (هجرة) مأخوذة من الفعل (هجر) بمعنى انتقل ، ولا يغيب هذا الفرق عن أقل الباحثين علماً باللغة . كل هذا يصل بنا إلى الحديث عن مخططات التبشير والاستشراق المترابطة والهادفة إلى تزييف مفاهيم الإسلام وقيمه وتاريخه . ولقد كان الاستشراق الغربي يهدف إلى تدمير مفهوم (الإسلام : دين ودولة) لينفذ إلى السيطرة على تنظيمات المجتمع الإسلامي عن طريق القانون الوضعي ، وفرض أساليب الليبرالية والديمقراطية في مجال السياسة والأنظمة الربوية الرأسمالية في مجال الاقتصاد .

أما الاستشراق الماركسي ، فيستهدف القضاء على العقيدة أساسا . وفرض التفسير المادي للتاريخ .

أما الاستشراق الصهيوني فهو يركز حول تزييف أصالة الرابطة بين العروبة والإسلام . وبين الحنيفية الإبراهيمية وبين الإسلام ، وما يتصل بالمسجد الأقصى وفلسطين والقدس من أجل إقرار الشبهة الزائفة بصلة اليهود بهذه الأرض .

ويستهدف الاستشراق اليهودي تشويه مركز الأمة العربية والحضارة الإسلامية ، وإثارة الشبهات حولها ، وتخويف العالم الغربي من خطر النمو العربي الإسلامي .

وفي ضوء هذه المفاهيم ننظر إلى تلك المؤلفات التي تظهر من حين وآخر في

الغرب ، وما يترجم منها إلى اللغة العربية ، وما يثيره دعاة التغريب والغزو الفكري في مختلف مجالات الصحافة والثقافة والجامعة . وقد كان ولا يزال لهذه الأسماء التي يخدع بها شبابنا صلة وثيقة بهذه المنظمات ، وهذه المخططات . أمثال زكي نجيب محمود ،ولويس عوض ، ومحمد النويهي ، وتوفيق الحكيم ، وحسين فوزي ، وأولئك المغلوبون على أمرهم خدام التغريب بغير ثمن المدعوون بأنهم تلاميذ عميد الأدب ورواد الفكر ، والذين لا يجدون شيئاً ينسبونه إلى أنفسهم إلا أنهم (أتباع) لم يستطع جهدهم الفردي أن يعطيهم مكانا . فذهبوا ليجدوا من هذه التبعية مكاناً ونسباً وبئس النسب والمكانة .

الفطرة وليس البدائية

هناك دعوة مسمومة يروج لها بعض دعاة المادية والتغريب في العالم الإسلامي . تستهدف الدعوة إلى ما يسمى العودة إلى بدائية الإنسان الأول في أحضان الطبيعة والغرائز . ويقول : مروجوا هذه الدعوة أن الإنسان قد تدنس بالآلة والمادة والفساد الاجتماعي . وأن عليه أن يتحرر منها بالعودة إلى الطبيعة . والواقع : أن هذه إحدى دعاوي الجاهلية وعودة الإنسان إلى ظلام البشرية التي حررت الأديان منها الناس . وجاء الإسلام علامة على وصول البشرية إلى مرحلة الرشد الفكري طريقاً إلى الإنسانية المؤمنة بالله الواحد . العاملة على بناء المجتمع الرباني الصحيح .

واليوم بعد أن قطعت البشرية على طريق الله الحق أربعة عشر قرناً . . يجيء من يدعوها مرة أخرى إلى طفولة البشرية ، وإلى بدائية الإنسان وإلى الإستسلام للغرائز .

والواقع أن الفكر الغربي اليوم بشقيه بعد أن تحطمت أيديولوجياته ، وعجز عجزاً تاماً أن يقدم للإنسان المعاصر أشواقه ومطامحه الروحية إلى جانب معطياته المادية فهو يتخبط ويذهب كل مذهب . . . فتراه يذهب إلى الوجودية والهلينية ، فلا يجد عندها إلا سراب . ويذهب نحو البوذية والنرفانا ، فلا يجد عندها إلا وهم كاذب خطير . ويذهب نحو دعوات عديدة ضالة وبدعا فاسدة قدمتها له البهائية تارة ، والماسونية تارة . ومنها بدعة المهاريش التي تروج لها دوائر الصهيونية اليوم

لتشد الناس إلى شيء جديد بعد أن تحطمت كل الدعوات . وخاصة دعوة الروحية الحديثة ، ودعوة اليوجا الباطلة .

والمهاريس : دعوة ضالة تهدف إلى التحلل من كل علاقة روحية دينية باعتبارها وليدة الصهيونية العالمية تدعي أنها تهدف إلى تحقيق حلم الفلاسفة في إيجاد المجتمع المثالي . وأن زعيمها يمكنه التحكم بالظواهر الطبيعية كما يريد . ويأخذ المهاريس من اليوجا فكرة التركيز الذهني ، ويدعي أنه أقام حكومة عالمية تسمى حكومة عصر التنوير العالمية ، وتضم كل الدساتير والأديان والثقافات . ويحمل لواء الدعوة هندوكي يسمى - ما هيش يوغي - مبطل يحمل طابع الدجل والاستغلال والانحراف ، ويصفونه بأنه راسبوتين العصر ، ويدعي أنه يمسك زمام العالم .

وبالجملة فإن هذه النحلة تعمل على تقويض المبادىء السماوية في صفوف الشبان والشابات ، ونشر الأباحية والانحلال . ولا ريب أن الدعوة إلى العودة إلى - البدائية - هي واحدة من هذه النحل الخطيرة التي تحمل لوائها طوائف - الهيبز - وغيرها من الفلسفات الرافضة التي ابتدعت نوعاً متطرفاً من الهواجس والقوالب الصاخبة . . أما الدين الحق فإنه يدعو إلى خير من ذلك : أنه يدعو إلى الفطرة التي يتمثل فيها ضياء التوجيه الرباني الخالص الذي لا يتعارض مع طبيعة تركيب الإنسان نفسه ، الجامع بين الروح والمادة ، لقد خلفت البشرية طور البدائية والطفولة وراءها . . وتخلصت من الأوثان والأساطير ، والخرافات .

ومن العجب أن نجد بعض المجلات التي تصدر في البلاد الإسلامية العريقة تنشر مقالات تحت عنوان - علم الأساطير - وتترجم تلك السموم عن الكتب الغربية التي تخرجها طوائف الماسون ، وأصحاب الفلسفة المادية ، بينما جاء القرآن الكريم ليضع نهاية لهذه الدعاوي الباطلة التي روجتها الفلسفات والوثنيات القديمة وأحياها الماسون والصهيونيون . تلك الخرافات المتصلة بمخاوف الإنسان الأول الذي كان يعيش بعيداً عن توجيه أديان السماء المتصلة التي هدته إلى الله تبارك وتعالى .

ونجد هناك من يحيي أسطورة جلجاميش أو أساطير اليونان ، ويقدمها لنا

نحن المسلمون الذين تحررنا من الأسطورة بما قدم لنا الإسلام من حقائق .

وهكذا نجد أنفسنا محاصرين برياح السموم التي ما زالت تقذف في أفقنا . . تلك الدعوات الضالة المضلة تطاردنا بها فلسفات المادية والوجودية ، وأهواء الفكر البشري التي أحياها التلموديون وصاغوها من جديد صياغة براقة تخدع الأغرار والبسطاء ، وترضي ذوي الأهواء ، وتحاول أن تخرج شباب المسلمين من الأصالة والحق والإيمان . ولا فرق هناك بين فكر وفكر . ومن عجب أن الذين كانوا دعاة المادية يحملون الآن لواء الدعوة إلى مفاهيم غريبة . هي أقرب إلى مفاهيم الباطنية ، كأنهم انتقلوا من معسكر المادية الصرفة إلى معسكر الروحية الصرفة . المهم أنها عمليات تشويه وتشكيك ، وإثارة الشبهات في الصدور . . إن التلمودية اليهودية لا تريد إلا أن تأخذ الثقافة العالمية زادها الا من الوثنية والمادية . . وتحول نينها وبين الوصول إلى الأصالة والتوحيد . . وتسد أمامها الطريق إلى الله تبارك وتعالى . ولذلك فهي تدفعها نحو البوذية والغنوصية حتى تظل محجوبة عن نور الحقيقة . وقد عرف النفوذ الوافد أن الأقطار الكبيرة المرتبطة بعقيدة راسخة هي وحدها التي حققت للعرب والمسلمين منجزاتهم الكثيرة على فترات التاريخ . وأن عقيدة الوحدانية هي التي جمعت ما تفرق من الصفوف العربية ، ووضحت ما غمض من طريق هذه الأمة . وأن الكرامة والحرية الإنسانية لا تنبعان من أوضاعه الإجتماعية أو ظروفه المادية ، أو قوته السياسية . ولكن من سلطان الفكر التمثل في العقيدة الراسخة .

أن ـ التأصيل واثبات الذات ـ قد أصبح أبرز قضايا هذه المرحلة في حياة المسلمين ، وأن العمل على صهر الفكر الإسلامي في أتون الفكر البشري المادي الوثني ، وإخفات أضواء التراث الإسلامي ـ فكر وحضارة ولغة وتاريخاً ـ هو العمل الذي تتكتل قوى كثيرة اليوم ، ويتجمع حوله . مستهدفة أن تكون الشعوب الإسلامية خاضعة لهم .

والمسلمون ربما ينخدعون تحت إسم العصرانية والحداثة ، وغرور القول بأنهم متقدمون ، ويغفلون عن تلك الخلفيات التي تدفع هذه الرياح المسمومة إلى أفق فكرهم ومجتمعهم . وعلى المسلمين التماس اليقظة ومواجهة هذه المؤامرة : مؤامرة الانصهار والاحتواء . حتى لا يستسلم لها المسلمون . ولا بد من أن تعلو صيحة

التأصيل . وإثبات الذات ، وتأكيد ـ المنطق ـ الإسلامي ـ الخالص كأسلوب لبناء حضارة .

وأن مبدأ التقدم الحضاري بستهدف إنطلاق المسلمين من قيمهم وتراثهم . وأنه ليبدو من المستحيل أن يقبل المسلمون سيطرة أي أمة ، أو فكر عليهم ، وهم يملكون ذلك التراث العريض . وهذا المنهج الأصيل الجامع أن هذه الأمة الإسلامية لا يمكن أن تخضع وهي تملك من فكرها أداة المقاومة للغزو . لقد تكشف زيف تلك الدعوى التي حمل لواءها دعاة التعذيب ليثبتوا للناس هذا الإستسلام تحت إسم التحضر أو التقدم أو التحديث . وهدفها محو ذاتيتهم الحضارية ، وشخصيتهم الخالصة ، واستبدالها بمظاهر الحضارة الأوربية . حتى تصبح صورة باهية للغير في المظهر والملبس . وفي اللغة والفن ، ومناهج الفكر ، وأساليب السلوك .

وعلى المسلمين أن يعلموا أن الغزو الغربي . . هو غزو حضاري شامل يستهدف هدم قيم وتراث الأمة الإسلامية ممثلاً في لغتها وآدابها وقيمها الدينية والخلقية ، وفنونها الشعبية ، وأساليب حياتها .

فساد التفسير القومي والأقليمي

وصف أحد الباحثين تاريخنا الإسلامي وصفاً دقيقاً فقال : يتميز تاريخنا الإسلامي بسرعة الحركة على سطحه ، وبطئها في عمقه ـ أي أنك تقرأه فتجد الحوادث متدافقة متلاطمة ، وكلها حوادث سطحية : نزاع على السلطان ، وحطام الدنيا . فإذا نظرت في العمق لدى حركة المجتمع وجدت شيئاً يشبه الركود . . والمجتمع نفسه يتحرك في بطء شديد ، والقرون تمضي ، والمجتمع على حاله . ذلك أن لب التاريخ ليس السلطان ، ولكنه العمران ليس السياسة ، ولكنه الحضارة ويقول أنه مهما بدت على صفحات التاريخ الإسلامي صور الخلاف السياسي بين القادة والحاكمين . فإن المجتمعات تظل قادرة وقوية على استيعاب روح الإسلام البناءة الأخلاقية التي تلتمس الأصالة ، ولا تنحرف فيها إلا الأطراف والمدن الكبرى . ولكن الغالبية الساحقة في أحشاء المجتمعات تظل قادرة على العودة إلى الله عن قريب . ولذلك فقد كانت هذه المجموعات المؤمنة التقية التي لم تصبها مفاسد الترف والحضارة . هي وقود حركات المقاومة والنضال . ولقد انطلقت النضالات الوطنية كلها في عالم الإسلام إزاء النفوذ الأجنبي أولاً ، وأسلوب العيش الغربي ثانياً من تحت راية الجهاد في سبيل الله ـ كان الإسلام في أغلب هذه النضالات ولا يزال رمزاً للمقاومة الروحية والثقافية ضد الاحتلال والاستبداد الاستعماري . وكان الفرض لاستمرار وحدة اللغة والثقافة ، وكانت تتجسد فيه كل القيم النقية .

ولقد حاول الغزو الثقافي استغلال تفسيرات التاريخ لزحزحة الشعوب عن

مفاهيمها الأصيلة وقيمها الأساسية . ومن أجل تدمير شخصيتها ، وسلبها ذاتيتها ، وتشكيل روح الغربة عن ترابط ماضيها وحاضرها ومستقبلها . ولذلك فقد كان لا بد من قيام إطار أصيل مستمد من نور القرآن وجوهر الإسلام يدوم على مدى التاريخ ليكفل لها الثبات في الأصول برغم تنوع المضمون الفكري داخل هذا الإطار عصراً بعد عصر . من شأن هذا الإطار أن يحمي مفاهيم الأمة الإسلامية تاريخاً ولغة وقيمة من الانحراف الذي نواجهه اليوم حين نرى هذه المحاولات المسمومة لتفسير التاريخ الإسلامي .

ولا ريب أن هناك محاولات متعددة لتفسير التاريخ الإسلامي يجب أن نتنبه لها ،منها : أن التفسير القومي الذي يحاول أن يرد الأمور إلى أشبه بالعنصرية واستعلاء العرق كالحديث عن العرب كأصل ، والإسلام كفرع ـ هذا التفسير الذي حاولت صناعته دعوات القوميات الوافدة ـ وهناك التفسير الإقليمي القائم على الوطن ، والذي يحاول أن يستمد مفاهيمه من تاريخ قديم موغل في القدم كالفرعونية ، والفينيقية ، والآشورية ، والبابلية .

وهناك أيضاً نظرية القورشية نسبة إلى قورش قبل ٢٥٠٠ سنة في إيران ، أو نظرية الذئب الأغبر المسماة الطورانية في تركيا . وكل هذه دعوات تحاول أن تعيد أهل الملة الإسلامية إلى عنصريات قديمة انقضت مع أن الإسلام قد أقام قاعدة عريضة تحت إسم الانقطاع التاريخي اعترف بها المؤرخون . وقد فشلت تلك المحاولات ، سواء التفسير الإقليمي أم القومي .

كذلك هناك محاولة تفسير التاريخ الإسلامي تفسيراً مادياً ـ هذا التفسير الذي ينكر العوامل الروحية والمعنوية القادرة على تحقيق نتائج لا يمكن قياسها بالمقاييس المادية كالنصر في المعارك الكبرى بالعدد الأصغر كما حدث في عشرات من غزوات المسلمين ، أو كقصر المدة التي تمكن فيها الإسلام من فرض لونه واسمه على العالم خلال اكثر من ٨٠ عاما . مع أن الحضارة اليونانية لم تتمكن من فرض نفوذها إلا بعد ألف سنة . وهناك التفسير الاقتصادي وهو قد ثبت فشله أيضاً .

وبالنسبة لدعوى صراع الطبقات في الإسلام ، فقد أخطأ الماركسيون والشيوعيون العرب في تفسير التاريخ الإسلامي ولم يستوعبوا مضمون وجوهر الرسالة الإسلامية ـ على حد تعبير الأستاذ : طه محمد كسيه ـ ذلك أن الصراع

الذي ثار بين المسلمين بعضهم البعض ، والذي اتخذه الماركسيون دليلاً على صحة دعواهم . إنما كان صراعاً ذا طابع سياسي ، ولم يكن صراعاً طبقياً تغلبت بموجبه طبقة على أخرى ، أو فئة على أختها . فالخطأ الذي وقع الشيوعيون فيه أنهم نظروا إلى التاريخ الإسلامي بنصف عين . ذلك أنهم لم يقرأوا التاريخ الإسلامي كله ، كما أنهم لم يقرأوا التاريخ البشري كله ، وكل الذي فعلوه أنهم ساروا على نهج ماركس حين اتخذ أحداثاً بعينها من تاريخ البشر ، وأطلقها على التاريخ كله . فقد كانوا يقرأون ما يعنيهم ، ويتفق مع أصول نظرتهم الأولى على استخراج أفكارهم وأحكامهم وآرائهم . فكان ما يثير انتباههم ويلفت أنظارهم منظر تلك الدماء التي تسيل على صفحات التاريخ ، ولم يكن ينفذ إلى أنوفهم سوى رائحة الدم يسيرون وراءها ، ويدللون عليها ، ويتتبعون خيوطها ، ويستخرجون منها أحكاماً ومبادىء وأفكاراً واستنتاجاً يطلقونها على التاريخ كله ، مثلما فعل ماركس : حين اعتمد في استنباط نظريته عن التاريخ على بعض مراحل التاريخ دون الأخرى .

وهنا تسقط دعوى إطلاق الصراع الطبقي وحتميته على المجتمع الإسلامي . ذلك أن الإسلام لم يكن أساساً من إفراز النظام الطبقي في قريش ، ولم يكن الإسلام ديناً رجعياً يحفظ للظالمين والمستغلين أموالهم وامتيازاتهم ـ كما أنه لم يكن مخدراً للفقراء والمحتاجين ، والمعلمين يجعلهم في حالة قبول ورضىً بفقرهم وعجزهم . بل دعا إلى العمل والحركة والسعي على الرزق ، ومجاهدة النفس ، والمشركين والمستغلين .

ويقول الأستاذ طه محمد كسبه : وما جاء الإسلام نتيجة انقلاب عسكري أو سياسي قام به مجموعة من الأفراد الذين يطلقون على أنفسهم ثواراً ـ أو مجموعة من العسكر ـ كما أنه ما جاء نتيجة انقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقاته المتشابكة في قريش . وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة .

وقد جاء الإسلام من البداية مقرراً للمساواة في الفرص ، وضمان من الكفاية لكل المواطنين ، وتحقيق التوازن الاقتصادي بين الفرد والمجتمع ـ وجاء بمبدأ الملكية الخاصة ، والملكية العامة . ومبدأ الاقتصاد الحر الموجه ـ جاء بكل ذلك في الجزيرة العربية في وقت لم تكن ظروف الإنتاج وعلاقاته تدعو إليه بحيث يمكن أن يقال أن ما حدث كان انبثاقاً من واقع اقتصادي ، وتحدي بذلك منطلق

الماركسيين التاريخي ، وحسابات المادية التي تحتم انبثاق كل انقلاب سياسي من نقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقاته ـ وهذه العبارات في الغالب للدكتور مصطفى محمود . وعليه فإن الصراع الذي ثار بين المسلمين . والذي يتخذه الماركسيون حجة ودليلاً على صحة نظريتهم . إنما كان من أجل الحكم ، وكان صراعاً سياسياً ، لا طبقياً ، ولا يقره الإسلام بحال من الأحوال ، فهو خارج عن منهج الإسلام ، وبعيد عن روحه السمحة ويبقى الإسلام بجوهره الأساسي الذي يشع رياح الأخوة والمصالحة بين المسلمين . والذي يقرر في صراحة أنه ـ إذا التقي المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ـ وأن المؤمنين أخوة فأصلحوا بين أخويكم . .

ومن هنا فإن دعوى ـ صراع الطبقات ـ التي يحاول دعاة الماركسية اليوم إلصاقها بالإسلام وصولا إلى تفريغ الدين الإسلامي من محتواه الروحي ـ ومضمونه العقائدي : إنما هي محاولة لن تجدي ـ هذا من ناحية ، ومن ناحية العامل الاقتصادي يقول : الدكتور حسن شحاته سعفان ـ أن عوامل التقدم في مصر والشرق الأوسط إذا درست في تطورها منذ العصور الإسلامية للآن نجد أن العامل الاقتصادي في هذا التأثير ، وفي تطورها لم يكن بأكثر أهمية من غيره . بل على العكس كانت المثاليات الدينية والأخلاقية المستقاة من الإسلام . هي العامل الأول في تشكيل النظم وتطويرها . ثم يأتي العامل الاقتصادي كعامل ثانوي في معظم الأحيان . ويقول أن نظرية ماركس في المادية التاريخية قد استنتجها ماركس من استقراء بعض وقائع الاقتصاد الاجتماعي للدول الغربية . وأن الدين والعوامل الروحية كانت المحرك الأول لهذا التطور . ثم يستنتج الباحث أن نظرية ماركس لا تنطبق على دول الشرق الأوسط . وأن الدول الغربية إذا صح أنها تطورت بحيث وصلت في العصور الحديثة إلى دول تقدس المادة أولاً . فإن ثمة دولا بالعكس لم يطرأ عليها تطور يجعلها تضحي بالمثاليات الأخلاقية والدينية تحت تأثير العوامل المادية .

ومن هنا خطا الزعم بأن العوامل المادية هي العوامل التي تؤثر الأثر الأكبر في تشكيل النظم الاجتماعية الأخرى من دينية وسياسية وأخلاقية وتربوية .

وفي هذا كله خير رد على من يحاول تفسير التاريخ الإسلامي بغير الإسلام نفسه .

الاكتفاء الذاتي الإسلامي

ما يزال الفكر الغربي يحاول الخروج من الأزمة .أنه يبدأ من فراغ . يبدأ من الفروض التي تفرضها عقليات خاضعة لأهواء عصرها . تعتمد الأساطير في رسم التجارب . ولذلك فهي ما زالت تتخبط . ذلك لأنها لا تعتمد الفطرة ولا التجربة ، ولا منطق الحق الذي ينطلق من مفهوم الدين الحق . ولذلك فإن كل هذه النظريات يجب أن تظل في موضع الفروض ولا ترتفع أبداً إلى مستوى الحقائق العلمية .

وليس أبدع من نظرية فرويد وافتراضه في رد كل دوافع الإنسان إلى الجنس وحده . هذه النظرية التي اعتمد فيها على أسطورة قديمة ، كأنما لا تقوم نظرية العلم إلا على الأساطير . وقد عورضت نظرية فرويد بنظريات أخرى ترى أن دوافع الإنسان أشياء أخرى غير الجنس . غير أن فرويد أصر على موقفه ، وذهبت القوى التي انتفعت بالنظرية في إذاعتها في كل مكان ، وأدخلتها الجامعات ، وفرضتها على الآداب والقصص والمسرح بالرغم من فسادها وضلالها ومعارضتها للفطرة والتجربة .

إن أسطورة فرويد التي أقام عليها نظريته جاءت من مصادر لا يقبل بالأخذ بها أي عالم ، لأنها تستمد من ميدان مختلف تمام الاختلاف هو ميدان الحيوان . إن إدعاء فرويد بأن الأولاد أحسوا برغبة جنسية نحو أمهم ، ووجدوا أباهم حائلاً فقتلوه هذه النظرية الضالة يقرر فرويد أنه أخذها عن أسطورة أوردها (دارون) عن عالم البقر ، ففي عالم البقر تهيج الثيران في موسم الاخصاب فتقتل أباها

الشيخ ، ثم تقتتل فيما بينها على الأم ، فتموت الثيران الضعيفة أو تخور قواها ، ويبقى الثور الأقوى ، فهل يعقل حقاً أن ينقل فرويد هذه النظرية أو الأسطورة من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان .

الحق أن فرويد بمفهومه المادي وتكوينه اليهودي ، إنما يهدف إلى تحقيق غاية أساسية ، هي تدمير البشرية عن طريق إشاعة الفحشاء فيها . ولذلك فهو يقبل أن يعتمد أسطورة في بناء نظرية ، ويعتمد أسطورة عن الحيوان في تقرير شأن الإنسان . لقد نقل فرويد هذه الظاهرة الحيوانية إلى عالم الإنسان ونسبها إلى البشرية الأولى ، وغفل عن أن بعض الحيوانات ذاتها يأبى الولد منها أن يطأ أمه ولو دفع إلى ذلك دفعاً .

لقد نسي فرويد أو تناسى أن الدين كان موجوداً من أيام المشاعية الأولى ، ومن قبل أن يوجد التحريم بين الأم وابنها . ومن قبل أن تظهر عقدة اوديب على الإطلاق .

ولقد طيرت القوى التلمودية أفكار فرويد وفروضه إلى كل مكان ، ووصفتها بأنها علم ، وأنها منهج علمي كذباً وتضليلاً . لقد كشفت الدراسات بعد فرويد وخلال السنوات العشرة الأخيرة من حقائق كثيرة، كشفت زيف فرويد في نظرية الجنس ، وفي محاولته اصطناع منهج كامل يطبق على الإنسان دون تقدير لفساد ذلك بوصفه مختصاً بالبحث في التحليل النفسي ، فضلا عما وصمه به العلماء من أنه أقام كل منهجه العلمي على تجربة مائتي مريض هم كل من التقي بهم في عيادته النفسية ، وأنه لم يستطع أن ينظر إلى الأسوياء والأصحاء ، فضلاً عن أنه كان مضطرب النفس . وكان حاقداً على البشرية ، وكان على صلة بالمخططات الصهيونية ، وعلى علاقة أكيدة مع هرتزل في تطبيق مخطط كامل يرمي إلى إفساد الحياة الإجتماعية والنفسية والأخلاقية . وذلك ما كشفت عنه دراسات فريزر في الخرافة ، ودور كايم في الاجتماع ، وفرويد في النفس والأخلاق .

ولقد كشفت الإحصائيات فساد نظرية فرويد في دفع التوجيه عن الشباب أو الادعاء بأن التسامي عن الانحراف الخلقي من شأنه أن يؤدي إلى مرض العصاب . وقد تبين أن ذلك كله من أوهام فرويد التي حطم بها أجيالاً من شباب العالم الغربي . وكان من أخطر الأخطار أن نقلت دراسات فرويد المسمومة إلى

آفاق الجامعات العربية والإسلامية ، دون أن يكشف زيفها إلا منذ وقت قريب والبوم ماذا بعد فرويد :

تقول الأبحاث العلمية الجادة : أن الإنسان في فطرته الحقة يحتاج إلى التكامل بما نطلق عليه الفضيلة ، أو السمو أو الصدق أو الإيمان . وأن هذا الإحساس يحتاج إلى رعاية وإنماء قبل أن يضمر نتيجة تجاهله وعدم الاستعمال .

يقول الأستاذ يحيي الرخاوي : أن حاجات الإنسان تجري في ترتيب تصاعدي يسمح بظهور الحاجة الأعمق متى أشبعت الحاجة الأولى . والمفروض في التطور الطبيعي أنه بعد انقضاء حاجة الجسم (طعاماً وجنساً) أن يتنبه إلى بقية حاجاته المعنوية . فالفضيلة والحضارة ليست أعداء للغريزة الجنسية . بل هي إكمال لما بعدها . إذ أنها حاجة أصيلة في تركيب النفس البشرية ، وما اغتراب الإنسان ووحدته وشقاؤه إلا بإهمالها وكبتها أو إنكارها . وكما أن غرائز الفضيلة إن صح هذا التعبير قد آن لها أن تجد طريقاً شرعياً من خلال العلم أيضاً في حياتنا . وكما أن فرط الحرمان من الطعام قد يؤدي إلى الحقد أو سوء التغذية ، وفرط الحرمان من الجنس قد يؤدي إلى الكبت . فإن فرط الحرمان من الفضائل يؤدي إلى أمراض محددة لها من الأضرار والمضاعفات ما يفوق مثيلاتها من أمراض نفسية . إلا أن إنتشار أمراض نقص الفضائل لا يظهر بيننا بشكل صريح لسببين .

الأول - أنها أمراض شائعة شيوع الوباء ، وكأنها القاعدة وليست الاستثناء .

الثاني - أن الحديث عن الفضيلة كثيراً ما يغني عن ممارستها وكأنه التحذير المسكن .

فعرض الزيف هو نتيجة الحرمان من فضيلة الصدق ، ومرض الظلم هو نتيجة لنقص في إطلاق فضيلة العدل ، ومرض التعقيد ، والغموض ناتج من كبت فضيلة البساطة . . هذه المدرسة الجديدة في الغرب ، فهل هي قادرة حقاً على أن تمحو أثر فرويد . وأن ترد المفاهيم النفسية إلى الأصالة والفطرة .

إن هذه المفاهيم الجديدة التى تقول بها مدرسة أو حركة علم النفس الإنساني

إنما تستمد مفاهيمها من الفكر الإسلامي وأن كل ما تقول به مستمد من الدراسات التي قدمها الإمام الغزالي حين تحدث عن مرض الحسد ، والحرص والطمع . ولكن الغرب ما زال سادراً في غيه . وكل ما يهمنا نحن أن يفهم قومنا العرب والمسلمون أن لديهم أصول كل هذه العلوم ، منطلقة من الفطرة والوحي ، ومن الأصالة ومن فهم الإنسان فهما صحيحا كما رسمه القرآن الكريم . وذلك كله يدعونا إلى أن نعلن سلامة مصادرنا واكتفائنا . فلسنا في حاجة إلى نظريات وفروض باطلة زائفة مستمدة من الأساطير والأهواء . وقد ثبت فشلها وإنهيارها في بيئاتها الأصلية .

عن عبد الله بن المبارك :

اترك فضول النظر توفق للخشوع .

اترك فضول الكلام توفق للحكمة .

اترك فضول الطعام توفق للعبادة .

اترك عيوب الناس توفق لمعرفة عيوبك .

اترك الخوف في ذات الله تسلم من الشك والنفاق .

بين العقيدة الربانية والفكر البشري

لا بد من وضوح الرؤية للفوارق العميقة بين العقيدة الربانية ، وبين الفكر البشري من حيث أن المنهج الرباني : هو منهج ثابت ذو عطاء متجدد : يقوم على أساس إطار من الثوابت . وكل القيم التي قدمها الدين الحق قائمة بالحق متكاملة جامعة بين الروح والمادة ، والعاطفة والوجدان ، والدنيا والآخرة . وهي بذلك تختلف عن الفكر البشري الغربي القائم على الماديات وحدها ، أو الفكر البشري الشرقي القائم على الروحيات وحدها .

ومنهج الله المتكامل الذي يتمثل في عقيدة الإسلام التي هي عقيدة الإنسانية كلها منذ نشأتها إلى اليوم ، والمتجدد في دعوة الإسلام الخاتم بلسان القرآن الكريم ، ونبوة محمد ﷺ . هذا المنهج أساس جامع . تنبع منه وتتفرع تفريعات السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية ، فهي عناصر متكاملة جامعة . وليس هناك خلاف بين هذا الدين وبين العلم ـ هذا الانشطار بين القيم وتفرقها هو من شأن الفكر البشري ، وشأن الفكر الغربي ، لأنه بشري قام على أساس معارضة القيم التي جاء بها الدين .

ولقد قام الإسلام على عناصر كانت عاملاً أساسياً فى قيام المنهج العلمي التجريبي . . وما يزال الإسلام يفرض للعلم منطلقه السمح القائم على الإخاء والعدالة والرحمة ، وأن تكون معطيات العلم للناس كافة ، وأن لا يكون العلم متطلعاً إلى تدمير البشرية .

ومن هنا فليس هناك تناقض بين العلم والدين في مفهوم الإسلام . وقد

فهم هذا المعنى أمثال العلامة : ميلريروز حين قال : (إن الدين يجب أن يظل ثابتاً في إصراره على إخضاع العالم الطبيعي والمادي للعالم الروحي . وعلى إخضاع الزمني للأبدي ، ويجب أن لا يسلم قيد أنمله للدنيوي والمادي . غير أنه ينبغي أن يعلم أن أهدافه تشمل توفير المعيشة الطبيعية والاجتماعية الحسنة للناس في هذه الحياة ، وألا يدع الحركات السياسة والدنيوية تحتكر الجهاد ضد الفقر والمرض والجهل . بل يقوم هو بهذا الجهد ، ويقوده . فليست العناية بالحياة الآخرة تستلزم عدم اكتراث بالحاجات الإنسانية في هذه الحياة . وإلا ريب أن وجود حياة وراء هذه تصحح فيها أخطاء الحياة الدنيا . فإن الذين سينعمون فيها هم أولئك الذين وهبوا أنفسهم في هذه الحياة لإرادة الله في خدمة الإنسان .وخدمة الإنسان جزء من خدمة الله ، وهي أضمن طريق لرضوان الله في الدنيا والآخرة) .

ثانياً ـ يجب أن يكون واضحاً أن للإنسان مهمة في الحياة هي : الاستخلاف في الأرض ، فالإنسان مخلوق لله تبارك وتعالى ، ومن تكليفه أن يقيم بناء المنهج الرباني في الأرض بالعدل والرحمة والإخاء البشري . وقد أعطى الإنسان مهمة عمران الأرض . وقد ذلل الله تبارك وتعالى له هذه المهمة ، وعليه في طريق مهمته أن يقيم العدل ، أن لا يغلب الجانب المادي على الروحي ، بل يجعل المادي وسيلة إلى الروحي ، وأن يتحول من الأنانية إلى الغيرية ، ومن التملك الفردي إلى الانفاق الإجتماعي ، فإذا غلب المادي على المعنوي في سلوكه في الحياة . كان ذلك خروجاً على أمانة الإنسان ورسالة استخلافه ، وتغليب المادي إنسلاخ عن المهمة والمسئولية . كذلك فهو ليس مطلوب منه تغليب الروحي تغليباً كاملاً ، وإنما عليه أن يقيم التوازن ، فلا يهرب من عمارة الأرض إلى الرهبانية ، ولا يذهب إلى الطرف الآخر من التحلل والانهماك في اللذات والشهوات .

ومعنى هذا أن الإسلام ليس دين أخلاق فردية ، وأحوال شخصية فقط ، وإنما هو منهج حياة ونظام مجتمع . وأن محاولة تصوير الإسلام على غير هذا النحو . هو إحدى محاولات التغريب والغزو الثقافي والاستشراق .

يقول أحد الباحثين : لو صح هذا التصور ما كان ينبغي أن يحدث ما حدث في تاريخ الإسلام ، وما نشأ وترقى من حضارة منهجية ملتزمة في جوف الجزيرة العربية وبغداد ودمشق والأندلس وقرطاج والهند وبخاري .

ولو كانت مهمة الإسلام في هذا الكون . هي فقط تهذيب وتشذيب بين

أخلاق الناس لما كان هناك داع تاريخي لكل هذه الفتوحات الإسلامية . ولكل جند الإسلام ، ولكل السرايا القتالية التي كان يباركها رسول الله محمد ﷺ . ولو كانت مهمة النبي ﷺ تنحصر في أطر الأخلاق الفردية لما أرسل طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق بالمعنى الحرفي للكلمة ـ بيت سويلم على من فيه ، حيث يجتمع بعض المنافقين الذين كانوا يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، ولو كانت ـ لما غزا وقاتل سبعا وعشرين غزوة . قاتل فيها في تسع غزوات ـ بدر ـ وأحد ـ والخندق ـ وقريظة ـ والمصطلق ـ وخيبر ـ والفتح ـ وحنين ـ والطائف ولو كان ﷺ داعية إصلاحيا فقط لما لقي ما لقيه يوم أحد حيث رماه عتبة بن أبي وقاص ، فكسرت رباعيته اليمني السفلي ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنتيه . لو كانت مهمته تهذيب الأخلاق لما فعل كل ذلك ، أو لقي كل ذلك عليه الصلاة والسلام .

ثالثاً ـ قرر الإسلام وحدة البشرية ووحدة الدين ووحدة الفكر . فالبشرية من أصل واحد وإن انقسمت إلى قبائل وأمم حتى تتفاهم وتتعارف . والدين واحد ، لأنه يقوم على توحيد الله الخالق ـ ووحدة الفكر لأن مصدر العقيدة هو كتاب الله الذي أرسل به الأنبياء ، والذي جاء القرآن مصدقاً لما بين يديه ، ومهيمناً عليه .

وقد أقام الإسلام مجتمعه على الإخاء والعدل والشورى والرحمة ، فيشار على المؤمنين استشارتهم بعضهم بعضاً . ومن المفروض أن يتحدثوا كأخوة ، وأن يحلوا المشاكل التي تنشب بينهم حلا سلميا . والحياة الفردية في الإسلام تسلم إلى الحياة الاجتماعية بالإيمان والعمل الصالح ، ويدعو الإسلام إلى الأخوة والتعاون على أن يقوم كلاهما على الفضيلة وليس على المصالح الأنانية ، وعلى المؤمنين أن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يعطف بعضهم على بعض ، وأن يكونـوا مستعدين للتسامح ، وأن يرشد بعضهم بعضاً إلى الطريق المستقيم ، ويحث القرآن المسلمين أن يهبوا طوعاً جزءاً من ثروتهم للصالح العام ، وعلى المسلمين أن يطيعوا الله ورسوله . وإذا تنازعوا في شيء فعليهم أن يردوه إلى الله والرسول . وعلى قادة المسلمين وأولى الأمر ، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل . كذلك كان الإسلام إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان في الأرض ، يخرجهم من عبودية العباد إلى العبودية لله وحده لا شريك له .

من التبعية إلى الأصالة

الكاتب المسلم في هذه المرحلة ، وعلى أبواب القرن الخامس عشر الهجري ، يجب أن يلتزم بالانتقال من التبعية إلى الأصالة . ومن الغزو الثقافي إلى الرشد الفكري . والأصالة هي منهج الإسلام في الإجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية الذي يجب أن يبرز في هذا القرن الجديد ليكون مناراً تهتدي به أمم الشرق والغرب المتطلعة إلى نهج جديد للحياة ، ونظام عالمي لبناء المجتمع . وبعد أن فسدت الأيديولوجيات ، وتحطمت وعجزت عن العطاء .

لقد كانت القوميات والعنصرية ، والأجناس ، والفلسفة المادية والماركسية والليبرالية بمثابة الأصنام التي سوف يحطمها الإسلام من جديد .

إن عطاء الله تبارك وتعالى في مجال العلوم والكشوف الجديدة في آفاق السماء والكواكب هو الذي سيحطم هذا الحجاب الأسود المظلم الذي يحجب أضواء السماء . لقد أعطيت الأيديولوجيات المادية الفرصة خلال أربعة قرون أو تزيد لتثبت أنها قادرة على العطاء . فعجزت وشد ما عجزت فيه هو فهم النفس الإنسانية . لقد تداخلت التلمودية بمفاهيمها في تدمير الأصالة والشطرة بما طرحت أيديولوجيات أرادت بها احتواء المجتمع الغربي ، وإخراجه من الدين والأخلاق . فقد أنشأ مثلاً أعلى للحضارة الفرنسية على أساس علماني مادي غير ديني وغير مسيحي ، تستهدف الرفاهية والترف ، ومجتمع الاستهلاك . وانطلقت الفكرة الغربية من نقطة واحدة هي : المادية التي ترفض الأديان والنبوات والرسالات السماوية .

هذه هي الأطروحة التي قدمت إلى الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي مفروضة بحكم النفوذ الأجنبي الذي فرضها فرضاً في مجالات الأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وكان الخيار الصعب الذي يقول عليكم أن تقبلوا الحضارة جملة أو ترفضوها جملة . وأن على المجتمع الإسلامي أن يقبل الحضارة بفكرها المادي البحت . ولم يكن هذا مقبولاً ولا طبيعياً فإن الأمم لا تنقل تجارب الأمم ولا أساليب العيش التي تستمد من أعرافها وعقائدها وشرائعها التي تشكل وجودها عليها أساساً . وكان هذا الخيار الصعب مخالف لسنن المجتمعات والفطرة التي فطر الله تبارك وتعالى الناس عليها .

غير أن الأيديولوجيات الوافدة ما لبثت أن أثبتت بعد قليل عجزها عن العطاء للنفس الإسلامية التي شكلها التوحيد والقرآن والتي قامت على الرحمة والإخاء . وكانت قد عجزت عن العطاء في بيئاتها التي شكلتها ونشأت فيها . ذلك لأنها غفلت عن الجوانب الروحية والمعنوية ، وغفلت عن أن التقدم البشري يجب أن يكون إنسانياً . مادياً وروحياً .

ومن ثم فإن الدعوة التي انطلقت تحت إسم التكيف والاقتباس تحت إسم التعليم كانت باطلة . وكان لا بد أن تحل بدلاً منها دعوة أكثر صدقاً تحت إسم التأصيل والحفاظ على الذاتية ، وحماية الكيان من الانهيار والتمزق تحت ضربات القوى الراغبة في الاحتواء وصهر الأصول الأصيلة .

وقد تبين للمسلمين بعد التجربة المريرة أنه لا بد من الحفاظ على الذاتية أساساً بالتماس المنابع وإخضاع الوافد كله للمنهج الإسلامي حتى يتحرر المسلمون من الاحتواء والانصهار . وقد كشفت حركة اليقظة الإسلامية عن الحقيقة الأساسية التي تقول : إن كل أمة تستطيع الاحتفاظ بأصالتها مع الأخذ بكل وسائل التقدم التكنولوجي . ذلك أن الأصالة قوة خارقة تحرك الشعوب . وهي للتعبير الكامل عن الحرية الذاتية . وأن نبذ الأصالة إنما يعني قبول نوع من الاستيلاب والذوبان في الغير .

وقد تبين أن الأصالة ليست قيداً يعوق عن الحركة والسير إلى الأمام . وإنما هي مصباح مضيء يكشف أخطار الطريق .

يقول مارتن هيدجر : (أن هناك أسلوبان للوجود بالنسبة للإنسان :

أسلوب أصيل ، وأسلوب غير أصيل . فالأسلوب غير الأصيل يجعل الإنسان خاضعاً للغير في كل حركاته وسكناته ، ويجد نفسه مرتبطاً بهذا الغير يسير على خطاه . أما الأصالة فهي تعبير عن كنه الذات ، وحقيقتها وتناقض مع الجانب السطحي في الذات التي يخضع لكل المؤثرات ، ويميل مع كل السوانح والبوارق) .

يقول أحد الباحثين : أن الخطر المحدق بالأمة الإسلامية لا يكمن في السلاح الحديث الذي يمتلكه الأعداء أو الطائرات التي يتربص بها . أو التفوق التكنولوجي أو الألكتروني الذي يحيط بها من كل جانب بقدر ما يكمن في الآثار الخطيرة على الفكر والعقيدة التي تحدثها مفاهيم التغريب والغزو الثقافي . ومن هنا جاءت الهزيمة والنكبة والنكسة . ولذلك فإن علامة الدخول في عصر الرشد الفكري تتمثل في حماية الشخصية الإسلامية بمفهوم أن المسلم ملتزم في سبيل عقيدته يسترخص كل شيء ، ولا يقيس المعارك بحساب الحياة والموت والخوف والخسارة . والشخصية المسلمة تعرف مكانها في الوجود ورسالتها في الحياة ، وهي شخصية منتمية بكل ما تحمل الكلمة ، وهي ترى أن دعوة ـ اللامنتمي ـ بدعة ضارة . ذلك أن الانتماء والالتزام هو من الأسس الأصيلة في شخصية المسلم بمفهوم أصيل هو ـ الإيمان والتقوى ـ ولسنا في حاجة إلى أن نورد لدعاة التبعية تحت إسم التقدم ، أو العصرية أنها محاولة للقضاء على الأمة . فإن الأمم التي تنحرف عن أصالتها وطابعها الأصيل الذي قامت عليه منذ بدأ حياتها محكوم عليها بالضياع ، ونحن في حياتنا الثقافية نواجه تبعية في ميادين كثيرة تحتاج إلى الأصالة . فالنظم التربوية ما زالت ممسوخة عن النظم الغربية . وما زالت حياتنا التشريعية لم تتحرر بعد من القانون الوضعي ، ولدينا في شريعتنا الإسلامية مناهج ونظماً تتطلع إليهـا البشرية كلها ، وتتمنى أن تقتبسها لتحقق بها العدل والرحمة والأمن . وما زلنا نحن في غفلة عن هذا التراث كله . ولذلك فإنه لكي نحقق أصالتنا علينا أن نتعرف تعرفاً دقيقاً على تراثنا . وتعرفاً ذكياً على تاريخنا . وما زال الغرب يأخذ من نظمنا التربوية والقانونية الكثير بل خير ما عنده . فكيف نتطلع إلى فتات موائد الأيديولوجيات الزائلة ، ونغفل عما لدينا من ميراث مضيء مشرق قال عنه برناردشو : أن العالم الغربي يكون أسعد ما يكون سعادة لو أنه اتخذه لنفسه .

ولقد بات معروفاً أن المسلمين لن يدفعوا ـ أصالتهم ـ ثمناً للتطور والتقدم . فإنهم لو تخلوا عن أصالتهم ليدفعوا بها ثمن التطور والتقدم فإنهم لن يكونوا بعد . وستزول شخصيتهم الخاصة ، وروحهم الخاصة ، وطابعهم الخاص كأمة هي أمة التوحيد التي جاءت لتحمل لواء الدعوة إلى الله بالحق . وسينصهروا في الأممية ، ويضيعوا في ركام الأمم الضائعة . وأن المسلمين يرفضون الهيمنة الثقافية في الأمم كما رفضوا الهيمنة السياسية . ويعتبرون أنفسهم عامل التوازن بين الأجناس وحملة لواء الحضارة الجديدة التي تترقبها الإنسانية . وهم لذلك فلن يجعلوا لعامل ما مهما عل شأنه أن يخضع ثقافتهم . أو يمسخ شخصيتهم .

ولا ريب أن لكل أمة في مواجهة معطيات العلم والحضارة والعصر منهج واضح صريح هو النبراس الذي ينظرون في ضوئه إلى كل شيء ، إلى ما يفعلونه وما يرفضونه . هذا النبراس بمثابة الإطار الواضح الصريح ثابت الأركان مرن الجوانب القادر على استيعاب الثوابت والمتغيرات .

وصدق القائل : إذا أردنا أن نجعل النظام الاجتماعي الإسلامي في العمل والتشريع والسياسة هو النظام . فمن الخطأ الذاهب في الفساد أن نخضعه لتطور مدنية أخرى قد بني إجماعها على المسيحية الغربية في التشريع والسياسة والأخلاق .

فالشرق الإسلامي إذا أراد أن ينهض فلا بد أن يشهد نهضته من أصول الإجتماع الذي يربطه به التاريخ والدم والوطن واللسان والدين والوراثة . وإذا نظرنا في عناصر الثقافة في مصر أو العراق أو سوريا أو المغرب وجدنا أن العنصر المتغلغل هو الدين الإسلامي واللغة العربية . والأدب العربي والفن العربي الإسلامي . وأن العناصر القديمة السابقة للإسلام من فرعونية وفينيقية وآشورية وبابلية وغيرها قد أنصهر خير ما فيها في الإسلام . وأنها لم تعد تمتلك من الخصائص ما يمكنها من العودة إلى الحياة بعد الإنتشار الحضاري الذي أحدثه الإسلام خلال أربعة عشر قرناً .

وفي هذا الإطار الإسلامي تجيء العناصر المحدثة من الفكر البشري فتنصهر كأنها مواد خام لا تستطيع أن تسيطر أو تتحكم .

تحديات الأصالة

إن « العقيدة واللغة والتاريخ » جميعها مستهدفة لحملة ضخمة من أجل انتقاصها وتزييفها في نظر أهلها بوصفها أعظم العمد التي تقوم عليها الأمة الإسلامية : هذه الحملة يحمل لواءها التبشير والاستشراق . الاستشراق هو مصنع الشبهات والسموم ، والتبشير هو المؤسسة التي تحمل هذه السموم إلى كل وجهة .

ولما كانت اللغة والتاريخ والثقافة جميعاً لا تنفصل عن العقيدة لأنها تستمد وجودها وانتماءها منها أساساً . فإن محاولة إثارة الشبهات حولها ، أو القضاء على مقوماتها تتصل بسبب إلى العقيدة ، ولما كان القرآن الكريم قد أعطى اللغة العربية وضعاً مختلفاً عن اللغات الأخرى حفظ لها وجودها . فقد حق على الباحثين فيها ألا يخضعوها لمناهج اللغات الأخرى التي لم تزد أعمارها عن ثلاثة أو أربعة قرون كالفرنسية والانجليزية والألمانية المعاصرة ، لأن هذه المناهج لا تستطيع أن تستوعب فهم لغة متميزة ، لأنها من دون لغات الأرض قد عاشت اليوم أكثر من ستة عشر قرنا . كذلك فقد حق على أهل اللغة العربية من أجل حماية ثقافتهم أن يقتربوا من منهج القرآن ، وبيانه ، ولا ينفصلوا عنه بما يأتمر عليه بهم قوم يجعلون لغة الصحافة والأسلوب العامي نموذجاً ، ويدعون إلى ما يسمى اللغة الوسطى بين الفصحى والعامية . وذلك من سموم التغريب التي تستهدف فصل البيان العربي عن مستوى القرآن . حتى إذا تباعد الأسلوب العربي حثيثاً قامت فجوة حققت هدف خصوم الإسلام والقرآن الكريم في فصل القرآن الكريم عن البيان العربي ، حتى يقرأ فيما بعد بقاموس . وبذلك يتحقق لهم . لا قدر الله هدف

ضخم ، وهو أن يدخلوا اللغة الفصحى إلى المتحف كاللاتينية وغيرها .

كذلك فنحن في أمر التاريخ يجب أن نعتمد التفسير الإسلامي للتاريخ ، وأن نرد غيره من أساليب التفسير المادي ، ذلك لأن تفسير الإسلام للتاريخ الإسلامي يتسم بأنه جامع شأن مفهوم الإسلام نفسه،يقوم على أساس الترابط ، بين الروح والمادة . والنفس والجسم ، والعلم ، والدين ، والدنيا ، والآخرة ، ولا يمكن تفسير تاريخ أمة بمنهج غير منهجها . ولقد كان التاريخ الإسلامي بإيجابيته وسلبياته نتيجة لمنهج الإسلام القرآني الرباني الذي نزل به الإسلام ، وإيجابياته تمثل تطبيق شريعة الإسلام وسلبياته تأتي نتيجة التخلف والانحراف عن هذا المنهج ، ومفهومه يتمثل في تمييز واضح في مجالات مختلفة منها : «البطولة» . الفتح «العناصر الأخرى» . نظام الحكم ، التجارة وغيرها في كل من هذه مفهوم متميز للإسلام نتيجة عقيدته التي تختلف عن عقيدة الغرب فكيف يمكن أن نتخذ مناهج الغرب في تفسير التاريخ لتطبيقها على الإسلام ؟ . والأمر كذلك في العقيدة القائمة على التوحيد الخالص ، من حيث إيمان أهلها بالله تبارك وتعالى خالقاً ورازقاً ومالكاً للمال وللإنسان مستخلفاً في الأرض والمال ، ومن حيث مفهوم رسالة الإنسان في الأرض . والأمانة التي حمل إياها . والالتزام الأخلاقي ، والمسئولة الفردية القائمة على البعث والجزاء الأخروي ومسئولية الإنسان في المجتمع الرباني ـ هذا المفهوم للعقيدة يختلف اختلافاً عمبقاً عن مفهوم الغرب .

كذلك فإن الإسلام لا يعترف بأي نظرية عن تطور الأديان ، وينكر إنكاراً باتاً تلك النظرية القائلة بأن البشرية مرت بثلاثة أدوار (الخرافة . التدوين . العلم) كما ينكر النظرية الأسطورية الطمطومية عن نشوء الأديان التي تدعي أن فكرة الألوهية بدأت بعبادة الحجر ، والحيوان ، والإنسان . وقد قرر القرآن أن الإسلام وعبادة الله الواحد بدأت ببداية البشر ، وكانوا لا يحيدون عن التوحيد ، ثم حدثت انحرافات بتقديس بعض الأشياء ، ثم نسوا بمرور الزمن أن هذه مجرد واسطة فعبدوها من دون الله ، ولم تكن نظرية تطور الأديان إلا فكرة زائفة قال بها « ماكس مولر » في مؤامرة للقول بأن التوحيد كان مع اليهودية . وهذا ما تكذبه كل الوقائع وأحداث التاريخ . فإن التوحيد أقدم من رسالة سيدنا موسى ، ومن سيدنا إبراهيم ، وأنه كان مع آدم ونوح ، وأن البشرية لم تتطور منَ الوثنية إلى

التوحيد ولكنها بدأت موحدة ، ثم مالت إلى الوثنية . وكانت كلما جاءت الأديان عاد الناس إلى التوحيد ثم انحرفوا مرة أخرى . كذلك فإنه من الحقائق الأساسية أن المسلمين هم الذين أنشأوا المنهج العلمي التجريبي . وأن أوربا قد وصلت إليه عن طريق الأندلس عندما هاجر علماؤها إليها . ثم حين صادرت الجامعات والمعامل . وأجلت المسلمين عن آخر معاقل الإسلام في الأندلس . وعاشت أكثر من أربعة قرون تدعي أنها هي التي أبدعت المنهج التجريبي . ثم جاءت موجة الاعتراف بأثر المسلمين في بناء الحضارة الحديثة . وأن أعمال ابن الهيثم والخوارزمي ، وجابر بن حيان ، واليوزجاني ، والبيروني ، وابن يونس في الرياضيات ، والفلك ، والطبيعة ، والكيمياء ، والميكانيكا كانت مصدر أساسياً استقى منه علماء أوربا . ومن ثمراته التي استمرت زهاء ثمانية قرون في الأندلس ، وصقلية ، وجنوب إيطاليا سطعت في القرن السابع عشر في أوربا أسماء : جاليلو وكبلر ، وكوبرنين ، ونيوتن ، ودافنش ، وباكود ، ودبكات ، وكانت كتب العرب هي المراجع المعتمدة في أوربا إلى وقت قريب . فهم الذين قدموا نظريات الجاذبية ، وسرعة الضوء ، والراصدات الفلكية ، وتحضير المركبات ، ووصف الأجهزة . وأجراء التجارب ، وما تزال أعمال ابن البيطار ، وداود الإنطاكي ، والغافقي ، والقرطبي ، والجاحظ في وصف النباتات والحيوانات ، والأدوية المفردة ، والمركبة معيناً خصباً لعلماء أوربا ، ومن جامعات الأندلس وبالرمو ، امتدت إلى باريس وأكسفورد ، وكمبوردج ، وبارودا .

كذلك فقد كانت نظريات التربية الحديثة هي ثمرة التجربة الضخمة التي قام بها المسلمون ، وما يزال علماء وخبراء التربية والتعليم الأمريكيون ، والأوربيون ، يطالبون في القرن العشرين بما توصل إليه علماء المسلمين في القرن الخامس عشر من مبادىء ونظريات . بل إن مجموعة من علماء التربية منهم : الغزالي قد رسموا منذ عهد بعيد أسلوب تربية الطفل مما كتب عنه علماء كثيرون . واليوم يكتشف كتاب ابن حجر الهيثمي (تحديد المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبوا الأطفال) الذي كان مجهولاً وتائهاً حتى اكتشفه الدكتور سليمان إسحاق . ومن هذه القيم الأساسية التي قدمتها التربية الإسلامية . الدعوة إلى تكافؤ الفرص في التعليم عن طريق التعليم الإجباري والمجاني ، والمطالبة

بالطريقة الفردية في التعليم التي تعطي كل تلميذ عملاً يناسب مستواه وميوله وأعباءه . وهذه كلها نظرات حديثه جداً ما زال علماء التربية في الغرب يطالبون بها ويدعون إليها . كتبها الهيثمي منذ عام ٩٥٧ الهجري . أي قبل أربعة قرون . ولم يتوقف عطاء الإسلام للفكر البشري (الغربي المعاصر) عند مجال واحد ، ولكنه شمل العلوم التجريبية ، والعلوم الإنسانية جميعاً . وما من نظرية في مجال الاقتصاد أو القانون أو التربية أو غيرها إلا ولها صلة بالتراث الإسلامي) . وقد أخرجها الغربيون من محتواها الأصيل ، وحاولوا صهرها في فكرهم البشري . واليوم وبعد أن أفلست الحضارة الغربية لماديتها وانحرافها ، وغلبة طابع التحلل الخلقي والإجتماعي عليها يبحث الغربيون عن طريق . ونحن المسلمون نشعر بأن لدينا هذا الطريق . وأن فكرنا الإسلامي الأصيل وعقيدتنا ذات المصدر القرآني الرباني قادرة على أن تقدم للبشرية ما تبحث عنه شريطة أن تكون البشرية جادة في البحث عن النبع ، وأن تكون قادرة على التحرر من أهوائها وانحرافاتها وضلالها . أما إذا كانت تريد أن تحتوي هذا الفكر أو تتأوله ، أو تجعله متقبلاً لانحرافها . فهذا مما لا يقره جوهر الإسلام الأصيل ، الذي لم يكن خادماً للحضارات ، أو مؤهلاً لأن ينحرف ويحتوي . والقادر على المحافظة على طابعه وذاتيته ووجوده ، ولو ضحى في سبيل ذلك بكل أسباب التقدم المادي .

لقد جرب الغرب الرهبانية والاباحية وجرب الديمقراطية والاشتراكية وجرب الفردية والجماعية الليبراليةوالوجودية والهيبية ، ولكن هل استطاعت هذه المذاهب أن تحقق له المجتمع الأمثل الذي يطمع فيه عدالة ورحمة . أو استطاعت أن تهدي النفس الإنسانية إلى الخير ؟ . كلا فما تزال أزمة الإنسان المعاصر هي الضياع والتمزق والغثيان الذي فرضته مفاهيم مادية خالصة ، أو مفاهيم مستقاة من الخطيئة وغيرها . والفكر الغربي يدور في حلقة مفرغة ، ويوم ينصرف عن وثنية الإغريق يغرق في ضلال الغنوصية الشرقية التي تحمل لها البوذية والنرفانا واليوجا . وكل هذا باطل وقبض الريح .

والإسلام وحده هو الهدى والضياء ، ولكن على المسلمين قبل أن يقدموا الإسلام للغرب أن يطبقوه على أنفسهم ، وأن يقيموا المجتمع الرباني ثم يدعون إليه الناس . أن المسلمين اليوم هم الذين يحجبون الإسلام بانحرافهم وتفككهم

وتنازعهم وتصارعهم على مطامع الدنيا ، وعزلتهم عن جوهر دينهم ، وبذلك يبدون عطاء الله الذي أنعم عليهم والذي هو حجة عليهم ، وقد أعطوه ليواجهوا به أخطار الصهيونية والنفوذ الاستعماري ، وليحرروا به أنفسهم من سلطان امبراطورية الربا وفساد المادية الأباحية ، وليقيموا به المنهج العلمي التجريبي في إطار اللغة العربية بعد أن أمدهم ربهم بالطاقة والثروة والتفوق البشري .

إن الإرهاصات التي تبدو الآن بين يدي المستقبل تكشف عن حقيقة واقعة . هي أن الإسلام يعود في القرن الخامس عشر إلى مكانه على الخريطة ، ويقتعد مكانه على ظهر البسيطة ، ويتغلب على كل العقبات ، ويتحرر من كل التحديات التي واجهته خلال القرن الرابع عشر . ويلتقي على مفهوم جامع موحد ، يمتلك به إرادته ومقدراته وثروته ويوجهها في سبيل إعادة بناء حضارة الإسلام الجديدة . هذه الحضارة الرحيمة القائمة على الإخاء والسماحة والعدل ، والتي ترعى أهل الذمة في الداخل ، وترعى أهل العقائد والنحل في أمم الأرض بلا عدوان ولا خصومة ولا استعلاء . فالحضارة الإسلامية لم تكن غازية ولا معتدية في الماضي ، ولن تكون في المستقبل . ولا خوف منها على مقدرات الآخرين . وإنما تلك سموم تبذرها الصهيونية في أذهان الغربيين وعقولهم لتخيفهم من العرب والمسلمين ، ولا آساس لها . وسوف يرى التاريخ أن العرب والمسلمين ما زلوا رحماء كما كانوا وكما شهد لهم « جوستاف لوبون » من قبل

إن مبادىء الإسلام اليوم مؤهلة لقيادة البشرية بعد أن تحطمت كل الأيديولوجيات والمذاهب البشرية التي عاشت أكثر من أربعة قرون ، سواء حمل هذه المبادىء المسلمون أنفسهم ، أم حملها غيرهم ، فالمهم أن البشرية لن تصلح إلا إذا أقامت حكم الله وأعلنت إسلام الوجه لله تبارك وتعالى ، وأعلنت اعترافها بأن ما وصلت إليه من علم وتقدم . إنما هو من عطاء الله . وليس مما وصفه نارون بأنه (إنما أوتيته على علم) . وسوف يحق على الحضارة القائمة قول الله ما لم تذعن له وتعترف بإرادته العليا التي تصرف كل شيء وتملك الأمر كله « ألا له الخلق والأمر » .

ليس ديناً ولكن نظام إجتماعي كامل

معنى الإسلام : إسلام الوجه لله ، وإخلاص النفس له سبحانه وحده ، حتى لا يكون فيها لغيره شريك يعبد .

وهو إسلام خضوع وانقياد لله وحده ، وليس لأحد غيره . والدين واحد على لسان جميع الأنبياء .

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

والدين من عند الله ، وليس ظاهرة من الظواهر الطبيعية أو من نتاج الأرض كما يقول الملاحدة ، ودعاة المدرسة الإجتماعية الغربية ، وليس هو أفيون الشعوب كما يقول ماركس : له ظاهرة يتفرد بها هي الإيمان بالأنبياء والرسل جميعاً ، والإيمان بجميع الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى ، وتنزيه الرسالات عن شوائب الوثنية . وقد أحيا الإسلام ملة إبراهيم ، وهو لا يستمد تسميته من جنس كاليهودية ، ولا من نبي كالمسيحية ـ ولكن إسمه يعبر عن جوهره وفكرته الأساسية كعقيدة ، ألا وهي التسليم لإرادة الله ،هدايته . وقد جاء كل نبي إلى أمته خاصة .

أما النبي محمد ﷺ فقد جاء بالإسلام للعالمين وللإنسانية جمعاء . فهو خاتم المرسلين ، ودينه خاتم الأديان ، وكتابه خاتم الكتب المنزلة .

والإسلام ليس ديناً كسائر الأديان ، ولكنه حركة إجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والدولة والنظم الإجتماعية والأخلاق ، وقد رفض الإسلام الخرافات

الوثنية ، وتعدد الآلهة وطوابع الأباحية والتحرر من ضوابط الأخلاق ، كما أكتملت مفاهيم الإسلام في حياة النبي ﷺ ، ولم تجر أي إضافة إليها سواء عن طريق اتصال الفكر الإسلامي بالثقافات الأجنبية والتفسيرات والشروح . (اليوم أكملت لكم دينكم) .

ودعوة الاجتهاد في الإسلام تفتح الطريق أمام الفروع ، ولكنها لا تتصل قط بالأصول الثابتة بما يتيح للمجتمعات المتغيرة أن تلائم بين أوضاعها وبين حدود الإسلام وقواعده .

والفكر الإسلامي لا يعمل إلا داخل النطاق الذي حدده القرآن . وكل ما يواجه المسلمين من أمر ، فهم يعرضونه على الإسلام ، ولقد رفض الإسلام انحراف دعاة العقل ـ المعتزلة ـ ودعاة الوجدان ـ التصوف ـ فرفض استعلاء العقل وجبرية التصوف ، وحطم قيد الإغريقية والهلينية ، وعجزت الفلسفة اليونانية عن استيعاب الإسلام كما استوعبت الأديان الأخرى . وليس في الإسلام طبقة معينة تدعى رجال الدين ، لهم في علاقاتهم بالإسلام حقوقاً ليست لغيرهم ، وإنما يوجد علماء متخصصون . وأن الرسول محمد ﷺ هو النموذج الكامل الذي ظل المسلمون يترسمون خطاه ، وهو القدوة الأساسية أمام المصلحين والنوابغ .

ومنذ ظهر الإسلام وكل حدث في العالم مرتبط به على نحو من الانحاء ، فما يزال الإسلام عاملاً مؤثراً في جميع أحداث التاريخ . ذلك لأنه قدم للبشرية مفهوماً جديداً ، واقام عالماً خاصاً مستقلاً متميزاً بنظرته إلى الحياة وأسلوبه في العيش وخضارته وفكره . لقد حمل الإسلام إلى البشرية فكرة العدل والإخاء والتقدم . كما أكد المساواة وهدم التفرقة العنصرية ، وحث على طلب العلم ، وأكد أنه فريضة . وقدم منهجاً كاملاً تلتقي فيه حول النفس الفردية ، ومشاكل الحياة الإجتماعية على السواء . والإسلام ليس ديناً فحسب ، ولكنه نظام اجتماعي كامل ، فهو دين ومجتمع وحضارة .

ولقد أعطى مفهوم الإسلام القائم على التوحيد الخالص للجماعة الإسلامية شحنة من القوة والإيمان والتضحية ، دفعت المسلمين إلى السيطرة على قارتين في أقل من مائة عام . وعندما ضعف المسلمون في مواجهة أكبر خطرين وهما :

الصليبيين والتتار . كان الإسلام يفتح أرضاً جديدة في جنوب شرق آسيا . وفي شرق إفريقيا . ويقتحم قلوباً جديدة . فأضاف إلى معتنقيه أضعاف أهله الأصليين .

ولقد كان الإسلام عاملاً أساسياً في كل حركات التحرر التي قامت بها الشعوب المستعبدة منذ ظهوره إلى اليوم . وأن النضالات الوطنية في العصر الحديث قد انطلقت كلها من تحت راية الجهاد في سبيل الله - ومن أبرز قوانين الإسلام قدرته الفائقة على تجديد نفسه وإعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر أو أصابته دخائل تحول بينه وبين جوهره . وبذلك كان دائماً كياناً حياً قادراً على الحياة متمكناً من التجدد كلما أصيب بعطب . وتلك قدرته الفائقة على التوسع في البيئات والتكيف مع المجتمعات . ومنذ أن انتشر الإسلام إلى اليوم لم يتغلب عليه من الأديان متغلب وإن امتحن أهله بالأزمات ، والشدائد ، وقد كشف الإسلام عن قدرة كاملة على الحركة والتطور والنماء والأخذ والعطاء مع احتفاظه بذاتيته الخاصة ، فهو يواجه المؤثرات الأجنبية ، فلا يقبلها كاملة ، ولا يدعها تسيطر عليه ، أو تغير ملامحه . ولقد جاء الإسلام حاكماً على الأمم ، وعلى المدنيات ، ولم يجيء محكوماً . فهو ليس مطية ذلولاً للحضارة الحديثة ، وليس خادماً للمجتمعات أو الدعوات والمذاهب ، بل هو حاكم له مقوماته المستقلة التي لا تخضع ولا تستسلم . والمسلمون يرون أن كل وسائل الأمم وأدواتها هي عبارة عن - مواد خام - تنصهر في بوتقة الإسلام ، فلا تصهره وتتحول في إطاره لا تتحول به . والمسلم كما يقول : إقبال : لم يخلق ليندفع في التيار أو يساير الركب البشري حيث ساد ، بل خلق لتوجيه العالم والمجتمع والمدنية ، وحضارة الإسلام لا تحتقر الأمور الدنيوية ولكنها ترمي إلى مثل أعلى رفيع يجمع بين الدين والدنيا بعيداً عن النفعية والرهبانية على السواء .

ومفهوم التقدم في الإسلام مفهوم معنوي ومادي . والإسلام يرى أن كل حضارة لا ترتكز على الخير والعدل حضارة زائفة . ويدعو الإسلام إلى ترقية الشخصية الإنسانية وتحريرها من قيود الشهوات بحيث تصبح ربانية الاتجاه ، إنسانية الهدف ، تعمل للناس ، ووجهتها لله خالصة . ولذلك ينكر الإسلام عبادة الجسد ، وتقديس الشهوة كما ينكر عبادة الأبطال

وأبرز الدلائل على عالمية الإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار هي تطابقه مع الفطرة الإنسانية ، وقدرته على العطاء الكامل لكل العصور والأزمنة والبيئات ، وطابعه الإنساني في الإخاء والمساواة . ويقوم مفهوم الإسلام أساسياً على تحرير الإنسان من كل القيود والوثنيات ، يحرر عقله وروحه وجسده جميعاً . فهو يحرر الإنسان من قيد الإنسان ، من العبودية الإجتماعية ومن العبودية الفكرية ومن الرهبانية والزهادة في نفس الوقت الذي يحرره من الترف والأباحية . وقد عني الإسلام بإفراغ مفاهيمه وتعاليمه ومقاصده في صيغ كلية وأصول عامة .

ولقد أقر الإسلام أمر الخلاف في الفرعيات ، ووجد فيه سعة ورحمة . وأن من أهم معطيات الإسلام قدرته على التوفيق بين الأخلاق والعناصر المادية والاجتماعية المختلفة ، فالإسلام يقدم للبشرية طابع اخلاقية الحياة ، ويربط الدنيا بالآخرة ، والنفس بالجسد ، والفرد بالمجتمع .

ويتمثل الإسلام في نظرته الكاملة في الأبعاد الثلاثة : الروحية ، والمادية ، والعقلية . ذلك أن مفهوم الإسلام له طبيعة جامعة تلتقي فيه كل القيم والعناصر ، وتقوم علاقاتها مع بعضها البعض كأجزاء لا تنفصل ، ولا تستقل . ولذلك فلا سبيل إلى فهم عنصر من العناصر على حدة .

ولقد أثبت مفهوم الإسلام الجامع المتكامل صلابته واستقلاليته وقدرته على البقاء . فإنه في أكثر من أزمة لم يسقط ، ولم ينهار ، ولكنه كان يجدد نفسه ، ويستعيد إبراز مفاهيمه الأصيلة المستمدة من القرآن ، ولقد كان كفاح المسلمين على مدى العصور قائماً على أساس الحيلولة دون هيمنة أي فكر ، أو ثقافة ، أو عقيدة على مفاهيم الإسلام الأساسية . وقد جرت المحاولات قديماً عن طريق الباطنية والشعوبية على تحريف مفهوم الإسلام ، والسيطرة عليه . وكانت مفاهيم الإغريقية والوثنية والمجوسية تصارع في سبيل احتواء الإسلام ، وقد عجزت جميعها ، وفي العصر الحديث تتكرر المحاولة من الفكر الغربي والصهيونية والمادية والماركسية . وقد أثبت الإسلام مقدرته على المقاومة وقدرته على الاحتفاظ بذاتيته نقية أصيلة من كل محاولة لاحتوائها ولقد تميز الإسلام بقدرته على تصحيح طريقه وعرف بانتفاضاته مرة بعد مرة لتجديد نفسه ولإسقاط كل ما اتصل بجوهره من مفاهيم غريبة .

تحديات في وجه الفكر والعقيدة

تعددت في السنوات الأخيرة كتابات غامضة وزائفة وملتبسة تحاول أن تسوي بين الإسلام وبين الأديان ، وتعقد المقارنات بينه وبينها من أجل الوصول إلى قول خطير هو : أن الاختلاف بين الإسلام والأديان قليل وجزئي ، وفي الفروع ، وأنه من شأن ذلك فليس هناك ما يمنع من التقاء الأديان ، وخطر هذا القول أنه يحطم تلك الموجة الضخمة المبثوثة الآن في العالم الوثني المسيحي والشيوعي . والتي تقول : « جربوا الإسلام » فإنه يستطيع أن يعطي النفس الإنسانية أشواقها . كما أنه يحقق المجتمع القائم على الرحمة والعدل والإخاء الإنساني من أجل دحض هذه المحاولة الخطيرة تكتب هذه الكلمات لتكون ضوءاً كاشفاً أمام الفوارق العميقة والجذرية بين الإسلام وبين الأديان التي كانت في أصلها الأول ربانية . ثم انحرفت في تفسيراتها . وبتأثير الكهنة . فمالت عن الطريق الأصل الذي يصل الأديان كلها إلى الإسلام . كما جاءت به الكتب السماوية الحقيقية توراة موسى ، وإنجيل عيسى ، وهذه الكلمات الواضحة يمكن أن تكون عوناً على معرفة أبعاد القضايا المثارة ، والعلاقات المختلفة مع الأديان والأمم والكتب .

أولاً : قطع الإسلام الامتداد الفكري والثقافي بين ما قبل الإسلام . وما بعده عن العرب أولاً . ثم عن أي مكان ذهب إليه . وقد ذهب إلى كل مكان في جميع النحل والأقطار . لقد قطع الإسلام امتداد الوثنية في العالم كله . وألغى امتداد العبودية في الأرض كلها . وهناك محاولة مضللة بأنه ليس هناك فارق بين

الشرق والغرب ، أو بين الشعوب والأمم ، أو بين الأديان والعقائد ، وتلك كلها محاولات ترمي إلى صهر ذاتية الإسلام بوتقة الأممية . فإن لكل أمة خصائص مميزة من دينها وفكرها تختلف عن الروابط الإنسانة العامة .

ثانياً : الإسلام هو الدين الوحيد الذي يجمع بين الشعور بكرامة الإنسان ، وعدم عصمة الإنسان . وهذا الجمع هو دعامة السلوك الإنساني ، وقمة المسئولية الفردية في العصور المختلفة قائماً على إيمان المسلم بأن الإنسان سوف يجزى بعمله وحده . « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وهو ما يدفعه إلى السعي والعمل والبذل والاتقان .

ثالثاً : وضع الإسلام أصوله في صيغ كلية وأصول عامة وأطر مرنة . ثم أطلق للمسلمين الحركة في داخلها في حرية اختيار الوسائل والأساليب المناسبة للبيئات والأزمنة شريطة أن تظل تعاليم الإسلام متكاملة لا تصح تجزئتها أو الأخذ بفرع دون الآخر . أو إعلاء جانب منها على الجوانب الأخرى .

رابعاً : جمع الإسلام بين الأرض والسماء (في نظام الكون) وبين الدنيا والآخرة (في منهج الدين) وبين الروح والجسد (في بناء الإنسان) وبين العبادة والحياة (في إطار الحياة) فهو يسلكها جميعها في نظام موحد هو الطريق إلى الله

وتكامل الإسلام هذا هو الذي مكنه من القضاء على المتناقضات . وإقامة روح التوازن والمواءمة بين القيم المختلفة باعتبارها متكاملة . وهناك فرق بين تكامل الإسلام وبين (الثنائية) التي تحاول أن تشطر الوجود إلى شطرين . كذلك فإن الإسلام يقرر وجود (الأساس الذي تبدأ منه الحركة وتنتهي عنده). هذا الأساس له ركائزه وضوابطه وأبعاده الواضحة . وبذلك تكون الحركة سليمة ، ولا تذهب في الفراغ .

خامساً : أبرز مفاهيم الإسلام هي قدرته على تحويل خصومه إلى أنصار . وصهرهم في بوتقته ، وقدرته على تجديد نفسه من الداخل ، وإعادة صياغة فكرة على أساس المصادر الأولى كلما انحرف هذا الفكر ، أو أصابته دخائل تحوله عن جوهره ، وأن الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها ، ولا تمر فترة دون أن يظهر من يعارض التيار المنحرف ، ويقاوم الفساد الوافد ، ويقضي على الفتن والبدع .

سادساً : لا يقر الإسلام الانقطاع عن الدنيا ، ولا الايغال فيها ، وهو يرى أن الانقطاع للعبادة وترك الكسب والعمل بدعة ابتدعتها الرهبانية ، ولم يحرم سوى الانغماس في الشهوات التي تشغل القلب عن ذكر الله ، والإسلام لا يقر الدعوة إلى تحقير الدنيا ، أو اعتزال الناس ، أو تعذيب البدن بتحريم الطيبات في نفس الوقت الذي يحرم الترف والإسراف .

سابعاً : وقف العلماء والزهاد مواقف مجيدة أمام الأمراء والحكام أدوا فيها النصيحة ، وقالوا كلمة الحق ، ونصحوا ووجهوا . وقد ترك لنا تاريخ الإسلام نماذج حية في هذا من أمثال : الحسن البصري ، والأوزاعي ، وسفيان الثوري وغيرهم .

ثامناً : الإسلام قائم على أن الحقيقة هي من عند الله ، وأن العقل والفطرة تهديان إليها ، وأن التقدم العلمي لا يحول دون نسبة كل معطيات التقدم إلى الصانع الخالق إلى الله تبارك وتعالى . واهب العقل ومعلم الإنسان أصول منهج المعرفة والتجريب ، ولا يقر الإسلام صلف الفكر الغربي الحديث ، الذي ينسب كل شيء إلى الطبيعة أو إلى القوانين العلمية . فإن الله تبارك وتعالى هو خالق الطبيعة ، ومقدر هذه القوانين ، وهو وحده الذي يملك خرقها وإيقاف مفعولها .

تاسعاً : أن الإسلام لا يستطيع أن يندمج في أي معتقد ديني يقوم على غير التوحيد أو رابطة دولية تقوم على غير الأخوة الإنسانية . والإسلام ليس بدين جديد ، ولكنه هو الدين الأول بعيداً عن التحريف الذي طرأ على بعض الأديان . لقد جاء الإسلام ليصحح الخطأ ويقيم الحق والصواب .

عاشراً : يجمع الإسلام بين المسئولية الفردية ، والمسئولية الجماعية ، ويربط بينهما برباط التكامل والتوازن . فلا يعلي شأن الفردية على حساب الجماعة كذلك يجمع الإسلام بين الحرية والعدل دون أن يعلي إحداهما على الأخرى .

حادي عشر : لا يقر الإسلام مفاهيم وحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد ويرى أن هذه مفاهيم خارجة عن نطاق المسئولية الفردية الذي يقرره الإسلام ، وأنها محاولة لفرض مفهوم الجبرية على تصرفات الإنسان . وإسقاط التكاليف والضوابط والحدود التي شرعها الدين الحق ، وفكرة وحدة الوجود دخيلة على

الفكر الإسلامي ، وهي تحاول القضاء على حرية الإرادة والمسئولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي .

أما فكرة الحلول فهي تنقض مفهوم الإسلام المتكامل الشامل في وحدة الله وتنزيهه عن خلقه .

ثاني عشر : يختلف منهج القرآن الذي يقوم عليه الفكر الإسلامي عن منهج الفلسفة ، ومنهج العلم ، ومنهج التصوف . وهذه كلها مناهج مرتبطة بالعصور والبيئات والتيارات المختلفة ، أما منهج القرآن فهو المنهج الجامع بين الثبات والتغير .

ثالث عشر : يحظر مفهوم الإسلام تطبيق مناهج العلوم الطبيعية والمادية على المجتمع الإنساني ذلك أن مناهج العلوم إنما وضعت وفق مواصفات المادة .

أما العلوم الإنسانية المتصلة بالروح والنفس والمعنويات والقيم ، فإنها لا تخضع لهذا المنهج ، ولا يصلح هو لها ، وإنما تخضع لمنهج آخر جامع بين الروح والمادة والعقل والقلب .

ثبات الأصل وتغير الفروع والوسائل

كشف الاسلام عن حق الله تبارك وتعالى على العباد ، وحق العباد على الله ، وحق الله تبارك وتعالى هو ما يتعلق به النفع العام للعالم من غير اختصاص بأحد . وبأن يكون في صالح المجموع من غير نظر إلى صالح فرد معين ، وقد نسب إلى الله تبارك وتعالى لعظم خطره ، وشمول نفعه .

أما حق العبد فهو ما يتعلق بصالح الفرد ، فهناك حقوق خالصة لله تبارك وتعالى . رتبها الفقهاء في العبادة والزكاة والكفاءات والحدود ، وعقوباتها ، وحقوق خالصة للعبد في المعاملات والدية والمتلفات وغيرها . وما اجتمع فيه الحقان ، وحق الله غالب - حق صالح المجتمع - كحد القذف ، أو ما اجتمع فيه الحقان ، وحق العبد غالب كحد القصاص . ويرى الفقهاء أن كل حكم شرعي لا يخلو من حق الله فيه . فحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . وعبادته في امتثال أمره ، وتجنب نواهيه .

ويقول الدكتور مصطفى وصفي ، أن عقد البيع مثلاً إذا استكمل شرائطه وأركانه . قد يكون عقدا قانونيا صحيحا . ولكن لا يكمل إلا إذا روعيت فيه رقابة الله تبارك وتعالى . فإذا لم تراع فيه تعاليم الله تبارك وتعالى فهو نافذ دنيويا . ومستحق لمؤاخذة الله أخرويا . وهكذا كل حكم من أحكام الشريعة الإسلامية نجد فيه المعنيين إطاعة القوانين وتنفيذها سرا وعلانية . ومعنى هذا أن الحاكم هو الله سبحانه وتعالى . والقواعد التشريعية صادرة منه جل شأنه . والخلق خلقه ، والمال ماله ، والناس من كل الأجناس عبيده . وقد رسم

سلوك البشر ، وبين القواعد الكلية التي أرادها للمجتمع ، وتحدى كل ذي فكر وعلم من المرتابين أن يأتوا بسورة من مثل ما أنزله للبشرية على عبده محمد ﷺ .

وقد أثبتت الأبحاث القانونية العالمية أن صياغة الشريعة الإسلامية من بين صياغة القوانين والشرائع هي للناس كافة ، وهي صياغة لم تتغير ولم تتبدل على الزمن . ومعنى الصياغة هي اختيار القاعدة التشريعية اللازمة لتحقيق الحقوق والواجبات اللازمة لحياة مجتمع من الناس متجانس في بيئة معينة ، وزمن معين ، وأقر فلاسفة التشريع وعلماؤه بأن الصياغة الإسلامية ثابتة على الأجيال . وقد استمدت منها التشريعات الوضعية أقوى ما فيها من قواعد . وأن كل قاعدة وضعها الفلاسفة التشريعات الوضعية قابلة للتغيير والتبديل . بل أكثرها تعدل أو ألغي مرارا ، أما هذا المأخوذ من الشريعة الإسلامية فهو باق في كل التقنينات التي أخذت عنها . وقد أدركها علماء العصر الحديث بعد أن طرحوا النظريات المادية التي سادت القرن السابع عشر ، والثامن عشر ، ونصف القرن التاسع عشر ، والتي تأثرت فيها التشريعات الوضعية .

ثانيا : قدم الإسلام منهجا أصيلا في معرفة الله تبارك وتعالى قوامه التوحيد الخالص والإيمان والخضوع والانقياد بجميع الرسل والكتب . وأعلن وحدة الدين الإلهي . وقد كان بين الأديان توافق في العقيدة ، واختلاف في التشريع تبعا للزمان . وجاء الإسلام مصدقا لما بين يديه من الكتب التي حملت البشارة به وبنبيه محمد ﷺ ، كما جاء مهيمناً على هذه الكتب ، حيث أكمل الله تبارك وتعالى به الدين ، ووضع هذه الكتب في صورتها الصحيحة ، بعد أن حرفها أتباعه . فالقرآن قد كشف عن حقيقة حالها ، وشأن معتنقيها ، وتحريف كثير منها ، أو تأويله ، فهو يحكم عليها ، لأنه جاء بعدها ، ويبين انتهاء مهمتها بمجيئه حتى لو بقيت سليمة من التغيير والتبديل . والقرآن هو الصورة الأخيرة لدين الله ، وهو المرجع الأخير ، والحجة القاطعة ، والمنهج النهائي لحياة الناس ، وشرعهم ونظام حياتهم .

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ .

فرسالة الإسلام تتوافق مع رسالات أهل الكتاب في كل القواعد الكلية مع

شمول رسالة الإسلام إلى الناس كافة من الإنس والجن إلى يوم القيامة .

وقد قام الإسلام على مجموعة من الأصول العامة : تقوم على أصل التوحيد ، في مواجهة التعدد والوثنية والثنائية ، ووحدة الوجود . فالله تبارك وتعالى واحد أحد لم يلد ولم يولد ، لا يتحد بالكون ، ولا يحل فيه . وتقوم على أصل العلم في مواجهة الخرافات ، والسحر والأساطير ، وتقوم علاقة العباد معه تبارك وتعالى مباشرة دون وسيط ، حيث لا وساطة ولا وصاية ، وهي دعوة إلى الحلال ، والطيبات لا رهبانية فيها . كما يقوم الإسلام على التكامل في مواجهة الانشطارية ، في المذاهب الأخرى ، ويقوم على الترابط بين العقل والروح في الإنسان ، وعالمي الغيب والشهادة . ويقوم على المسئولية الكاملة للمجتمع إزاء الفقراء والضعفاء في مواجهة فكرة تنازع البقاء وبقاء الأقوى . ويقوم على الإخاء الانساني في مواجهة التفرقة العنصرية . ويقرر أن الفرد للمجتمع ، والمجتمع للفرد في مواجهة الفردية والجماعية ، كذلك فإن من أصول الإسلام أن أحل الله البيع وحرم الربا .

والله تبارك وتعالى في الإسلام هو رب العالمين ، وذلك في مواجهة فكرة الإله الخاص ، ويقوم الإسلام على المسئولية الفردية في مواجهة الجبرية ، ويقوم على الالتزام الأخلاقي في مواجهة نسبية الأخلاق .

كذلك يقوم الإسلام على قاعدة الثوابت والمتغيرات في مواجهة فكرة النسبية والتطور المطلق . ويقرر الإسلام اليوم الآخر ، ويرفض فكرة الدهرية ، ويقرر الجزاء في مواجهة فكرة اللاأدرية . ويقوم على الإخاء البشري في مواجهة العبودية والعصبية القبلية ، ويقرر كرامة المرأة ، ويرفض السحر والكهانة ، وما لا يقبله العقل .

ثبات الأصول وتغير الفروع الوسائل

كما يقوم الإسلام على الثبات في الأصول والمرونة في الوسائل والأساليب . الثبات على الأهداف والغايات . ثبات الأصول والكليات ، الثبات على القيم الدينية والأخلاقية ، كما يقرر المرونة في الفروع والجزئيات والشئون الدنيوية والعلمية ، ويرجع هذا إلى ثبات جوهر الإنسان منذ عهد آدم إلى اليوم مع تغير

أساليبه ووسائله . ثبات الأكل والشرب والنوم والمطامح والرغبات والملابس وتغير أساليبها جميعا . ثبات في الكليات والجوهر ، وتغير في الجزئيات والمظهر ، وكما أن التطور قانون قائم في الكون والحياة ، فالثبات قانون قائم فيها بلا مراء .

والرسائل السماوية لأنها من عند الله ، فهي تجمع بين عنصري الثبات والتغير ، وتجعل الثبات إطاراً قوياً تتحرك فيه العناصر في توازن وتكامل . أما القوانين الوضعية فإنها لا تعرف هذا الترابط ، ولكنها تقوم على الثبات الدائم أو التطور الدائم ، ولذلك فهي عاجزة عن أن تعطي إلا في حدود عصر أو بيئة . ثم سرعان ما يجتاحها أحداث التغير فتدفعها إلى الحذف والإضافة .

أما شريعة الله فلأحكامها وشمولها وتكاملها ، فإنها تستطيع معايشة جميع العصور والبيئات ، وهي في كل أحوالها وأزمانها قادرة على العطاء لأنها من وضع العليم بدخائل الإنسان وطبيعته ومطامحه .

ولا شك أن ثبات الشريعة يحول دون فناء المجتمع ، أو ذوبان المجتمعات الأخرى أو تفككها لأنها تقوم على أسس راسخة لا تعصف بها الأهواء أو التقلبات السياسية والاجتماعية ، فضلا عن مرونتها وقدرتها على التكيف مع المجتمعات وتكيف المجتمعات .

ويتمثل الثبات في العقائد الأساسية الخمس : الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر . ومن الأركان العملية الخمسة : الشهادتين ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام .

ومن المحرمات الثابتة : السحر ، وقتل النفس ، والزنا ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، والتولي يوم الزحف ، والغضب والسرقة ، والغيبة والنميمة .

كذلك يتمثل ثبات الشريعة الإسلامية في ثبات أمهات الفضائل : الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والصبر ، والوفاء بالوعد . ومن شرائع الله القطعية الثابتة : الزواج والطلاق ،والميراث ، والحدود ،والقصاص ، وكل هذه الثوابت

أمور تزول الجبال ولا تزول . ولا ريب أنها كليات الدين وقواعده الواسعة : كلية أبدية وضعت عليها الدنيا ، وبها قامت مصالحها في الخلق .

وفي جانب المرونة والتغير : نجد جزئيات الأحكام وفروعها العملية ، فهناك نوع من الأحكام يتغير بحسب اقتضاء المصلحة كمقادير التعزيزات وأجناسها وصفاتها ، فإن الشارع ينوع فيها حسب المصلحة .

من حقائق التاريخ الإسلامي

تجري محاولات كثيرة لتزييف حقائق التاريخ الإسلامي بالتقليل من شأن كبريات الأحداث . ومن ذلك تلك الدعوة المبطلة التي تقول : إن المسلمين انتصروا على الروم بعد أن ضعفت الدولة . وكانت في حالة انهيار بينما تؤكد حقائق التاريخ أن الروم كانت في أوج القوة . إذ ذاك ، يقول سامي اليافي في كتابه ـ الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب ـ أن انتصار العرب المذهل ليس مرده ضعف الدولة البيزنطية بعد أن استنزفت الحروب الفارسية مواردها . وهذه مغالطة صارخة ، لأن الامبراطور هرقل قد أنهى حرب الفرس بالنصر الباهر عام ٨ هـ ـ ٦٢٩ م ـ ثم تمتع بخمس سنوات من السلم الشامل قبل أن يفاجأ بالغزو العربي . وقد أعد العدة بنفسه . وعين أخاه ثيودور لقيادة الجيش الذي دحره العرب في أجنادين .

٢ ـ ويشير بعض المستشرقين إلى أن الفتوح الإسلامية ـ وهم يسمونها الفتوح العربية ـ كانت حركة توسعية . ويؤكد الباحثون المنصفون على خطأ هذا الادعاء . ويقولون أنها كانت رسالة تمدين لا تهدف إلى أي لون من ألوان الأرباح ، ومن مظاهر تسامح ملوك المسلمين ، ونزاهة وجهتهم . أن جوهين ملك انجلترا عرض عام ١١٩٩ على نصر ملوك الطوائف وهو محمد الناصر أن يحميه ضد البابا مقابل جزية سنوية ، واعتناق الإسلام من طرف إنجلترا ملكا وشعبا . ولكن الملك العربي المسلم رفض هذا العرض ، لأن أريحيته أبت عليه استغلال الضائقة السياسية التي كان الانجليز يتخبطون فيها لحملهم على اعتناق الإسلام .

٣ - ويعترف كثير من مؤرخي الغرب بفضل الإسلام . فيقول الأب منشون أن لمن المحزن أن تكون الأمم المسيحية مضطرة أن تتعلم التسامح الديني من الإسلام . وقال أرنست رينان في كتابه حياة يسوع أن النصرانية لم تعرف التسامح الديني .

٤ - وقد ظهرت كتابات الاستشراق تنكر الدور الذي قام به أحمد بن ماجد . بل كانت تتجاهله تماما . هذا الأمير البحري الذي لولاه ما وصل فاسكو دي جاما إلى الهند . والذي حاول الأوربيون أن يطمسوا دوره ، فترى دائرة المعارف البريطانية تقول - ولحق فاسكو دي جاما ملاحين من العرب اصطحبهما من مالندي حتى كالكوتا - ولم تقل هذه الدائرة صراحة أن ابن ماجد هو الذي هدى رحلة فاسكو دي جاما إلى الهند ، وأن كلمات أمير البحر والقبطان ، ودار الصناعة والحبل هي التي أصبحت أميرال وكابتن وأرسنال وكابل .

٥ - وحول شبهات مثارة من كتاب الغرب عن معاملة المسلمين للنصارى ، يقول الكاتب الفرنسي بير روندو ، كان في وسع الإسلام حل مشكلة النصارى في الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة . ولكنه لم يفعل . لأن دعوته لم تقم على الفتح في الأساس ، ولم يكن ثمرة إكراه في الدين ، لهذا لم يتعرض الإسلام للنصارى ، واليهود ، ولم يخيرهم بين الموت أو اعتناق الدين الجديد ، بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يخضعهم لشريعته .

٦ - يحاول بعض كتاب الغرب أن يفسر التاريخ الإسلامي بأداة غير أداته الأصيلة . وذلك باستخدام منهج التفسير المادي للتاريخ ، أو التفسير الجنسي أو غيره من المناهج . وقد عجزت هذه الأدوات أن تستكشف حقائق تاريخ الإسلام أو جوهره الأصيل . وقد تنبه إلى ذلك باحث غربي مشهور هو : الأستاذ تريتون الذي كشف عن فساد هذه المناهج فساداً كاملاً . وقال إذا صح في العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحا في تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى . وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها . فإن هذا التفسير يفشل فشلا ذريعا حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم ، واتساع رقعتهم . وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة . فرأوا أنها تقع في هذا الشيء

الجديد . ألا وهو الإسلام ، رأوا أن الإسلام قوة هائلة فيه حيوية دافعة ، وديناميكية حية ، وهو مصدر العمران ، وسبيل الحضارة ، وهو الطريق إلى جمع الكلمة ونشر السلام ، وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ، ويربط بين الشعوب .

٧ ـ حاول بعض المستشرقين التهويل في وصف الخلاف بين الأمراء والحكام ليتخذ من ذلك ذريعة إلى وصف تاريخ الإسلام بالصراع والفوضى . والواقع أن تاريخنا الإسلامي هو أقرب التواريخ العالمية للرحمة والسماحة واليسر والبساطة . فليس فيه أبدا تلك الصور الدموية الشوهاء التي عرفها تاريخ أوربا ، وتاريخ الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية ولا محاكم التفتيش أو غيرها من الصور المقززة .

كذلك فإن التاريخ الإسلامي ، هو أصفى تواريخ الأمم من الأساطير والخرافات ،وأقربها إلى التوثيق الدقيق الذي عرفه مؤرخو الإسلام وأخذوه عن علماء الحديث النبوي ، وتعجب حين تقرأ التاريخ اليوناني أو الهندي لما تحتويه صفحاتها من الخرافات والأساطير التي امتزجت بعقائد الأمتين وأدبهما وحضارتهما وحياتهما الإجتماعية .

وبينما نرى الإسلام يجب ما قبله ، ويفصل بين العرب وبين جاهليتهم فصلا بينا ، وخاصة بالنسبة لحياتهم الدينية . كذلك فإننا نحن المسلمون نستطيع أن نؤرخ أحداث بلادنا في العصور الوسطى من غير أن نذكر ملوك الروم والفرنجة والإنجليز . ولكن الأمم الأوربية والفرنجة والأسبان والانجليز لا يستطيعون أن يكتبوا تاريخهم الوسيط ، إذا هم أهملوا ذكر عمر بن الخطاب ، ومعاوية ، والوليد ، وهارون الرشيد ، وعبد الرحمن الناصر ، وصلاح الدين ، ويوسف ابن تاشفين ، ومسلم بن عبد الملك ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وعبد الرحمن الغافقي .

وبعد ماذا تعلمنا دراسة التاريخ الإسلام : تعلمنا قدرة هذه الأمة على مواجهة الأخطار وقدرتها على اجتياز الأزمات متى عادت إلى الاستمساك بمنهج الله ، وقدرتها على إعادة تشكيل فكرها عن طريق الأصل الأصيل المؤصل النص

الموثق الباقي على الدهر ـ القرآن الكريم ـ وكذلك قدرتها على المحافظة على ذاتيتها من أن تنصهر في الأممية أو العالمية .

والمسلمون يفرقون بين أصول العقيدة وبين التاريخ الذي هو تطبيق لمنهج الله في الأرض يخطىء ويصيب . وليس التاريخ مقدسا عند المسلمين ، ولا هو عبء عليهم ، فهم يدرسون جوانبه الإيجابية ليجددوها لما يوافق إيقاع العصر دون الخروج عن أصول الإسلام . أما جوانبه السلبية فهم يدرسونها حتى يتخذوا منها العبرة ، فلا يقعون في أخطائها مرة أخرى .

يقول فيليب حتي : لقد عجز المفكر الغربي ـ عن طريق الاستشراق وخارجه ـ على إصدار أحكام سليمة أو علمية ، أو بعيدة عن الأهواء على الاسلام وتاريخه وعقيدته . فقد أقبل الأوربي كقاعدة على دراسة الإسلام . أما لتنصير المسلمين أو لخدمة المصالح الاستعمارية . وكان لتعصب الغربيين القومي وحماستهم الدينية وجهلهم المطبق أثره الفعال أيضا . وكان استمرار تداول الأساطير الغربية عن النبي ، وعداء النصارى لديانة توسعية منافسة ، وما خلفته الحروب الصليبية من ذكريات مريرة إلى جانب ما تبعثه قوة الامبراطورية العثمانية المتعاظمة من مخاوف مانعا حال دون قيام دراسة موضوعية متحررة للإسلام . وهذه شهادة بحق تكشف فساد المنهج الاستشراقي في دراسات الإسلام .

حضارة القرن الخامس عشر الهجري

يجب أن يكون القرن الخامس عشر الهجري الذي أشرق فجره علامة على خروج المسلمين (فكراً ومجتمعاً) من مرحلة التبعية والغزو الثقافي والتغريب إلى مرحلة الرشد الفكري والأصالة والتماس المنابع انتقالا من اليقظة إلى النهضة ، وقد جاء هذا العصر الجديد والمسلمون يمتلكون ثلاث قوى : الطاقة ، والثروة ، والتفوق البشري . وهي علامة مع دخول المسلمين إلى مرحلة يبنون فيها قواعد الحضارة الإنسانية التي ما زالت تتطلع إليها البشرية مجددة من الحضارة الإسلامية التي توقفت عن العطاء منذ بضعة قرون ، والتي ما تزال تلتمس مقوماتها من مفهوم القرآن الأصيل ، ومن قاعدة التوحيد الخالص ، ومن قيم الالتزام الأخلاقي ، والمسئولية الفردية ، والإخاء الإنساني والرحمة والعدل .

وقد آن الأوان أن يحمل المسلمون رسالة الإسلام إلى كل أطراف الأرض ، وأن يذيعوا كلمة الله الواحد الحق في كل مكان . وذلك بعد أن يطبقوها على أنفسهم ، ويقيموا المجتمع الرباني الذي تتطلع إليه البشرية .

وقد سجل الإسلام تقدما واضحا في القرن الأخير ، وإن كان الإسلام منذ بزوغ فجره لم يتوقف عن الانتشار الذاتي ، ويبلغ عدد الذين يعتنقونه إلى مفتتح القرن الخامس عشر الهجري ما لا يقل عن ألف مليون مسلم دخل أغلبها إلى ساحته بالاقتناع والإيمان ، وبفضل مبادئه التي تحمل التوحيد والعدل والكرامة والإيمان .

وقد وجد الإسلام من الملونين والمستعبدين قبولا حررهم من كل عوامل

الظلم والعبودية ، وما زال الإسلام يقتحم آفاق العالم ، ويصل إلى كل ركن . وقد أعلن في مؤتمر لندن الإسلامي (مايو ١٩٧٦) أن عدد المسلمين في أوربا قد بلغ ٢٥ مليونا و٢١٧ ألف نسمة تقريباً . وأن عدد المسلمين بالدول الأوربية غير الشيوعية يبلغ نحو ثلاثة ملايين و٣٠٠ ألف أي بنسبة ١,٧٥ في المائة من عدد السكان . أما عدد المسلمين بالدول الأوربية الشيوعية فيقدر بنحو ١٩ مليونا و٢٧٧ ألف نسمة أي بنسبة ١٨٪ من مجموع السكان (ولا يدخل في هذا العدد مسلمو الجمهوريات الآسيوية التابعة للاتحاد السوفيتي) .

وهكذا نجد أن الإسلام بعد أن طورد من أوربا مرتين : من الأندلس ومن البلقان يعود سلما فيقتحم أوربا ليقيم فيها هذه المرة ، وليصل إلى كل مكان ، ليس في أوربا وحدها ، ولكن في الغرب كله ، وفي أمريكا لا يطلع الصبح يوميا إلا على مسلم جديد .

ويقيم المسلمون في أوربا كقوة فكرية ، وقوة حضارية ، وكنظام اجتماعي لا يقاربه نظام ، فالمسلمون هناك يقيمون فاصلاً بين الحياة في ظل الإسلام وبين الحضارة الغربية . فإذا أضفنا إلى هذا أن الفكر الغربي قد انبجس عن تيار جديد يريد أن يتفهم الإسلام ، ويرى أنه السبيل الوحيد لصلاح البشرية عرفنا إلى أي مدى تكون قدرة الدعاة إلى الله في القرن الخامس عشر الهجري على توصيل الإسلام علما وقدوة إلى العالمين .

ولقد استطاع الإسلام منذ اليوم الأول لظهوره أن يشكل لونه المميز على خريطة العالم ، وأن يمتد في سنوات قليلة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . وبذلك أقام عالمه المستقل المفرد ، ومنهجه الكامل المتجدد بالتوحيد والإيمان بالله ، والالتزام الأخلاقي في تفسير الكون والحياة ، للمسلمين قبلتهم الواحدة التي يتجمعون حولها ، والتي لن يحيدوا عنها تهوي إليها قلوبهم بالإيمان ، وعقولهم بالفكر . ومنذ ذلك اليوم الأول لم تكن لهم قبلة أخرى ، ولا تزال الكعبة البيت الحرام مثابة للناس دافعا ، وستظل مركز الدائرة في أرض الإسلام .

ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام حاولت القوى المختلفة ضربه ، والإحاطة به - ثم لما عجزت عن ذلك حاولت « احتواءه » وإذابته وصهره في بوتقة الأممية ، وما يزال الإسلام ، وسيظل قادرا بتركيبه الرباني وتشكيله الإنساني القائم على

الفطرة والحق والعدل على أن يقاوم كل محاولة لضربه ، سواء عن طريق الحروب الصليبية أو الغزو الاستعماري أو الاحتلال الصهيوني ، أو محاولات الماركسية والإلحادية والوجودية والفرويدية وغيرها . والواقع أن هناك حقيقة كبرى على شبابنا وأجيالنا الجديدة والمتجددة أن تكون موضع نظرها وتقديرها . لا تغيب عن مفرق رأسها تلك أننا « نحن المسلمين » نعيش في ظل تحد قائم كبير في منطقة زاخرة بالطاقة والذرة والتفوق البشري ، كانت ولا تزال وستظل ، مصدر مطامع القوى المختلفة وتطلعاتها إل الغزو والسيطرة ، ورغبتها إلى استنزاف الثروات ، وامتصاص الموارد . وأن هذه المطامع جاءت في ثوب الحروب الصليبية بدعوى استنقاذ قبر المسيح مرة ، ثم عادت في ثوب تمدين البشرية باسم الاستعمار الغربي ، ثم عادت ثالثة باسم أرض الميعاد .

لقد عاشت هذه الأمة موضع طمع الطامعين، والغزاة قرونا طويلة ، تنتهز فرصة ضعفها لتنقض عليها . ولقد هزمت موجات الغزو واحدة بعد أخرى ، ولا تزال القدس هي خط الدفاع عن القبلة . ولقد قاوم العرب وقاوم المسلمون هذا الغزو في حطين ، وفي عين جالوت ، وفي الزلاقة ، وفي الأرك ، واستجاشت أرض الإسلام بالقوى الإسلامية المتجددة الظافرة التي حملت اللواء ، واستشهدت في سبيل تثبيت الحق ، وتحرير الأرض ، وحماية بيضة الدين .

واليوم يواجه عالم الإسلام ثلاث قوى تحاول أن تنال منه : « الاستعمار ، والصهيونية ، والشيوعية » . والمسلمون في موقف الدفاع ثابتون دائما في مواقعهم ، يستمدون قوتهم من عقيدتهم التي كانت مصدر النصر لهم في كل أزمة وموقف ، وسوف لا تستطيع القوى الغازية أن تنتزعهم من حصنهم الحصين ، وهم لا يعادون الأمم ، ولا يطمعون في السيطرة والاستعلاء بين العالمين ، ولكنهم طلاب سماحة وخير .

إنهم يريدون أن يمتلكوا إرادتهم في أوطانهم متعاونين مع كل الأمم والقوى العالمية على خير البشرية . إن أخطر التحديات التي تواجه المسلمين اليوم إنما هي : المحافظة على أصالة هذه الأمة وشخصيتها وكيانها النفسي والروحي والعقلي في مواجهة محاولة إذابة هذه الأمة وصهرها في بوتقة الأممية ، والعالمية والقضاء على ذلك الطابع القرآني الرباني القائم على التوحيد والأخلاق والإيمان بالله ، والإيمان

بالغيب والبعث والنشر ، وذلك للحيلولة دون قيام الحضارة الإسلامية ذات الطابع الخاص المختلف والمميز عن الحضارة البشرية ، ويجب أن تكون مطالع القرن الخامس عشر الهجري علامة على الدخول في مرحلة الرشد الفكري ، وإقرار الطالع الأصيل للشخصية الإسلامية التي تستمد وجودها وكيانها عن قيمها الأصيلة ، ومن تاريخها الحافل بالأمجاد .

إن هذه محاولات تهدف إلى تحريف مفهوم الإسلام وإخراجه من طابعه الجامع بين الدين والدنيا والقلب والعقل والروح والمادة ، ومحاولة تصويره دينا لاهوتيا . وذلك بانتقاص أبرز معالمه .

أولا : فريضة الجهاد ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، والإمعان في القضاء عليهما بالتمويه والتأويل والتزييف وطرح دعوات لها طابع الخروج عن ضوابط النفس ، والمجتمع بالتحلل من الحدود التي أقامتها الشريعة لحماية النفس الإنسانية والكيان الإنساني من الانهيار والسقوط تحت سنابك الخيل الغازية المغيرة ، وإفساد مفاهيم الترابط الجذري الوثيق بين العروبة والإسلام بطرح مفاهيم القوميات الوافدة التي تختلف اختلافاً واضحا في منطلقها ومفاهيمها عن العروبة في جذورها الأصيلة المرتبطة بالتوحيد منذ دعوة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام ، والممتدة في إسماعيل عليه السلام جد العرب . وقد كانت العروبة دائما وعاء الإسلام ، وكان العرب حملة لوائه إلى أقصى الأرض ، وما زالوا يحملون مميزات الإسلام إلى العالم كله ، ويعيدون بناء الحضارة ، والتوحيد في مواجهة حضارة الوثنية التي تصدعت وانهارت قوائمها حين خرجت على قوائم التوحيد والعدل والأخلاق ، والإيمان بالغيب والبعث ، وقد كشفت مخططات الغزو الاستعماري الصهيوني الماركسي عن وثائق كثيرة تلقي الضوء على تلك الدعوات التي تطرح نفسها في العالم الإسلامي ، وبين جوانب الأمة العربية ، وأهمها الدعوة إلى هدم الأديان بقولتهم : إن الأمم بدأت وثنية ، ثم تطورت حتى عرفت التوحيد وهو قول معارض للحقيقة التي أثبتتها كل الدلائل التاريخية والحفريات الأثرية التي تؤكد أن البشر بدأوا موحدين ، ثم انحرفوا ، ثم عادوا إلى التوحيد . وكان الإسلام خاتم الرسالات السماوية .

ثانيا : الدعوة إلى هدم الأخلاق عن طريق مناهج الفرويدية والوجودية ،

والنظريات التي تقول : إن الأخلاق نسبية ، وإنها مرتبطة بالبيئات والعصور ، وإنها تختلف باختلاف الحضارات ، وهو زيف باطل يستهدف تدمير المجتمعات . ولقد كانت الأخلاق مرتبطة بالعقائد لا تنفك عنها ، وظلت وستظل مرتبطة بالإنسان نفسه هذا الكيان الذي لا يتغير .

ثالثا : الدعوة إلى هدم الأسرة عن طريق مناهج دوركايم ، وليفي بريل وغيرهم من أتباع الصهيونية ودعاة التلمود ، وبروتوكولات صهيون ، وذلك بالقول : بأن الأسرة ليست من الفطرة ، وإنما الفطرة هي الانحلال ، وهي محاولة زائفة لمعارضة مقررات الأديان وحقائق الاجتماع .

رابعا : الدعوة إلى التماس مفهوم واحد للتاريخ هو : التفسير المادي عن طريق انجلز وماركس . وهو تفسير مضلل بشهادة العلماء المنصفين . ذلك أن التاريخ هو نتاج الحياة البشرية بكل جوانبها : جوانب الجسد والجغرافيا والروح والاجتماع . وللمادة والاقتصاد جزء منها ، وعامل واحد من عدة عوامل هي التي تشكل التفسير الحقيقي والأصيل .

خامساً : الدعوة إلى إثارة العصبية ، والعرق ، والعنصرية عن طريق دعوات متعددة ونظريات متضاربة تحاول أن تفرض صراع الأجناس وإيجاد الفوارق بين العروق ، وضرب الأمم بعضها ببعض ، وإعلاء جنس بعينه .

سادساً : محاولة إخراج اللغة العربية عن مفهومها الخاص الذي تنفرد به من جميع اللغات كلغة للقرآن الكريم ، وفرض مناهج من علم اللغات للتحكم فيها وهي مناهج لا تنطبق عليها أصلا من حيث أنها ليست لغة قومية خالصة بحسبانها « لغة أمة » هي الأمة العربية . ذلك أنها إلى ذلك لغة فكر وثقافة ، ودين لأكثر من ألف مليون مسلم

سابعاً : إدخال مناهج من التربية تنتزع مفهوم العقيدة منها كنظرية ديوي وغيره . بينما تقوم التربية الإسلامية أساساً على الترابط الأكيد بين العلم والعقيدة ، وتجعل من الإيمان بالله تبارك وتعالى حامياً للعلم وموجها له إلى الخير .

ثامناً : فساد القول بأن هناك حضارة واحدة هي : الحضارة التي قامت في حوض البحر الأبيض المتوسط . والحق أن هناك حضارتين متمايزتين ، لكل منهما طابعه الخاص ، وأنه منذ بزوغ ضوء الإسلام قامت على شواطئه الجنوبية حضارة

جديدة تختلف اختلافا واضحا عن حضارة شمال البحر المتوسط التي قامت في العصر الحديث على أساس جذورها اليونانية الوثنية ، تلك هي حضارة الإسلام ذات الجذور الأصيلة من التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب . وهي الحضارة التي أنشأت المنهج العلمي التجريبي الذي كان مصدر الاختراع والعلم الحديث كله . وإنه منذ قامت حضارة الإسلام فقد تأكدت ركائزها ، وتثبتت جذورها ، وأصبح من الاستحالة اجتثاثها أو القضاء عليها وإن ظلت تواجه الأزمات والتحديات كلها ، وإن تخلف أهلها عن مفاهيمهم الأصيلة ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم** ﴾ المائدة آية ٣ .

تاسعاً : محاولة خلق هوة بين الأجيال ، وإعطاء هذا التحدي طابع الإثارة تحت اسم « صراع الأجيال » والحق أن ما بين الأجيال التقاء لا صراع ، وأن علاقة الشباب بالأجيال المتقدمة عنها هي : علاقة الريادة والتوجيه والتجربة ، وليست علاقة الخصومة أو الكراهية ، أو التسلط . وهي علاقة طبيعية تقضيها حركة المجتمعات ودورات الأمم ، وطبيعة الوجود البشري نفسه ، وقد نشأت في إطار الإسلام في صورة أمينة تقدمية ، غير أن مخططات الغزو الفكري ، تحاول أن تخلق هذا الصراع تحت اسم تحرير الشباب الجديد من سيطرة القيم تحريراً لا يدفعه إلى البناء والتقدم ، وإنما يحمله على الانهيار والتمزق في ظل فراغ نفسي وثقافي وراء مذاهب ونظريات براقة تتهافت أمام التحقيق العلمي ، وأمام الواقع نفسه .

عاشراً : محاولة طرح قضية « النمو السكاني » كأسلوب من أساليب دفع المجتمعات الإسلامية إلى التقلص أمام الهجرة اليهودية المكثفة ، وزيادة القوى الأخرى كمحاولة لضرب النمو الإسلامي العربي القادر على بناء الجيوش وعمارة الأرض الواسعة التي لم تستصلح بعد ، والتي تحتاج إلى ملايين الأيدي العاملة .

ومن الحق أن هذه ليست كل التحديات التي تواجه المسلمين على أبواب القرن الخامس عشر ، وإنما صورة منها نضعها أمام الأنظار في ظل لمحة يقظة جديدة تسود الفكر الإسلامي والمجتمعات الإسلامية كمحاولة للدخول في مرحلة جديدة من تأكيد الذات والتحرر من زيف التبعية الفكرية ، وبناء الأمة من داخل قيمها ومفاهيمها التي كانت دائما مصدر قوتها وانتصارها .

مدخل الى البحث ٥

الباب الاول

الاسلام في عالمنا المعاصر ١٦

١ ـ الاسلام في عالمنا المعاصر ١٧

٢ ـ تحديات القرن الرابع عشر ٢٦

٣ ـ نظرة عامة الى الاحداث ٣٢

٤ ـ شبهات مثــارة ٤٤

الباب الثاني

مفاتيح الاصالة الاسلامية ٥٣

الباب الثالث

المسلمون على ابواب عالم جديد ٨٩

١ ـ المسلمون على ابواب عالم جديد ٩١

٢ ـ التجربة الاسلامية القرآنية ٩٦

٣ ـ مدرسة التبعية للحضارة الغربية ١٠١

٤ ـ المنابع الاسلامية : ما زالت صالحة للعطاء ١٠٦

٥ ـ مراجعة تراكمات الفكر البشري وزيوفه ١١٠

٦ ـ طريق الفلسفة وطريق القرآن ١١٥

٧ ـ مفهوم القوميات الزائف ١٢٠

٨ ـ مؤامـرة التغـريب ١٢٥

٩ ـ بدأ عصر الرشد الفكري ١٣٠

١٠ ـ الاصالة والعودة الى المنابع ١٣٥

الفهرس

الباب الرابع

مـن اليقظة الى النهضة ١٣٩

الباب الخامس

قضايا القرن الخامس عشر وتحدياته ١٨١

١ ـ منهج المعرفة الاسلامي : نهج القرآن ١٨٥

٢ ـ العـودة الـى الاصالة ١٩٠

٣ ـ امانات الكاتـب المسلم ١٩٥

٤ ـ انتصرت الفطرة التي جاء بها الدين الحق ١٩٩

٥ ـ جاء الغزو بعد الغفلة عن المرابطة والاعداد ٢٠٤

٦ ـ عصر الاصالة الاسـلامية ٢٠٨

٧ ـ الدعوة الاسلامية تشق طريقها ٢١٢

٨ ـ التـــراث ٢١٧

٩ ـ الاقتصـاد ٢٢٤

١٠ ـ بناء الاجيـال ٢٣٠

١١ ـ ازمة الحضارة المعاصرة ٢٣٦

١٢ ـ القانون الوضعي والشريعة الاسلامية ٢٤١

١٣ ـ بعد ان عجزت الايديولوجيات ٢٤٦

١٤ ـ ارنولد توينبي وحضارة الاسلام ٢٥٢

١٥ ـ الصهيونية الماركسية ٢٥٧

١٦ ـ تحرير البشرية من الفكر الوثني ٢٦٢
١٧ ـ البشرية ومنهج الله ٢٦٧
١٨ ـ عطاء الاسلام للقانون الدولي ٢٧٢
١٩ ـ انكشف فساد النظريات الوافدة ٢٧٦
٢٠ ـ التحرر من التبعية للفكر الوافد ٢٨١
٢١ ـ محاكمة التراث والفكر الوافد في ضوء القرآن ٢٨٥
٢٢ ـ ثلاثة كتب يجب الحذر منها ٢٩٠
٢٣ ـ الاستشراق : ينفث سمومه ٢٩٥
٢٤ ـ الفطرة وليس البدائية ٢٩٩
٢٥ ـ فساد التفسير القومي والاقليمي ٣٠٣
٢٦ ـ الاكتفاء الذاتي الاسلامي ٣٠٧
٢٧ ـ بين العقيدة الربانية والفكر البشري ٣١١
٢٨ ـ من التبعية الـى الاصالة ٣١٤
٢٩ ـ تحديات الاصالة ٣١٨
٣٠ ـ ليس دينا ولكن نظام اجتماعي كامل ٣٢٣
٣١ ـ تحديات في وجه الفكر والعقيدة ٣٢٧
٣٢ ـ ثبات الاصل وتغير الفروع والوسائل ٣٣١
٣٣ ـ من حقائق التاريخ الاسلامي ٣٣٦
٣٤ ـ حضارة القرن الخامس عشر الهجري ٣٤٠